المنظمة العربية للترجمة

لويس جان كالفي

حرب اللغات والسياسات اللغوية

ترجمة

د. حسن حمزة

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

حـــرب اللـــغـــات
والسياسات اللغوية

لجنة اللسانيات والمعاجم:

بسّام بركة (منسقاً)
حسن حمزة
سعد مصلوح
الطيّب البكّوش
علي أزرياح
سامي عطرجي

المنظمة العربية للترجمة

لويس جان كالفي

حرب اللغات والسياسات اللغوية

ترجمة

د. حسن حمزة

مراجعة

د. سلام بزي ـ حمزة

بدعم من مؤسّسة محمد بن راشد آل مكتوم

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
كالفي، لويس جان
حرب اللغات والسياسات اللغوية/ لويس جان كالفي؛ ترجمة حسن حمزة؛ مراجعة سلام بزي - حمزة.
446 ص. - (لسانيات ومعاجم)
ببليوغرافية: ص 423 - 432.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-9953-0-1249-0
1. اللغات. 2. اللغة. 3. اللغة الاجتماعي - علم. أ. العنوان. ب. حمزة، حسن (مترجم). بزي، سلام حمزة (مراجع). ج. السلسلة.
306.449

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 - 113
الحمراء - بيروت 2090 1103 - لبنان
هاتف: 753031 - 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 - 113
الحمراء - بيروت 2034 2407 - لبنان
تلفون: 750084 - 750085 - 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، آب (أغسطس) 2008

المحتويات

الباب الثاني: ساحة المعركة

تصدير

منذ اليوم الذي صدر فيه هذا الكتاب بالفرنسية، تداول الدارسون كثيراً عبارة «حرب اللغات» ـ وهي عبارة استوحيتها من قراءتي لكتاب **فن الحرب** للفيلسوف الصيني لاو تسو (Lao Tseu) ـ بمعناها الحرفي، مع أن اللغات لا يحارب بعضها بعضاً، خلافاً لما يحدث بين بني البشر. غير أننا نستطيع أن نتتبّع في العلاقات بين اللغات، أثر نزاعات أخرى؛ فقد خلّفت الأمبراطوريات الاستعمارية إرثاً لسانياً شبيها بالإرث الذي خلّفته الحروب والعلاقات الاقتصادية، وبالإرث الذي خلّفته العولمة.

بيد أنني لم أكن أهدف في ما قلت إلى إجراء دراسة في «علم الحرب اللسانية»، وإنما كنت أريد أن أدخل مفهوم السياسة اللغوية، وأن أمثّل له آخذاً في الحسبان الممارسات اللغوية، وتدخُّل أصحاب القرار في آن واحد؛ فنحن من جهة، نشهد في الممارسات الاجتماعية وفي إدارة شؤون التواصل في الجسم الحي، أي في الميدان، ظهور لغات نشر على امتداد خطوط المواصلات (كالطرق والأنهار وخطوط السكة الحديدية) استجابةً لحاجات التعدد اللغوي، ونحن نشهد من جهة أخرى، جهة أصحاب القرار وإدارة التعدد اللغوي في المخابر، أي في البيئة المصطنعة، عملاً يؤثّر في اللغة

الواحدة (بتوليد مفرداتها أو بتنميطها أو بحمايتها من التغيير)، وعملاً يؤثّر في اللغات المتعددة (بالدفاع عن لغة من اللغات، أو بالعمل على انتشارها، أو على تعليم اللغات الأجنبية). ويتبيَّن لنا في الحالين أنه ليس في اللغة شيء جامد، وأنه ليس فيها شيء نهائي؛ فكل ما في اللغة في حِراك، ولكن حركته إما أن تكون كالحركة العشوائية التي وصفها براون (Brown)، وإما أن تكون حركة مبرمجة تؤثر فيها السياسات اللغوية على وجه التحديد.

لست شغوفاً بالاستعارة البيولوجية التي تتحدث عن حياة اللغات وعن موتها. ولكن كل شيء حولنا يبيِّن لنا أن اللغة التي لا تتطور فتتجمّد تصبح أقرب إلى الموت. تشهد على هذه الحيوية السياسات اللغوية التي تسعى إلى تغيير العلاقات بين اللغات والمجتمعات. وأنا أود أن أدعو الجمهور العربي الواسع الذي تتيح لي هذه الترجمة فرصة الحديث إليه، إلى التفكير في هذه المسألة.

لويس جان كالفي

مقدمة المترجم

حين عُرض علينا هذا الكتاب لترجمته كنا نعرف ما الذي ينتظرنا. ونحن لا نقول هذا من باب الشكوى على عادة التراجمة في الإلحاح على ما كابدوه في ترجمة هذا الكتاب أو ذاك؛ فذلك أمرٌ ألِفَه القارئُ العربي ومَلَّه حتى صار ممجوجاً لا ينبغي التشاغُل به. وإنما نقول ما نقول لأننا كنا ندرك صعوبةَ الترجمة عموماً، والترجمة إلى العربية على وجه الخصوص؛ فقد ألِفَ الناسُ في الترجمة إلى العربية أن يقرؤوا عن صعوبات المصطلح ودِقَّته، وعن فوضى المصطلحات في العربية، أو عن غياب مصطلح عربي مقابل لهذا المصطلح الأجنبي أو ذاك. وربما يكون من دواعي الهمِّ أن يبحث المترجم عن مصطلح عربي يجدُه، أو يبتدعه ليجعله في مقابل المصطلح الأعجمي. وإن كان له ما أراد هان الأمر، وانفتح الطريق. غير أننا لم نعتمد هذا المنهج، وهو المنهج الذي يؤدي إلى ما نسميه بالنص المثقَّب، أو بالترجمة ذات الثقوب، وهي الترجمة التي يُنقل فيها النص الأعجمي إلى العربية فيُترك في مكان المصطلح الأعجمي ثقبٌ يظل شاغراً إما لأنه ليس لهذا المصطلح مصطلحٌ عربي مقابل، وإما لأن المترجم يترجَّح بين عدد من المصطلحات، فإذا عُثر على المصطلح المقابل، أو اختيرَ مصطلح مقابل، سُدَّ به الثقب الذي

خلَّفه الغياب. وهكذا، فإن النص العربي لا يجري على سُنن العرب في كلامهم، والقارئ العربي عندئذٍ يحتاج إلى إعادة ترجمة النص إلى اللغة الأجنبية التي نُقل منها ليتسنى له فهمه. وهو أمرٌ قد يتوصل القارئ العربي الذي يعرف اللغة الأجنبية إليه، لأن النص العربي المترجم قد لا يكون عموماً سوى صورة مطابقة للنص الأجنبي. وليس هذا ما اعتمدناه منهجاً في ترجمتنا مع أننا صرفنا وقتاً للمصطلح، وجعلناه هَمًّا لنا؛ لأننا نعتقد أن جهد المترجم إنما ينبغي له أن ينصرف إلى تحصيل المعنى، وإلى فهمه على وجه الدقة أوَّلاً؛ فإن حصل له ذلك سعى إلى إفهام القارئ العربي هذا المعنى. وهذه عندنا الأمانة التي ما بعدها أمانة.

* * *

الكتاب المترجم متعدد الاهتمامات، فهو ينقل قارئه بين بلدان العالم ولغاته المختلفة من فرنسا إلى تركيا والصين والهند ومالي والنروج وتشيلي وغيرها. وإن دَلَّ هذا على شيء فإنما يدل على طول باع صاحبه، ومعرفتِه الواسعة بالأوضاع اللغوية في عدد كبير من بلدان هذا العالم، وهي بلدان أتيح للمؤلف أن يكون حاضرا فيها ومشاركاً في التدريس في جامعاتها. وقد سمحت له هذه المعرفة بتكوين صورة شاملة تستغل التفاصيل الصغيرة في رسم الصورة العامة الشاملة وتفسيرها؛ فمِن أسواق كانتون إلى أحياء برازافيل، ومن جبال الأنديز إلى فرنسا، ومن كندا إلى النروج، ومن الهند والصين إلى غينيا، يجول المؤلف في الزوايا الأربع لهذا العالَم باحثاً عن السياسات اللغوية فيه، مدقِّقاً في حروبها المعلَنة، ومتلمساً حروبها الخفية.

لا بد من أن يجد القارئ متعة في هذه الجولة السياحية الواسعة؛ فهو يطوف مع الكاتب عبر بلدان العالم المختلفة ليطَّلع

على أسواقها وسياساتها اللغوية، وصراعاتها. غير أن لهذه المتعة ثمناً ينبغي على المترجم أن يدفعه لأنها تفرض عليه أن يجاري المؤلِّف في رحلته، وأن يشرح ما يبدو له أنه قد يستعصي على فهم قارئه. وقد أجبرَنا الشرح على الرجوع إلى مصادر ومراجع متنوعة، كما أجبرَنا على استشارة الباحثين والمختصين في لغات وحضارات مختلفة ليتسنى لنا فهم النص وإفهامه للقارئ العربي؛ فلجأنا إلى مختصين باليونانية وتراثها القديم، وبالإسبانية، وبالنروجية، وبلغة البل وبغيرها. وكان علينا أن نختار بين أن نترك النص غُفْلاً كما وجَّهه صاحبُه إلى قرائه، وبين أن نضيف إليه ما يسمح بتقديمه للقارئ العربي، وهو قارئ ليست له خلفيات القارئ الفرنسي الذي يتوجه النص الأصلي إليه. وكنا نتمنى أن نجعل في صلب النص ما يسمح بقراءته وفهمه دون العودة إلى الشروح والحواشي، غير أننا رأينا التزاماً بما طُلب منا أن نقدم للقارئ إضافات في الحواشي تعينه على فهم ما ظل مجمَلاً فيه، أو ما كان فيه إشارةٌ إلى تراث بعيد عن تراث القارئ العربي لا يمكنه من إدراك مغزاه؛ ذلك أن بعض النصوص يظل أقرب إلى الأحاجي إن تُرِك دون توضيح لأن المؤلف يتوجه في هذه النصوص إلى قارئ آخر له ثقافته الخاصة وتاريخه الخاص، فيفترض فيه أن تكفيه اللمحةُ الخفيَّة، والإشارة البعيدة.

* * *

الكتاب في «حرب اللغات». إنها الحرب إذاً. وهي حرب بالمعنى المجازي حيناً، وحرب بالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان. وهي حرب في الشق الداخلي من اللغة، في نظامها الداخلي وبنيتها وتطورها، وحرب في الشق الخارجي منها في علاقتها بغيرها وفي علاقتها بمجتمعها.

بيد أن هذين الشقين: الداخلي والخارجي، لا يشكلان عند

المؤلف عالَمين مختلفَين يستقل واحدهما عن الآخر؛ فهو يرى أن بينهما علاقة لا يمكن نكرانها، وأنه لا غنى للأول منهما عن الثاني؛ ذلك أن التغيُّر اللغوي ليس تغيراً لغوياً بحتاً، وإن نظرنا إليه على هذا الأساس وحده فإننا لا نفهمه. وإنما هو تعبير لغوي عن حركات اجتماعية أكثر عمقاً. إنَّ دراسة البنية الداخلية للغة، كدراسة أصواتها وصرفها ونحوها، لا ينبغي أن تكون منفصلة عن الظروف الخارجية التي أنتجتها. وعلى هذا، فإن دراسة التغير الصوتي الذي يصيب أحد أصوات اللاتينية على سبيل المثال، لا ينبغي أن يكتفي بوصف تحوُّل هذا الصوت إلى صوت ينطق كذا في الفرنسية، وكذا في الإيطالية، وكذا في الإسبانية؛ ذلك أن الاكتفاء بهذا الوصف يبقينا على سطح الأحداث، لأننا نرى الظاهرة ولا نرى جذورها التاريخية العميقة. ومثَلُ الاكتفاء بهذا الوصف للغة كمثل الاكتفاء بالسؤال الآتي عن مركب يتهادى في عرض البحر: كيف يطفو المركب على سطح الماء؟ جميل أن نجيب عن هذا السؤال، وأن نعرف القوانين التي سمحت له بأن يطفو؛ غير أن هذا السؤال لا ينفصل عن سؤال آخر أكثر أهمية: لمَ احتاج الإنسان في فترة ما من تاريخه إلى اختراع المركب؟ وما الذي أضافه اختراع المركب؟ وما الذي أضافته في العلاقات الاجتماعية رحلاتُ الإنسان على سطح الماء؟ وما أثر هذا الاختراع في التجارة والحرب وغيرهما؟ إن تاريخ المركب هكذا لا ينفصل عن تاريخ استخدامه؛ فبين هذا وذاك علاقة جدلية لا يمكن الفكاك منها.

والأمر على هذه الشاكلة في اللغة؛ فوصف بنيتها الداخلية وصفٌ للشِّفْرة وحدها، ووصفٌ للبنية وحدها شبيهٌ بوصف المركب وحده. وكما أن المركب مرتبط بتاريخ الإنسان فإن اللغة جزء من هذا العالم، وعلى اللسانيات أن تقوم بوصف هذا العالم؛ ذلك أن تاريخ

اللغات ليس إلا جزءاً من تاريخ المجتمع، أو هو الجانب اللغوي من هذا التاريخ.

❊ ❊ ❊

المجتمع هَمُّ المؤلِّف، وقِبلتُه. ويبدو واضحاً في المثال الذي ذكرناه أن الجانب الاجتماعي يشكِّلُ الوجهَ الأساسي فيه؛ فليست اللغة فيه مقصودةً لذاتها، وإنما هي باب من الأبواب للولوج إلى العلاقات الاجتماعية، وتعلةٌ لها. ولا غرابة في هذا؛ فالكتاب الذي نترجمه كتاب في اللسانيات الاجتماعية وهي فرع من فروع اللسانيات. غير أن المؤلف يلاحظ بشيء من الحسرة والغيظ أن هذه اللسانيات الحديثة لا تعامل هذا الفرع من فروعها معاملةَ غيره، ولا تعطيه ما يستحق، بل تجعله ملحقاً في هامشها، ولا ترى فيه أصلاً من أصولها؛ فهي تميز بين ما هو نواةٌ صلبة لعلم اللسانيات من دراسة لأصوات اللغة وصرفها ونحوها على سبيل المثال، وما هو في الأطراف ملحقٌ وتابع لِهذه النواة؛ فالأول أصل العلم ومادته وجوهره. إنه اللسانيات العلمية الحقيقية الصلبة. والثاني تابع ليس له ثبات الأول، ولا طابعه العلمي الأكيد. إنه «اللسانيات الرخوة» التي تُذكِّر بتصنيف العلوم إلى علوم صحيحة هي الرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها التي يشار إليها بأنها علوم بحتة صلبة، وعلوم غير صحيحة كعلوم الاجتماع والإنسان وغيرها التي يشار إليها بأنها علوم تقريبية رخوة. ويسعى المؤلِّف إلى الدفاع عن مجاله، مجال اللسانيات الاجتماعية، ليرفع عنه هذه التهمة التي يراها زائفة باطلة. وهو حين يفعل ذلك لا يجعل منه مجالاً مساوياً لغيره من مجالات اللسانيات الصلبة، بل يجعله أصل اللسانيات؛ فاللسانيات الاجتماعية عنده هي اللسانيات بامتياز. وهو يسجل بهذا الموقف اعتراضاً جوهرياً على التيار الشائع في اللسانيات من أيام مؤسسها الأول

فرديناند دو سوسير الذي أقام مقابلة بين اللغة من جهة، بما هي نظامٌ عام قار ثابت، وبين الكلام أو القول بما هو استغلالٌ فردي لهذا النظام وتحقيقٌ لقواعده، أي بين قواعد اللغة ونصوصها. وينحاز دو سوسير، كما ينحاز كثير من اللسانيين بعده، إلى الجانب الأول منها، أي إلى القواعد الناظمة لها، وإلى وصف العلاقات الشكلية القائمة بين عناصرها، ولا يعيرون كبيرَ اهتمام للمنجَز منها، وهو منجَز يتحقق في خطابات المتكلمين وأقوالهم. يبدو كلّ من اللغة والكلام في هذه النظرة وكأنهما واقفان خصمين لا يتلاقيان. ولا تكون اللسانيات عند هؤلاء إلا في جانب اللغة. أما الكلام وتحقُّقُ اللغة في الخطاب فليس همّاً كبيراً من هموم اللساني، حتى لكأن بين اللغة وأقوال المتكلمين بها قطيعةً تجعل كل واحد منهما في وادٍ مستقلاً عن الآخر. ويبدو أن المؤلف كان ميالاً في فترة من الفترات إلى اعتماد هذه القطيعة، ولكنه كان في الخندق المقابل، خندق الخصوم الذين يجعلون لسانيات القول بديلاً من لسانيات اللغة. غير أنه يعود في كتابه هذا عن ذلك الموقف ليسعى إلى المصالحة بين الجانبين؛ فلا يسعى إلى إلغاء لسانيات اللغة بل إلى الحد من هيمنتها واستئثارها وزعْمها بأنها هي اللسانيات دون غيرها، ليجعل منها شريكاً للسانيات القول لا خصماً لها؛ فهذه وتلك وجهان للسانيات، ولا تكون اللسانيات إلا اجتماعية، فاللسانيات الاجتماعية عنده هي كل اللسانيات؛ لأنها تشمل، في الوقت نفسه، لسانيات اللغة، ولسانيات القول أو لسانيات الخطاب.

* * *

ليست اللغة في هذا الكتاب إذاً مقصودةً لذاتها، وإنما هي مظهر من مظاهر الاجتماع يلح المؤلف عليه في كل فصل من فصول كتابه؛ فليس الشق اللغوي من الدراسة إلا مقدمة لاستخلاص العبر

منه على المستوى الاجتماعي؛ ولذلك ينتهي كل فصل من فصول الكتاب بخلاصة تتناول الأثر الاجتماعي للظاهرة اللغوية، ولا سيما الشق المتعلق بالسياسة، أكان ذلك في موضوع الخط وإصلاحه، أم في اختيار هذه اللغة الوطنية دون تلك، أم في غيرهما من المسائل التي يزخر بها الكتاب؛ فخلف العلاقات اللغوية علاقاتٌ اجتماعية تشهد عليها الظاهرات اللغوية التي يقدم الكتاب وصفاً لها.

الكتاب دراسةٌ اجتماعيةٌ ليست اللغة إلا واحدة من أدواتها. يبدأ المجتمع في الفصل الأول من الكتاب، ولا ينتهي إلا بنهايته. يناقش المؤلف في الفصل الأول من فصول كتابه أصل اللغة. والنظرُ في أصل اللغة موضوع كانت اللسانيات قد صرفت النظر عنه، ونهَت عن الخوض فيه؛ لأنها رأت فيه إضاعة للوقت من غير طائل. غير أن المؤلف يعود إليه ليبني عليه فكرة التعدد اللغوي التي يعيدها إلى الاجتماع؛ فهو يربط نشوء اللغة بعنصرين ضروريين: عنصرٍ عضوي يتمثل في تطور الجمجمة، أي بتطور الدماغ الذي يسمح بظهور اللغة والقدرة على التواصل، وحرية الإنسان المنتصب القامة في استعمال يده، وعنصرٍ اجتماعي يتمثل في قدرة الإنسان على التنظيم الاجتماعي الذي يفرض التواصل: «لقد بدأ الإنسان بالكلام حين شعر بالحاجة الاجتماعية إلى التواصل».

❊ ❊ ❊

يعتمد المؤلف في رصد الظواهر اللغوية والآثار السياسية والاجتماعية المترتبة عليها على عنصرين اثنين:

العنصر الأول دراسة ميدانية يقوم بها مع تلامذته، ولا سيما في الأسواق التي يعتبرها من أكثر الأماكن ملاءمة لدراسة التبادل اللغوي. وهي دراسة قائمة على الملاحظة المباشرة، وعلى الجمع والاستقصاء

وتوزيع الاستبيانات، وتظهر نتائجها في جداول وإحصاءات يحاول المؤلف توظيفها في خدمة الهدف الأساسي الذي يسعى إليه. إنها دراسة في الجسم الحي كما يقول، أي في البيئة الطبيعية بين أهل اللغة المتحدثين بها.

أما العنصر الثاني فدراسة يقوم بها الباحث خارج الميدان في مراكز صنع القرار، أي في قيادات الأركان التي تقوم بالتخطيط ورسم السياسات اللغوية. إنها دراسة في بيئة مصطنعة، كما يقول، أو دراسة في مخبر الباحث يحاول فيها أن يرى الوجه الآخر للظاهرة اللغوية لتكتمل الصورة لديه.

تُثبت الدراسةُ في الجسم الحي، كما تُثبت الدراسة في البيئة المصطنعة، أن اللغةَ ساحة صراع. إنها ساحةُ صراع حتى عند الفرد الواحد في اللغة الواحدة بين لغةٍ منتشرة، هي لغة نَشْر بين أبناء الجماعة الواسعة التي ينتمي الفرد إليها، ولغةٍ منحصرة هي «لغة القطيع»، أي لغة مجموعة صغيرة محدودة يقيم الفرد علاقات حميمة معها في داخل جماعته اللغوية. وهي ساحة صراع بين لغة الأم ولغة الأب في الأسر المختلطة، وما أكثرها. وهي أيضاً ساحة صراع بين المستعمِر والمستعمَر.

اللغة ساحة صراع لأنها انتماء اجتماعي. كان اللباس قديماً وسيلة تمييز بين هذه الطبقة وتلك، يُعرفُ هذا بثوبه، وتُعرف تلك بقبعتها، فتراجع هذا التمييز في أيامنا وظلت اللغة، كما كانت، وسيلة تمييز وأداة صراع. وفي التاريخ القديم، في التوراة، كما في التاريخ الحديث والمعاصر، أمثلةٌ كثيرة يسوقها المؤلف دليلاً على دور اللغة سِكِّيناً للذبح: يُطلب منك أن تتلفظ بكلمة فتنجو أو تُذبح اعتماداً على طريقة نطقك. ومنذ أيام الإغريق، وربما قبل أيام

الإغريق، كان الشعور بالتفوق اللغوي والاستهانة بلغة الآخر أمراً شائعاً. كانت كل لغة سوى اليونانية عند الإغريق لغةً للبرابرة، ونقيقاً أشبهَ بنقيق الضفادع. ومع التخطيط اللغوي والسياسات اللغوية في تنمية اللغة وفي إصلاح اللفظ وفي إصلاح الخط تأجَّج الصراع، وحَمِيَ وطيسُ الحرب.

❊ ❊ ❊

إن كان ثمة حربٌ بين اللغات فلأن العالم متعدد، ولأن التعدد اللغوي هو الأصل. ولو كان يمكن للعالم أن يكون أحادي اللغة لما حدث فيه صراع؛ ومن هنا وهْمُ الحلِّ المسالم في ابتداع لغة اصطناعية عالمية كلغة الإسبيرنتو، أو كاللغات المصطنعة الأخرى. إنه وهْمٌ لأنه يخالف حقيقة جوهرية في اللغة: حقيقة التعدد.

في التوراة أن الأرض كلَّها كانت لساناً واحداً. وفي هذا تصريح بأن وحدانية اللغة هي الأصل، وما تعدد اللغات إلا نتيجةٌ لتفرعها عن الأصل الواحد. وهذا قولٌ يذهب إليه كثير من الناس الذين يرون في الأسر اللغوية تأكيداً لمقولتهم؛ فعن اللغة الساميَّة الأم تتفرع لغات كثيرة كالعربية والعبرية والسريانية وغيرها، وعن الهندية ـ الأوروبية الأم تتفرع هذه اللغة أو تلك. ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن اللغات في تفرُّعها عن الأصل الواحد تميل إلى التنويع والتعقيد والاختلاف. غير أن المؤلف يعتقد أن العكس هو الصحيح، وأن اللغات تميل إلى الانتظام والبساطة بعد الفوضى والتعقيد. وهو يعتقد بأن القول بوحدانية الأصل والتعدد اللغوي بعد ذلك إنما هو متابعة للأساطير الدينية التي تجعل التعدد اللغوي نقمة وعقاباً؛ فقد جاء في التوراة أن الأرض كلها كانت لساناً واحداً ولغة واحدة، وأن أهلها كانوا يبنون لأنفسهم مدينة وبُرجاً رأسُه بالسماء، فغضب الرب

عليهم فبلبل ألسنتهم وبددهم من هناك على وجه كل الأرض[1].

ينطلق المؤلف من هذا النص التوراتي ليعالج أسطورة الأصل اللغوي الواحد، ولعنةَ التعدد اللغوي في الأديان. وهو يسعى في سبيل هذا الأمر إلى إقامة شبهٍ بين النص القرآني ونص التوراة الذي أشرنا إليه، فيرى أن سورة البقرة تحذو حذو التوراة في أصل اللغة لأنها تقول إن الله «خلق العالَم وسمّاه»، ويرى أنَّ «القرآن غالباً ما يُفسَّرُ في الاتجاه نفسه، فليس في الأصل إلا لغةٌ واحدةٌ هي العربية، لغة الله[*]، ولغة آدم، ولغة الجنة. في الحالين إذاً مصيبة أولية واحدة تصيب في الإنجيل الجنسَ البشريَّ كلَّه، فتحرمُه من نعمة اللغة الأصلية الواحدة، ولكنها لا تصيب في القرآن إلا جزءاً منه ممن لا يتكلمون العربية».

هكذا إذاً يجمع المؤلف بين النصين الدينين، ويدفع بهما في اتجاه واحد: الأساطير الدينية المؤسِّسة لوحدانية اللغة في الأصل، وللعقاب الإلهي الذي يُفرز التعدُّد. غير أنه يبدو أن المؤلف في هذا الجمع لا يعرف التراث العربي الإسلامي معرفة حقيقية؛ لأنه لا يستطيع نهل المعرفة من مصادرها؛ فهو لا يلتقط من هذا التراث إلا ما يمكن له أن يعزز وجهة النظر التي تبحث عن نقطة لقاء بين القرآن والتوراة في مسألة وحدانية اللغة. ولهذا فهو لا يأخذ منه إلا ما نقله عن **عبد الله بونفور** من قول **الجزائري** في كتاب **النور المبين في قصص الأنبياء** إن الله غضب فحوَّل المتكلمين بالعربية إلى السريانية. ويبدو غَضَبُ الله على المتكلمين بالعربية في هذا الاقتباس، وتحويلُ ألسنتهم من العربية إلى السريانية شبيها بغضب الرب في التوراة على أهل بابل وبلبلته ألسنتهم. تقدم هذه المشابهة صورة شوهاء لا تمثل

---

(1) **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الإصحاح 11، الآيات 1-9.

(*) لا يتحدث المسلمون حين يتناولون هذه المسألة عن «لغة الله» ولكن عن «كلام الله».

النص القرآني، ولا الوجهة الأساسية لتفاسير هذا النص في التراث العربي الاسلامي؛ فليس اختلاف الناس نقمة فيه، وإنما ﴿جعلْناكم شعوباً وقبائل لتَعارَفوا﴾[2]، ولكل قوم لسان فـ ﴿ما أرسلْنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[3]، وليس اختلافُ الألسنة في القرآن نقمةً ولا عقاباً، وإنما هو كاختلاف الألوان وخلقِ السماوات والأرض آيةٌ من آياته ﴿ومن آياته خلْقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم﴾[4]. بل إن من علماء المسلمين القائلين بالتوقيف مَن يرى أنه «يمكن أن يكون الله تعالى وقَّف آدم عليه السلام على جميع اللغات التي ينطق بها الناس كلهم الآن»[5]، ويرى أن اللغات لا تتفاضل، وأن ما يقوله جالينوس واليونانيون من أن سائر اللغات «تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع» إنما هو «جهل شديد لأنَّ كلَّ سامع لغةً ليست لغتَه ولا يفهمها، فهي عنده في النصاب الذي ذكره جالَينوس، ولا فرق»[6].

❊ ❊ ❊

كل ظاهرة من الظاهرات اللغوية المدروسة في التخطيط اللغوي وفي السياسة اللغوية وجهٌ من وجوه الحرب، ومحاولة من السلطة القائمة لقهر الجماعات اللغوية المناوئة لها. بهذا المعنى لا تكون السياسة اللغوية إلا وجهاً من وجوه القهر والصراع على السلطة سواءٌ أكان هذا الوجه ظاهراً أم خفِيّاً أم بينَ بينَ. هو وجه ظاهر في

(2) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية 14.

(3) **القرآن الكريم**، «سورة إبراهيم،» الآية 4.

(4) **القرآن الكريم**، «سورة الروم،» الآية 22.

(5) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام** (بيروت: دار الفكر، 1997)، ج 1، ص 30.

(6) المصدر نفسه، 31.

سياسة المركز اللغوي الصيفي الأمريكي الذي لا يتردد المؤلف في القول عنه بصريح العبارة إنه أداة في يد الإمبريالية، إذ يجعل عنوان الفصل الرابع عشر: «السياسة اللغوية والإمبريالية: المعهد اللغوي الصيفي»، ونرى فيه موقف الكاتب المناوئ صراحة للسياسة الأمريكية. وهو وجه ظاهر في سياسة كمال أتاتورك التي ألغت الأبجدية العربية وأحَلَّت محلها أبجدية لاتينية، والتي ألغت كثيراً من مفردات العربية والفارسية لتُحِلَّ محلها ألفاظاً من أصول تركية أو من لغات قوقازية. وهو وجهٌ خفيٌّ في اختيار مصطلحات جديدة لتسمية «السياسة» و«الرئيس» في لغة البامبارا يدل معناها اللغوي العام على تمجيد الرئيس. وهو وجهٌ بينَ بينَ، بل هو أقرب إلى أن يكون ظاهراً في الإصلاح اللغوي في الصين والهند والاتحاد السوفياتي وفي غيرها من بلدان العالم. في كل هذه النماذج سعيٌ إلى فرض لغة السلطة الواحدة؛ فرغم القبول أحياناً بالتعدد أو باللغات المحلية، فإن التوجه الغالب هو سعي السلطة القائمة إلى فرض اللغة الواحدة، وفرضِ لغة السلطة دون غيرها.

* * *

لئن كانت اللغات في حروب دائمة، ولئن كانت الحرب اللغوية مظهراً من مظاهر الحرب السياسية الاجتماعية فثمة سؤال لا بد منه: أين موقع اللغة الفرنسية في هذه الحروب التي تخوضها اللغات؟ وما موقف المؤلف الفرنسي منها؟

لئن كان المؤلف ينتقد «الشوفينية الفرنسية» وعدم جدوى معالجاتها اللغوية، فإن القارئ الفطِن لا يعدم أن يلاحظ نوعاً من التعاطف الخفي معها، وإن بدا عموماً أن الوصف العلمي سمة الدراسة، وأن المؤلف يحاول استخلاص العبر بصورة موضوعية؛ فهو في تغليبه الجانب الاجتماعي في النظر إلى الظاهرة اللغوية يرى

أن الدفاع عن الفرنسية في فرنسا اليوم في وجه الإنجليزية معركة خاسرة، تماماً كما كان الدفاع عنها بالأمس في مقاطعة كِبِك معركة خاسرة. كانت الفرنسية لغة عالَمية، وكانت لغةَ البلاطات الأوروبية تماماًفي القرون الماضية، وكانت كفتها في الميزان راجحة على كفة الإنجليزية. أما اليوم، فإن الفرنسيين لا يكفون عن الشكوى.

حين يشكو الفرنسيون من ضعف الفرنسية في أيامنا، فليس ذلك لأن دورها قد انحسر، فعدد المتكلمين بها في ازدياد، ومجالات استخدامها غنية متنوعة. ولكنهم يشْكون لأنهم لا يفتؤون يقارنونها بالإنجليزية. الفرنسية مريضة عندهم، ومرضُها له اسمٌ واحد: إنه الإنجليزية التي تعاظَم دورها في القرن الماضي وفي هذا القرن، فبدا أن الفرنسية قد انحسرت. وما تعاظُمُ دورِ الإنجليزية إلا لأسباب سياسية اجتماعية؛ فالإنجليزية لغة الاقتصاد، وما دامت كذلك فلن تستطيع الفرنسية اللحاق بها. أما محاولةُ جعْلِ الفرنسية لغَةَ الكثلكة لمقاومة الإنجليزية، فلن يغير في الموازين شيئاً، وسيكون الانتصار محسوماً لمصلحة الإنجليزية.

* * *

اللغة ساحة من ساحات الحرب وأداة من أدواتها. إنها حرب بالمعنى المجازي حيناً، وبالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان. تلك فاتحة الكتاب، وتلك خاتمته. ولا بد من أن تتغير اللغة في هذه الحرب، فتغيُّرها حتميٌ كتغيُّر العالم. إنْ سلَّمنا بهذا، فينبغي التسليم بأن السياسة اللغوية هي مظهر من مظاهر هذه الحرب، وبأن كل سياسة لغوية هي لمصلحة السلطة لتعزيز مركزها؛ وبأنّ كل تخطيط لغوي يفترض وجود سياسة لغوية، أي سياسة سلطة.

ماذا عن اللساني العامل في التخطيط اللغوي إذاً؟ وأين موقعه في هذه الحرب؟

إنّ اللساني الذي يعمل في اللغة وتخطيطها يعمل في خدمة السلطة من دون أن يدري؛ فالصراعاتُ اللغوية وجهٌ من وجوه الصراعات السياسية. والإمبرياليةُ اللغوية إنما هي دائماً علامةٌ من علاماتِ إمبرياليةٍ أخرى اقتصادية أو ثقافية أو غير ذلك. وخلف كلِّ حربٍ لغوية حربٌ من نوع آخر: اقتصادية أو ثقافية أو غير ذلك. وبالنتيجة، فلكل قائم بالتخطيط، شاء أم أبى، دورٌ في هذه الإمبريالية وهذا الصراع. واللغوي يكون عادةً في جانب السلطة، حتى حين يعتبر نفسه مجرد تقني ومستشار. مَثَلُ اللغوي كمثَل الموظف، إنْ لم يتنبَّهْ وَجَد نفسه خادماً للسلطان. وعليه أن يعرف أن أي تخطيط يفرض فيه حفنةٌ من المخططين رأيَهم على مجموع المخطَّط لهم.

أيعتزلُ اللساني العمل إذاً، مؤْثراً السلامةَ والنجاة بجِلْده؟

لا! يقول المؤلف. في هذا الوضع لا ينبغي أن يتخلى اللساني عن مهمته ويتركَ الأمر للسلطان، بل عليه أن يعرف أن السياسة اللغوية هي الشكل المدني لحرب اللغات؛ فليست الحرب إلا استمراراً للسياسة بأشكال أخرى؛ وليس على اللساني إلا التخلي عن وهْم المسالمة، والسعي في أثناء قيامه بمهمته إلى أن يتصرف تصرفَ المواطن الصالح، وإلى أن يفرض على هذه السياسة مراقبةً ديمقراطية في كل لحظة.

لكن كيف يكون تصرُّفُ هذا المواطن؟ وكيف تكون المراقبة الديمقراطية للسياسة؟

يبقى السؤال معلَّقاً في الهواء، ينتظر الجواب.

بيروت. الإثنين، 10 رجب/ 1429 للهجرة، الموافق 14/ 7/ 2008.

حسن حمزة

المدخل

ثمة تمييزٌ شائع في خطاب اللسانيين بين لغة حية ولغة ميتة، يجعل هذه في مقابل تلك. وهو تمييزٌ قائمٌ أيضاً في المعنى اللغوي العام لهاتين العبارتين، إذ يَبعثُ لفْظا الحي والميت حين تُنعت بهما اللغةُ على الاعتقاد بأن للّسانِ حياةً، وهي استعارةٌ تظهر في عناوين بعض الكتب منذ أنْ نشر ويتني (Whitney) في عام 1867 كتاباً عنوانه **حياة اللسان وموته** (*The Life and Growth of Language*).

توحي عناوين هذه الكتب بأن اللغات تولد وتحيا وتموت، شأنُها في ذلك شأنُ الكائناتِ الحية، والأجسامِ البيولوجية. غير أنَّ هذه الكتب لم تكنْ تبحثُ غالباً مصيرَ حياة اللغَة إلا في داخل اللغة نفسها. وربما كان ذلك لأن هذه الكتب كانت تصدر عن منطلقات من داخل اللغة، أي من البنيوية.

بيد أنه يمكن لنا أن نسجِّل دون أن نمضي بعيداً في تبنّي هذه الاستعارة البيولوجية، أنَّ اللغات في جميع العصور، تتحول من حال إلى حال؛ وهكذا يمكن الحديث عن الفرنسية القديمة، والألمانية القديمة، والعربية الفصحى القديمة. ويمكن الحديثُ عن امتصاص بعض اللغات للبعض الآخر (والفرنسيون يتكلمون اليوم اللغة

اللاتينية، ولكنها لاتينية عمرها عشرون قرناً تتميز بأصول ألمانية قديمة وبكلام أجدادنا من أبناء شعب «الغول» (Gaulois)). ويمكن الحديث عن ذَوَبان بعض اللغات (وقد ذابت الفرنسيةُ والساكسونيةُ لتولد منهما اللغة الإنجليزية). ويمكن الحديث أخيراً عن لغات اندثرت، أو عن لغات في طريقها إلى الاندثار.

هذه التحوّلات التي يعرفها إلى حدٍّ ما مَن له ثقافة دنيا ليست ظاهراتٍ لغويةً في حقيقة الأمر، بل إنَّ اعتبارها ظواهر لغوية لا يمكّن من فهمها؛ فهذه التحولات إنما هي تعبيرٌ لغوي عن حركات اجتماعية أكثرَ عمقاً. ويمكن أن يُمثَّل لهذا الأمر بانتشار اللاتينية في أوروبا، أو بانتشار العربية في المغرب العربي؛ إذ يمكن النظر إلى هذا الانتشار من زاوية لسانية داخلية محضة.

غير أن النظر إليه من هذه الزاوية وحدها يؤدي إلى خسارة مهمة في المعلومات. إن قوانين علم الأصوات، على سبيل المثال، تبيِّن لنا أنَّ صوت /o/المنفتح المنبور في اللاتينية يتحول دائماً إلى صائت انتقالي مزدوج مركب، فيكون /uo/في الإيطالية، و/ue/ في الإسبانية، و/eu/ في الفرنسية؛ فكلمة /foco/ في اللاتينية مثلاً، تصبح /fuoco/ في الإيطالية، و/fuego/ في الإسبانية، و/feu/ في الفرنسية (استخدمْنا الأبجدية الكلاسيكية في نقل هذه الأمثلة توخياً للتبسيط). حين يتكرر هذا المثال آلاف المرات، يمكن أن يعطينا فكرة ما عن التحولات الصوتية في هذه اللغات، غير أنه يتركنا على سطح الأحداث، لأننا لا نرى إلا الشكل الخارجي للتغيير، ولا نرى جذوره الاجتماعية العميقة. ولا ريب في أن الأمور تصبح أكثر وضوحاً حين يتعلق الأمر بتغير دلالي أو بتغير معجمي؛ فحين درس أنطوان ماييه (Antoine Meillet)، وهو بلا ريب من أكثر اللسانيين الفرنسيين وعياً بالعلاقة بين اللغة والمجتمع، كيف تحوَّل لفظ

(Captivus) اللاتيني من معنى «الأسير» إلى معنى «البائس» و«السيئ»، ألحّ على أهمية انتظام الكلمة في بابها للحفاظ على معناها، وعلى أنَّ الكلمة حين تخرج من بابها (وإن شئتَ قلت: حين تنصرف عن الكلمات التي تنتمي معها إلى جذر واحد) فإنها تتمتع بقدر أكبر من الحرية، ما يعزّز سهولة تطوّرها.

يقول ماييه: «إن كلمة (Captivus) اللاتينية التي تعني «الأسير» كانت وثيقة الصلة بلفظ (Capere) الذي يعني «أَخَذَ، قبَض على»، وبلفظ (Captus) الذي يعني «الذي يؤخَذ، الذي يُقبض عليه». لم يكن ممكناً إذاً أن يغيب معنى «الأسير» عن لفظ (Captivus)، بحُكم انتمائه إلى باب الألفاظ التي تعبِّرُ عن «الأخْذ»، و«القبض على». غير أن لفظ (Capere) الذي كان يعني «أخذ، قبض على» اندثر جزئياً، وبقي جزئياً محتفظاً بدلالات خاصة، فصار يعبِّرُ عن فكرة «الأخذ» في اللغات المتحدِّرة عن اللاتينية بألفاظٍ لا تشتق منه، بل من لفظ (Prehendere)، فصار لفظ (Captivus) حينئذ تحت رحمة الضغوط الخارجية، فأخذ معنى «البائس والسيئ»، فهو في الإيطالية (Cattivo) وفي الفرنسية (Chétif)[1].

لئن كان صحيحاً أنَّ معنى «الأسير» (Captivus) راسخ الدلالة في باب (Capere) الذي يعني في اللاتينية «الأخذ»، فإن التحليل اللغوي الداخلي الذي يشرح انتقال العلاقة الدلالية بين هذين اللفظين لا يقول لنا لماذا تطوَّرَ لفظُ (Captivus) حين تحررَ من روابطه بـِ (Capere) إلى هذا المعنى الخاص، أي إلى معنى «البائس» و«السيِّئ»، لا إلى معنى آخَر. يُظهر لنا التحليل الداخلي ما الذي

(1) انظر: Antoine Meillet, «Comment les mots changent de sens,» *L'Année sociologique* (1905-1906).

سمَح بهذا التغيير، ولكنه لا يشرح لنا لماذا جرى التغيير في هذه الوجهة دون غيرها. حقيقة الأمر أنَّ التغيير جرى في هذه الوجهة، لأن الأسير الذي كان يعبِّر عنه لفظ (Captivus) يمكن النظر إليه من زاويتين مختلفتين: فالأسير قد يكون الأسيرَ الذي سقط بين أيدينا وأخذناه من أعدائنا، وهذا الأسير مكروهٌ خبيث سيِّئ، وقد يكون الأسيرَ الذي سقط منا في أيدي العدو فأخذوه منا، وهذا الأسير مسكين بائس. من هنا هذان المعنيان للفظ (Captivus) الذي كان يعني «الأسير» فتحوَّل للدلالة على معنيين: «السيِّئ» و«البائس»، اللذين يَشهدُ كلّ واحد منهما على استعمال معيَّن للفظ؛ فمعنى هذا اللفظ، أيْ دلالتُه الذاتية، معنى واحد، وهو «الأسير»، ولكن المعنيين المصاحبَين له، أو الدلالتين الإيحائيتين، معنيان مختلفان باختلاف العلاقة التي تربطهما بهذا المعنى. وقد حدث التطور الدلالي لهذا اللفظ بأن أضيفت إلى دلالته الذاتية الأصلية دلالةٌ إيحائية مصاحِبة، أي أُضيف إلى معناه الأصلي المعنى المصاحب، أو ظلالُ المعنى وإيحاءاتُه. إن هذا التعليل، وهو تعليل مكمِّل للتعليل الصوتي الذي سبق ذكرُه، يأخذ العادات الاجتماعية في الحسبان، كما يأخذ عناصرَ لسانيةً خارجية، فيسمح بالنتيجة بتفسير تغيُّر الألفاظ في حركة جدلية بين تحليل اللغة وتحليل المجتمع.

تسمح لنا المقارنة بأن نشرح طبيعة العلاقات بين وجهة النظر الداخلية ووجهة النظر الخارجية بشكل أفضل؛ إذ يمكن لنا أن نجيب عن السؤال الآتي: (كيف يطفو المركب على سطح الماء؟ ولِمَ يطفو؟) اعتماداً على مبدأ أرخميدس، ومبدأ السوائل المتحركة، ومبدأ السوائل غير المتحركة، أو اعتماداً على قوة الريح، أو على محرك انفجاري... إلخ. غير أن هذا التفسير لا يقدم سوى جزء من الجواب، لأن هذا السؤال لا ينفصل عن سؤال آخَر:

لِمَ احتاج الإنسانُ في لحظة من تاريخه لاختراع المركب؟ وما الذي أفاده المجتمع من النقل البحري؟ وما أثرُ ذلك في الاكتشافات، وفي التجارة، وفي الحروب؟

تكشف لنا هذه المقارنة أن تاريخ المركب لا ينفصل عن تاريخ استعماله، وأن هناك علاقة جدلية بين هاتين المسألتين.

ويمكن أن يقال الشيء نفسُه في شأن اللغة، لأننا حين نصف اللغة وصفاً داخلياً، فإنما نصف شِفرةً، أي نظاماً من الرموز، وبنيةً شبيهة ببنية المركب في مرساه أو في أثناء صيانته، فكما يرتبط المركب بتاريخ البشر ترتبط اللغة بالعالَم، وعلى عِلم اللسانيات أن يأخذ هذه العلاقة في الحسبان.

لئن كان للُّغة مِن تاريخ، فإنه ينبغي لهذا التاريخ أن يكون فصلاً من فصول تاريخ المجتمعات، أو أن يكون، بصورة أدق، الوجهَ اللساني من تاريخ المجتمعات. وإنِ اعتبرْنا أنَّ العنفَ أكبرُ مولِّد للتاريخ ـ وهذه فكرة ليست بالجديدة المبتكَرة ـ ، فإن هذا العنف يطال تاريخ اللغات. وبهذا المعنى ينبغي أن يُفهَم عنوان هذا الكتاب **حرب اللغات** (*La Guerre des langues*). وسوف نرى، عبر أمثلة من اليونان وتركيا والهند والنروج أن (الحروب) في هذا العنوان حروب حقيقية، وليست من الاستعارة في شيء.

سوف أبتدئ إذاً بالاهتمام بأصول النزاع (في القسم الأول من كتابي)، مع أن اللسانيات الحديثة قامت على مبدأ رفض الأصول، فقد رفضت أن تأخذ في اعتبارها المسائل التي يطرحها أصل اللغة، مع أن بدء الاتصال بين البشر الذي لا نعرف عنه شيئاً كثيراً ذو أهمية لا تخفى، وهو ينتمي انتماءً مشروعاً إلى ميدان اللسانيات. ومع أنّني أزعم أنّني لا أقدِّم إجابات حاسمة ـ إذ إنَّ الإجابة الحاسمة تحتاج

إلى الكثير ـ ، فإنني أحاول أن أقدِّم في مُفتتَح هذا الكتاب، أي في القسم الأول منه، عدداً من الفرضيات، لأنها يمكن أن تساعدنا على فهم ولادة موضوعنا، فوجود حرب اللغات إنما هو نتيجةٌ لوجود التعدد اللغوي؛ ذلك أن عالَماً ليس فيه إلا لغةٌ واحدة، لا يكون فيه هذا النوع من النزاع. أما الاعتقاد بمسالَمة اللغات، فوهْمٌ دفَعَ عدداً من الناس إلى ابتداع لغات مصطنعة، كلغة الإسبرنتو، وهو وهْمٌ سوف نعود إلى معالجته.

لا ريب في أنَّ تعدُّد اللغات الذي تجعله الميثولوجيا المسيحية عِقاباً للبشر منذ بابل، يعود إلى حقبةٍ ما قبل التاريخ، وهي حقبةٌ مظلمة ليس عليها شهادة، ولكننا نحاول مع ذلك أنْ نبحث في تاريخنا عن بعض عناصرها.

سوف ننتقل بعد ذلك، أي في القسم الثاني من الكتاب، إلى تحليل حركات الانتشار اللغوي الكبرى، وتحليل وقعِها على التجمعات البشرية، مستندين في تحليلنا إلى عدد من الاستقصاءات التي قمنا بها أو أشرفنا عليها. ويتناول هذا القسم الذي يشكل الثلث الثاني من الكتاب وعنوانُه: **ساحة المعركة**، دراسةً حيَّةً لحرب اللغات التي يخوضها المتكلمون على الساحة منذ قرون. وسوف نبين فيها كيف يمكن قراءة تاريخ البشر من خلال قراءة تاريخ لغاتهم، وكيف تظهر نزاعاتهم على المستوى اللغوي.

ثمّ نقوم في النهاية، أي في القسم الثالث من الكتاب، بدراسة نقدية في علم التخطيط اللغوي، وهو علم تتشوف الأنظار إليه منذ ثلاثين عاماً. هذا الثلث الأخير من الكتاب وعنوانه: **في مقارِّ قيادات الأركان** دراسة في المخبر لحرب اللغات كما يخوضها المختصون بالتخطيط، ولجانُ المصطلحات، ورجالُ المجامع العلمية، أي أولئك الذين يمكن تسميتهم اختصاراً بـ «قواد الأركان».

لئن كانت الشعوب ولغاتها ضالعةً منذ القديم في صراعات واسعة، فإن البشر يحاولون اليوم التدخل في هذا الميدان بصورة مباشرة، في مخابرهم. ويسمح الربط بين الدراسة الحية في الميدان من جهة، والدراسة المصطنعة في المخابر من جهة أخرى، بأن نحيط بالرهانات المتعلّقة بالتخطيط اللغوي، وبأهدافه، وبمدى ملائمته للممارَسة الاجتماعية.

الباب الأول

في أصل النزاع

الفصل الأول

مسـألـة الأصـول

لا تتكلم الحيوانات لأنه ليس لديها ما تقوله.

لا ريب في أنَّ هذا القول الذي يأتي على شكل مزاح إنما يقال على وجه التقريب؛ فلئن بدا بَدَهيّاً أنَّ الحيوانات لا تتكلم فإنها تتواصل في ما بينها، وإن ظلّ محتوى هذا التواصل محصوراً - على ما نعرف - في أمور قليلة؛ فقد ألحَّت الدراسات الكثيرة التي درست التواصل بين الحيوانات على مثالين اثنين: رقْصِ النحلِ[1]، واكتسابِ قرودِ الشمبانزي لبعضِ علامات التواصل[2]. ينبغي أن نلاحِظَ أولاً أنَّ هذين المثالين - وهما أشهر مثالين في الموضوع - لا ينبغي أن يكونا على مستوى واحد، لأن رقْصَ النحلِ الذي وصفه فون فريش، نظامٌ

[إن جميع الهوامش المشار إليها بإشارة (*) هي من وضع المترجم، أما الهوامش المرقمة تسلسلياً فهي من أصل الكتاب].

(1) انظر على سبيل المثال: Karl Frisch, «Decoding the Language of the Bee,» *Science*, no. 185 (1974).

(2) يوجد عرض للموضوع عند: Roger Fouts et Randall Rigby, «Man-Chimpanzee Communication,» in: Thomas Albert Sebeok, ed., *How Animals Communicate* (Bloomington; London: Indiana University Press, 1977).

داخلي(*)، فالنحلُ نفسُه هو الذي يقوم به. ويسمح هذا النظام للنحل بأن يدلَّ على مكان وجود الجنى بالإشارة إلى اتجاه معين وإلى مسافة معينة. أما علاماتُ التواصل عند الشمبانزي فنظامٌ خارجيٌّ يعلِّمه الإنسانُ للشمبانزي من أجل تواصُلٍ يحدِّدُ الإنسانُ محتواه.

ولا ينبغي أن يقود هذا الحديث عن النحل أو عن الشمبانزي إلى الاعتقاد بوجود موازاة حقيقية بين السلوك السيمي للإنسان والسلوك السيمي للحيوان، وإلى الاعتقاد بوجود لغة للحيوان، وإن كان جديراً بالملاحظة أن المزدوجين اللذين وضعهما فون فريش من باب الحيطة والحذر عند حديثه عن «لغة» النحل (وضع لفظ «لغة» بين مزدوجين في مقالة له بالألمانية عام 1923 عنوانها *Über die «Sprache » der Bienen*) قد حُذفا في عام 1974 في مقالة بالإنجليزية عنوانها («Decoding the Language of the Bee»). ولا يعني هذا بالطبع أن الشمبانزي لا يستطيع أن يتواصل، فقد أفادت الدراسات الجارية حالياً عن هذه المسألة ـ وما تزال تفيد ـ أشياء مهمة، وإنما يعني بِكُلّ بساطة ما يلي: لقد طوَّرت أجناسُ الحيوان، ومن بينها الإنسانُ بالطبع، وسائلَ «تواصلٍ» متنوعة ترتبط ارتباطاً مباشراً بما تود إيصاله، فتدلّ النحلة مثلاً، عن طريق الرقص، على مدى بُعد المسافة بينها وبين الجَنى الذي عثرت عليه، وعلى وجهة الوصول إليه، وربما تدلّ أيضاً على مقدار حلاوته: أما المسافةُ فعلامتُها سرعةُ حركاتِ النحلة في إنجاز الأشكال التي تقوم برسمها، وأما الوجهةُ فعلامتُها زوايا هذه الأشكال المثَمَّنة الأضلاع. وهكذا تقوم النحلة بإنجاز عشرةِ أشكالٍ مثَمَّنة في خمسَ عشرةَ ثانيةً لتدلَّ على أنَّ الجَنى على بُعد مئة متر، وسبعةِ أشكال مثمَّنةٍ إنْ كان على بُعد مئتي

(*) يعني النظامُ الداخلي أنّه نظامٌ غريزيٌّ ينبع من الداخل، وليس نتيجة تعليم خارجي.

متر، وشكلين مثمَّنَين فقط حين يكون على بعد ستة كيلومترات. أما درجة انحنائها في الرقص بالمقارنة مع الخط الأفقي فتدلّ على الزاوية بين الشمس ومكان الجَنى.

قد يبدو هذا الأمر خارقاً للعادة، ولا سيما حين نقارن وزنَ دماغ النحلة وحجمَه بوزن دماغ الإنسان وحجمه. وقد يبدو هذا الأمر، على العكس من ذلك، من دون أهمية تُذكر، غير أن هذه المسألة ليست بيت القصيد: فليس يعنينا كونُه خارقاً للعادة، ولا كونُه من دون أهمية، بل يعنينا مجرَّدُ وجودِه؛ فقد طوَّرت النحلة بِكُلّ بساطة، نظاماً يستجيب لحاجاتها لا تتحدث فيه في الفلسفة ولا في السياسة، وإنما توصل عبره خبراً ضرورياً لبقائها على قيد الحياة. ولسنا نجد في هذا المجال أفضل من خلاصة مقالة مشهورة لإميل بنفنيست (Emile Benveniste) يقول فيها:

«إن مُجمَل هذه الملاحظات يُظهر الفارق الجوهري بين اللسان البشري ووسائل الاتصال التي اكتُشفَت عند النحلة. وأفضل ما يلخص هذا الفارق في رأيي هو تلك العبارة التي تُعرِّف كيفيةَ تواصُلِ النحل بأنها شِفْرَة تعتمِدُ رموزاً، وليست لساناً. وكل الخصائص الأخرى، من ثبات المحتوى، وعدم تغيُّر الرسالة، وبقاء المقام على حاله، وعدم القدرة على تفكيك المقال إنما هي نتائج لهذا الفارق»[3].

يعيدنا هذا القول لبنفنيست إلى الجملة التي افتتحنا بها هذا

---

(3) Emile Benveniste, «Communication animale et langage humain,» *Diogène*, vol. 1 (1966),

وقد أعيد نشر هذه المقالة في كتاب: Emile Benveniste, *Problèmes de linguistique générale*, bibliothèque des sciences humaines, 2 vols. ([Paris]: Gallimard, 1966-1974).

والنصّ الذي اقتبسناه موجودٌ في ص 62 من الكتاب المذكور.

الفصل مع تغيير طفيف فيها: «ليس عند الحيوان ما يقوله». غير أن بنفنيست يضيف بعد بضعة أسطر:

«إلا أنَّ مما له مغزى هو أنَّ هذه الشِّفْرة ـ وهي الشكل الوحيد الذي أمكن اكتشافه من الأشكال «اللسانية» عند الحيوان ـ إنما هو خاص بحشرات تعيش على شكل جماعات، وهذا يعني أن وجود اللسان مشروط بوجود الجماعة».

تؤكد مقالة بنفنيست هذه سمة أساسية من سمات التواصل، إنّها السمة الاجتماعية.

لا بدّ من أن يكون القارئ قد فهم أنَّ هذه الجولة السريعة في مجال سيمياء الحيوان لا تهدف إلا إلى وضع مبدأ يكون دليلاً لنا في هذا الفصل كلّه، وهو مبدأ ينصّ على الرباط الوثيق بين حاجات الجماعة إلى التواصل (أي بعبارة مبسَّطة مباشِرة: ما تحتاج إلى قوله)، ووسيلة الاتصال التي تستخدمها لتحقيق ذلك (أي طرائق القول). حين تكون الأمور على هذا الصعيد فليس من سبب يدعو إلى تمييز الجنس البشري عن غيره من سائر أجناس الحيوان؛ فوجهة النظر هذه التي تجعل التواصل حدثاً اجتماعياً هي التي سوف نعتمدها حين ننكبُّ على دراسة مسألة التواصل البشري.

حين أُسِّستْ جمعية اللسانيات (Société de linguistique de Paris) في باريس عام 1866، نصت المادة الثانية من نظامها على ما يلي: «لا تقبل الجمعية أيَّ عرض يتعلق بأصل اللغة، أو بإنشاء لغة عالمية شاملة». وهذا يعني أن الفصل الأول والفصل الأخير من هذا الكتاب خارجان على القانون في نظر هذه الجمعية. تبدو أسباب هذا الحِرْم [الذي تفرضه جمعية اللسانيات في باريس] واضحة في تلك المرحلة التي كانت فيها اللسانيات تحاول أنْ تؤسِّس نفسَها عِلْماً

قائماً بذاته: الخوفُ مما وراء الطبيعة، ومن الشعوذة، ومن غير ذلك. غير إننا نعتقد أن مؤسسي جمعية اللسانيات المبجلين كانوا على خطأ، فليس من المفترض أن يكون شأن لسانيٍّ ما غريباً عن اللسانيين، ومسائلُ نشأة اللغة، وكيف نشأت، ولماذا نشأت مسائلُ واقعةٌ في صُلب مشاغلنا.

كان أوتو جسبرسن (Otto Jespersen) بلا ريب أولَ لسانيٍّ اعترضَ على هذا الحِزْم، فقد جاهر بالقول «إن هذه المسائل التي يمكن أن تُدرس دراسة علمية لا ينبغي لها أنْ تظل وقْفاً على الهواة»[4].

خصَّص جسبرسن الذي أظهر في زمانه قدراً من الجرأة فصلاً من كتابه لهذه المسألة، وقد استهله بالتشديد على أنَّ أسوأ طريقة لطرح هذه المسألة أن يقال: «من أين للإنسان، أو لكائن شبيه بالإنسان ليست له مَلَكةُ الكلام، أن يكتسب هذه المَلَكة، وأن يجعل منها أداة لنشرِ فكرِه؟»[5].

ويرى جسبرسن أن هناك ثلاثَ مقارباتٍ ممكنة لتطوير التفكير الاستقرائي: أولها **كلامُ الأطفال**، إنِ اعتبرنا أنَّ تطوُّرَ الكلام واكتسابَه عند الأطفال إنما يشهد على التاريخ اللغوي عند الإنسان، وثانيها **لسان الشعوب البدائية** الذي يُعتبر ممثِّلا لحالة من حالات اللغة القديمة، وثالثها **تاريخ اللسان البشري** الذي يعتبره الطريق الأمثل لمتابعة التطور اللغوي فيه خطوة خطوة للوصول إلى أصل اللغة.

---

(4) Otto Jespersen, *Nature, évolution et origines du langage = Language, its Nature, Development and Origin*, bibliothèque scientifique, traduit de l'anglais par L. Dahan et A. Hamm; préface d'André Martinet (Paris: Payot, 1976), p. 95.

(5) المصدر نفسه، ص 399.

يبدو صحيحاً أن المَنْحى العام المشترَك بين الملكة اللسانية عند الأطفال، وبين تاريخ اللغات، وهو منحى يعيدُ الشاذَّ إلى المنتظِم بصورة منهجية دائمة، يمكن أنْ يفتح لنا سُبُلاً أمام البحث، فهو يسمح لنا بافتراض وجود قانون تاريخي، وبتطبيق هذا القانون على الماضي لتفسيره، وهو قانون بسيط يقضي بأن **اللغات تنحو دائماً نحو التبسيط وإعادة الانتظام**.

ينبغي من وجهة النظر هذه، أن تَسقُطَ أسطورةُ «جمال» اللغات القديمة، لاتينيةً كانت أم يونانيةً أم عبريةً أم عربيةً فصحى، وهي لغاتٌ بالغةُ التعقيدِ، بسبب لواحقِ إعرابها وكثرةِ شواذِّها. ويبدو واضحاً في الفرنسية القديمة أو في الإنجليزية القديمة على سبيل المثال، كيف تقلَّصَ عددُ لواحقِ الإعراب شيئاً فشيئاً ليحلّ محلَّ الإعراب نظامُ المواقع النحوية الثابتة، والجملُ الصغرى(*) التي هي أقوالٌ في داخل الجملة. يبدو واضحاً كيف تنحو اللغة نحو التبسيط، إن شئنا الحديث المبسَّط المباشر المختصَر، أيْ كيف تنحو نحو الانتظام.

إنْ طبَّقنا هذا القانون على الماضي أمكنَ لنا أن نصوغ أولَ فرضيةٍ تاريخية، وهي فرضية مؤدّاها أن **القوانين الأولى للغات لا**

(*) نعني يالجملة الصغرى كلَّ قولٍ هو جملة في داخل جملة أكبر منه، كجملة الشرط وجملة الجواب في الجملة الشرطية في مثل (إنْ تدرُسْ تنجحْ) فـ (تدرس) جملة صغرى، و(تنجحْ) جملة صغرى، أو كالجملة الموصولة والجملة الأم التي تندرج الجملة الموصولة فيها كـ(قرأت الكتابَ الذي ترجَمه فلان) فـ (قرأت) جملة صغرى، و(ترجَمَ) جملة صغرى، وكالجملة الاسمية أو الفعلية التي تكون خبراً للمبتدأ في جملة كبرى مثل: زيدٌ أبوه كاتبٌ وزيدٌ يكتبُ، ويسمّى هذا النوع من الجمل (قضيةً) في النحو الفرنسي وفي اللسانيات لأن الجملةَ فيه قضيةٌ. غير إننا آثرنا تطويع مصطلح «الجملة الصغرى» المأخوذ من التراث النحوي العربي، والابتعاد عن مصطلح «القضية» لأنه من مصطلحات المناطقة.

يُفترَض أنْ يكون فيها أيُّ انتظام، لأنها لم تكن قوانين بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كانت مجرَّدَ جداول بالتسميات. إنَّ هذا يعني أن اللغات لم تصبح أكثر تعقيداً عبر التاريخ كما تراها بعض نظريات التعصب العِرقي، (فاللغات «البدائية»، المحدودة ... إلخ، ترتقي شيئاً فشيئاً بتطور الثقافات)، ولم تصبح أكثر بساطة، ولكنها صارت مقنَّنة: لقد **خُلقت قوانين اللغات انطلاقاً من عمليات التواصل الجنيني** بين أبنائها.

ما يهمنا إذاً أن نعرف هو:

كيف ظهر هذا التواصل الجنيني؟ وكيف حدث ذلك التقنين؟

يمكننا بالطبع أن نجيب عن هذين السؤالين بالقول: إنّها **الصدفة**: (يصدر صوت أو حركة، فيتلقاها المرء على شكل من الأشكال، ثمّ يتكرر الصوت أو تتكرر الحركة ويتكرر التلقي، فيُعتمَد الصوتُ أو تُعتمَدُ الحركة شيئاً فشيئاً بهذا «المعنى»).

كما يمكن أن نقول: إنّها **الحاجة** (فبعض النشاطات الاجتماعية الوليدة تحتاج إلى وسيلة للاتصال)، وليس بين هاتين الوجهتين: الصدفة والحاجة من تناقض كما سنرى لاحقاً، غير أننا نتجنب في هذه المرحلة الأولى بناء النظريات مفضِّلين الاعتماد على الوثائق التي بين أيدينا.

فما هي هذه الوثائق؟

ليست هذه الوثائق لسانية بالطبع، لأن اللغات الأولى لم تكن مكتوبة، فلم تترك لذلك أثراً. على أننا نملك بقايا متحجِّرة، وأشياء غذَّت عِلْمَين يمكننا استنطاقهما هما عِلم الجماجم، وعلم ما قبْل التاريخ.

في عام 1861 أثبتَ الجرّاح بيار بول بروكا (Pierre-Paul Broca) أنَّ بعض الإصابات الدماغية تؤدي إلى فقدان النطق، وحدَّد موضع ملَكة اللسان في التلفيف الثالث من تلافيف الدماغ الأيسر. وقد تطورت معرفتنا بمخطَّط الدماغ تطوراً هائلاً منذ تلك الفترة، فصار المختصون يميزون **الحُبسة** (وهي عدم القدرة على إصدار الأصوات) المتصلة باضطرابات المنطقة 44 من الدماغ من **الصمم الكلامي** (وهو عدم القدرة على تمييز الأصوات المسموعة) المتصل باضطرابات المنطقتين 41 و42 من **اضطراب الكتابة** (وهو عدم القدرة على الكتابة) المرتبط بتَلَف المنطقة 9 في أسفل الجزء الأمامي الثاني من **عمى القراءة** (وهو عدم القدرة على القراءة) المرتبط بتلف المنطقة البصرية 19 في ما قبل القَذال.

تكاد هذه التفاصيل التقنية لا تعني شيئاً للقارئ في حالتها الراهنة، ولكن ما يهمنا هنا هو أنَّ دراسة الجماجم المتحجرة قد أثبت أمرين يعنياننا بصورة مباشرة:

- أولهما أنَّ تطور هذه المناطق الدماغية مرتبط ارتباطاً مباشراً بوَضْعِيَّة الوقوف عند الكائن الذي ينتصب على ساقيه.

- وثانيهما أنَّ هذا التطوُّر يجري بالموازاة مع ظهور العمل اليدوي.

هذا يعني أنَّ ثمّة صلةً وثيقة تربط اليد بالوجه، وأنَّ التمتمةَ، والملَكةَ اللسانية، والمهاراتِ اليدوية تطورت متزامنةً بعضُها مع بعض. وقد أثبت تحليل الجماجم المتحجرة فضلاً عن ذلك، أنَّ دماغ البقايا المتحجرة للإنسان الأول «أنثروبيان»(*) (Anthropiens)

(*) يعني بإنسان أنثروبيان الكائن الذي هو أصل الجنس البشري، والذي يمكن أن يكون مرحلة وسطى بين القرد والإنسان لأنه منتصب القامة.

كان له حجم يناسب حجم الدماغ البشري، وأثبتت أنَّ الإنسان الأول في أستراليا (Australanthrope)، وفي الصين (Sinanthrope) وإنسان نيانْدِرْتال كان **بمستطاعهم** الكلام، على حدّ قول ليروا غورهان (Leroi-Gourhan):

«لا يمكن في وضع الكائنِ المنتصب على قدمين، واليدِ الحرة الطليقة، اللذين يستتبعان جمجمةً توسعتْ قبَّةُ تجويفِها الأوسط توسعاً كبيراً إلا أن يكون الدماغُ دماغاً فيه ما يلزمه لإنتاج الكلام، وأعتقد أنه ينبغي إذاً أنْ نعتبرَ القدرة الجسدية الطبيعية على تنظيم الأصوات وتنظيم الحركات كانت موجودة عند أول إنسان عرفناه من فصيلة الأنثروبيان[6] (Anthropiens).

بيد أنَّ هاوية سحيقة تفصل بين «القدرة الطبيعية» على التواصل وبين وضْع هذه القدرة موضع التطبيق، فعِلمُ الجماجم يشير إلى التاريخ الذي أصبح فيه الإنسان قادراً على الكلام، ولكنه لا يشير إطلاقاً إلى التاريخ الذي بدأ فيه بالكلام، ولا إلى كيفية بدئه بالكلام.

لئن كنا نغامر هنا في مجال **علم إحاثة اللسان**، أي العلم الذي يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تُمثّلها المتحجِّرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية، فليس ذلك من أجل إعادة تشكيل اللغات التي كانت قبل التاريخ، بنحوِها ونظام أصواتها على سبيل المثال، (فنحن لم نستطع - حتّى الآن؟ - إعادةَ رسم الشكل الذي كانت عليه هذه اللغات على غرار إعادة رسم الشكلِ الذي كانت عليه اللغات الهندوأوروبية في القرن الماضي)، وإنما نغامر لنحاول أنْ نفهم الطابع الاجتماعي في أصل وضع اللسان. لنعُد

(6) André Leroi-Gourhan, *Le Geste et la parole*, 2 vols. (Paris: A. Michel, 1964-1965), vol. 1: *Techniques et langage*, p. 127.

إذاً إلى هذا الرباط القائم بين العمل اليدوي واللسان، أي بين اليد والوجه - وهو رباط يعترف العالَم به - فهو يسمح لنا بالمغامرة في تقديم عدد من الفرضيات انطلاقاً من الآثار الباقية لدينا من فترة ما قبْل التاريخ، ولا سيما تلك التي تشهد على المهارة اليدوية للإنسان الأول (أنثروبيان) كالأدوات والرسوم. إن كان التواصل واستخدام الأدوات ميزتين أولَيَين من ميزات الإنسان، وإن كانت هاتان الميزتان متزامنتين ومترابطتين عصبياً، فإن هذا يمكّننا من القول إن **الإنسان يتواصل بلسانه كما أنه يعمل بيديه.**

ويصبح السؤال: «كيف كان الإنسان يتكلم؟» شبيهاً تماماً بالسؤال الآخر: «ما الذي كان الإنسانُ يُحسنُ القيامَ به بأصابعه؟»، مع فارق وحيد هو إننا نملك عدداً من عناصر الإجابة عن هذا السؤال الثاني، وهي عناصرُ تُزوِّدُنا بها الرسوم والأدوات المصنوعة من الحجارة.

تقع المرحلة التي تعنينا على امتداد المرحلة الأخيرة من العصر الجيولوجي الحالي [أحدث العصور في تاريخ الأرض] (وهو العصر الذي يسميه علماء الجيولوجيا بـ البليستوسين (Pléistocène)، والذي يمتد ما بين إنسان بيلتداون(*) (Piltdown) وإنسان كرومانيان(**) (Cro-Magnon)، أي ما بين الفترة الشِّلّية(***) (Chelléen) والفترة المغْدلانية(****) (Magdalénien). يبدو واضحاً أن إنسان كرومانيان

(*) يعود الاسم إلى قرية بيلْت داوْن (Piltdown) الإنجليزية التي اكتشفت فيها عِظامٌ بشرية عام 1908.

(**) يعود الاسم إلى ملجأ تحت الصخر في إيزي دي تاياك (Eyzies-de-Tayac) في منطقة دوزدُونْي (Dordogne) الفرنسية حيث اكتشفت خمسةُ هياكل عظمية في عام 1868.

(***) هذا الاسم مأخوذٌ من موقع شِلّ (Chelles) وهو موقع في المنطقة الفرنسية Seine-et-Marne ويعود إلى العهد الباليوليتيكي البعيد.

(****) هذا الاسم مأخوذ من موقع ماذلين (Madeleine)، وهو موقع في المنطقة =

كان يتكلم، أو أنه كان على الأقل، يملك أداة للتواصل.

لكن: متى بدأ الكلام؟

للإجابة عن هذا السؤال نفترض الجدول التالي الذي لا يهدف إلا إلى تقريب الفكرة وترسيخها.

في العمود الأيمن من هذا الجدول إشارات إلى نوع الحجر المصقول الذي نجده في مختلف فترات العصر الباليوليتيكي: نجد في البداية أدواتٍ هي حجارة مصقولة تنتجها حركةٌ واحدة وضربةٌ واحدة، ثمّ أدواتٍ هي حجارة ثنائية الوجه مصقولة من الجانبين، تبدو عليها آثارُ أكثرَ من ضربة واحدة. يشهد هذا الأمرُ على انقلاب في تقنيات استخراج الأدوات، لأنه يعني أنَّ الحجر الذي كان أداةً في البداية أصبح هو نفسُه مصدراً لصنع الأدوات تُستخرَجُ منه الشظايا.

= الفرنسية Dordogne ويعود إلى العهد الباليوليتيكي القريب، أي إلى ما يقرب من عشرة آلاف سنة قبل المسيح.

العصر	المرحلة	الإنسان	الحيوانات	الأدوات
العصر الرابع القديم (البليستوسين الحديث)			الماستودون(*) الكَركَدَن أو وحيد القرن البِرْنيق أو فَرَس النهر	
العصر الرابع الحديث (البليستوسين)	مرحلة العصر الباليوليتيكي وفيها المراحل التالية: الشَلّية الآشلية(**) المُوسْتَرية(***) الأورينياسية(****) السولِيتْرية(●) المَغْدلانية	بيلتداون مُووير(●●) نياندرتال كرومانيان	وحيد القرن ماموت رين	حجارة مصقولة (40 سمّ) حجارة مصقولة ثنائية الوجه (2م) ثنائي الوجه (5م) شظايا من نوكليوس (10م) ميكروليت (50م)
العصر الهولوسيني(●●●)	الأزيلة(●●●●)	الأعراق الحالية		(100م)

(*) هو حيوان قديم بائد شبيه بالفيل.

(**) يعود الاسم إلى موقع سانت آشُل، وهو موقعٌ قريب من منطقة أميان (Amiens) الفرنسية.

(***) يعود الاسم إلى موقع موسْتْييه الواقع في وادي فيزير في منطقة دُوزدُونْي الفرنسية، وتنتمي هذه المرحلة إلى العصر الباليوليتيكي الوسيط الذي ظهر فيه إنسان نياندرتال، بينما تنتمي المرحلتان السابقتان إلى العصر الباليوليتيكي القديم.

(****) يعود الاسم إلى مغارة أورينياك (Aurignac) في منطقة Haute-Garonne الفرنسية.

(●) يعود الاسم إلى صخرة سوليتري (Solutré) الواقعة قرب مدينة ديجون الفرنسية.

(●●) يعود الاسم إلى منطقة مووير (Mauer) الواقعة قرب مدينة هايدلبِرْغ (Heidelberg) الألمانية حيث اكتُشفَ فكٌ لرجلٍ من مرحلة تاريخية قديمة.

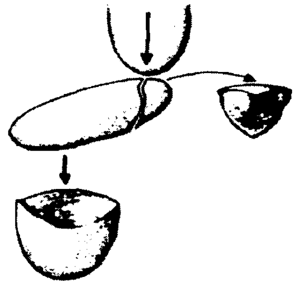
(●●●) هو العصر الأخير الذي يمتد إلى ما قبل عشرة آلاف سنة.

(●●●●) يعود الاسم إلى مغارة Mas d'Azil في منطقة Ariège الفرنسية.

- 1 -

حجارةٌ أحادية الوجه

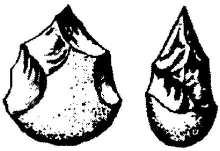
تنتجُها ضربة واحدةٌ



- 2 -

حجارةٌ ثنائيّةُ الوجه

مصقولةٌ من الجانبين



- 3 -

حجارةٌ تُنتَزَعُ منها

الأدوات والشظايا



حسب: André Leroi-Gourhan, *Le Geste et la parole*, 2 vols. (Paris: A. Michel, 1964-1965), pp. 131 et 144.

تقوم إحدى الطرق الناجعة لقياس هذا التطور على قياس طول الحد القاطع في مختلف المراحل بالنسبة لوزن الحجر المصقول، وسوف نجد أن إنسان بيلتداون في أوائل مرحلة الحجر المصقول في العصر الباليوليتيكي القديم، كان ينتج 40 سمّ من الحد القاطع من كلّ كلغ من الحجر في مقابل 50 سمّ ينتجها إنسان كرومانيان. وينبغي أنْ نضيف إلى هذه المعلومات ما نملكه عن إنتاج الرسوم في العصر الباليوليتيكي:

العصر	المرحلة	فن الأشياء المنقولة	فن الجداريات	النشاطات
العصر الرابع الحديث	الموسْتَريَّة (حوالي 35000 سنة ق. م.)	أشكال هندسية على العظام أو على الحجارة		الصيد والقطاف
	الأورينياسية - 30000 سنة ق. م. النموذج الأول - 22000 سنة ق م	رؤوس الحيوانات لأول مرة		
	السّوليتْرية - 22000 سنة ق. م. النموذج الثاني - 15000 سنة ق. م. النموذج الثالث: - 13000 سنة ق. م.	حيوانات مكتملة تماثيل للأنثى	المناطق المضاءة في مداخل الكهوف: مغاور «غريز»(*) (La Grèze)، مغاور «غرْغا»(**) (Gargas)، إلخ. المناطق العميقة في الكهوف: «لاسْكو»(***) (Lascaux)، «ألْتاميرا»(•) (Altamira)	
	المَغْدَلانية - 13000 سنة ق. م. النموذج الرابع: - 9000 سنة ق. م.	رماحٌ قصيرة وخُطّافات لصيد الأسماك من العظام ومن قرون الرَّنَّة	"كابْ بلانْ»(••) (Cap Blanc)، «المَغْدلانية» (Magdaléneine)، «أرْسي سِير كير»(•••) (Arcy sur-Cure)	الزراعة وتربية المواشي

(*) هي كهوف مزيَّنة في وادي « فيزير» الذي يبلغ طوله ما يقرب من أربعين كيلومتراً بين «إيزي دي تاياك » و«مونتينْياك» في منطقة «دورْدونْي» الفرنسية.

(**) هي مغاور واقعة في منطقة جبال البيرينِه الفرنسية.

(***) هي مغارةٌ واقعةٌ في منطقة دورْدونْي الفرنسية.

(•) هي مغارة إسبانية اكتُشفتْ عام 1879، وتقع في «سانتيلاّنا دِلْ مار».

(••) هي مغارة في إيزي دي تاياك في منطقة دوزْدونْي الفرنسية.

(•••) هي مغارة في منطقة «أرسي سير كير» في محافظة اليونّ الفرنسية (Yonne).

إن أقدم الرسوم، وهي محفورة على العظام، ليست كما يمكن أنْ يُظَّنَّ، محاولاتٍ ساذجة لتمثيل العالَم الخارجي، بل هي رموز مجرَّدة يرى فيها بعضهم نوعاً من التصوير الإيقاعي. فيما بعد، تظهر في تلك الرسوم رؤوسُ حيواناتٍ غالباً ما تصاحبها رموز جنسية (كما في النموذج الأول ما بين 30000 و22000 سنة ق. م.)، ثمّ حيوانات كاملة (كما في النموذج الثاني) تجمع بين الثور والحصان، أو بين البَيسون(*) والحصان (كما في النموذج الثالث)، وأخيراً حيوانات يتبع بعضها بعضاً، أي قطعاناً من الخيول (كما في النموذج الرابع).

لا تكاد هذه المعطيات كلها، على أهميتها، تسمح لنا بتوضيح الصورة، غير أنه انطلاقاً من فرضية العلاقة الوثيقة بين اليد والوجه، وبين المهارة اليدوية والتواصل، يمكن أن نفترض «لساناً» لمرحلة الحَجَر المصقول بضربة واحدة، و«لسانا» لمرحلة الحجر المصقول الثنائي الوجه . . . إلخ، كما يمكن في الوقت نفسه، أن نتصوَّر موازاة في تطور الرسم انطلاقاً من الحيوانات المعزولة (في المرحلة الأورينياسية) وصولاً إلى مواكب الحيوانات (في المرحلة المغْدلانية).

وتطوَّر اللسان انطلاقاً من الكلمة المعزولة المفردة وصولاً إلى الجملة. وربما يسمح لنا هذا بالقول إن **العلاَمة** اللغوية ظهرت في حدود 35000 سنة ق. م. وإن **الجملة** ظهرت في حدود 10000 سنة ق. م.

ومن البدهي القول إنّه لا يمكن القطعُ بخطأ هذه الفرضيات، إذ كيف يمكن أن نعرف هذا الخطأ؟ غير أنه من الواضح أن هذه الفرضيات مغريةٌ ببساطتها (وهذا عيب من عيوبها ومزية من مزاياها)،

(*) هو ثور من الفصيلة البقرية له حدبة.

ومدعاةٌ للنقد بسبب الجانب الآلي فيها.

في الواقع، لا يبدو إنسان ما قبل التاريخ كما حاولنا الإحاطة به في الصفحات السابقة، أكثر من وسيلة لإنتاج الأدوات ورسم الخطوط. وهذا الحدُّ له حدٌّ هزيل لا يسمح لنا بالمضي بعيداً في تحليل الطريقة التي كان قادراً على التواصل بها، ذلك أن أمراً حيوياً ينقصنا هنا في شرح عملية التواصل: كيف كان إنسان ما قبل التاريخ يعيش في إطار الجماعة؟ وكيف كان يغتذي؟ أي باختصار: **ما الذي كان عليه نظامه الاجتماعي؟**

يُفهَم من خلال الصفحات السابقة أننا نقترح البحث عن أصل اللسان عند تقاطع محورين: المحور الأول **محور بيولوجي** (يبحث عن لحظة تطوُّر شكلِ الجمجمة وشكل الدماغ تطوراً يسمح بظهور اللسان، ويسمح بالتواصل)، والمحور الثاني **محور اجتماعي** (يبحث عن لحظة تطوُّر العلاقاتِ الاجتماعية تطوُّراً يفرض شكلاً من أشكال التواصل)، أي إنّه في مقابل القدرة على التواصل التي تحددها جغرافية الدماغ وشكله، والتي يمكن أن يؤرَّخ لظهورها اعتماداً على الجماجم المتحجرة، هناك نشاطات نسمِّيها **منتِجات اللسان**، أي النشاطات التي جعلت التواصل ضرورياً: ذلك أنَّ تطوُّر الجمجمة والأسنان والوجه **سمح بظهور اللسان**، غير أن العلاقات الاجتماعية هي التي **ولَّدته**.

ينبغي العودة هنا إلى فصل من فصول «جدلية الطبيعة»[7] يشرح فيه إنجلز فكرة مؤداها أن اليد ليست مجرد أداة للعمل، ولكنها أيضاً

---

(7) «دور العمل في تحول القرد إلى إنسان»، ربما كُتِب في عام 1876. انظر: *Marxisme et linguistique: Marx, Engels, Lafargue, Staline*, langages et sociétés, [textes choisis et présentés] par Louis-Jean Calvet (Paris: Payot, 1977).

نتيجة للعمل، أي إنّها تبدو ضرورةً تخلقها الحاجةُ للعمل. وهذا يعني أن الكائنَ المنتصبَ على ساقيه وصل إلى مرحلة من مراحل تطوره **ظهرت فيها حاجتُه إلى يده**، ولكن «اليد لم تكن وحدها»، كما يقول إنجلز. ويحدد شارل داروين في الفصل الأول من كتابه **أصل الأنواع** ما يسميه بِـ «التغيُّر بسبب الارتباط المتبادل»: فالقط الأبيض ذو العينين الزرقاوَين لا يسمع، والحيوان ذو الأظلاف له معدة متعددة[*].

استنتج إنجلز من ذلك أن تطور اليد يُفترَض أن يكون أدّى، عن طريق الارتباط المتبادل، إلى تغيُّرات أخرى. ويضيف قائلاً إن العمل الذي ظهر بطيئاً وغيَّر العلاقة مع الطبيعة، خلَقَ حاجةً جديدة: فقد وصل الناس في ظلّ ذلك إلى **زمن شعروا فيه بالحاجة إلى التواصل** .لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المؤلِّف، أي إنجلز، لم يكن حين قال ذلك، يعرف شيئاً عن أعمال بروكا (Broca) الذي لم يظهر اسمه قط في المراسلات التي جرت بين ماركس وإنجلز[8]، ولكنه [مع ذلك] يصل إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها بروكا، ولكن من طريق آخر.

لدينا إذاً نمطان من الأجوبة الممكنة على مسألة أصل اللسان: أولهما ذلك النمط الذي يشير إليه إنجلز، والذي يقوم على القول بأن

(*) في النظرية أن وظيفة كلّ عضو من الأعضاء إنما هي تكيُّفٌ مع عناصر البيئة المحيطة، وهناك علاقةُ ارتباط متبادَل ما بين تغيُّرِ سِمةٍ من السمات الوراثية للعضو وتغيُّرِ عناصرِ البيئة المحيطة.

(8) على العكس من ذلك يتردد اسم داروين غالباً، ولا سيما في رسالة وجهها ماركس إلى إنجلز في 19 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1860 بخصوص **أصل الأنواع** (*L'Origine des espèces*). «رغم ثقل عبارته الإنجليزية فإن هذا الكتاب هو الذي يشتمل على الأساس الطبيعي لنظريتنا».

الإنسان بدأ بالكلام حين شعر بالحاجة الاجتماعية إلى التواصل، وثانيهما ذلك النمط الذي يجد أساسه في أعمال بروكا، والذي يقوم على القول بأن الإنسان **بدأ بالكلام حين سمحت له جغرافية دماغه بذلك،** غير أن هذين النمطين، أو هاتين المقاربتين فضلاً عن أنهما يندرجان بسهولة في إطار رؤيةٍ داروينيّة للتغيُّرات الناشئة عن الارتباط المتبادَل (بين اليد والوجه) فإنّهما يتكاملان تماماً، ولا يقوم بينهما أيُّ تناقض.

لنعُدْ إذاً إلى مسألة التنظيم الاجتماعي لإنسانِ ما قبل التاريخ. غير أنه ينبغي الإشارة قبل ذلك إلى أمر بدهي، وهو أنَّ حجمَ جماعةٍ بشرية ما، كان دائماً مرتبطاً بحجم الغذاء في الحيِّز الجغرافي الذي تشغله هذه الجماعة، وبطريقة استغلاله: مثَلُ الصيد كمثل القطاف، فهما موجودان من زمان إنسان المرحلة الموستَريَّة (في حدود 35000 سنة ق. م.)، ويظلان نشاطَين أساسيين حتّى آخر العصر الباليوليتيكي الذي ظهرت فيه الزراعة وتربية الحيوانات. ينبغي علينا إذاً أن نبحث عن ظهور اللسان في هذا النشاط الاجتماعي على مستوى [المجموعات البشرية التي تشكل] **وحداتِ عَيشٍ** همُّها الاكتفاء الذاتي، وعلى مستوى الاتصالات بين مختلف وحدات العيش.

يمكن أن نتصور أنَّ اللسان الجنيني، سواءٌ أكان عبر الإشارة أم عبر الفم، قد استقر في حضن الجماعة مشكِّلا نوعاً من شِفرةٍ أولية خاصةٍ بوحدة العيش، وهي شِفرةٌ أوليةٌ يُفترَض أن تكون قد واجَهت شِفراتٍ أوَّليَّةً أخرى تستخدمها جماعات أخرى ليؤدي ذلك إلى نوع من التعددية اللغوية (أو تعدد الشِّفرات). هكذا تبدو بابل نقطة بداية لا نقطة نهاية. وحين نتصور العدد اللامحدود للشِّفرات الجنينية التي تَسِمُ بدايات الإنسانية بميسمها، فلن يفجأَنا تعدد اللغات، بل

سيفجأُنا عددُها النسبيُّ المحدود، ذلك أنه يكفي أن يوجد شخصان فقط لظهور شِفرةٍ بدائية أولية. إن تعدد وحدات العيش التي أشرنا إليها يدفع بالطبع في اتجاه تبني فرضية تعددية اللغات منذ البداية أو، إنْ شئنا، فرضية ولادة متعددة للسان. غير أنه ينبغي علينا أن ننظر ملياً في هذ المسألة لأنها تمسُّ بالطبع الموضوع المركزي لهذا الكتاب.

إنْ انطلقنا من واقعة بسيطة وهي أنَّ هناك ما يقرب من عشر لغات رومانية في مقابل لغة لاتينية واحدة، وما يقرب من عشر لهجات عربية في مقابل لغة عربية قديمة فصحى واحدة، وعشراتِ اللغات الهندية ـ الأوروبية في مقابل لغة هندية ـ أوروبية واحدة، أي باختصار، إنْ انطلقنا من أنَّ أُسَر اللغات تفترض وجود **لغة أُمٍّ** واحدة، وطبَّقنا هذه المعرفة التاريخية على نطاق، واسع أمكنَ أنْ نستخلص من ذلك خلاصتين اثنتين: أولاهما أنَّ **اللغات تميل إلى التعدد والازدياد**، وثانيتهما إننا حين نمضي صُعُداً من لغةٍ أُمٍّ إلى لغة أُمٍّ، فإننا سوف نصل تماماً إلى **اللغة الأصلية الأولى**. غير أنّني أظن أن هاتين الخلاصتين غيرُ صحيحتين.

لنعتبر أولاً قضية ازدياد عدد اللغات:

من المعروف أنَّ هذا الازدياد ناتج عن قيام اللهجات التي ترتبط بدورها بالانتشار الجغرافي للشعوب؛ فاللغات الرومانية تعود إلى توسُّع الإمبراطورية الرومانية، أي إلى انفجار اللغة اللاتينية، وتوسُّع إمبراطورية الهان(*) كان السببَ في انفجار اللغة الصينية البدائية إلى سبع لغات مختلفة في أيامنا . . . إلخ.

(*) الهان هو العنصر الغالب في الصين، وقد حكمت سلالات الهان في فترات مختلفة وأسست إمبراطورية قوية بين 202 ق. م. و220 م.

غير أن هناك عنصرين يقفان في وجه هذا الميل إلى التعدد والازدياد:

ـ الواقع أن ولادة لغات من جهة يقابله موتُ لغات من جهات أخرى، وتوسُّع لغة من اللغات يفترض غالباً اندثار لغات أخرى، وتاريخُ اللغات الرومانية خيرُ شاهدٍ على ما نقول.

ـ إنَّ التوسُّع الجغرافي الذي هو عامل من عوامل التعدد والازدياد (أو التنوع) يزول أثره يوماً بعد يوم بسبب تعدد وسائل الاتصال الحديثة، فالمذياع والتلفاز والفضائيات ... إلخ، لا تسمح أبداً بجعل إنجليزية أمريكا وإنجليزية بريطانيا لغتين مختلفتين. والحال كذلك بالنسبة لفرنسية فرنسا وفرنسية كيبيك. لو كان هذا الوضع قائماً بنفس شروط الفصل الجغرافي منذ ستة قرون أو منذ سبعة قرون لَجَرَت الأمور على غير هذه الشاكلة.

لئن كان مقدَّراً أن تستمر اللغات في التغيُّر، بل في أن يحلَّ بعضُ اللغات محلَّ البعض الآخر، فإن هناك أموراً كثيرة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حركة التعدد والازدياد الكبرى التي وَسَمت التاريخ اللساني العالمي بميسمها منذ عشرات القرون قد أوقفتها ظروف التواصل الحديثة.

أما مسألة **الأصل الواحد في نشوء اللغات** فينبغي مقاربتها بشكل مختلف. ولنتصوَّرِ السيناريو التالي لنشوء السيمياء الإنسانية: أحسَّ أحدهُم بألَم فتوجَّع، فدفعَ هذا الصوتُ الغريزيُ أبناءَ جنسِه إلى الاهتمام به، أو إلى مداواته. سيلجأ هذا الرجل إلى هذا التوجُّع في كلّ مرة يشعر فيها بالألم، وستكون النتيجة واحدةً، وسينتهي الأمر بهذا الرجل إلى التوجُّع حتّى حين لا يُحِس بالألم حقيقة إن أراد أن يهتم به أبناءُ جنسه.

يُفترَض أنَّ هذا **الانتقال مما هو غريزي إلى ما هو متواطأ عليه** قد حدث في مجالات مختلفة ليولِّد أصواتاً متواطَأً عليها، تعبِّر عن الألَم والنداء والخوف والجوع والرغبة وغير ذلك. وينبغي أن نضيف إلى ذلك ظهور التقليد [لأصوات الطبيعة]، كما يحدث في الصيد على سبيل المثال، لاجتذاب الحيوانات أو لإخافتها أيضاً، أو ربما لمجرَّد التسلية. تُقدِّم هذه الأنواع صورة عن طرائق الأوَّلين في ابتداع قوانين التواصل أو بروتوكولاته. غير أنه ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن تكون هذه القوانين والبروتوكولات واحدة في وحدات العيش الموزعة على سطح هذا الكوكب، والمتحوِّلة إلى **وحدات للتواصل**، وإنما يولِّد هذا التواصل الجنيني عدداً كبيراً من القوانين أو البروتوكولات المختلفة.

بيد أن موريس سواديش (Maurice Swadesh)، وهو اللساني الوحيد الذي سلك سبيل جسبرسن في ما يخص عِلم إحاثة اللسان، [أي عِلم نشأته الأولى]، لم يتَّبع وجهة النظر هذه، فقد اقترح في كتاب له نشره عام 1967[(9)] أن يميِّز، على غرار مفردات عِلم ما قبل التاريخ، بين عصرِ حجري أوَّلَ للكلام، وعصرِ حجري ثان، وعصرِ حجري جديد، مؤكِّداً بكثير من التفاؤل ما يلي: «لا نعرف حتّى الآن إلى أين يمكن أن نمضي في سبْر أغوار آلاف السنين الماضية، غير أنه لا مجال للشك في أن ضوءاً سوف يُلقى على العصر الحجري الثاني القريب، أي على ماضٍ يمتد عمره من 50000 إلى 100000 عام، اعتماداً على العمل الدؤوب لعدد من الخبراء»[(10)].

(9) اللسان وحياة الإنسان الذي نحيل عليه في ترجمته الفرنسية: Maurice Swadesh, *Le Langage et la vie humaine = El Lenguaje y la vida humana*, langages et sociétés; ISSN 0399-8665, trad. de l'espagnol par Christine de Heredia (Paris: Payot, 1986).

(10) المصدر نفسه، ص 31.

ويلخص موريس سواديش رؤيته لمراحل اكتساب اللسان في الجدول الآتي:

1 ـ **العصر الحجري البعيد** (منذ أكثر من مليون عام):

ـ تعجُّب تلقائي، أصواتٌ تقلد أصوات الطبيعة.

ـ عدد من الإشاريات مع اشتقاق داخلي.

ـ تراكيب بسيطة نادرة.

ـ لسان متجانس نسبياً.

2 ـ **العصر الحجري القريب** (منذ ما يقرب من 100000 عام):

ـ تعجُّبٌ تلقائي، أصوات تقلد أصوات الطبيعة.

ـ تنامي الإشاريات.

ـ بضع مئات من الألفاظ المصاحبة المشتقة من الأصوات المقلَّدة.

ـ ازدياد الاشتقاق الداخلي.

ـ تراكيب أوفر عدداً.

ـ لغات متميزة حسب المناطق الكبرى.

3 ـ **العصر الحجري الجديد** (منذ ما يقرب من 10000 عام):

ـ تعجُّب تلقائي، أصوات تقلد أصوات الطبيعة.

ـ تقلُّص عدد الإشاريات.

ـ تقلُّص الاشتقاق الداخلي وبداية الاشتقاق الخارجي.

ـ ما يقرب من 300 عنصر مختلف.

ـ تراكيب داخلية وخارجية.

ـ عدد من اللغات المتميِّز بعضُها من بعض[11].

نرى إذاً كيف يقوم سواديش بدور المُدافع عن فكرة الأصل الواحد في تكوُّن اللغات، ويستند في رأيه إلى استدلال بسيط: لقد قام اللسانُ المصطلَح عليه على مبدأ اللسان العفوي، فهو إذاً **واحد** للجميع. ثمّ يضيف قائلاً: «ربما تكون لغات الأقاليم التي ما يزال أهلها يتفاهمون بها إلى حدّ بعيد، قد أخذت شكلاً محدداً بعد أكثر من مليون عام»[12]. غير أن سواديش ليس مقنعاً في هذه المسألة، فالمعروف أن ما هو غير اصطلاحي في اللغات الحديثة، أو على الأقل ما نعتبره غير اصطلاحي فيها، أي **أسماء الأصوات** على سبيل المثال، لا يسير في هذا الاتجاه؛ فلئن كان الديك يصيح في الفرنسية «كوكوريكو» (cocorico) فهو يصيح في الأسبانية «كيكي ريكي» (quiquiriqui)، وفي الإنجليزية **«كوك أَ دودْل دو»** (cock a doodle doo). ووجوهُ الخلاف في الأسماء التي تقلد أصوات الطبيعة أكثرُ من وجوه الاتفاق، لا في المثال الذي اخترناه هنا فحسب، وهو في صياح الديك، بل في جميع اللغات، وجميع أسماء الأصوات.

في ما عرضناه في الصفحات الماضية شيءُ من الفوضى وعدم الانتظام، ولذلك فإننا نعتقد بأن من المفيد في خاتمة هذا الفصل أنَ نقدِّم عرضاً موجزاً لمختلف الفرضيات التي ألْمَمْنا بها إلمامة سريعة:

1 ـ الأداة والتواصل يظهران في وقت واحد تقريباً ويتطوران معاً بشكل متواز، (فنحن نتكلم كما نستخدم الأداة). وسواءٌ أبَدأَ

(11) المصدر نفسه، ص 42.

(12) المصدر نفسه، ص 45.

التواصلُ منذ مليون عام، على ما تصوره سواديش، أم كان أحْدَثَ من هذا التاريخ، فإنه بدأ أولاً بأصوات مفردة معزولة، (ومن المؤكّد أنه بدأ بالإشارة كذلك، غير أن الصوت سرعان ما أثبت تفوُّقه على الإشارة في الظُّلمة).

2 ـ لقد تحوَّل اللسان شيئاً فشيئاً استجابةً لحاجات الناس: صيد، موازين قوى، حكايات ... إلخ. وقد مضت حركة التطور هذه انطلاقاً من مجرَّد قوائمَ بالكلمات (هي عبارةٌ عن علامات لغوية معزولة منفردة لا رابطَ بينها) إلى شِفْرات (هي بروتوكولات أولية غير متجانسة تنحو إلى التبسيط وإلى الانتظام)، ومن تعددية قصوى (فَكُلّ وحدة عيش لها قوائمُ كلماتٍ تخصُّها) إلى التوحُّد (فالجماعات المتجاورة محتاجة في علاقاتها إلى مواءمة وسائل التواصل في ما بينها).

3 ـ في مطلع فجر التواصل البشري كانت التعددية اللغوية هي المسيطرة رغم ما يقوله موريس سواديش، ورغم حكايات التكوين التي يقدِّمها عددٌ من الأديان (والتي سوف نعود إليها في الفصل التالي).

إن الفرضية التي ندافع عنها هنا هي أنَّ العالَم منذ بداية التواصل البشري، كان عالَماً متعدد اللغات. غير أن السؤال هو التالي: ما الذي قدَّمه هذا التواصل للجنس البشري؟

لقد سمح له هذا التواصل أولاً بأنْ **يقوم بِكُلّ ما لم يكن بمستطاعه القيام به من دون اللغة**. من ذلك نقلُ التقنيات في الوقت الذي لم يعد فيه التمثيل بالإشارة البسيطة كافياً لشرح تعقيدات المهارات اليدوية (أي حين لم يعد يكفي أن يقول الواحد للآخر: انظرْ كيف أنحتُ هذا الحجر الصَّوّان، بل صار ضرورياً أن يقول له:

استمعْ إلى ما أشرحه لك عن كيفية نَحْتِه). يقدم لنا هذا المثالُ أحدَ محرِّكات تطوُّر اللغة، وأحدَ المصادر المنتجة للسان والتي تحدثت عنها أعلاه. ومن ذلك أيضاً الحكايات، أي الذاكرة الجماعية كما نراها في المجتمعات ذات التقاليد الشفوية. ومن ذلك أخيراً التهديدُ المشروط، فمن دون اللسان لا يمكن أن نقول: «إنْ فعلتَ هذا أو إنْ لم تفعلْ ذاك فعلتُ هذا أو لم أفعلْ ذاك»؛ ذلك أنَّ اللغة هي السلاح الأمضى في يدّ أصحاب الابتزاز، وفي يدّ الإرهابيين، وفي يدّ خاطفي الرهائن، وفي يدّ القوى العظمى حين تناقِش مسألة نزع السلاح على سبيل المثال. يعني هذا أنَّ اللغة منذ البداية متصلة بموازين القوى وبالسلطة وبالمفاوَضة، وليس من المستبعد تصوُّرُ علاقةٍ ما بين أشكال السلطة هذه وتطورِ اللغات أنفسها، فظهور الأمر والشرط وغيرهما في النحو مرتبطٌ بلا ريب، بموازين القوى. غير أن هذه قضية أخرى.

لأن ما يعنينا هنا هو أن التواصل الجنيني **قام بشكل أساسي بوضع البشر في موضع صراع سيميائي دائم**؛ فالجماعات الأولى التي كانت تتواصل في ما بينها كانت في مواجهة دائمة مع لغات الآخَرين، في مواجهة الاختلاف السيميائي، وفي مواجهة مشكلات التفاهم وعدم التفاهم في ما بينها، وفي مواجهة تعدد اللغات واحتقار الشكل اللغوي الذي يأتي به الآخَر. كان على هذه الجماعات وهي تتداول السلطةَ والنفوذ في ما بينها أن تتدبر أمر هذه التقلبات وهذه الاختلافات. ولا شكّ في أنَّ الإغريق الذين قرروا بِكُلّ بساطة، أنَّ جميع الذين لا يتكلمون اللغة الإغريقية لا يتكلمون في الحقيقة، وإنما يُصْدِرون مجرد قَرْقرة في أحسن الأحوال، وأنهم إذاً **برابرة**، لا يشكلون مثالاً وحيداً معزولاً.

وسواءٌ أتعلق الأمر باحتقار أيديولوجي للغةِ الآخَر أم بالرغبة في

ابتلاعها[13]، فإن **حرب اللغات** تبدو محفورةً في تاريخ البشرية منذ أنْ حوَّلت البشريةُ أصواتَها الأولى وإشاراتِها الأولى إلى علاماتٍ لغوية.

(13) انظر: Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1974).

[هذا المصطلح: «البلدان التي تبتلع اللغات» (Glottophagie) مصطلح ابتدعه لويس - جان كالفي في كتابه المذكور أعلاه].

الفصل الثاني

الأديـان واللـغـة:

أسطورة الأصل الواحد وأسطورة التفوق

ثمة أمرٌ بدهي، وهو أنَّ حرب اللغات التي يتناولها هذا الكتاب من أوله إلى آخره، لم تكن لتكون لو كان العالَم كلُّه يتكلم لغةً واحدة، فالتعدد اللغوي أصلُ النزاع. ولا يعني هذا القول أنَّه السبب الوحيد لهذه الحرب، ولكنه الشرط الضروري لحصولها.

إن نظرنا إلى خارطة لغوية للعالَم، وبحثنا في الدول وفي حدودها عن الشعوب وعن لغاتهم، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام شبكة معقدة متداخلة متعددة الطبقات: في طبقتها الأولى أشكالٌ لغوية مُغْرِقة في طابعها المحلي، أي لغاتٌ كلٌّ واحدةٍ منها لغةٌ محليةٌ **محصورةٌ في قطيعِها**، (سوف نحدُّ هذا اللفظ في فصل لاحق، غير إننا نكتفي هنا بتسجيله). تعلو هذه الطبقةَ الأولى طبقاتٌ أخرى: لغاتٌ إقليمية على مستوى إقليم من أقاليم الوطن، ثمّ لغاتٌ وطنية على مستوى الوطن بأَسْره، وفوق هذه وتلك لغاتٌ، كلُ واحدةٍ منها لغةٌ ناقلةٌ **منتشرةٌ** عابرةٌ للأوطان (سوف نحدُّ كذلك هذا اللفظَ فيما يلي من البحث) بحيث تشكل هذه الطبقات جميعاً نسيجاً معقداً متحركاً.

إن هذا الوضع الذي ينطبق على العالَم بشكل عام، ينطبق على كلّ بقعة من بقاع الأرض عند بني البشر، فلا يوجد بلد متوحِّد اللغة. ومصيرُ الإنسان أنْ يكونَ في مواجهة اللغات **المتعددة**، لا أنْ يكون في مواجهة اللغة **الواحدة**.

يمكن إذاً أن نتساءل عن هذه التعددية اللغوية، وعن أصلها، وعن نتائجها، كما فعلنا ذلك في الفصل السابق. ولكنه يمكننا كذلك أن نسلِّط الضوء على التفاسير الأيديولوجية التي قدَّمتها الثقافة الإنسانية لهذه التعددية ابتداءً ببعض التفسيرات الدينية. وسوف نأخذ في الحسبان هنا ديانتَين اثنتين، هما المسيحية والإسلام عبر كتابَيهما المؤسِّسَين: **التوراة** و**القرآن**.

تظهر قضيةُ اللغة في عدد من المقاطع في التوراة. نهتمُّ منها أكثرَ ما نهتمُّ بالطبع، بعدَّةِ أسطُرٍ في «سِفْرِ التكوين» تقدِّمُ أسطورةَ برجِ بابل، وهاكُمُ النصّ(*):

1 ـ وكانت الأرضُ كلُّها لساناً واحداً ولغة واحدة.

2 ـ وحَدَثَ في ارتحالهم شرْقاً أنهم وجدوا بقعةً في أرض شنْعارَ وسكنوا هناك.

3 ـ وقال بعضُهم لبعض: «هلُمَّ نصنعْ لَبِناً ونَشْوِه شيّاً» فكان لهم اللَّبِنُ مكانَ الحجر، وكان لهم الحُمَرُ مكان الطين.

4 ـ وقالوا: «هلمَّ نبْنِ لأنفسنا مدينةً وبُرجاً رأسُه بالسماء، ونصنعْ لأنفسنا اسماً لئلا نتبدَّدَ على وجه كلِّ الأرض».

5 ـ فنزل الربُّ لينظرَ المدينةَ والبرجَ اللذين كان بنو آدم يبنونهما.

(*) انظر: **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الإصحاح 11.

6 ـ وقال الرب: «هوذا شعبٌ واحد ولسانٌ واحدٌ لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كلُّ ما ينوون أن يعملوه».

7 ـ «هلمَّ نَنْزِلْ ونُبلبلْ هناك لسانَهم حتّى لا يسمعَ بعضُهم لسانَ بعض».

8 ـ فبدَّدهم الربُّ من هناك على وجهِ كلِّ الأرض. فكَفُّوا عن بنيان المدينة.

9 ـ لذلك دُعي اسمُها (بابل). لأن الرب هناك بَلْبل لسان كلّ الأرض. ومن هناك بدَّدهم الرب على وجه كلّ الأرض(1).

إنْ أُخذ هذا النصّ على ظاهره برزت فيه أمور عديدة:

ـ فرضيةُ الأصل الواحد للغات (آية 1)، وهي نتيجة منطقيةٌ للإصحاح الأول وللإصحاحِ الثاني من سِفر التكوين، فقد سمى الله السماوات والأرض وغيرهما(*) (الإصحاح الأول)، وسمى آدمُ الحيوانات(**).

ـ وصفُ تقنيةٍ معينة للبناء (الآيات 3 و4 و5) يُجمِع الشُرّاح على أنها تشير إلى الزِّقُرَة، وهي ما شيَّده البابليون من أبراج هرمية متعددة الطبقات مصنوعةٍ من الآجُرّ والقار (كانوا في فلَسطين

---

(1) *Genèse*, XI, 1-9, traduction de la bibliothèque de la pléiade (Paris: [s. n.], 1956).

(*) **الكتاب المقدس**، «سِفر التكوين،» الإصحاح 1، ص 3: «ودعا اللهُ الجَلَدَ سماءً»، «ودعا اللهُ اليابسةَ أرضاً».

(**) المصدر نفسه، الإصحاح 2، ص 5 ـ 6: «وجَبَلَ الربُّ الإلهُ من الأرض كلَّ حيوانات البرّيَّة وكل طيور السماء. فأحضرَها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكلُّ ما دعا به آدمُ ذاتَ نفسٍ حيَّةٍ فهو اسمُها. فدعا آدمُ بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرّية».

يستخدمون تقنية مختلفة في البناء: من الحجر والمِلاط).

- صورةُ مجتمع متجانس نسبياً ومنظم (الآية السادسة)، ولكنْ يبدو أن تنظيمَه لا يروقُ للإله الأزلي الأبدي.

- فكرةُ العقاب الإلهي (الآيات 7 و8).

- ثمة أخيراً إشارةٌ لغوية في الآية التاسعة: «لذلك دُعي اسمُها بابل». يستند هذا المقطع إلى تلاعب بالألفاظ (أو إلى اشتقاق زائف يجمع بين لفظِ «**بابل**» وفِعلِ «**بَلبَل**» (**بالَل** بالعبرية) الذي يعني في العبرية (وَهِمَ والتبس عليه الأمر)، في حين أن لفظ «بابل» يرجع، في حقيقة الأمر، إلى «**باب إيلي**» الذي يعني «باب الله» والذي جاءت منه بلاد بابل (Babylone).

إن أكثرَ ما يهمنا هنا هو بالطبع «بلبلة الألسنة» التي تمثّل، حسب التوراة، أصلَ التعدد اللغوي.

هناك ما قبْلَ بابل وما بعد بابل؛ فلقد مرَّ زمانٌ قبل بابل «كانت الأرض كلُّها لساناً واحداً ولغة واحدة»، وجاء زمانٌ بعد بابل بلبلَ فيه الربُّ الألسنةَ ... وبدّدهم. هذا البرج الذي غالباً ما صوَّره الرسّامون والنحّاتون بقي رمزاً معقداً راسخاً في المخيلة العامة، ذلك أنه يختلط فيه غرورُ الإنسان - إذ كيف يجرؤ على الصعود إلى السماوات - بالعقاب الإلهي له على هذا الغرور. كما تختلطُ فيه الطُّرفةُ عن أصل تعدُّدِ اللغات بِالحُكْم على قيمةِ هذا التعدُّد، وهو حُكْمٌ صار معنى شائعاً يعتبرُ التعدُّدَ اللغَوي عِقاباً.

هذه قراءة أولية تكتفي بظاهر النصّ، وهي القراءةُ الأكثرُ شيوعاً. غير أن هناك قراءةً أخرى لا ترى في اختلاط اللغات وتبديد البابليين رَدّاً إلهياً على غرور البشر، بل شرطاً ضرورياً لتحقُّق المصير البشري. يشير كلود حجاج (Claude Hagège) على سبيل المثال إلى

إمكان وصْل هذا المقطع بمقطع آخر في سِفر التكوين (الإصحاح 1، الآية 28): «أثْمِروا واكثُروا واملأوا الأرضَ وأخْضِعوها»، فيقول: «ليست وحدةُ اللغةِ بَرَكةً حُرِم منها البشرُ فجأة، بل هي عقبةٌ كأداءُ تعترض رسالتهم. إنّها الحاجز الذي يمنعهم من تقرير مصيرهم. ولذلك كان لا بدّ من تحقُّق الشتاتِ الاجتماعي الذي لا ينفصل هنا عن الشتات اللغوي»[2]. غير أن هذه الأقوال ليست إلا صراعات بين المفسِّرين.

أما ما ينبغي علينا بالفعل أن نستخلصه فهو أن عدداً كبيراً من الناس ينظر إلى التعدد اللغوي على أنه عقاب، بل على أنه لعنة، اعتماداً على أسطورة بابل. بهذا المعنى، يبدو اللفظُ الذي ولَّدتْه الفرنسيةُ حديثاً لتسمية **البلبلة** (Babélisation) والذي يعني «تعدُّدَ اللغات في منطقةٍ ما»، موازياً لغوياً للفظِ **البلقنة** (Balkanisation) بين الدول؛ فالتعدديةُ سيئةٌ في الحالتين، والناس يفضِّلون، على غرار اليعاقبة المتعصبين من أنصار المركزية[*]، دولةً كبيرةً أحاديَّةَ اللغة تسيِّجُها حدودٌ سياسية ولغوية محددة. بيد أن هذا الأمر نادر لسوء الحظ، إنْ لم نقلْ إنّه لا وجود له. وها نحن ذا من جديد أمام بابل.

إن إحدى نتائج هذه النظرة الأيديولوجية للتعدد اللغوي هو ذاك الجدلُ الذي ظهر في عصر النهضة عن اللغة التي قبل بابل، وكنا تحدثنا عن هذه النتائج في كتاب آخر.

في الصراع الذي حمي وطيسُه في أوروبا في القرن السادس

---

(2) Claude Hagège, «Babel: Du Temps mythique au temps du langage,» *Revue philosophique*, no. 4 (octobre-décembre 1978), pp. 469-470.

(*) يُطلق اسم اليعاقبة في السياسة على جماعة ثورية اتخذت من دير قديم لليعاقبة في باريس مقراً لها، وصار اللفظ يعني مجازاً الجمهوريين المتعصبين من أنصار الدولةَ المركزية.

عشر اعتُبِرت العبرية عموماً لغةَ بابل، أي **لغةَ** ما قبل العقاب. غير أن كلّ جماعة كانت تحاول أن تبيِّن أن لغتها (سواءٌ أكانت الإيطالية أم الفرنسية أم الألمانية أم غيرها) هي الأقرب إلى تلك اللغة التي تعود إلى الأيام السعيدة[3]. ونَتَجَ عن ذلك أنَّ أولى طُرُقِ إدارةِ التعددية اللغوية كانت تقضي باعتبار اختلاف اللغات دليلاً على عدم المساواة في ما بينها؛ فالغرباء **برابرةٌ عند أهل أثينا لأنهم لا يتكلمون الإغريقية** .ويعج التاريخ بعبارات تدلّ على عدم تقدير لغة الآخر. مثالُ ذلك في الإنجليزية والفرنسية عباراتٌ من مثل «Speak White» (قلْ كلاماً أبيضَ، أي كلاماً صادقاً ذا قيمة)، «Arrête de baragouiner» (توقَّفْ عن الرطانة، أي عن الكلام السخيف)، «Qu'est-ce que c'est que ce charabia» (ما هذا **الخليط العربي**؟ أي هذا الحديث المشوَّش المتنافر)، «Ce petit nègre» (هذا **الزنجي الصغير**، أي هذا الحقير) . . . إلخ.

لا ريب في أنه لا ينبغي أن تُحمَل الأساطير على محمل الجد، ولو كانت أساطيرَ دينية. غير أنه لا ينبغي كذلك أن ننسى أن مثَلَ هذه الأساطير، كمثَل الأفكار الجاهزة، تحكُمُنا وتَسِم بميسمها عشراتِ الأجيال من البشر في نظرتهم إلى تجاربهم الاجتماعية، وأنها سوف تتابع مسيرتها طويلاً على هذا الطريق. ولذلك فإن فكرة اعتبار التعددية اللغوية عقاباً إلهياً تبدو لنا مهمة، وإن لم تكن دائماً موافقة للتفسير الجادّ للنصوص المقدسة، لأنها تسلِّطُ ضوءاً كاشفاً على الطريقة التي ينظر فيها الناس إلى علاماتهم اللغوية، وعلى الطريقة التي يديرون بها اختلافاتهم.

---

(3) انظر: Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1974), pp. 17-20.

ليست التوراة الكتابَ المؤسِّسَ الوحيدَ الذي يقدِّم درساً في اللغة، **فـالقرآن** يتناول جوهرَ سيناريو «سِفر التكوين»، ولكنْ بصورة مختصرة في «سورة البقرة»: خَلَق اللهُ الأرضَ والسماوات(*)، ثمّ خلَق آدمَ الذي سمَّى الحيوانات(**). وفي القرآن، الذي لا يأخذ موقفاً من قضية أصل التعدد اللغوي(***) (ولا تظهر فيه قصة بابل)، إشاراتٌ لغوية كثيرة ترجع إلى فكرتين أساسيتين:

ـ **الفكرة الأولى** أن لغة القرآن، أي لغةَ النصّ الذي أُنزِلَ على النبي «**عربية فصحى**»(****).

والواقع أن لغة الكتاب تطرح عدداً من المسائل الفلسفية التي لا يمكن أن يُكتفى فيها بالفكرة العامة المبهمة عن «عربية فصحى»[4]، فهذه اللغة تترجَّحُ بين أهل التراث الذين يزعمون أن النصّ أُنزِل على محمّد بلهجة قريش، والمختصين الذين يميلون، على العكس من ذلك، إلى لغة عربية مشتركة. غير أن فكرة العربية الفصحى الصافية

(*) يحيل النصّ الفرنسي إلى **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية 27، وهو خطأ ظاهر. أما ذِكْر السماوات والأرض في سورة البقرة فقد ورد في الآية 29: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهنَّ سبعَ سماوات وهو بِكُلِّ شيء عليم﴾.

(**) في الآيات 31-33 من سورة البقرة: ﴿وعلَّم آدمَ الأسماء كلَّها ثمّ عرَضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا عِلمَ لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾.

(***) لا يتحدث القرآن عن الأصل الواحد للغة، بل يتحدث في أكثر من موضع عن اختلاف الألسنة وعن اختلاف الشعوب التي خلقها الله للتعارف.

(****) العربية الفصحى أي العربية الصافية التي لا اختلاط فيها، فالإحالة في التسمية إنما هي إحالةٌ إلى الصفاء لا إلى التقدُّم في الزمان.

(4) انظر على سبيل المثال: Régis Blachère, *Introduction au Coran*, 2è édition (Paris: Besson et Chantemerle, 1959), pp. 156-169.

تظل رغم ذلك فكرةً مركزية في وعي المسلمين، وهو ما يقودنا إلى:

الفكرة الأساسية الثانية، وهي: **أن الأسلوب القرآني معجِز.** والمقاطع التي يظهر فيها تأكيد هذا الإعجاز كثيرة:

﴿وإن كنتُم في ريبٍ مما نزَّلْنا على عبْدِنا فأْتوا بسورة من مثله﴾ (سورة البقرة، الآية 23).

﴿أم يقولون افْتراه قل فأْتوا بسورة مثله﴾ (سورة يونس، الآية 38).

﴿أم يقولون افْتراه قل فأْتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفترَيات﴾ (سورة هود، الآية 13)(5) ... إلخ(*).

عادةً ما يُعتبَرُ هذا النمط الشائع من الأدلة في القرآن ضربةً قاضية: أي حجةً قاطعة على أن النصّ ليس من اختراع محمّد، وإنما أنزله الله عليه، لأنه ليس بمقدور أحد أن يأتي بمثله. ونجد في أدب الرؤى (Apocalyptique)، وفي الاتجاه الإسلامي العام، تأكيداً بأن العربية لغةُ آدم، وهي لغة الجنة؛ فقد كتب الجزائري(6) أن «العربية لغة آدم، وهي أيضاً لغة الجنة، وحين عصى آدم ربَّه جعل الله السريانية لغة له»، فاخترع بقوله هذا العقابَ الأعظم: حرمانَ الإنسان العاصي

---

(5) ترجمة الآيات القرآنية مأخوذة عن: *Le Koran*, chefs-d'oeuvre étrangers. Classiques garnier, [traduction précédée d'un abrégé de la vie de Mahomet et accompagnée de notes par Savary] (Paris: Garnier frères, 1958).

(*) أرقام الآيات في Savary تختلف عنها في المصحف العثماني (كما أثبتناه في النص)، فهي هناك على التوالي سورة البقرة 21، وسورة يونس 39، وسورة هود 16.

(6) أعطانا هذا الاستشهاد عبد الله بونفور عن كتاب: السيد نعمة الله الجزائري، **النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين** (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1978)].

من لغته العربية. ولكننا نجد في الاتجاه الإسلامي خصوصاً فكرةً مؤداها أنه لا يمكنُ للغة أخرى أن تتفوق على العربية في الفصاحة وفي الشعر، ذلك أن نظرية إعجاز القرآن تتجاوز إلى حدّ كبير الدليل الذي ذكرناه والذي يبتغي إثبات حقيقة الأصل الإلهي للنصّ.

ولئن كان البلاغيون العرب الأوائل قد أخذوا على أنفسهم عموماً إثبات أصالة القرآن ومصدره الإلهي، عن طريق الأدلة اللغوية، فإن مشروعهم ما لبث أن تجاوز حدوده الأصلية الدينية ليعبِّر عن رهان اجتماعي قديم.

أما مراحل هذا المسعى فهي على قدر من البساطة: «يُثبَتُ» في المرحلة الأولى أن النصَّ نصٌّ إلهي، لأنه مُعجِز، والدليل عليه، كما رأيناه، موجود في القرآن نفسه. ثمّ يُبَيَّنُ في مرحلة ثانية أن الفصاحة الإلهية مرتبطة باللغة العربية التي يَستغِلُّ النصُّ المقدَّسُ إمكاناتِها أحسنَ استغلالٍ، مصداقاً للآية 195 من سورة الشعراء: ﴿بلسان عربي مبين﴾. ومن جهة أخرى لا يمكن لأحد أن يزعم أنه يستطيع في أي لغة أخرى، أن يفعل ما عجز العرب عن فعله، أي تجاوُزَ القرآن في فصاحته. وهكذا يستتبعُ إعجازُ الكتابِ المقدس تفوُّقَ اللغة العربية نفسِها، لأنه إن كان العربيُّ الفصيح لا يستطيع أن يباري النصَّ القرآني (وهو الذي نزل بالعربية بالطبع)، فستكون اللغاتُ الأخرى والمتكلمون بها خلْف ذلك بكثير.

يقال غالباً إن أحد الفروق بين المسيحية والإسلام هو في أن الإسلام لا يعتمد على المعجزات في إثبات حقيقته. غير أن ما ذُكر من إعجاز القرآن يُثبتُ خطأً هذا القول، إذ اعتُبِرَ النصُّ القرآني معجزةً حقيقية، وآيةً في الفصاحة، حتّى إن الروايات تتحدث عن اعتناق كثيرين للإسلام بمجرد الاستماع إلى القرآن (كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب على سبيل المثال). ويدل على صحة هذه المسألة

أن الكفار في أيام النبي قد صوَّبوا سهامَ نقدِهم نحو مسألة الإعجاز، وأن الحركة هذه قد استمرت طويلاً:

«يمكن أن نلتقي من وقت لآخر عبر العصور بمُلحِدٍ من أمثال ابن الراوندي، أو بأحد أصحاب الرأي من النظّار، من أمثال المتكلم عيسى بن قابين (Isa ibn Cabîn)[*]، أو بالمعري الشاعر الفيلسوف، كما يقولون، ممن كان يعتقد أن الأسلوب القرآني ليس فيه شيء مما لا يستطيع الكاتب الجيد أن يأتي به، بل إن بعضهم مضى في الجرأة إلى أبعد من هذا فلم يتردد في تقليده»[7].

غير أن هذا لم يمنع قط من نشوء نظرية تجعل الفصاحة «سمة مميِّزة من سمات العرب»: فالعربية لغةُ الله[**]، هي إذاً لغة كاملة، والعرب يتكلمون لغة الله، فهم إذاً شعبٌ مختار، والعربيُّ أفصحُ الناس، لا يفوق كلامَه فصاحةً إلا الكلامُ الإلهي، والعربي أمير الفصاحة والشعر[8].

بين التوراة والقرآن إذاً، رغم اختلافهما الكبير في تاريخهما وفي الأثر التاريخي لِكُلّ منهما، عددٌ من المسائل المهمة يجتمعان فيها؛ ففي سِفر التكوين أولاً، ثمّ في سورة البقرة التي تحذو حذوه بشكل كبير، تأكيدٌ بأن الله خلقَ العالَم وسمَّاه. غير أن التوراة وحدَها تُقرِّرُ بوضوحٍ الأصلَ الواحد للغات، وهي الوحدانيةُ اللغويةُ التي

(*) هكذا في الأصل، ولم نعثر على ترجمة له.

(7) Blachère, *Introduction au Coran*, p. 170.

(**) لا يتحدث المسلمون حين يتناولون هذه المسألة عن «لغة الله» ولكن عن «كلام الله».

(8) انظر رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة التي أعدها عبد الله بونفور تحت إشراف رولان بـــارت: Abdallah Bounfour, «Théories et méthodologies des grandes écoles de rhétorique arabe», école pratique des hautes études, 6ème section.

وضعتْ حدّاً لها حادثةُ بابل. وقد رأينا أن العقاب الإلهي جعل كثيرين يرون في التعدد اللغوي لعنة. غير أن القرآن غالباً ما يُفَسَّر في الاتجاه نفسه، فليس في الأصل إلا لغةٌ واحدة هي العربية، لغة الله، ولغة آدم ولغة الجنة.

في الحالين إذاً مصيبة أوَّلية واحدة تصيب في التوراة الجنسَ البشريَّ كلَّه فتحرمَه من نعمة اللغة الأصلية الواحدة، ولكنها لا تصيب في القرآن إلا جزءاً منه، ممن لا يتكلمون العربية.

هذا التعدد اللغوي الذي شاءه الأزليُّ الأبديُّ سوف يظهر مرات عديدة في الكتاب المقدس بعد بابل بصيغ مختلفة، فقد جاء في أعمال الرُّسُل (Actes des apôtres)، في عيد العَنصَرة بالطبع:

«وظهرتْ لهم ألسنةٌ منقسمةٌ كأنها من نار، واستقرَّت على كلّ واحد منهم، وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدؤوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا»[9].

يتكوَّن لدينا من خلال هذا المقطع انطباع بأن الروح القدس يدبِّر الأمر في هذا الإرث الصعب، إرثِ التعدد اللغوي، وبأن تركة بابل أقرب إلى أن تكون عائقاً في وجه تبشير الرُّسُل بالإنجيل، وبأنه لا بدّ إذاً من إعطاء الرُّسُل موهبة [معرفة] اللغات، وهي معرفة جعلتها بلبلةُ اللغات ضرورة.

إلا أن هذه الرسالة، في جوهرها، رسالةُ سلام، مع أن الإرث الحربي لبابل حاضر في النصّ في هذا المقطع من سِفر القضاة الذي يحكي أن أبناء قبيلة جَلعاد هَزموا عسكرياً أبناء قبيلة أفرايم واحتلوا

(9) **الكتاب المقدس**، «أعمال الرسل،» الإصحاح الثاني، الآيات 3-4.

ضفاف نهر الأردن، أي المعبر الذي كان يمكن لأبناء أفرايم أن يسلكوه للفرار:

«فأخذ الجلعاديون مخاوضَ الأردن لأفرايم(*)، وكان إذا قال مُنفَلِتو أفرايم: «دعوني أعبرْ» كان رجال جلعاد يقولون له: «أأنت أفرايميٌّ؟» فإن قال «لا» كانوا يقولون له: «قلْ إذاً شِبُّولَت»، فيقول: «سِبُّولَت»، ولم يتحفَّظ للَّفظِ بحقٍّ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوِض الأردن، فسقط في ذلك الوقت من أفرايم اثنان وأربعون ألفاً»[10].

يستحق هذا المقطع بالطبع بعض الشروح، فالكلمة العبرية (شِبُّولَت) والتي تعني «السنبُلة» تبدأ، كما تدلّ على ذلك صورتها في الخط، بحرف من حروف التفشي، أما أبناء أفرايم فكان عندهم في هذا الموضع حرف من الحروف الصافرة، فكانوا يقولون (سِبُّولَت)، فكان هذا التغيير الصوتي كافياً لكشف هويتهم والحكم بالموت عليهم. هكذا إذن يصبح الاختلافُ اللغوي في التوراة نفسِها، مع أنه هنا اختلاف هيِّن (إذ لا يتعلق الأمر إلا ببديل لهجي) مكاناً يتجسَّد فيه الحقد على الآخر، ومكاناً لتمييز الآخر والحط من شأنه.

وقد كانت التوراة في هذه المسألة، كما كانت في غيرها، مثالاً احتذاه آخرون، وسوف نكتفي في التمثيل على ذلك بمثالين في مرحلتين مختلفتين من مراحل التاريخ:

أولاً في القرن السادس عشر، أثناء «صلاة الستَّار الصِّقِلِّيَّة» الشهيرة:

(*) هذا نصّ الكتاب المقدس، وقد جاء في النصّ الفرنسي الذي نترجمه هذه العبارة: «فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن قبل أن يصل إليها أبناء أفرايم» (Et les Galaadites s'emparèrent des passages du Jourdain avant que ceux d'Ephraïm y arrivassent).

(10) **الكتاب المقدس**، «سِفر القضاة»، الإصحاح الثاني عشر، الآية 6.

في الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس عام 1282، وفي الوقت الذي كانت تُقرع فيه أجراس صلاة الستّار، اندلعت في بالِرْما ثورةٌ في وجه المحتل الفرنسي. وكان المتآمرون لكي يتعرفوا على الفارّين في الشوارع يطلبون منهم أن يتلفظوا بالكلمة الصقلّية التي تعني (الحمّص)، والتي تبتدئ بحرف من حروف التفشي، لأنهم كانوا لا يحسنون التلفظ بها. ويحكي المغني الصقلي بينيتو مرلينو (Benito Merlino) هذه الحادثة في أغنيته «لِي فِسبيري» (Li vespiri) التي تقول:

- قل: «شيشيري» (di ciciri)

- «سيسيري» (sisiri)

- «الموت لك!» (a morti!).

تلخِّص هذه اللازمةُ الرهانَ (بين الحياة والموت) بطريقة جوهرية، وهو رهان يعتمد على معيار لغوي.

وفي العصر القريب منا مثالٌ آخر لهذه الطريقة، حين حاول الدكتاتور الدومينيكي تروجيللو (Trujillo) طرْدَ العمال الهايتيين، إذ يُروى أن الشرطة كانت تطلب لتمييز السود الهايتيين (ولغتُهم الفرنسيةُ، أو لغةٌ مختلطة) من السود الدومينيكيين (ولغتهم الإسبانية) أن يلفظوا اسم تروجيللو)، لأن الجيم الذي تُلفَظ فيه ياءً تُشْكِل على مَن لا يتحدث الإسبانية.

ويروي آخرون رواية أخرى تختلف قليلاً عن هذه، ولكنها تعتمد على المبدأ نفسه:

تعرفون أنه يصعب على السود الذين يتكلمون الفرنسية أن يلفظوا حرف الراء. وهذه أيضاً حال الهايتيين. في المقابل، يستطيع

السود من الدومينيكان التلفظ تماماً بهذا الحرف. وقد دفع هذا تروجيللو بساديّته المعروفة، إلى أن يأمر بأن يُطلب من جميع المعتقلين أن يتلفّظوا بكلمة بِرْرُو (Perro) التي تعني الكلب في الإسبانية. وكان يُقتل كلٌ من تلفّظ بها: بِغْغُو[11] (Pego).

ترسّخت عادة (شِبُّولَت) في التاريخ حتّى أصبحت هذه الكلمة العبرية اسمَ جنس مشتركاً في اللغة الفرنسية، فمعناها في القاموس: «امتحان حاسم للحكم على كفاءة الشخص». ولئن غاب المرجع اللغوي في حدّ هذه الكلمة، فإن الوقائع تذكِّرُنا، مِن قصة سِفر القضاة إلى قصة الدومينيك في عصرنا، أن الموت قد يكون معلّقا بصوتَم، أي بأصغر وحدة صوتية، أو بخلاف في النُّطق، وأن الصِّواتة، أو وظائف الأصوات، يمكن أن تكون فيها الهَلَكة!!! إننا مرة أخرى أمام حروب اللغات.

لئن اتفقت التوراة والقرآن إذاً في مسألة الأصل الواحد للغات، فإنّهما يفترقان في مسألة أخرى، مهمة أيضاً: هي مسألة إبراز قيمة هذه اللغة، لغة الله؛ فالنصّ المقدس الذي تعتمد المسيحية عليه ليس مرتبطاً بلغة مقدسة، فلقد كان مكتوباً بالآرامية قبل أن يترجم في فترة مبكرة إلى العبرية والإغريقية والسريانية والقبطية والقوطية واللاتينية والسلافية وغيرها، دون أن يتسبب ذلك في مشكلة.

ولا ينبغي أن نفهم خطأً الجدال الذي دار في النصف الثاني من القرن العشرين عند الكاثوليك بين أنصار إقامة القداديس باللاتينية وأنصار إقامتها باللغات المحلية، فليس للمسيحيين لغة مقدسة، بخلاف الأمر عند المسلمين، الذين يعتبرون القرآن على أي حال

---

(11) Jean Contenté, *L'Aigle des Caraïbes*, collection vécu, récit recueilli par Robert Vergnes (Paris: R. Laffont, 1978), p. 94.

نصّاً لا تمكن ترجمته، ويعتبرون لغته لغة إلهية. ويترتب على ذلك أنه إن كان المسيحيون يعتبرون ما قبل بابل خيراً مما بعدها، فليس ذلك مرتبطاً بأسباب لغوية، ولا تتمثل عندهم المصيبةُ التي حلت بالبشر في فقدان لغة تتميز بكمالها، وإنما تتمثل في العقاب الإلهي الناشئ عن غرور الإنسان، أما في الإسلام فالأمر على خلاف هذا، لأن العربية هي اللغة بامتياز، لغة الشعر ولغة الفصاحة، وهي تعطي لأصحابها ميزة لغوية على غيرهم، ولذلك لم يزعم أحدٌ قطُّ أنه أخذته النشوةُ والذهول حين سمع التوراة، في حين أن التراث الإسلامي كما ذكرت، يزخرُ بهذا النوع من الحكايات والطرائف عن القرآن، فشكلُ النصِّ في القرآن على قدر أهمية المضمون، وهذا هو مغزى إعجاز القرآن.

إن الأساطير التي يؤسِّس لها هذان الدينان، أو التي تؤسِّسُ لها، على الأقل، قراءةُ بعضِهم لهذين الدينين: أسطورة الأصل الواحد للغات، وأسطورة تفوق إحدى اللغات على غيرها، تحمل في طياتها أدلَّةً أيديولوجية من شأنها أن تغذي الصراع بين اللغات.

لقد رأينا في الفصل السابق أنه لا توجد أدلةٌ علمية تعزز سيناريو الأصل الواحد للغات، وأن الأرجح في هذا بلا ريب أن تكون الكفاءةُ اللسانية للإنسان قد تجسَّدت ببطء في آلاف القوانين أو البروتوكولات المختلفة، وتطورت تطوراً بطيئاً استجابةً للحاجات الاجتماعية نحو اللغات الأولى.

ولا نريد أن نستخف بعقل القارئ فنقول بأنه لا توجد لغاتٌ عليا ولغات دنيا. في الحالتين اللتين رأيناهما في التوراة وفي القرآن، لا يستوقفنا المظهرُ العلمي، (فالنصوص المدروسة لا تحمل علماً بل أساطير)، وإنما يستوقفنا المظهرُ الأيديولوجي فيهما، وآثارُهما الأيديولوجية والمستمرة عبر العصور. فباسم قراءة معينة للتوراة في

القرن السادس عشر سوف يُخضِعُ التفكيرُ اللغويُّ لمقتضيات الصراعاتِ الوطنية، التي يحاول كلُّ وطنٍ فيها أن يُثبِت أن لغته أقربُ اللغات إلى لغة ما قبل بابل، وباسم قراءة معينة للقرآن سوف تُطوَّر نظريةٌ عِرقيةٌ تحاول إثباتَ تفوق العربية على غيرها من اللغات.

الفصل الثالث

عالَم متعدد اللغات

الناس إذاً في مواجهة اللغات.

أينما كانوا، وأيّاً ما كانت اللغة الأولى التي سمعوها أو تعلَّموها، فإنهم يلاقون لغاتٍ أخرى في كل يوم فيفهمونها أو لا يفهمون، ويتعرفون عليها أو لا يتعرَّفون، ويحبُّونها أو لا يحبون، وتحكُمُهم أو يَحكمونها: فالعالَم متعددُ اللغات. تلك حقيقة واقعة. والتاريخ اللغوي الذي هو مظهر من مظاهر تاريخ العالَم، ليس في جزء كبير منه سوى إدارةٍ لهذا التعدد اللغوي.

ليس التعدّد اللغوي ـ خلافاً لما يمكن للبعض أن يتصوَّره ـ وضعاً خاصاً، وليس مقصوراً على مناطق مخصوصة، ولا هو سِمةٌ من سمات العالَم الثالث على وجه التحديد، أو من سمات البلدان النامية التي نتصورها بداهةً موزعةً بين «لهجاتها»، و«لغاتها المحلية»، و«لغاتنا»، فالتعددية اللغوية قدَرٌ مشترَك، وإنْ ظهرت بأشكال مختلفة في كل حال. وسنحاول في هذا الفصل أن نصف الأحوال المختلفة، وأن نُلِمَّ بتصنيفٍ لأوضاع التعدد اللغوي.

الثنائية اللغوية والازدواجية اللغوية

لم يظهر مصطلح الازدواجية اللغوية (Diglossie) في أدبيات اللسانيات إلا في عام 1959 حين استخدم اللساني الأمريكي شارل فرغيسون (Charles Ferguson) هذا المصطلح المأخوذ من اللغة الإغريقية[1]. ولئن كان هذا المصطلح لا يعني في اللغة الإغريقيةِ سوى الثنائيةَ اللغوية فإنه يكتسب عند فرغيسون معنى أدقَّ من ذلك، فقد حدد الكاتبُ الازدواجيةَ اللغوية انطلاقاً من أحوال أربعة يعتبرها مثالية (وهي المنطقة الألمانية في سويسرا، ومصر، وهايتي، واليونان)، على أنها العلاقةُ الثابتة بين ضرْبَين لغويين بديلَين ينتميان إلى أصل جيني واحد: أحدهما راقٍ والآخَر وضيع (كالعربية الفصحى والعاميات، وكالإغريقية الشعبية الحديثة والإغريقية «المهذَّبة الصافية» . . . إلخ).

ولهذين البديلَين في الاستعمال توزيعٌ وظيفيٌّ مختلف يظهره الجدول التالي:

الأحوال	الضرب الراقي	الضرب الوضيع
المواعظ والعبادة	+	
الأوامر للعمال والخدم		+
الرسائل الخاصة	+	
الخطب السياسية، الجمعيات	+	
الدروس الجامعية	+	
المناقشات الخاصة		+
معلومات عن وسائل الإعلام	+	
مسلسلات		+
نصوص الرسوم الفكاهية	+	
الشعر	+	
الأدب الشعبي		+

(1) *Charles Ferguson*, «Diglossia,» *Word*, vol. 15 (1959).

إن شئنا توضيح هذا الجدول قلنا إن الفرنسية في هاييتي مثلاً تُستخدم في المدرسة وفي الكنيسة وفي الخطب السياسية . . . إلخ. في حين أن اللغة المزيج تُستخدم في الحياة اليومية، وفي العلاقات مع المرؤوسين . . . إلخ (نذكّر بأن المقالة موضوع الدرس تعود إلى عام 1959، وقد تغيَّر الوضع قليلاً في هاييتي منذ ذلك التاريخ).

تقيم الازدواجيةُ اللغوية التي يتحدث عنها فرغيسون مقابلةً بين ضربَين بديلين من ضروب اللغة، تُرفَع منزلةُ أحدهما «فيُعتبَرُ المعيارَ»، ويُكتب به الأدب المعترَف به، ولكنْ لا تتحدث به إلا الأقلية، وتُحَطُّ منزلةُ الآخَر، ولكن تتحدث به الأكثرية.

ما هو مهم في الأحوال التي يشير إليها فرغيسون هو أنها تضع على المسرح وجهاً لوجه ما هو متشابه وما هو مختلف، فهناك من جهة أشكالٌ لغوية متشابهة، أي إنّها تنتمي إلى نموذج واحد ببديله المعياري وبديله الشعبي (حتى وإن لم يظهر ذلك في مثال تاهيتي)، وهناك من جهة أخرى أشكالٌ لغوية مختلفة، أي إنه يمكن إتقانُ أحدِ أشكالها دون إتقان الآخَر. وينشأ من التوتر بين هذين القطبين، ومن العلاقات التي يقيمها المتكلمون مع أحد هذه الأشكال سلوكياتٌ يمكن مقاربتُها من وجهة نظر لسانية نفسية (المواقف اللغوية الفردية في مواجهة هذين الشكلين)، ومن وجهة نظر لسانية اجتماعية (الدلالة الاجتماعية للازدواجية اللغوية، والمجموعات التي تحددها هذه الازدواجية). كانت الثنائية التي رسمها فرغيسون في نصِّه بغناها وفقرها، أساساً للمقترحات التي قدَّمها لسانيٌّ أمريكي آخَر هو جوشوا فيشمان (Joshua Fishman) عام 1967[2].

(2) Joshua A. Fishman, «Bilingualism with and without Diglossia: Diglossia with and without Bilingualism,» *Journal of Social Issues*, vol. 23, no. 32 (1967).

أقام فيشْمان مقابلةً جعل فيها الثنائية اللغوية في جهة (وهي قدرة الفرد على استخدام عدد من اللغات) مما يدخل في باب اللسانيات النفسية، وجعل فيها الازدواجية اللغوية في جهة أخرى (وهي استخدام عدد من اللغات في مجتمع ما) مما يدخل في باب اللسانيات الاجتماعية، وبهذه المقابلة يعدِّل فيشمان تصوُّرَ فرغيسون في مسألتين أساسيتين:

ـ أولاً: لا يولي فيشمان عنايةً كبيرة لوجود شِفْرتين لغويتين مختلفتين. (قد يكون هناك أكثر من شِفْرَتين، وإن كان يظُنُّ أن الوضع يعود عموماً إلى المقابلة بين ضرْبين بديلين: راقٍ ووضيع).

ـ ثانياً: يفترض فيشمان أن الازدواجية اللغوية قائمة على وجود اختلاف وظيفي بين لغتين، مهما كانت درجة هذا الاختلاف طفيفةً جداً أو عميقة جداً. وليس من الضروري أن تكون بين الشكلين المختلفين علاقة جينية.

ويختصر فيشمان فكرته برسم الجدول الآتي الذي يوضح تماماً عنوان مقالته: («الثنائية اللغوية مع الازدواجية أو من دونها، والازدواجية اللغوية مع الثنائية أو من دونها»):

	ازدواجية لغوية		
		+	-
ثنائية لغوية	+	1 ـ ازدواجية وثنائية	2ـ ثنائية دون ازدواجية
	-	3 ـ ازدواجية دون ثنائية	4 ـ لا ازدواجية ولا ثنائية

يمكن أن يُمثَّل لهذه الاحتمالات النظرية الأربعة بالأوضاع الآتية:

1 ـ في الباراغواي حيث يتكلم جميع الناس الإسبانية

والغارانية، فإن الإسبانية هي الضربُ «الراقي»، والغارانيةَ الضربُ «الوضيع».

2 ـ في حالاتٍ غيرِ مستقرة يتكلم فيها عددٌ كبيرٌ من الأفراد لغتينِ مختلفتين، ولكنْ لا يكون فيها مع ذلك ثنائية لغوية اجتماعية (هذه حال بعض الجماعات الناطقة بالألمانية في بلجيكا التي تحل لديها الفرنسيةُ ببطء محل الألمانية).

3 ـ روسيا القيصرية التي لم يكن النبلاء فيها يتكلمون بغير الفرنسية، فيما لم يكن عامة الناس يتكلمون بغير الروسية.

4 ـ أحوالٌ نادرة لا يكون فيها إلا جماعة صغيرة تتكلم ضرباً لغوياً واحداً.

حين يؤخذ هذان النصّان معاً، نص فرغيسون ونص فيشمان، فإنهما يستدعيان عدداً من الملاحظات. في نص فرغيسون الذي يُلحُّ على مفهومَيِ الوظيفة والرُّقِيّ يبدو لنا أولاً غيابُ أي إشارة إلى السلطة، فليس كافياً تحليلُ الفوارق اللغوية الموجودة اعتماداً على معيار الرقي (كأن يقال إنَّ الفرنسية مثلا أكثرُ رُقياً من اللغة المزيج في هاييتي) وعلى معيار الوظيفة (كأن يقال إن للفرنسية وظائفَ ليست للُّغةِ المزيج) لأنه إنْ كان للفرنسية هذا الرقيُّ وتلك الوظيفةُ فإنَّ هذا يعود إلى أسباب تاريخية واجتماعية مرتبطةٍ بشكل السلطة، وبتنظيم المجتمع، وهي أمور لم يتطرق فرغيسون إليها قطُّ.

في المقابل، تبدو فكرة الازدواجية اللغوية فكرة مفيدة (وإن كان من الضروري أحياناً الانتقالُ من الاثنين إلى الجمع في الحديث عن ثلاثة أضرُب أو أكثر من ذلك، من ضروب اللغة) لأن الازدواجية، كما لاحظ فيشمان، تقابل الثنائية اللغوية بالفعل، فمن المفيد جداً أنْ نميِّز بين ثنائية لغوية فردية، أي ثنائية عند الفرد

الواحد (Bilinguisme)، وثنائية لغوية اجتماعية (لن نسميها ثنائيةً في ما يأتي من البحث، بل سنسميها ازدواجيةً لغوية (Diglossie)، وأن نُلِحَّ على ما يترتب على الاختلاف اللغوي من آثار اجتماعية.

بيد أن الأمور غالبا ما تكون أكثر تعقيداً مما يبدو أن النصين المذكورين يحاولان قوله، ونود أن نثير عدداً من الأمثلة لكي نبين سريعاً (قبل أن نعود إلى هذه الأمثلة فيما بعد)، تعدُّدَ الأوضاع على سطح هذا الكوكب.

1 ـ رغم المعنى المعجمي للفظ الازدواجية [الذي يشير إلى زوج من اللغات]، فإن هذه الظاهرة يمكن أن تطال أكثر من لغتين. وقد سلَّم فيشمان بذلك، غير أنه لا يشير إلى وجود احتمالٍ لما نسميه بالازدواجية المتداخلة، أي إلى وجود ازدواجيات يتداخل بعضها في بعض، وهو مما نراه كثيراً في البلدان التي تخلصت من الاستعمار منذ فترة قريبة، ففي تانزانيا على سبيل المثال، كانت هناك ازدواجية في المرحلة الأولى بين اللغة الموروثة عن الاستعمار، وهي الإنجليزية، واللغة الوطنية، وهي اللغة السواحلية، وهناك في مرحلة ثانية ازدواجية بين هذه اللغة السواحلية، التي ليست اللغة الأم إلا لأقلية من السكان، واللغات الأفريقية الأخرى. والوضع نفسه قائم في مالي (حيث تتداخل الفرنسية مع البامبارا ومع اللغات الأفريقية الأخرى)، وفي السنغال (حيث تتداخل الفرنسية مع الولُف واللغات الأفريقية الأخرى) . . . إلخ. في جميع هذه الأمثلة يمر الوصول إلى السلطة عبر اكتساب اللغة الرسمية (الإنجليزية أو الفرنسية) الموروثة عن الاستعمار، ولكن اكتساب اللغة الأفريقية الغالبة (سواءٌ أكانت في القانون اللغة «الوطنية» الوحيدة، أم لم تكن) يمنح شكلاً آخر من أشكال السلطة. بمعنى آخر، تكون الإنجليزية في تانزانيا ضرباً «راقياً» في مقابل السواحلية التي تشكل بدورها ضرباً راقياً في مقابلة اللغات الأخرى، مما يشكل ازدواجية متداخلة.

2 ـ إن فكرة القرابة الجينية التي تحدث عنها فرغيسون في حدِّه للازدواجية فكرةٌ حصرية جداً، كما لاحظ فيشمان، لأنها تستدعي سؤالا آخر: أينبغي التفريق بين الازدواجية من جهة والعلاقة ما بين اللغة ولهجاتها (سواء أكانت لهجات محلية أم اجتماعية) من جهة أخرى؟ كل الناس يعرفون مثلاً أن هناك طريقة للكلام بالإنجليزية معترفاً بها اجتماعياً، وأن عدداً من طرائق النطق بها (كطريقة كوكْني (Cockney) اللندنية مثلاً، التي يميزها عموماً نُطقٌ مُعيب للهاء التي يصحَبُها النفَس) يشكِّلُ عائقاً اجتماعياً في وجه أصحابه.

هل هذا الوضع مشابه لوضع تانزانيا التي تقابل فيها السواحليةُ الإنجليزيةَ؟

الجواب: لا، بكل تأكيد، مع أنَّ فيشمان يفترض أن الازدواجية اللغوية قائمة على وجود اختلاف وظيفي بين لغتين، مهما كانت درجة الاختلاف: طفيفة جداً أو عميقة جداً. وليست الازدواجية في الإنجليزية ناجمة عن الفارق بين إنجليزية «ملِكة بريطانيا» وإنجليزية «الكوكني» اللندنية، وإنما هي ناجمة عن الاستخدام الاجتماعي لهذا الفارق. وليس هذا الشكل من أشكال الإنجليزية أرقى من ذاك بطبعه، بل هو أرقى منه بتاريخه، فلو استلم «البرابرة» مقاليد السلطة في مكان ما من العالَم لأمكن أن تصبح لغتُهم، وهي وضيعة حتى أيامنا، لغةً راقية.

لئن أمكن استخدام مفهوم الازدواجية لتحديد المجتمعات المتعددة اللغات، فإن علينا أن نوضح أن هذه الأوضاع ينبغي أن تدرس انطلاقاً من العلاقات الاجتماعية لا من اللغات أنفسها، فقد يُنظَر إلى لغة البامبارا في مالي على سبيل المثال على أنها لغة التحرير (بالمقابلة مع الفرنسية)، ولكن قد يُمكن النظر إليها على أنها

لغة القمع والاستبداد عند قبائل السونْغاي(*) (Songhaï) في تومْبوكتو (Tombouctou)، أو عند التماشيق(**) (Tamasheq) في الشمال.

3 ـ وأخيراً فإن تصنيف فرغيسون (الذي يلح على المظهر الثابت لأوضاع الازدواجية) حتى بعد تعديل فيشمان له، يظل تصنيفاً يعكس غياب رؤية ديناميكية، فلْنأخذ مثالاً على ذلك المهاجرين إلى فرنسا من أبناء الجيل الثاني، سواءٌ أكانوا من أبناء البرتغاليين أم من أبناء العرب، والمهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية من الصينيين، والمهاجرين إلى ألمانيا من الأتراك. لا ريب في أن الآباء ثنائيو اللغة، وهم يعيشون حالة من الازدواجية في مجتمعاتهم الصغيرة وفي علاقاتهم مع أبناء اللغة الرسمية [على التوالي: الفرنسية والإنجليزية والألمانية]: هذه هي الفئة الأولى في جدول فيشمان. أما الأبناء فغالبا ما يكونون، في مقابل ذلك، أحاديي اللغة، وإن كانت هذه الأحادية أحادية نسبية. وغالبا ما يبدي هؤلاء الأبناء «الأحاديو اللغة»، لأسباب نفسية، رفضاً للغة الآباء التي يفهمونها ولكنهم لا يريدون الكلام بها رغبة في الاندماج [في مجتمعاتهم الجديدة]. . . ، إلخ. فيُصنَّفون في الفئة الرابعة في جدول فيشمان (لا ازدواجية ولا ثنائية). غير أن هؤلاء الأطفال لا يعيشون في ما بينهم فحسب، بل يعيشون مع آبائهم وبين أبناء مجتمعهم. يطرح هذا الوضع العام في إطاره التاريخي مسألة انتقال الثنائية والازدواجية من جيل إلى جيل، في الوقت الذي يُظهر فيه مزجاً ما بين الفئات التي صنَّفها فيشمان، ففي حيٍّ مثل حيِّ بِلْفيل (Belleville) في باريس للعمال المهاجرين يمكن أن نجد بنية مكبَّرة للازدواجية (بين الفرنسي من جهة، والعربي

(*) هي قبائل تنتشر في المنطقة الغربية من أفريقيا، وتسمى لغتُها بالسونْغاي أيضاً.

(**) هي قبائل من الطوارق المتحدرين من صنهاجة وزناتة والمنتشرين في شمالي أفريقيا، والتماشيق أيضاً اسمُ لغتهم.

أو البربري أو الفيتنامي أو الصيني من جهة أخرى)، كما يمكن أن نجد إلى جانبها، بنْيات صغرى تتمثل في أوضاع الثنائية اللغوية والأحادية اللغوية (ففيها مَن لا يتكلم غير الفرنسية، ولكن فيها النسوة اللاتي لا يتكلمن إلا العربية . . . إلخ)، من دون أن تكون أحاديةُ اللغة عند الفرنسي مشابهةً تماماً لأحادية اللغة عند طفلٍ هاجرَ أبواه من الجزائر، أو من كانتون. . .

نريد من هذا أنْ نقول إنَّ التصنيف الذي نرغب في الإلمام به لا يمكن أن يكتفي برؤيةٍ نسميها، على سبيل الاستعارة، بـ«رؤيةِ آلةِ التصوير» (رؤية فوتُوغْرافية)، بل عليه أن يسعى لإدخال «رؤية التصوير السِّينمائي» (رؤية سينماتوغرافية): فالتاريخ يخترق المجتمع. هذا أمر بدهي. ولكن اللسانيات الاجتماعية لم تفهم دائماً هذه البدهية، وهي واحدة من المسائل التي ينبغي تعديل فكرة الازدواجية على أساسها.

المثال «الكاشَف» الفرنسي

سوف نحتفظ إذاً بفكرة الازدواجية اللغوية بأوسع معانيها، وأقدرِها على الانخراط في مقاربةٍ لسانية اجتماعية (علاقات وظيفية واجتماعية بين لغات مختلفة، أو بين البدائل المختلفة في اللغة الواحدة)، ونحاول الآن القيام بتصنيف لمختلف «الازدواجيات اللغوية» متخذين اللغة الفرنسية كاشفاً لهذه الظاهرة. أي إننا سنبدأ باستعراض الأوضاع التي تتدخل فيها اللغة الفرنسية (وكان ممكناً بالطبع أن نأخذ لنا مثالاً من الإنجليزية أو من الروسية) منطلقين من فرضية مؤداها أن هذه الأوضاع ستقدم لنا صورة بانورامية شاملة عن مختلف احتمالات الازدواجية.

نبدأ بملاحظة أولية: يتبين من النظر في مختلف الأوضاع،

سواءٌ أتعلق الأمر بالبلدان الأوروبية (فرنسا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا)، أم بأفريقيا السوداء، أي ببلدان أفريقيا الناطقة بالفرنسية (فيها ما يقرب من خمسة عشر بلداً)، أم بالمغرب العربي (تونس والجزائر والمغرب)، أم بأمريكا الشمالية (كندا ولويزيانا)، أم بالجزر التي يتكلم سكانها اللغة المزيج (غوادالوب (Guadeloupe) ومَرْتينيك (Martinique) وريِيِّنيون (Réunion) أن **حدود (الدولة) السياسية وحدود الوطن لا تطابق حدود اللغة**. لئن كانت الفرنسية حاضرة رسمياً في عدد من الدول، وتعني عدداً كبيراً من المتكلمين، فإنها تتعايش في كل هذه الدول مع لغات أخرى. ونحن نود تحديداً دراسة صيغ هذا التعايش.

يقودنا عدم التطابق بين الدولة والوطن واللغة إلى صياغة أولّ معيارٍ من معايير التصنيف: **العلاقة بين اللغة الرسمية واللغة الأم.** ليس في جميع البلدان التي ذكرناها أعلاه بلدٌ واحد يمكن أن يقال إن اللغة الرسمية فيه هي نفسها اللغةُ الأولى (أي اللغة التي يكتسبُها الأطفالُ في بيوتهم، والتي نسميها غالباً اللغةَ الأم) عند جميع المتكلمين، فلندعْ جانباً في هذه المرحلة من البحث، البلدان التي فيها أكثرُ من لغة رسمية، كما هو الحال في سويسرا وبلجيكا. في فرنسا نفسها التي تُعتبَرُ الفرنسيةُ فيها لغةً أولى لمعظم سكانها، هناك قسم لا بأس به من السكان ممَّن تعلَّم قبلَ الفرنسية، وهي اللغة المعتمَدَةُ في المدرسة، لغةً أخرى كاللغة الألزاسية، أو الكورسيكية، أو العربية، أو البرتغالية، أو السوننكية ... إلخ.

مثال: مدينة غايّون (Gaillon)

غايّون مدينة صغيرة فيها 6000 نسمة، تقع في محافظة الأور (Eure) التي تعد 21 في المئة من العمال الأجانب

(متوسط النسبة المئوية في فرنسا في حدود 8 في المئة). وتزداد هذه النسبةُ كثيراً في المدارس لأن الأسرةَ المغربية أو الأسرةَ الأفريقية عموماً تُنجبُ أكثرَ من الأسرة الفرنسية. لقد بيّن استقصاءٌ قُمنا به في عام 1985 على عيِّنة من 109 تلاميذ في إحدى المدارس الابتدائية في المدينة، مدرسة لويز ميشال، أنه يوجد أولاً إلى جانب الفرنسية، ثلاثُ لغات (هي العربية والإسبانية والبرتغالية) من خمس دول (هي تونس والجزائر والمغرب والبرتغال وشيلي) تعني 41 تلميذاً، أي 34 في المئة من مجموع التلاميذ. 27 تلميذاً من بين هؤلاء التلاميذ البالغ عددهم 41 يتكلمون لغة آبائهم، و9 لا يتكلمون بها أبداً، و5 يتكلمون بها جزئياً[3]. نجد إذاً، في هذا العالَم المصَغَّر الذي هو المدرسة، أن الفرنسية لغة 66 في المئة فقط من السكان، وأن 34 في المئة يتحدَّرون من أُسَر ليست الفرنسية لغتَها، ويعيشون أو لا يعيشون في واقع ازدواجية لغوية. ومن البدهي القولُ إن الفرنسية لغةُ الإدارةِ في المدرسة التي تضمُّ عدداً كبيراً من التلاميذ الثنائيي اللغة. هذا الواقع الذي يبدو «غير طبيعي» من الناحية الإحصائية ليس نادراً في فرنسا.

بيد أنَّ ما يميِّز فرنسا هو أن **اللغة الرسمية فيها لغة غالبة إلى حد كبير، وليس عنها من بديل**: يمكن أن يناقَش احتمال اعتماد الثنائية في المدرسة (الفرنسية/ البريطانية[*]، أو الفرنسية/

(3) انظر لويس جان كالفي: Louis-Jean Calvet, «Le Plurilinguisme à l'école primaire,» *Migrants formation*, no. 63 (1985).

(*) اللغة المقصودةُ هنا هي لغةُ منطقة بريطانيا الفرنسية، وهي منطقةٌ واقعةٌ في الغرب الفرنسي، وليست لغة «بريطانيا العُظمى».

الأوكسيتانية(*) . . . إلخ، ويمكن أن يفكّر باعتماد لغاتِ أطفال العمال المهاجرين (كالبرتغالية والإسبانية والعربية . . . إلخ)، ولكنْ **لا يوجد على التراب الفرنسي لغةٌ يمكن أن تحلَّ محلَّ الفرنسية.** نحن إذاً أمام وضع يتميز بالتعددية اللغوية المنفلشة (يمكن أن نحصي على التراب الفرنسي ما يربو على ثلاثين من لغات الأقليات)، التي تظهر هنا أو هناك على شكل ازدواجية بالمعنى الحقيقي للكلمة (كورسيكا وكاتالونيا والألزاس . . .)، أو على شكل لغةِ الشَّتات (الجماعة الأرمنية أو البولونية. . .) التي تواجه لغةً غالبةً جعلها التاريخُ لغةَ الدولة التي يتكلم بها السوادُ الأعظم من السكان. سوف نسمي هذا الصنف الأول من أصناف التعددية بـ **التعددية اللغوية ذات اللغة الوحيدة الغالبة.** وهو، كما نرى، صنفٌ ليس من أحادية اللغة في شيء، ولكنه ليس قائماً في المقابل،على مواجهةٍ بين لغتين يمكن أن تأخذ إحداهُما وظائفَ الأخرى. هذه اللغة الغالبة (التي هي اللغة الوطنية في المثال الفرنسي) يتكلم بها جميع الناس، أو السواد الأعظم منهم وهي، فضلاً عن ذلك، اللغةُ الأمُّ لغالبية السكان. غير أننا سوف نرى فيما بعد أن **اللغة الغالبة الوحيدة** في عدد من بلدان أفريقيا يمكن ألا تقوم بالوظائف الرسمية التي تقوم بها الفرنسية في فرنسا. يعني هذا الأمرُ بعبارات أخرى، أنه **يمكن ألا تتطابق اللغةُ الغالبة مع اللغة الوطنية (أو الرسمية).**

تمثل بلدانُ المغربِ العربي وضعاً مختلفاً تمام الاختلاف، ففي كل بلد منها ثلاثُ لغات، ويتميَّزُ بَلَدان من بُلدان المغرب العربي (هما الجزائر والمغرب) بوجود أربعِ لغاتٍ تؤدي وظائفَ شديدةَ

(*) اللغة الأوكسيتانية لغةٌ في منطقة أوكسيتانيا، وهي منتشرةٌ في الجنوب الفرنسي وبعض مناطق إيطاليا وإسبانيا.

التنوُّع. يُعرِّف جيلبير غرانغِيّوم (Gilbert Grandguillaume) في كتابه عن التعريب والسياسة اللغوية في بلدان المغرب هذه اللغات على الشكل التالي:

«تُستخدَم في بلدان المغرب الحالي ثلاثُ لغات: العربية والفرنسية واللغة الأم. أما الأولَيان فلُغَتا الثقافة، وهما لغتان مكتوبتان. وتُسْتخدَم الفرنسية أيضا لغةً للمحادَثة. غير أن اللغةَ الأمَّ الحقيقية التي يستخدمُها الناسُ دائماً في خطابهم اليومي لهجةٌ هي العربية أو البربرية. وليست هذه اللغة الأم، باستثناء حالات نادرة جداً، لغةً مكتوبة»[4].

موقع هذه اللغات في بلدان المغرب مختلف جداً؛ فالفرنسيةُ الموروثة عن الاستعمار، والتي ظلت لفترة طويلة اللغةَ الرسمية قبل أن تصبح لغةً أجنبية بعد سياسة التعريب، حِكرٌ على الطبقات البرجوازية. وهي لغةٌ مرجعية في الثقافة، وورقةٌ رابحة للنجاح الاجتماعي في مقابل اللغة الوطنية، أي العربية، التي يطرح تعريفُها لسانياً عددا من المشكلات. وتدين العربية بموقعها بصورة أساسية إلى كونها لغةَ الدين، ولغةَ القرآن، ولغةَ توحيد العالَم العربي. لغةُ القرآن، أي العربية الفصحى، لغةٌ تستخدَم في الكتابة بصورة أساسية، ويمكن أن تستخدم أيضاُ في العِظات أو في بعض الدروس كما كان عليه حال اللاتينية في عدد من بلدان أوروبا في العصور الوسطى؛ فهي كاللاتينية إذاً لغةٌ ميتة[*]. يقفُ في مقابل الفصحى ما

(4) Gilbert Grandguillaume, *Arabisation et politique linguistique au Maghreb*, Islam d'hier et d'aujourd'hui; ISSN 0244-4011; 19 (Paris: G.-P. Maisonneuve et Larose, 1983), p. 11.

(*) يعني بالعربية الفصحى العربيةَ القديمةَ على سبيل الحصر، فليست العربيةُ المعاصرةُ إذن جزءاً منها.

نسميه بـالعربية المعاصرة، أو العربية الوسطى، أو ما نفضله وهو **العربية الرسمية** التي ارتقت لتصبح لغةً وطنية اغتنَتْ من العربية الفصحى بتحديث مفرداتها؛ فهي لغةُ وسائل الإعلام، ولغةُ الحياة العامة.

تبقى إذاً اللغتان الأمّان اللتان تسميان «لهجتين» في الاستخدام الرسمي، وهما اللهجة العربية واللهجةُ البربرية. أما اللهجاتُ العربيةُ فتربطُها بالعربية الفصحى رابطةُ نسَب. أما البربرية فليست هذه حالَها. ولكن يبدو أنه في الحالتين تشكلُ لهجاتُ العربية مع البربرية أدواتِ التواصل اليومي.

يقدِّمُ لنا وضعُ المغرب العربي، خلافاً للصنف الأول من أصناف الازدواجية الذي أشرنا إليه وهو (**التعددية مع لغة غالبة وحيدة**)، نموذجاً خاصاً يفرضُ علينا أن نتفطن أولاً لتعريف ما نعنيه باللغة الغالبة. يمكن اعتبار الفرنسية في الوضْع الفرنسي **لغةً غالبةً** من وجهتي نظر مختلفتين: من وجهة نظرٍ إحصائيةٍ أوَّلاً (لأن الفرنسية أعلى من اللغات الأخرى عددَ متكلمين بها)، ومن وجهة نظر سياسية اجتماعية ثانياً (لأن الفرنسية لغةُ السلطة السياسية والثقافية).

أما في تونس، حيث البربرية ضعيفةُ الحضور (في حدود 1 في المئة حسب التقديرات) فتُعتبَرُ العربية العامية التونسية **حسبَ الإحصاءاتِ، اللغةَ الغالبة** بلا منازع، وتُعد العربيةُ الرسميةُ **لغةَ غالبة من الناحية الاجتماعية والسياسية**، وتقاسِمُها اللغةُ الفرنسية **طغيانَها الثقافي**.

أما في الجزائر والمغرب فيختلف الوضعُ قليلاً؛ فالبربرية حسب الإحصاءات لغةٌ غالبة في المغرب (50,6 في المئة؟)، وهي تمثل أقلية ضخمة في الجزائر (30 في المئة) بينما تحتل العربيةُ الرسمية

والفرنسيةُ على وجه التقريب، نفسَ المواقع التي ذكرناها في تونس. هذا يعني أننا أمام صنف ثان من أصناف التعددية اللغوية، وهو صنف نسميه بـِ **التعددية اللغوية ذات اللغات الأقليّة الغالبة**، لأن اللغاتِ الأكثرية حسب الإحصائيات لغاتٌ محكومةٌ سياسياً وثقافياً في واقع الأمر. ويمكن أن يُعرَّف هذا الصنف الثاني بأمرين أساسيين: **تَعدُّد** اللغات التي اعتبرناها غالبة من جهة، وعدمُ تمثيل أنظمةِ التواصل والتعبير الشعبي في بنية الدولة من جهة ثانية.

اللغات الرسمية والوطنية في أفريقيا الناطقة بالفرنسية
عدد من الأمثلة

	عدد اللغات المستخدمة	اللغات الرسمية	اللغات الوطنية
بوركينا	70	الفرنسية	70
بوروندي	1	الفرنسية والكيروندية	الكيروندية
أفريقيا الوسطى	65	الفرنسية	السانغو
غينيا	20	الفرنسية	8
تشاد	100	الفرنسية	0
زائير	250	الفرنسية	4

تقدِّم أفريقيا السوداء التي يقال عنها «أفريقيا الناطقة بالفرنسية» وضعاً خاصاً أيضاً، فإننا نجد فيها عموماً تمييزاً بين **اللغة الرسمية** (وهي الفرنسية) واللغة أو **اللغات الوطنية** (وهي لغات أفريقيَّة). إن ما يُسمَّى باللغة الرسمية واضح نسبياً: فهي لغةُ إدارة الدولة، ولغةُ المدرسة، ولغةُ وسائل الإعلام . . . إلخ. أما ما يسمى باللغة الوطنية فليس أمرُها كذلك لأنه يتغيَّرُ بين بلد وآخر.

يبين لنا الجدول أعلاه أن بعض البلدان، مثل بوركينا، يعتبر جميع لغاتِه لغاتٍ وطنية، وبعضاً مثل جمهورية أفريقيا الوسطى، اختار واحدة منها، وبعضاً آخر مثل زائير وغينيا، اختار عدداً محدوداً منها، وبعضَها أخيراً مثل تشاد، لا يعتبر أيّاً من لغاته لغة وطنية.

يبدو إذاً أن فكرة اللغة الوطنية تعبِّر عن مفاهيم متنوعة في الحالات القليلة التي ذكرناها: فيمكن للغة الوطنية في بوروندي وجمهورية أفريقيا الوسطى أن تكون لغة الإدارة ولغة الدراسة وأن تحل محل اللغة الفرنسية في هذه الوظائف. ويمكن للُّغات الوطنية المحدودة العدد (في زائير وغينيا) أن تكون لغاتٍ محلية، فتقوم اللغةُ الرسميةُ، وهي الفرنسية، بالربط بين مختلف المناطق. أما حين تُعتبَر جميع اللغاتِ في البلد لغاتٍ وطنيةً فليس لها أدنى حظ في أن يكون لها موقعٌ فعلي فيه. في إحدى الحالتين [حين يختارُ البلدُ لغةً وطنيةً له من بين لغاته] يكون للُّغة الوطنية موقعٌ عملي يسمح ببدائلَ للسياسة اللغوية. أمّا في الحالة الأخرى [حين يجعلُ البلدُ جميعَ لغاتِه لغاتٍ وطنية] فلنْ يكون للُّغة الوطنية فيه إلا موقعٌ رمزي لا يغيِّرُ شيئا في الوضع الاجتماعي اللساني. بيد أن اللغة الرسمية هي لغةُ السلطة في جميع الأحوال، وهي اللغة التي تسمح بترَقِّي الفرد. إنها المفتاح الاجتماعي. أن تكون الفرنسيةُ في مواجهة لغتين، أو أربع لغات، أو ثماني لغات، أو سبعين لغةً وطنية، فإنها تبقى **هي** اللغةَ الغالبة.

غير أن هذه اللغة الفرنسية الغالبة سياسياً وثقافياً، خلافاً للفرنسية في فرنسا، لغةُ أقلٍّ من القليلة حسب الإحصائيات (إذ تقدَّرُ نسبةُ الناطقين الحقيقيين بالفرنسية في أفريقيا «الناطقة بالفرنسية» بـِ 10 في المئة). ولا تتقاسم هذه اللغةُ الغالبة السلطةَ مع غيرها في هذه البلدان خلافاً للفرنسية في بلدان المغرب العربي (باستثناء بوروندي التي نجعلها لذلك في الصنف الثاني). بعد **التعددِ اللغوي ذي اللغة الغالبة الوحيدة** [كما هو الحال في فرنسا]، **والتعددِ اللغوي ذي اللغات الأقلية الغالبة** [كما هو الحال في بلدان المغرب العربي]، ثمة صنفٌ ثالث هو **التعدد اللغوي ذو اللغة الأقلية الغالبة** الذي يمكن تعريفه كسابقه بأن أنظمةَ التواصلِ الشعبي فيه ليست ممثلةً في بنية الدولة، ولكنه يختلف عن سابقه بأن فيه لغةً غالبة واحدة، لا

مجموعة من اللغات. بيد أنه ينبغي هنا إدخالُ تقسيم فرعي يميز بين البلدان التي فيها لغةٌ غالبة حسب الإحصاءات، يمكنها أن تحل محل الفرنسية (كما هو حالُ لغة الوُلُف في السنغال، ولغة البامبارا في مالي . . . إلخ)، والبلدان التي ليس فيها مثل هذا الخيار (كما هو حال الكاميرون، والغابون . . . إلخ).

لننتقل الآن إلى الوضع في البلدان الناطقة باللغات المزيج (جزر الرِّيينيون، المارتينيك، الغوادلوب، الغوِيّان) التي تمثِّل تمثيلاً صادقاً الازدواجية اللغوية كما عرَّفها فرغيسون. إن علاقة النسب الجيني في قلب هذا التعريف لا تكاد تعنينا، لأنه إن كان واضحاً أن الفرنسية تقوم بدورٍ ما، لكي لا نقول إنها تقوم بدور أكيد، في تاريخ اللغة المزيج في هذه البلدان، فإنَّ من الواضح أيضاً أن العلاقة بين الفرنسية واللغة المزيج ليست من نمط العلاقة بين اليونانية الشعبية الحديثة واليونانية المهذَّبة الصافية المستخدمة في الوثائق والبرلمان؛ فالأمر يتعلق في إحدى الحالتين بلغتين غير مفهومتين في ما بينهما، وفي الحالة الثانية ببديلين للغة واحدة. كما أننا لا نأخذ بالنظريات التي تتحدث عن التخلي عن المزيج، والتي تقول إن اللغة المزيج تميل إلى أنْ تقتربَ من الفرنسية، وإلى أن تصبح شكلاً محلياً من أشكالها، تماماً كما يميل الناس الذين لا يُحْسنون اللغةَ إلى اتقانها (وأنا لا أتحدث هنا إلا عن اللغة المزيج التي تعتمد على أساس معجمي فرنسي. ويمكن بالطبع أن يقال الشيءُ نفسُه عن اللغة المزيج التي تعتمد على أساس معجمي إنجليزي، أو برتغالي . . . إلخ)، لأن في كل هذا الكلام أثراً من آثار الخطاب التحقيري الذي سنتحدث عنه في الفصل التالي، ولذلك فإنه لا يعنينا الآن.

في الإلمامة السريعة التي نقوم بها هنا، يمكن أن تُحدَّد البلدان الناطقة باللغة المزيج بالسمات التالية:

ـ تشكِّلُ اللغةُ المزيجُ فيها لغتها الأولى (أي «اللغة الأم») التي تطغى بصورة واسعة حسب الإحصاءات، وإن كانت تتعايش مع لغاتٍ أُولَيات (الفرنسية بالطبع، والصينية، وعدد من اللغات الهندية. . . ، إلخ).

ـ في المقابل، ليست اللغةُ المزيجُ لغةً «راقية»، ولا يعني هذا أنها ليست لغةً حاملةً للثقافة ـ فافتراض أنها ليست حاملةً للثقافة افتراضٌ محال (فكل لغة حاملة لثقافةٍ ما) ـ بل يعني أنه لا يُعترَف بهذه الثقافة.

ـ الفرنسية في هذه البلدان هي اللغةُ الرسمية، اللغةُ الغالبة من الناحية الاجتماعية ـ الاقتصادية، كما هو الحال في الأوضاع الأفريقية التي أشرنا إليها. هنا أيضاً لا تحسب بنيةُ الدولة حساباً للُّغة التي تنظِّم التواصلَ الشعبي فيها.

ـ غير أن الفرنسية أكثرُ استخداماً هنا منها في أفريقيا، وإنْ ظلَّت لغةً أقليَّةً، فتعميم التعليم في الأراضي الواقعةِ ما وراء البحار (Dom-Tom)، وهو تعميم شبه شامل، ينشر الفرنسية شيئاً فشيئاً لغةً ثانية، (لكنْ لا ريب في أنَّ الأمور مختلفة في بلد مثل هايتي).

أمامنا هنا إذاً **تعددية لغوية ذات لغة غالبة بديلة**، وهو وضعٌ يمكن فيه أن تحلَّ محلَّ الفرنسية في وظائفها الرسمية لغةٌ أخرى (سنرى في موضع لاحقٍ في هذا الكتاب الشروط الضرورية التي تسمح بتحول اللغة المغلوبة إلى لغة غالبة: فهذا أمر يختص بالعمل اللساني وبالتخطيط)، وهو أيضا وضعُ الجزر البولينيزية حيث تحل التاهيتية محل اللغة المزيج.

تقدِّم سويسرا وبلجيكا وضعاً جديداً آخر. نحن نعرف أن بلجيكا تعتمد ثنائية لغوية رسمية بين الفرنسية والفلمنكية اللتين تشغل كلُّ واحدة منهما حيِّزاً من الأراضي البلجيكية (باستثناء مدينة بروكسيل

حيث الثنائية اللغوية فيها ثنائية رسمية)، وأن في سويسرا أربعَ لغاتٍ رسمية موزعة إحصائياً حسب الجدول الآتي:

	الألمانية	الفرنسية	الإيطالية	الرومانشية(*)	لغات أخرى
1910 (في المئة)	72,7	22,1	3,9	1,2	0,1
1941	73,9	20,9	3,9	1,1	0,2
1960	74,4	20,2	4,1	1	0,3
1970	74,5	20,1	4	1	0,4
1980	73,6	20	4,5	0,9	1

لا تأخذ هذه الأرقام في الحسبان إلا مَن يحمل الجنسية السويسرية[5].

ينص الدستور السويسري على أن للبلد أربعَ لغات وطنية (هي الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانشية)، وثلاث لغات رسمية (هي الألمانية، والفرنسية، والإيطالية)(**). ونرى أن العلاقة بين هذين المفهومين: مفهوم اللغة الوطنية، ومفهوم اللغة الرسمية، علاقةٌ تختلف اختلافاً بيّناً عما رأيناه في أفريقيا: فاللغة الرومانشية لغةٌ وطنية، مما يعطيها قانونياً الحق بالبقاء في المنطقة التي يتكلم الناس فيها بها، ولكنها ليست لغةً رسمية، أي إنها ليست لغة تعترف بها الهيئات الكُنفِدِراليّة. أما في بلجيكا، فيحاولون بشيء من الصعوبة أن

(*) هذه اللغة شائعةٌ في منطقة غْريزون السويسرية، وقد جُعِلَت إحدى اللغات الوطنية الأربع في سويسرا منذ عام 1938.

(5) أخذنا هذا الجدول عن: Robert Schläpfer, [et al.], *La Suisse aux quatre langues = Die Viersprachige Schweiz*, publ. sous la dir. de Robert Schläpfer; adaptation et trad. de l'allemand sous la dir. de Pierre Knecht et Christian Rubattel; préf. de Claude Torracinta (Genève: Editions Zoé, 1985), p. 259.

(**) اعتُرِف بالرومانشية لغةً رسميةً في سويسرا عام 1996.

يحتفظوا لكل واحدة من اللغتين الموجودتين فيها [أي الفرنسية والفلمنكية] بحصة تساوي حصة الأخرى في حياة الدولة. إننا إذاً أمام وضع فيه **تعددية لغوية ذات لغات إقليمية غالبة**: إذ تتعايش الفرنسية مع الفلمنكية أو الألمانية، ولكل واحدة منها عموماً منطقةٌ جغرافية محددة.

لا ريب في أنَّ الناسَ يتكلمون بالفرنسية في بلاد أخرى، فالفرنسية حاضرةٌ في سيشيل، وفي جزر موريس، وفي لويزيانا، وفي كندا، وفي فالْ داوُسْت(*) (Val d'Aoste)، وفي مدغشقر . . . إلخ. ولكن الأوضاع في هذه البلاد جميعاً تعود إلى واحد من الأصناف الخمسة التي درسناها حتى الآن. بيد أن التصنيف الخماسي الذي اعتمدناه (**تعددية ذات لغة وحيدة غالبة**، أو **ذات لغات أقلية غالبة**، أو **ذات لغة أقلية غالبة** ، أو **ذات لغات بديلة غالبة** ، أو **ذات لغات إقليمية غالبة**) والذي يمثِّل تقريباً جميع الأوضاع المتصوَّرة، يمكن أن يُعترَض عليه؛ فقد حلَّلنا التعددية اللغوية اعتماداً على مثال «كاشفٍ» هو الأوضاعُ المتعلقة بالفرنسية. ولكننا في الوقت نفسه، أخذنا هذه الأوضاع محدَّدة مسبقاً على أنها خاصة بالدول، ولذلك لم نتحدث عموماً إلا عن «البلدان». غير أنَّ الحيِّز الجغرافي للفرنسية يتجاوز حدود البلدان. وفي أوروبا على سبيل المثال، نجد الفرنسية في فرنسا، وفي إيطاليا، وفي سويسرا وفي بلجيكا، ولكن الناس في هذه البلدان يتكلمون بغير الفرنسية في الوقت نفسه. وهذا الوضعُ موجود أيضاً في كل مكان، فالبامبارا لغةٌ غالبةٌ في مالي، ولكن الناس يتكلمون بها في السنغال (حيث لغة الولف هي الغالبة)، وفي بوركينا فاسو، وفي ساحل العاج، . . .إلخ. والكيشوا (Kichua) موجودة في كولومبيا وفي الإكوادور وفي البيرو، وفي الشيلي، . . . إلخ.

(*) هي منطقة في شمال غرب إيطاليا.

لا تَطابُقَ إذاً بين الخارطة السياسية والخارطة اللغوية. ونحن نعتَدُّ في تصنيفنا للتعددية اللغوية بهذه السِّمة العامة، كما نعتد بالتصنيف الخماسي الذي قدمنا وصفاً سريعاً لأوضاعه. ويبدو لنا العالَمُ فسيفساءَ لغويةً واسعة ذاتَ ثلاثةِ أبعاد: بُعْدان منها للفوارق الجغرافية (في الخط الأفقي)، وبُعْدٌ ثالث للفوارق الاجتماعية (في الخط العمودي). في الخط الأفقي فوارقُ بين اللغات المحلية (كالفرنسية، والكورسيكية، والألزاسية، وغيرها في فرنسا)، أو بين البدائل المحلية (كلهجات باريس، ومرسيليا، وغْرينوبْل، وغيرها). وفي الخط العمودي الوظيفةُ الاجتماعيةُ لهذه الفوارق، سواءٌ أكانت هذه الفوارقُ متعلقةً بالأشكال المحلية والإقليمية للفرنسية، أم بعلاقة الفرنسية بغيرها من اللغات الموجودة. من هذه الزاوية، لا يمكن للفسيفساء اللغوية التي رسمناها بأبعادها الثلاثة أن تطابقَ مفهوم الازدواجية. إن العالَم المتعددَ اللغات يدعونا إلى رؤية أوضاعٍ أكثرَ تعدُّداً من هذه بكثير، وأكثرَ غنى بكثير. ولا يمكن إعادة العالَم إلى إطار الازدواجية المفصَّل مسبقاً إلا بنوعٍ من العزلِ الاعتباطي لهذا الوضع أو لذاك.

الكتابة

ثمة معيار آخر للتمييز له أثرُه في تعدُّد الأوضاع اللغوية نعالجُه بقدرٍ من الاختصار: إنه الطريقة التي تدير بها الثقافاتُ المختلفة مسألَةَ ذاكرتها الاجتماعية، أي مسألةَ الاحتفاظ بمعارفها القديمة ونقلها. نعني بذلك بصورة أساسية، علاقةَ هذه الثقافات بالكتابة.

نعرف جميعاً أن على سطح الأرض حضاراتٍ طابعُها شفوي، وحضاراتٍ طابعُها كتابيٌّ لا يميِّزُها وجودُ نظامٍ لكتابةِ لغتِها فحسب، بل يميزُها أكثرَ من ذلك طريقتُها في الاحتفاظ بتجاربها ومعارفها

الإنسانية. من هذه الزاوية يمكن التمييزُ بين أربعة أنواع من الأوضاع:

- المجتمعاتُ ذات التراث المكتوب القديم التي يكون فيها الشكلُ المكتوب تصويراً للشكل الشفوي اليومي، كما هو حالُ اللغة الفرنسية التي ينتقل فيها العِلمُ بصورة أساسية عبرَ الكتاب.

- المجتمعاتُ ذات التراث المكتوب القديم التي لا يكون فيها الشكلُ المكتوب صورةً للشكل الشفوي، بل يكون اللغةَ الراقية فيها، كما هو حال اللغة العربية التي ليست اللغةَ التي يتكلم بها الناسُ في حياتهم اليومية، والتي ينتقل قسمٌ من المعرفة فيها عبر الكتاب، وقسم آخر عبر القنوات الشفوية.

- المجتمعات التي دخلت الكتابةُ إليها حديثاً، كما هو الحال في عدد من أوضاع البلدان بعد الاستعمار، إذ زُوِّدت لغاتٌ لم تكن مكتوبةً بنظام ألفبائي للكتابة. نحن إذاً أمام مجتمعات تراثُها تراثٌ شفوي طرأ علَيه نظامٌ كتابيٌّ لم ينقلِ المعرفةَ بعد.

- المجتمعات ذات التراث الشفوي التي لا تعتمد الذاكرةُ الاجتماعيةُ فيها على الخط، بل تعتمد على الرواة والأَخباريين، وغيرهم[6].

تُسهِم هذه الفروق في وصفنا الموجز للعالَم المتعدد اللغات. ولا يكون الإسهامُ بتقرير وجود هذه الفروق فحسب، بل باعتبار وجودِ الكتابة أو غيابها في ثقافة من الثقافات، كما سنراه فيما بعد، عنصراً لترقيتها أو للحطِّ من شأنها، وذلك في إطار نظرةٍ أيديولوجية تنفي الآخَر فتجعل من الخط أساساً للمعرفة، وتعتبِر المجتمعات

(6) Louis-Jean Calvet, *La Tradition orale*, que sais-je?; 2122 (Paris: Presses universitaires de France, 1984).

ذات التراث الشفوي عموماً لغاتٍ من دون كتابة. وهذه نظرة قاصرةٌ جداً في تعريف هذه المجتمعات، ووسيلة من وسائل الحط من شأنها في مقابلة المجتمعات الغربية في الوقت نفسه.

والواقعُ أنَّ المكتوبَ غالباً ما يتعايش مع الشفوي. ويسهم هذا التعايشُ في رسْم أشكالِ التعدُّدِ اللغوي التي أشرنا إليها. ونحن لم نأخذ في حسابنا في تصنيف الأوضاع اللغوية التي للفرنسية دورٌ فيها إلا موقعَ اللغات غالبةً أو مغلوبةً من النواحي الاجتماعية السياسية والإحصائية.

غير أنه ينبغي علينا أن نأخذ في الحسبان في أثناء تصنيفنا كونَ اللغاتِ مكتوبةً أو غيرَ مكتوبة، وكونَها ناشرةً للأدب أو غيرَ ناشرة له، وكونَها حاملةَ تراثٍ أدبي أو غيرَ ذاتِ تراث، لأن لهذه الأمور دوراً بارزاً في تحديد تطور أوضاع اللغات.

إن قارنّا الجزائر ومالي مثلاً، وهما بَلَدان كانا خاضعَين للاستعمار، واستقلاَّ في تاريخ واحد (عام 1962)، فإننا نلاحظ أن العلاقة بين اللغات فيهما، وهي علاقة كانت متشابهةً في أول الأمر (فقد كانت اللغةُ الفرنسية في البلدين اللغةَ الرسمية الوحيدة) قد تغيرتْ تغيُّراً هائلاً. أما في مالي، فلم يتغير موقعُ الفرنسية تغيُّراً يُذكرُ، وما زال تعليمُ عددٍ من اللغات الأفريقية في مدارسها في أولى بداياته. وأما في الجزائر فقد انقلب هذا الموقع فحلَّت العربيةُ محلَّ الفرنسيةِ في جميع الوظائف الرسمية تقريباً.

هناك تفسيرات متعددة لهذا التطور المختلف، من بينها بالطبع اختياراتٌ مختلفة للسياسة اللغوية التي اعتمدتها الحكومتان في الجزائر وفي مالي. ولكنَّ دوراً أساسياً في هذا التطور المختلف يعودُ إلى أنَّ إحدى اللغتين الغالبتين البديلتين، وهي العربية في الجزائر،

لغةٌ مكتوبة منذ زمان قديم والأخرى، وهي البامبارا في مالي، حديثةُ عهدٍ بالكتابة: فمنذ البداية، لم تكن معركةُ التخلص من الإرث الثقافي للاستعمار تمتلك نفس الأسلحة في هذين البلدين. وسوف نرى، للأسباب نفسها، كيف يلتجئ المتكلمون بلغاتٍ مغلوبة مكتوبة في بعض الأحيان، إلى أدبهم القديم (كما هو حال البْروفَنْسال (Provençal) والبْروتون (Breton) . . .)، وهو لجوءٌ لا تتيحه اللغاتُ المغلوبة التي ليس لها تراثٌ مكتوب. وقد اكتسبت العلاقة بالمكتوب، وما تزال تكتسب في أيامنا، أهميةً بالغة في تحديد موازين القوى بين اللغات لأنه نُظِرَ إليها بمنظار الثقافات الأوروبية التي تنشُرُها لغاتٌ مكتوبة. وسيتذكر القارئ أن الأضرُب البدائل «الراقية» في تصنيف فرغيسون للازدواجية كانت جميعها بدائلَ لغاتٍ مكتوبة في مقابل عدد قليل فقط من البدائل «الوضيعة» (فلا تُكتب العربية العامية، بينما تُكتب اليونانية الشعبية الحديثة)، وهذه مسألة إضافية ينبغي أن نكيّف مفهوم الازدواجية على أساسها، **فالفسيفساء اللغوية الثلاثية الأبعاد** التي أشرنا إليها فيما سبق يُحدِّدُها أيضا **التعايش بين لغات ذات تراث شفوي، ولغات ذات تراث مكتوب.**

الناس إذاً، كما ذكرنا في بداية هذا الفصل، في مواجهة مع اللغات. ومن تعدد الأوضاع الذي أشرنا إليه، ومن غنى هذا التعدد تنبعُ الإشكاليةُ المركزية في هذا الكتاب: فجذور حروب اللغات نابتةٌ في التعدد اللغوي وفي طريقة تحليل الثقافات الإنسانية له، لأن الناس قد أعطوا تفسيراً أيديولوجيا لهذا التعدد قبل أن يحددوا طريقة إدارته.

الفصل الرابع

أيديولوجِيُّو التفوُّق

يمكن أن نتصور أن الناس كانوا دائماً في مواجهة الاختلاف اللغوي، ميَّالين إلى السخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبارِ أنَّ لغتَهم هُم هي الأجملُ، وهي الأنجعُ، وهي الأدقُ، أي إنَّهم كانوا دائماً ميَّالين إلى تحويل اختلاف الآخَر إلى نقصان فيه (لأنَّ من الطبيعي أن يكون الآخرُ دائماً صاحبَ الاختلاف). كان من الممكن لفيلمِ **حرب النار** الذي عرف شهرةً عالَمية في السنوات الأخيرة لأنه يقيمِ مواجهة بين «قبائل» تتكلم لغات مختلفة، أن يُظهِرَ على الشاشة أيضاً النمطَ التالي من أنماط الاختلاف اللغوي: أنت لا تتكلم مثلي، إذاً أنت تتكلم بصورة مضحكة. كان من الممكن أن نتخيَّل هذا كلَّه، وأنْ نحلم بعِلمٍ لحربٍ لغوية فيما قبل التاريخ.

الإغريق والبرابرة والآخَرون

ولكننا لسنا هنا لكي نتخيَّل. ومع أنه يبدو لنا واضحاً أنه لا يمكن إلا أنْ تكونَ قد وقعَت نزاعاتٌ من هذا القبيل، فإنَّ من واجبنا أن نكتفي بالآثار التاريخية التي خلَّفتْها إدارةُ شؤون الاختلاف. إن مصادرنا على هذا الصعيد لا تمضي بعيداً، وعلينا أن نكتفي باليونان

القديمة لنرى بروزَ معاملةٍ خاصة للآخَر من خلال تأثيل كلمة ما تزال حية في اللغات الحديثة، وهي كلمة «**البرابرة**» (Barbare) في الفرنسية.

القضيةُ معروفة، وكنت قد ذكَّرت بها تذكيراً عابراً في الفصول السابقة: لقد وجد الإغريقُ وسيلةً مريحة لتصنيف العالَم، فصنَّفوا كلَّ مَن لا يتكلم اللغة الإغريقية، أي «الغرباء»، في صنف البرابرة المتوحشين (Barbaroi)، وقد استعار الرومان منهم هذه اللفظة بمعناها (Barbarus) أي «الغريب». غير أنَّ ترجمة (Barbaros) بـ «الغريب» تُهمل جانباً مهماً من المعنى، لأن لفظَ «البرابرة» كان يعني من الوجهة التأثيلية التي تهتم بإعادة الكلمة إلى أصولها، «مَن لا يتكلم»، لأنه لا يتكلم الإغريقية، ولا يستطيع أن يُصدِرَ إلا صوتاً هو أشبهُ بالضجيج منه بالكلام، أو غَمْغَمَةً، أو قَرْقَرَة، أي ـ باختصار ـ شيئاً يمكنُ أن يكون على سبيل السخرية، محاكاةً لصوتٍ من أصوات الطبيعة مبنيٍّ على تكرار مقطعٍ يشبهُ صوتُه صوتَ الأطفال: (**بَرْ**) (**بَرْ**)، مما يعطي (**بَرْبَر(وس)**). وسوف تأخذ اللغات الرومانية هذا اللفظ بهذا المعنى. ينقل القاموس الفرنسي **ليتْري** (*Littré*) عن (أورِسْم) نصّاً من القرن الرابع عشر جاء فيه: «البرابرة كلُّ مَن كانت لغتُهم غريبة». كما نجد في الإسبانية عند أنطونيو دو نبريجيا (Antonio de Nebrijia) في كتابه عن نحو اللغة الإسبانية في عام 1492 هذا المقطع الذي يدعو إلى التبصُّر:

«البَرْبَرَةُ عيبٌ لا يمكن التسامح معه في جزء من الجملة، ويسمّى هذا بربرةً (Barbarisme) لأن الإغريقيين كانوا يسمُّون «برابرة» (Barbares) كلَّ الشعوب باستثنائهم هم. وقد سمى اللاتينيون بدورهم «برابرة» كلَّ الشعوب الأخرى باستثنائهم هم والإغريق. ولأن الغرباء الذين كانوا يسمونهم «برابرة» كانوا يفسدون عليهم لغتهم حين

كانوا يريدون التكلّم بها، فقد سَمَّوا «بربرةً» (Barbarisme) العيبَ الذي يقع في كلمة من كلامهم. ويمكن أن نسمي «برابرة» جميعَ الغرباء عن لغتنا باستثناء اللاتين والإغريق»[1]. نرى [في هذا الاستشهاد] أنه حتّى وإنِ اتَّسعتْ رقعةُ غيرِ البرابرة اتساعاً تدريجياً يعطي مشروعيَّةً للاتينية بعد الإغريقية، ثمّ للإسبانية التي تصبح في عداد اللغات المشروعة، فإن مفهوم البربرية في أصله مفهومٌ عِرقيٌّ لتمييز اللغة الإغريقية.

إن تسمية كهذه لا يمكن إلا أن يكون مصدرَها النظرةُ الشعبية للخلاف اللغوي؛ فكلُّ مَن لا نَفهمه ولا يَفهمنا مدعاةٌ دائماً للسخرية أكثرَ منا. بل إننا نجد صدى لهذا التحقير عند مَن نسميهم في أيامنا بالمثقَّفين، ونجد صدى له في الثقافة الإغريقية عند أفلاطون في كتابه **كراتيل** (*Cratyle*).

موضوع هذا الحوار [في الكتاب المسمّى: **كراتيل**] موضوعٌ معروف: إذ ينفتح حوار بين هيرموجين (Hermogène) وكراتيل حول موضوع التسمية، فيرى كراتيل أن «استقامة الكلام إنما تعود إلى الدلالة الذاتية الطبيعية للكلام»، بينما هي عند هيرموجين «نتيجة للاصطلاح»[*]، وحين يدعى أفلاطون للفصل بينهما يكون له مع كلّ واحد منهما نقاشٌ لتوليد الجواب يكتفي فيه على عادته، بأن يبيِّن لِكُلّ واحد منهما مواطنَ الخللِ في منهجه، من دون أن

---

(1) نقلاً عن رول أفيلا: Raul Avila, «La Langue espagnole et son enseignement: Oppresseurs et opprimés,» in: *La Crise des langues*, collection l'ordre des mots; ISSN 0220-6013, textes colligés et présentés par Jacques Maurais ([Montréal]: Conseil de la langue française; Paris: Le Robert, 1985), p. 337.

(*) انظر نقاشاً في الثقافة العربية القديمة عن الدلالة الذاتية أو الدلالة الاصطلاحية في ابن جني، وفي المزهر: سليمان بن عباد الصيمري.

يقدِّم هو نفسُه حلاً قاطعاً. لن نلخص هنا سوى جانب من الحوار، وهو الجانب الذي يطرح فيه أفلاطون أسئلةً على هرموجين، صاحب المذهب الاصطلاحي الذي يدفعه أفلاطونُ إلى التسليم بأن الأشياء لا تُسمَّى كيفما اتفق، وإنما تسمَّى اعتماداً على منطقٍ معين.

وفي سبيل ذلك سيحاول أفلاطون أن يحشّد عدداً من الأمثلة تعودُ كلُّها إلى ما يسميه اللسانيون بالتأثيل الشعبي (وهي الطريقة التي ترى أنَّ كلمة (humus) التي تعني «الطِّمْي» هي في أصل اشتقاق كلمة (Homme) التي تعني «الإنسان»، لأن الله خلق الإنسان من الطين (Limon)، أو التي تقسّم كلمة (Parlement) - التي تعني «مجلس الشعب» - إلى تكلَّمَ (Parler) وكَذَب (Mentir)، وتعيد كذلك تسمية الآلهة (Theoï)، التي تعني في الأصل النجوم والشمس والقمر التي تدخل في سباق لا يهدأ في السماء، إلى فعل (Theïn) الذي يعني «جرى»). والإنسان، على العكس من الحيوان، يدرس (Anathreï) ويرى (Opôpé)، فمن هنا جاء (Anathron-Ha-Opôpé) الذي اشتُقَّ منه لفظُ (Anthropos) الذي يعني «الإنسان».

مثال آخر: لِم سُمِّيَ إلهُ البحر (Poséidon)؟

الجواب: لأنه يمشي في الماء الذي يُعيقُ قدميه، ومن هنا جاء (posi-desmos) «الذي يعيق القدمين» وبوسيدون (Poséidon) الذي يعني «إحدى نباتات البحر المتوسط».

لم ينسَ هِيرموجين بالطبع أن يطرح مسألةَ استقامةِ دلالةِ المقاطع الأوَل والأصوات الأوَل، لأنّه لم يبيِّن له سوى أسبابِ تسميةِ الكلمات المركبة. وسيجيب سقراط على هذا السؤال من خلال نظرية تقليد الأصوات: لإثبات استقامة معاني الكلمات الأُوَل ينبغي

إثبات دلالة الأصوات والحروف: فحرف الراء (r) يدلّ على الحركة، وحرف اللام (l) على الانزلاق، وحرف (o) على الاستدارة، وحرف التاء (t) على التوقف ... إلخ.

في هذه «البَرْهَنة» التي اقتطعناها من سياقها بالطبع (حيث يدافع سقراط في مواجهة كراتيل عن وجهة النظر المعاكسة، دون أن يتخلى تماماً عن وجهة النظر هذه) جهلٌ مزدوج:

ـ الجهلُ أولاً بأن اللغات، بما فيها الإغريقية بالطبع، تتطور، وبأنه لم يكن لهذه الكلمة أو لتلك نفس الشكل قبل خمسة قرون أو قبل عشرة قرون خَلَت. إن كلمة برلمان (Parlement) التي تعني «مجلس الشعب» لم تأتِ بالطبع من (Parle) و(Ment) اللتين تعنيان: «يتحدث» و«يكذب»، ولكنها أتت من فعل (Parler) المأخوذ من اللاتينية الشعبية (Paraulare)، وهذا الأخير مأخوذ بدوره من اللاتينية الكَنَسِيَّة (Parabolare)، المأخوذ بدوره من ... إلخ. في الكراتيل غيابٌ للوعي تاريخي، ذلك أنَّ تطوُّرَ اللغاتِ يجعلُ البحثَ عن تعليل «صِحَّةِ» التسمية بالمعنى الذي يَنشُده سقراط، في لحظة من لحظات التاريخ، جهداً ضائعاً.

ـ الجهلُ خصوصاً باللغات الأخرى، لأننا لو سلَّمْنا بما سلَّم به هيرموجين لسقراط، فإن هذا لا يَصْدُقُ إلا على الإغريقية: فلا يمكن على سبيل المثال، أنْ نقبل البَرْهَنةَ المذكورة أعلاه لِلَفْظِ (Anthropos) دون أنْ نستنتِجَ مباشرة أنَّ لفظ (Homo) غيرُ صحيح التكوين. ولكن هذا الموضوع لم يُطرحْ قطُّ على بساط البحث، لأنه لم يكن في أيديولوجية ذلك الزمان لغةٌ أخرى غيرُ الإغريقية، فليس بجانب هذه اللغة، كما رأينا، إلا أصواتٌ مبهمة يُصدرُها برابرة.

إن نصّ أفلاطون الذي يشكِّلُ لحظةً من لحظات تاريخ التفكير

في العلامة اللغوية، والذي يعبِّرُ عن وجهةِ نظرٍ ظلت سائدةً حتّى زحزحَتْها عن موقعها نظريةُ اعتباطيةِ العلامةِ التي جاء بها فرديناند دو سوسير في القرن العشرين(*)، يشكل إذاً في الوقت نفسه مثالاً على هذا النوع من أيديولوجية التفوق التي اخترناها عنواناً لهذا الفصل.

دو بِلّاي (Du Bellay) ودفاعُه

ظلّ الناس يشعرون في مواجهة الاختلاف اللغوي بالحاجة إلى إثبات امتيازِ لغاتهم وضِعَةِ لغاتِ الآخرين. وقد رأينا نموذجاً علمانياً لهذه المحاولة في المقابلة بين الإغريق والبرابرة. ورأينا في الفصل الثاني نموذجاً دينياً لها في محاولة إثباتِ تفوُّقِ اللغة العربية في القرآن. في الحالين، لم تكن الأيديولوجيا منصبَّةً مباشرة على الممارسة العملية، ولم تكن تهدف إلى الإيحاء برسم سياسة [لغوية] خلافاً للمثال الذي سيأتي.

في عام 1549 نشر جواشيم دو بلّاي (Joachim Du Bellay) كتابه في الدفاع عن الفرنسية والتمثيل لها (*Défense et illustration de la langue française*) معبِّراً في هذا عن وجهةِ نظرٍ لجماعةٍ تُعرَف باسمها العام: Pléiade الذي يعني «الثُرَيّا»، أي «النجوم السبعة»، ونودُّ في ما يلي معالجةَ هذا الكتابَ[2].

نذَكِّر أوَّلا بأن إيطاليّاً هو سبيرون سبيروني (Sperone Speroni) كان قد نشر في فينيسيا عام 1542 كتاباً عنوانه **حوارٌ عن اللغة** (*Dialogo delle lingue*)، وبأن وجودَ الكتاب الذي نتناوله بالدرس ليس غريباً عن وجود هذا الكتاب، فقد حاول سبيروني أن يُبيِّن تفوُّقَ

(*) في أصل الكتاب ورد القرن العاشر، وهو خطأ ظاهر.

(2) نستخدم هنا الطبعة التي نشرها: Louis Terreaux (Paris: Bordas, 1972).

لغته الإيطالية على اللاتينية، وسيضع دو بلّاي هذا الهدف نصب عينيه مستوحياً مثال سبيروني الذي سبقه، ومتجاوزاً في بعض الأحيان الحدودَ في استيحائه منه.

في البداية (في الفصل الأول من الكتاب الأول: «في أصل اللغات»)، يدافع عن فكرة المساواة بين اللغات «بما أن جميع اللغات مشتقةٌ من مصدر واحد وأصل واحد». إلا أنه يضيف: «والصحيح أنه بِتقدُّم الزمان أصبح بعضُها أغنى من بعض، لأنها نُظِّمَت بشكلٍ أكثرَ دقَّةً. غير أنَّه لا ينبغي أن يُنسَب هذا إلى الطبيعة الذاتيةِ لهذه اللغات، بل إلى براعة أصحابها وصنيعهم فحسب».

كلّ اللغات متساوية إذاً لأنها تعود إلى لغةِ ما قبلَ بابل، وإن كان بعضُها «أكثرَ مساواةً من بعض». ولا يعود هذا التفوَّقُ إلى اللُّغاتِ نفسِها ولكن إلى الناطقين بها الذين عرفوا كيف يطورونها: «لم تولَدِ اللغاتُ من ذواتِ نفسِها كما يولَد العشبُ والجذورُ والأشجار: بعضُه مريضٌ ضعيف في جنسه، وبعضُه الآخر صحيحٌ قوي قادر على احتمال ما يتصوره الإنسان: وإنما يعود الفضلُ في ولادتها إلى إرادة الناس واختيارهم». يمكن أن نحكم على مدى الأصالة عند بلّاي حين نقارن هذا المقطع بالمقطع التالي لـ سبيروني:

«لم تولدِ اللغاتُ مِن ذوات أنفسِها كما يولدُ الشجَرُ من العشب: بعضُه ضعيفٌ مريضٌ في جنسِه، وبعضُه الآخرُ صحيحٌ قويٌّ قادرٌ على احتمال ما يتصَوَّرُه الإنسان، وإنما يعودُ الفضلُ في ولادتها إلى إرادة الناس».

مهما يكن من أمر، فإن الكاتب هنا أصيلٌ إلى حدٍّ ما حين

يتحدث عن المساواة بين اللغات. وكنّا أشرنا في موضع آخر[3] إلى أن القرن السادس عشر قد شهد جدلاً شديداً، ولا سيما بين الفرنسيين والألمان الذين كان يحاول كلٌّ منهم من جهته، أن يُثبت أنَّ لغتَه هي الأقربُ من لغة ما قبل بابل، لأن هذا القرب يعطيها بلا ريب تفوقاً على غيرها.

ولكننا سنرى فيما بعد أن نصّ دو بلاّي يعود في القسم الثاني منه إلى الخطاب السائد.

في القسم الثاني، سوف يستمد دو بلاّي من المساواة بين اللغات دليلاً لمصلحة اللغة الفرنسية، فيقول: «يظلُّ لَومي قليلاً في هذه المسألة مهما لُمْتُ بعضَ أبناء وطننا على حماقتهم وغرورهم، فهم رغم أنَّهم ليسوا أقلَّ قدراً من الإغريق واللاتين، يزدرون كلَّ ما يُكتب بالفرنسية ويرفضونه. ويظلُّ عجبي قليلاً مهما عجبت من الرأي الغريب لبعض العلماء الذين يظنون أن لغتنا ليست قادرة على أن تكون لغةَ الأدب الرفيع والعِلم».

في الكتاب الثاني، سوف تُترك هذه العموميات للوصول إلى معالجة الأمور الملموسة، أي إلى الدفاع عن الفرنسية. وسيكون دفاعُ المؤلِّف في معظمه محصوراً في قضايا المعجم. يبدأ المؤلّف أولاً بالتبرير النظري، فيقول: «لا يشكُّ أحدٌ، إلا إن كان جاهلاً حقّاً، بل مجرداً من أي ذوق، في أن الأشياءَ توجد أولاً ثمّ توجد الكلماتُ لتسميتها، وأنَّ الأشياء الجديدة بالنتيجة تفرض إيجادَ كلمات جديدة»، ثمّ يُعقِب ذلك بالدعوة إلى التوليد المعجمي: «لا تتهيَّب إذاً، يا شاعر المستقبل، من توليد بعض الكلمات الجديدة»،

---

(3) Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1974).

وبالتحذير خصوصاً: «ومن بين أمور كثيرة إياك يا شاعرَنا أن تستخدم الأسماء الأعلام اللاتينية أو الإغريقية، فذلك حقاً أمرٌ لا معنى له، فإنْ فعلتَه كنتَ كمَن يرقع ثوباً من مُخمَل أحمر بقطعة مُخمل أخضر» (الفصل السادس).

سوف ترتفع هذه النبرةُ شيئاً فشيئاً، وتشتعلُ اللهجة حماساً، وبعد أن يعطي المؤلِّفُ في الفصل التاسع عدداً من النصائح في مجالَي النحو والأسلوب: («استخدِم إذاً الفعلَ غيرَ المصرَّف اسماً، مثل الذهاب، والغناء، والعيش، والموت. واستخدِم الصفةَ اسماً، مثل (السائل) في (السائل من المياه)، ومثل (الفارغ) في (الفارغ من الهواء) . . .(*)»). ويصل في الباب الثاني عشر إلى مناشدة الفرنسيين للكتابة بلغتهم. هذه المناشدة التي يُختَتَم بها الكتاب، تُثبتُ أوَّلَ ما تُثبِت، تفوُّقَ فرنسا على إيطاليا:

- اعتدال الهواء، وخصوبة التربة، ووفرة جميع أنواع الفاكهة . . .

- عدد كبير من الجداول الكبيرة، ومن الغابات الجميلة، ومن المدن . . .

- عدد كبير من المهن والفنون والعلوم المزدهرة . . .

«لِمَ نُعجَب إذاً كلَّ هذا الإعجاب بالآخرين؟ ولِمَ نجور على

(*) يدعو المؤلِّف الشعراء إلى استخدام الفعلَ غيرِ المصرَّف اسماً مرة، وفِعلا مرة أخرى، فيكون للصيغة الواحدة قيمتان: قيمة الفعل غير المصرَّف حين تستخدَم في موضع الفعل، وقيمة المصدر حين تستخدَم في مواضع الأسماء. مثال ذلك Aller التي تعني (ذهَبَ وذهاب) وChanter التي تعني (غنّى وغناء) وVivre التي تعني (عاشَ وعَيْش) وMourir التي تعني (مات وموْت). وليس في العربية ما يقابل هذه الصيغة في الفرنسية لأن الفعل في العربية لا يكون بلا تصريف، فهو لا ينفصل من ضميره.

أنفسنا كلَّ هذا الجور؟ ولِمَ نستجدي اللغاتِ الغريبة وكأننا نخجلُ من استعمال لغتنا؟.

ثمّ يصل بعد ذلك إلى ما يشكِّل الأساس في استدلاله: «لا ينبغي لك أن تخجل من الكتابة بلغتك». لا ينبغي لأحد أن يعترض على هذا القول الأخير، لا في أيام دو بلاّي ولا في أيامنا. إلا أن الخاتمة التي تقرع طبول الحرب الثقافية مدعاة للاعتراض:

«لا تخافوا بعد اليوم من هذا الإوزِّ الصيّاح(*)، ولا من هذا المَزهُوِّ بنفسِه: مانلي(**)، ولا مِن ذاك الخائن: كاميل(***). هاجِموا هذه اليونان الكاذبة(****)، وانهبوا الكنوزَ المقدسةَ من معبد دِلْف(*****) هذا، دون أن تؤنِّبَكم ضمائرُكم، ولا تخافوا بعد اليوم

(*) يقع هذا النصّ في إطار التفاخر بالفرنسية والفرنسيين، شعب الغول، والحط من شأن اللغات الأخرى، والشعوب الأخرى، ولا سيما اليونان والرومان. وهو يشير إلى أسطورة الإوز المقدس الذي أخذ يصيح حين كانت شعوبُ الغول تهاجم الكابيتول ليلاً بعد أن احتلت هذه الشعوبُ روما قرابةَ عام 390 ق. م.، فأنقذ هذا الإوز روما بصياحه، إذ أفشل هجوم شعوب الغول.

(**) مانلي هو (M. Manlius Capitolinus) الذي أنقذ الكابيتول كما تنقل الرواية بفضل صياح الإوز.

(***) كاميل هو (Marcus Furius Camillus) الذي هزم شعب الغول في بْرينوس (Brinnus) بعد احتلالهم الكابيتول، ولكن المؤرخين في أيامنا يشكون شكاً كبيراً في هذه الرواية التي ينقلها التراث.

(****) في رؤية معينة للتراث القديم تبدو اليونانُ بلدَ الفلسفةِ والسفسطة، أي بلدَ الكلام، وبالتالي بلدَ الكذب. ونبوءات أبولون عند الأقدمين نبوءات مُلبِسة، «ملتوية» حسب اللفظ اليوناني نفسه، فهي إذاً كاذبة.

(*****) هو المعبد المخصص لأبولون. تقول الأسطورةُ اليونانية إن أبولون كان يرُدُّ في معبد دِلْف على الأسئلة التي كان يوجهها إليه البشر بشأن المستقبل، وتقول إن آخَرين من شعب الغول فشلوا في آخر لحظة في نهب هذا المعبد بفضل تدخل أبولون، فذهبوا إلى آسيا الصغرى، تركيا الحالية، واستقروا فيها وأسسوا مملكة غاليطيا. وفي بعض نقوش جنوب فرنسا نماذجُ من لغة الغول هؤلاء محفورة بالحروف اليونانية.

من هذا الأخرس أبولون(*)، ولا من نبوءاته المزيَّفة، ولا من سهامه المفلولة».

هذا النصّ الذي غالباً ما يشير إليه أساتذة اللغة الفرنسية ولكنه لا يُقرأ إلا نادراً، والذي يُذكَر غالباً لعنوانه لا لمحتواه، يستحق إذاً وقفةَ تأمُّلٍ لأن فيه لبساً عميقاً بالمعنى الحقيقي لكلمة اللبس، لأن له معنيين؛ فهو من جهة يندرج في إطار حركة تحرير ثقافي لأنه يعبر عن إرادة في جعلِ الفرنسية، على قدم المساواة مع اللاتينية، لغةً قادرة على نقل الشعر ونقل العلوم: هذا ما تقوله جميع الكتب التي تؤرِّخ للأدب الفرنسي. وتعود شهرة هذا العمل إلى إسهامه في «معركة عادلة». غير أنه قد لا تكون له، حتّى في هذه المسألة، المكانةُ التي تُعطى له غالباً. وينبغي أن نتأمل ملياً الحكم الذي أصدره عليه فرديناند برونو في كتابه **تاريخ اللغة الفرنسية** حين قال: «لا ينبغي لي أن أعتبر عمل [دو بلاّي] إلا عملَ داعيةٍ ينافح عن لغته؛ وينبغي الاعتراف، حتّى وإن بدا هذا الاعتراف قاسياً، بأنه عملٌ يكاد يكون بلا فائدة»(4).

لكن الفائدة تكمن عندنا هنا في حاجة دو بلاّي في «دفاعه» عن اللغة الفرنسية إلى مهاجمة اللغات الأخرى. وينبغي من وجهة النظر هذه أن يوضع نصُّه في منظور سياسي لا يأخذ في الحسبان النقاش

(*) أبولون إلهُ دلْف، هو أحد آلهة اليونانيين، وهو إله الجمال الذي يحمل الطُّهر والشفاء، ولكنه يمكن أنْ يحمل أيضاً الطاعونَ والموتَ المفاجئ بسهمه. وتقول الأسطورةُ إن أبولون قد استخدم هذا السهمَ الذي هو صفةٌ من صفاته، في مواجهة شعب الغول الذي هاجم معبد دِلْف. وأبولون هو صاحب النبوءات، ولكنها نبوءات كاذبة لأنها وثنية وليست مسيحية.

(4) Ferdinand Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900* (Paris: A. Colin, 1905-), tome II: *Le XVIe siècle*, 1906, p. 85.

الدائر حول لغة ما قبلَ بابل فحسب، وهو نقاش أشرنا إليه أعلاه (ويريد فيه دو بلاّي كما يريد سابقوه إثباتَ تفوُّقِ اللغة الفرنسية على غيرها من اللغات الأوروبية) بل العلاقات بين اللغات المستخدَمة في فرنسا نفسها، إذ ينبغي التذكير بصورة خاصة بأنه قبل صدور كتاب دو بلاّي في الدفاع عن الفرنسية والتمثيل لها بعشر سنوات، أي في الخامس عشر من شهر آب/ أغسطس عام 1539 أصدر الملك فرانسوا الأول مرسوم فيلار - كوتِري (Villers-Cotteret) الخاص بالقضاء والذي تنص المادتان 110 و111 منه بالتحديد على أن الفرنسية لغةُ القضاء، وهذا يعني أن الفرنسية، بالطبع، تحل محل اللاتينية وتحتل، في الوقت نفسه، موقعاً متقدماً بالنسبة للغات المحلية الأخرى، وهذا يعني أيضاً، كما أشار إليه برونو، أن الفرنسية صارت «لغة الدولة». في هذا السياق ينبغي النظر إلى كتاب دو بلاّي وتقويمه، بمعنى أن مؤلّفه يسهم مع رونسار (Ronsard) وباييف (Baïf) وجوديل (Jodelle) وآخرين في تيار أدبي، وأن الكِتاب على هذا الأساس «فنٌّ شعري»، ولكنه أيضاً يندرج في تيار أيديولوجي لحربٍ لغوية في مواجهة الداخل (لفَرْض الفرنسية في فرنسا لغةً للدولة)، وفي مواجهة الخارج (لإثبات تفوق الفرنسية على غيرها من اللغات التي هي لغات دول).

ريفارول وعالَميَّة اللغة الفرنسية

سنقوم لأسباب نعرضها في آخر هذا الفصل، بقفزة تاريخية ننتقل فيها مباشرة إلى نهاية القرن الثامن عشر حين اختارت أكاديمية برلين في السادس من شهر حزيران/ يونيو عام 1782 الموضوع الآتي لمبارياتها السنوية:

«ما الذي جعل اللغة الفرنسية لغة عالَميةً لأوروبا؟

ما الذي جعلها تستحق هذا الامتياز؟

أيمكن الافتراض بأنه يمكنها أن تحتفظ به؟

هكذا إذاً، بعد قرنين من الهجمة المدوِّية لـِ (دو بلاّي) تَعتبِر أكاديميةٌ أجنبية أن للفرنسية موقعاً «عالَميا»، وأنها «لغة عالَمية لأوروبا».

في الواقع، لم تأتِ الأكاديميةُ الألمانية بجديد في هذا الموضوع، فقد ذكر مونتسكيو (Montesquieu) في عام 1728 بعد رحلة إلى فيينا أنَّ «لغتنا فيها لغة عالَمية». ويؤكّد موبرتويس (Maupertuis) في عام 1751 أنها «اللغة العالَمية لأوروبا». وتقدِّمها طبعةُ 1762 من معجم الأكاديمية على أنها «تكاد تكون ضرورية للأجانب كلغتهم الطبيعية». ويقول فولتير في كتابه: **عصر لويس الرابع عشر**، إن لغتنا «أصبحت لغة أوروبا». وتقول دائرة المعارف نفسها في مادة «لغة»: «إنّها تتمتع بالحظوة في جميع البلاطات الأوروبية حيث يكادون يتكلمون بها كما يتكلمون بها في قصر فرساي». ونستطيع أن نُكثر الشواهدَ على أن هناك إجماعاً على هذه المسألة، في فرنسا على الأقل.

لئن كان صحيحاً أن الفرنسية تشغل مكاناً مرموقاً في الأدب وفي الدبلوماسية، ولئن كان صحيحاً أن البرجوازية الأوروبية تتكلم بها، وأن كثيراً من المدارس تدرِّسها، فإنه لا ينبغي أن تؤخَذَ هذه النظرة المثالية دون قدر من النسبية، لأن انتشار الفرنسية، كما كتبت دائرة المعارف، خاص بالبلاطات، وبالنبلاء، وبالسلطة. ومن التفاؤل بمكان افتراضُ عالَميَّتها في وقت لم تكن فيه لغةَ الأكثرية في فرنسا نفسِها. يكفي للتأكد من هذه المسألة الرجوعُ بعد سنوات عديدة إلى التقرير الذي قدّمه الأب غريغوار أمام الجمعية التأسيسية في السادس

عشر من شهر بريريال في العام الثاني (الموافق للثامن والعشرين من شهر أيار/ مايو 1794)(*). في التقرير نفسُ النغمة: «لئن حظيَتْ لغتُنا بهذه المنزلة عند الطغاة وفي البلاطات حيث كانت فرنسا الملَكيَّة تقدِّم لهم المسارح، وريش الزينة، والأزياء وآداب اللياقة، فكم هي المنزلة التي لم تحظَ بها عند أفراد الشعوب التي كشفت لها فرنسا الجمهورية عن حقوقها، وفتحت لها الطريق إلى الحرية؟».

في هذا التقرير تصبح اللغة العالَمية لغة الحرية .ولكن غريغوار يكتب في موضع لاحق من تقريره: «يمكن أن نؤكِّد دون مبالغة أن ستة ملايين على الأقل من الفرنسيين، ولا سيما في الأرياف، لا يعرفون لغتهم الوطنية، وأن عدداً مماثلاً لهم لا يُحسن إنشاء خطاب متماسك بهذه اللغة، وأن عدد الذين يحسنونها في نهاية المطاف لا يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة. والأرجحُ أن عدد الذين يكتبونها كتابة صحيحة أقلُّ من ذلك أيضاً»، وهذا فيما نرى عدد قليل جداً للُغةٍ تُقدَّم على أنها لغة عالَمية.

لنعد الآن إلى مباريات عام 1782، فقد تلقت أكاديمية برلين واحداً وعشرين أو اثنين وعشرين جواباً، لأن المصادر متضاربة حول هذا الجانب، من بينها 18 جواباً احتُفظ بها(5). وقد وُزِّعت الجائزة بين جوابين: أحدهما بالألمانية لـ جان كريست شواب (Jean Christ Schwab) (1773 ـ 1821)، والثاني بالفرنسية لأنطوان ريفارول (Antoine Rivarol) (1753 ـ 1801) بعنوان شهير: خطاب عن عالَمية اللغة الفرنسية. لقد أعطى فرديناند برونو، الذي اطَّلع على

(*) تخلَّت الثورة الفرنسية عن التقويم المسيحي وغيّرت أسماء الأشهر وأيام الأسبوع قبل أن تعود فرنسا إلى هذا التقويم في مرحلة لاحقة.

(5) انظر: Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900*, tome VIII, 1935, pp. 839 et sv.

المخطوطات الست عشرة المحفوظة في برلين، التحليل الذي أستعيرُ منه المسائل الآتية[6]:

ـ تسع إجابات مكتوبة بالألمانية، وسبعة بالفرنسية (من بينها قسمٌ كتبَه جماعةٌ لا يبدو، اعتماداً على أسلوبهم، أن الفرنسيةَ لغتُهم الأم). يمكن أن نرى هنا أثراً لهذه «العالَمية» دون أن ننسى أنَّه وإنْ كانت المبارياتُ في ألمانيا فإنها تتعلق باللغة الفرنسية، وأن هاتين السِّمتَين تفسِّران إلى حدٍّ ما تقاسُمَ الإجاباتِ بين اللغتين.

ـ يشير برونو إلى أن قدْراً كبيراً من الموضوعية يطبع هذه الرسائل، وإلى أن المرشحين حاولوا معالجة الأسئلة المطروحة من دون أن يظهروا أي علامة من علامات العدوانية تجاه فرنسا.

ـ يعترض بعضُ الإجابات على فكرة العالَمية نفسها، ويشير إلى أن الفرنسية بلا ريب أوسعُ اللغات الأوروبية انتشاراً، ولكن توسُّعَها يظل محدوداً جداً على الصعيد الجغرافي (فالناس لا يتكلمون بها في بولونيا ولا في المجر، وهي قليلة في البرتغال) وعلى الصعيد الاجتماعي. «يستحيل البحثُ عن الأسباب التي جعلت من الفرنسية لغةً عامة لأوروبا» يكتب أحدهم، «لأن هذا يعني البحث عن أسبابِ أمرٍ غيرِ حاصل».

ـ يقدِّم المرشحون أسباباً عديدة لتفسير موقع اللغة الفرنسية، منها: إشعاعُ الثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي، والظروفُ السياسية، ولا سيما منها دور لويس الرابع عشر، والرحَّالة الفرنسيون في الخارج، والفارّون، والمهجَّرون من الفرنسيين البروتستانت، وغير ذلك من الأسباب.

(6) المصدر نفسه، ص 912-914.

- ويعيد بعضهم أخيراً أسباب هذه «العالَمية» إلى اللغة الفرنسية نفسها، وإلى صيَغها. ويشارُ إلى الدور الكبير للأكاديمية الفرنسية ولقاموسها، وتُقدَّم الفرنسية على أنها لغةٌ يسهُل تعلُّمُها والنطقُ بها، وإلى أنها لغةٌ أنيقة. ويشار خصوصاً إلى وضوحها الذي يُربَط عموماً بالنظام «الطبيعي» لنحوها. وهذه النقطة الأخيرة تعيدنا إلى ريفارول:

«ما ليس واضحاً فليس بفرنسي».

هذه العبارة التي حفظها التاريخ، هي نتيجةٌ لاستدلال طويل يمكن تلخيصُه بمرحلتين اثنتين:

في المرحلة الأولى يشرح (ريفارول) لِمَ اكتسبت الفرنسية موقعَ لغة عالَمية، ولِم لم تستطع لغاتٌ أخرى (كالألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والإنجليزية) منافستَها. ويعلل ذلك أحياناً بأحكام متهورة: (الأدب الإنجليزي من شاوسير إلى ميلتون مروراً بشكسبير «لا يستحق إلقاءَ نظرةٍ عليه»!)، ثم يعدد الأدلةَ التي في صالح اللغة الفرنسية، من عبقريةِ أدبها، إلى عظَمةِ لويس الرابع عشر، ويشرح أنها قد أحرزت تقدّماً على اللغات الأخرى يسمح بإعطائها حقَّ الأخ الأكبر (والعبارة هذه لريفارول).

في المرحلة الثانية يشرح كيف استطاعت الفرنسية أن تحتفظ بتقدّمها: إنّه بسبب عبقريتها الخاصة. ويستدل على ذلك بأن الناس في تناقض دائم بين المنطق من جهة، والعواطف من جهة ثانية. وتدفع العواطف إلى أن نسمي أولاً المفعول الذي يثير الحواسّ، بينما يدفع المنطقُ إلى تسمية الفاعل أولاً، ثم الفعل، فالمفعول في آخر المطاف، تماماً كما هو الأمر في النحو الفرنسي. ومن اللغات إذاً مَن يتبع ترتيب العواطف، ولذلك فإن نحوها نحوٌ فاسد، متعثّر، أما الفرنسيةُ فنحوُها نحوٌ منطقي: «بقيت الفرنسية وحدَها وفيَّة

للترتيب المنطقي، بفضل امتياز وحيد . . . فبقي نحوُ الفرنسية سليماً من الفساد، ومن هنا هذا الوضوحُ المعجِب الذي هو الأساس الخالد للغتنا، فما هو غير واضح فليس بفرنسي».

ليست فكرة «الترتيب المنطقي» فكرةً جديدة، فنحن نجدها في القرن السابع عشر، ولا سيما في كتاب **النحو العام الاستدلالي** (*Grammaire générale et raisonnée*) الذي يقال له نحوُ (بور روَيَّال). وسوف تُستخدَم هذه الفكرةُ دليلاً لمصلحة اللغة الفرنسية لسنوات طويلة. من الصعب بالطبع القبولُ بأن لغةً يمكن أن تكون «متفوِّقة» على أخرى، ولا يحتاج المرء إلى أن يكون لسانياً ليرى خلف هذه العقلانية المزعومة نوعاً من التعصب العنصري للُّغة: فاللغات التي ليس لها الترتيبُ النحويُّ للفرنسية ليست «منطقية»، والعقلانيةُ المزعومة تؤدي في النهاية إلى العصبية الوطنية.

أيديولوجيّو الحرب

كنا في كتاب سابق[7] خصَّصنا فصلاً للعلاقة بين «نظرية اللغة والاستعمار» يمكن للقارئ الرجوعُ إليه، ولذلك اكتفينا في الصفحات السابقة بتحليل نصوص كنا عالجناها معالجة سريعة في الكتاب (كما هو حال نصّ كراتيل)، أو لم نكن قد عالجناها فيه، كما هو حال (Défense et illustration de la langue française) وخطاب عن عالَمية اللغة الفرنسية (Discours sur l'universalité de la langue française). وفضلاً عن ذلك فقد اخترنا هذه النصوص لأنها تشغل حيِّزاً خاصاً في اللاوعي الجماعي، ولأن رَجْعَ صداها ليس بلا فائدة في وقت يعتبر فيه كثيرون أن اللغة الفرنسية مهددة [في وجودها].

---

(7) Calvet, *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*, pp. 15-39.

انتقلنا إذاً من دو بلاّي إلى ريفارول من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، مع أننا نجد بين هذين النصين عدداً كبيراً من الوثائق التي تمضي في الاتجاه نفسه، اتّجاه إثبات تفوق لغة على الأخريات، فعددُ الأمثلة ليس مهماً إن كان الدرسُ المستفادُ منها جميعاً درساً واحداً.

سمح لنا المنهج التقابلي بين اللغات، وهو مقاربةٌ استقرت كونها علماً ببطءٍ بعد ازدهارها في القرن التاسع عشر، بأن نفهم كيف تطورت اللغات، وبأن نقوم بعمليات جريئة في إعادة بناء [أشكال اللغات القديمة]؛ فقد أمكنَ بفضل الدراسات المقارنة، تخيُّل شكلِ لغةٍ لم يبقَ لنا منها أثر، وهي الهندية ـ الأوروبية، ومعرفةُ القوانين الصوتية التي تفسر كيفيةَ تحوُّل أصواتٍ من اللغة الأم نحو أصوات من «اللغة البنت».

غير أنَّ المقارنات التي أشرنا إليها [عند دو بلاي وريفارول . . . إلخ] لم يكن لها قط هذه الوظيفة، فلم تكن مرتكزة إلى البحث عن معرفة، بل كانت تحاول أن تُثْبت خصوصاً أنه ليس لجميع اللغات قيمةٌ واحدة، وأن هناك باختصارِ لغاتٍ وضيعةً ولغاتٍ راقية.

هكذا جرت المقابلة بين اللغات الأوروبية ولغات العالم الثالث، وقامت هذه المقابلة بدور مهم في الأيديولوجية الاستعمارية، كما جرت المقابلةُ بين اللغات الأوروبية نفسها، ولم تكن هذه المقابلة غريبة عن مختلف الصراعات التي ميَّزت تاريخ الشعوب الغربية. والنقاش الذي جرى حول لغةِ ما قبلَ بابل، وهو نقاش يخترق القرن السادس عشر، متصلٌ مباشرة بالصراع بين أبناء فالْوا (Vallois) وأبناء هابسْبورغ (Habsbourg).

لئن دخل الإنسان في التواصل اللغوي بصيغة التعدد اللغوي،

فإنه في الوقت نفسه قد أدار هذا التعدد بصيغة التحقير، وقد أسَّس منذ البداية لحرب لغوية أذكى نارها أصحابُ الأيديولوجيات الدينية والمدنية فيما بعد، لأن الفوارق بين اللغات قد حُوِّلت إلى تَبَعية، ولأن لغة الآخر اعتُبِرت لغةً وضيعة (بشكل عام)، بل لم تعتبر لغة (كما هو الحال عند الإغريق). هذه الحرب حربٌ نظرية بلا شكّ، ولكنها كما سنرى، حربٌ سوف تتطور في اتجاهات متعددة، وسوف تستغلها أجهزةُ الدول بشكل أقلَّ تمسُّكاً بالمُثُل. وتبدو لنا هذه الحرب مرتبطةً إذاً بالتعددية نفسها، فالإنسان لا يقبل الخلاف إلا على مضض.

الباب الثاني

ساحة المعركة

الفصل الخامس
لغةُ الحَصر ولغةُ النشر

تتوزع جميعُ الأشكال اللغوية التي نستعملها - سواءٌ أكانت لغاتٍ مختلفةً أو أشكالاً متعددة من لغة واحدة - بين قطبين يجتمع تحتهما عددٌ واسعٌ من الوظائف: قطبُ اللغة الناشرة من جهة، وهو القطبُ الذي يحدِّدُ الأشكالَ اللغوية التي نختارها حين نريد نشر التواصل مع أكبر عدد ممكن من الناس، وقطبُ اللغة الحاصرة من جهة ثانية، وهو القطبُ الذي يحدِّدُ، على العكس من القطب الأول، الأشكالَ التي نتخذها حين نريد قصْرَ التواصل على أقل عدد ممكن من الناس، وتحديدَ خصوصيتنا، ورسمَ حدود الجماعة.

وينطبق هذان المفهومان (مفهوم الحصر ومفهوم النشر) على أوضاع التعدُّدِ اللغوي، وعلى أوضاع التوحُّد اللغوي في آنٍ واحد.

القطب الحاصِر

لا نستخدم للُّغةِ الحاصرة كلمةَ (Grégaire) المأخوذة من اللاتينية (Grex, Gregaris) والتي تعني «القطيع»، بدلالتها التحقيرية التي توحي بها الكلمةُ الفرنسية عموماً حين يقال: «غريزةٌ قطيعية» (Instinct grégaire) تشبيهاً للناس في هذه الغريزة بقطيعٍ منَ الخِراف،

ولكننا نستخدمها للتعبير عن فكرة التواطؤ؛ فاللغةُ الحاصرة، أو لغة القطيع، لغةٌ لجماعة صغيرة من الناس تقصُرُ التواصلَ على عدد محدود من البشر، ويتميز شكلُها بإرادة الحدِّ من انتشارها، كما هو الحال في الأشكال المشفَّرة، أو في لهجات الجماعات التي لها مفاتيح خاصة بها تواطؤوا عليها لإخفاء معانيها عن سائر الناس، كلهجات لارغونجي (Largonji) وفيرلان (Verlan) وغيرهما(*)، التي تهدف التغييراتُ في أشكالها إلى الحدِّ من التواصل بها، وكما هو الحال أيضاً في المستويات الاجتماعية وفي الأشكال اللغوية المرتبطة بهذا الجيل أو ذاك، وباللغات في هذه الأسرة أو تلك.

يمكنُ مثلاً في إطارٍ متعددِ اللغات، اعتبارُ لغتَي المقاطعتين الفرنسيتين: بريتون وكورسيكا، لغتين حاصرتين بالمقارنة الفرنسية. ولكن يمكن في إطارٍ أحاديِّ اللغة أن تكونَ لغةُ كورسيكا نفسُها لغةً ناشرةً، ويكونَ في داخلها أشكالٌ لغويةٌ حاصرة (لغات خاصةٌ بِأُسَرٍ معينة، ومناطقَ معينة، وأعمار معينة، وما شاكل ذلك). ويمكن أن يقال الشيءُ نفسه عن الفرنسيين العاملين في الولايات المتحدة الأمريكية والذين يستخدمون الإنجليزية في أعمالهم، فإنّهم يستخدمون في ما بينهم لغتَهم الفرنسية في مواجهة الإنجليزية، فتكون وظيفةُ الفرنسية حينئذٍ وظيفةَ لغة القطيع، أي وظيفةَ اللغة الحاصرة، غير أنهم حين يعودون إلى بيوتهم قد يستخدمون أشكالاً

(*) غالباً ما يتعلق الأمر بفئة اجتماعية محدودة تتواضع على عدد من الرموز تُغيِّر بها ألفاظَ اللغة المستعملة لإخفائها. مثال هذا لهجةُ الجزّارين في باريس وليون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ كانوا ينقلون الحرف الأول من الكلمة إلى آخرها، ويعوّضونه بحرف اللام، ويضيفون في آخر الكلمة إحدى اللواحق. مثال ذلك كلمة **boucher** التي تعني «الجزّار» والتي تصبح بعد نقل الحرف الأول منها وهو الباء إلى آخرها، وتعويض الباء بحرف اللام، وإضافة إحدى اللواحق **l ouché b em**.

خاصة من الفرنسية، فتكونُ وظيفةُ هذه الأشكال الخاصة في الأسرةِ وظيفةَ لغة القطيع بالمقارنة مع الفرنسية، أي وظيفةً لغويةً حاصرة في الأسرة. وقد يستخدم الأطفالُ في نفس الأسرة أشكالاً حاصرةً خاصة للتميُّز عن ذويهم. **إننا إذاً جميعاً على قدر من التعدد اللغوي حتّى حين نكون أحاديي اللغة**. نريد بهذا أن نقول إننا حتّى في إطار لغة واحدة، هي لغتنا، نستخدم أشكالاً مختلفة من هذه اللغة، وإنَّ اختيارَ هذا الشكل أو ذاك إنما هو اختيار لوظائفَ مخصوصة. إذ عند كلِّ واحدٍ منا، في معجمه الخاص، ألفاظٌ من تاريخنا الشخصي لا نستخدمها إلا مع عدد محدود من المخاطَبين: كلماتٌ صغيرة محبَّبةٌ للأزواج، وألفاظٌ للجماعة أو لأبناء الجيل نخصِّصُها للأصدقاء، وألقابٌ للتحبُّبِ مخصَّصةٌ لأفراد الأسرة(*)، وألفاظٌ مخصَّصةٌ للأطفال، كتلك الألفاظ التي يخطئون في نُطقِها والتي ترافقنا طوال حياتنا بفضل الذاكرة العجيبة للأهل، وهي ألفاظٌ تعود إلى الظهور في كلّ اجتماع للأسرة.

لنأخذ مثالاً مشهوراً في أيامنا من المجال العام: كانت أسرة جان بول سارتر تناديه في شبابه (بولو)، وكان هو نفسه يسمي سيمون دو بوفوار فيما بعد (كاستور)، وذلك بالتلاعب بكلماتٍ متقاربة هي (بوفوار) و(بيفِر)، التي تعني في الإنجليزية: كاستور (السمّور أو كلب الماء . . . إلخ). وكان للمجموعة التي شكّلاها مع أصدقائهما لغتُها الخاصة، وعباراتها الخاصة(**): يكتب سارتر هذه

(*) يقصد المؤلّف بذلك تغيير الأسماء في الأسرة تودُّداً وتحبباً، كأن يقال لمحمّد (حُمودة) أو (حمادة)، ولزينب (زنُّوبة). . . إلخ.

(**) في النصّ ثلاثُ جملٍ فرنسية لها تراكيبُ مخصوصةٌ غير مألوفة في الفرنسية مما تواضَع عليه سارتر مع خلاّنه، تضيِّع ترجمتُها إلى العربية خصوصيتَها، ولم يعرفْ معانيها أساتذة كبار من اللسانيين الفرنسيين الذين استشرناهم. وهذه ترجمتها الحرفية: vous me =

العبارات إلى «زهرته الصغيرة»، إلى «سمّوره الصغير الجذّاب»: «كان هذا المعجم الخاص بالمجموعة في مواكبة الألقاب التي نجدها في كتاب الحيوانات يبني علاماتٍ للتواطؤ بين أفراد المجموعة، علاماتٍ عجيبة لا يمكن النفاذ إليها» كما تقول آنّي كوهين - سُولال في تعليقها على سيرة سارتر[1].

يصدُق هذا المثالُ الشهير على كلّ الجماعات، وعلى كلّ الأسر، وعلى كلّ أبناء البيت الواحد. وعند كلِّ واحدٍ منا، في زاويةٍ من زوايا ذاكرته، ألفاظٌ مشابهة، تعود إلى الذاكرة أحياناً عند قراءةِ رسالةٍ قديمة، أو عند اللقاءِ بأحد أفراد الأسرة: إننا نسجِّل بذلك اختلافَنا وانتماءنا عبر الشكل اللغوي الذي نستخدمه.

القطب الناشر

على الطرَف الآخر من الوظائف اللغوية المتعددة قطبٌ ناشر يستجيب لإشكاليةٍ مغايرةٍ تماماً للإشكالية السابقة للقطب الحاصر؛ ففي مقابل اكتفاءِ الشكل اللغوي الحاصر، أي لغةِ القطيع، بأقل عدد ممكن من البشر في عملية التواصل، أي بالأتْباع المطّلعين على السرّ، أو بالأقارب، يوسِّع الشكلُ اللغويُّ الناشر من دائرة التواصل إلى أكبر عدد ممكن. وفي مقابل إرادة الاختلاف في النموذج اللغوي الحاصر يسعى هذا النموذجُ الناشر إلى التقارب، ويمكن أن تؤدي

= faites regret أنت تعملين لِي ندماً أي «أنتِ تعيبين عليَّ» = ça me fait tout poétique هذا يعمل لي كلّ شيء شعراً أي «هذا يبدو لي شعراً» = ça m'a rarement fait si gratuit et si nécessaire ونادراً ما يعملني هذا مجانيّاً إلى هذا الحد، وضرورياً إلى هذا الحد أي «نادراً ما بدا لي مجانياً إلى هذا الحد وضرورياً إلى هذا الحد».

(1) Annie Cohen-Solal, *Sartre*, [le grand livre du mois]; ISSN 0768-1763 (Paris: Le Grand livre du mois, 1985), p. 132.

وظيفةُ التقارُبِ هذه إلى ولادة شِفرة خاصة، **كاللغات الخليط** (Pidgin) التي هي ثمرةٌ من ثمرات الاحتكاك بين المتخاطبين من أبناء اللغات المختلفة حين يكونون في وضعٍ تُطرح فيه مشكلةُ التواصل. هكذا نشأت اللغةُ **الإنجليزيةُ الخليطُ** التي أعطت اسمَها لهذا النوعِ من لقاء الإنجليزية والصينية في وضع التبادل التجاري على وجه الخصوص: قاعدةٌ نحويةٌ صينية، ومفرداتٌ إنجليزية يُنطَق بها على الطريقة الصينية (وكلمة بِيدجين (Pidgin) نفسُها التي تعني «اللغةَ الخليط»، تحريفٌ لكلمة (بِزنِس) الإنجليزية، مما يدلّ على الوظيفة الأصلية للُغةِ الخليط). وكانت الجماعتان اللغويتان تستخدمان هذه اللغةَ الخليط عند حاجتهما إلى التواصل، ولكنَّ كلَّ واحدةٍ منهما بالطبع كانت تعود إلى لغتها الخاصة (الحاصرة، أي لغةِ قطيعِها) خارجَ إطار هذا التبادل المحدود.

في مواضع أخرى لا تتجسَّدُ الوظيفةُ الناشرة في شكلٍ لغوي يُخَصَّصُ لهذا الغرض المحدد، كما هو الحال في اللغة الخليط، بل في ترقيةِ إحدى اللغات الموجودة لتصبح لغة ناشرة. وسوف نرى من كثَب في الفصل السابع، تاريخَ عددٍ من اللغات الناشرة لمحاولة حصْر العوامل المختلفة في هذه الترقية.

أما الآن فإننا لا نهدف إلا إلى الإشارة إلى ما يحدُّه هذا الزوجُ الوظيفي المتمثلُ في الحصر والنشر من ترجُّحٍ ممكنٍ بين إدراج المتكلم في الجماعة اللغوية وإخراجِه منها، لأنَّ اللغة تعبِّر هنا عن إرادة الانتماء، فتصبحُ علامةً ترسم حدودَ الجماعة المعنيَّة بالتواصل: فالمتكلم يدلّ على موقعه، وعلى الحدود التي يقف خلفها من خلال اختياره هذا الشكل اللغوي أو ذاك، وهذا البديل أو ذاك. ويمكن أن تظهر هذه الحدودُ إلى العلَن من خلال نَبْرٍ تتميزُ به هذه المنطقة أو تلك، أو بإدخال كلماتٍ من اللهجة العامية في الكلام الفصيح، أو

باستخدام لغة أخرى في مواضع التعدد اللغوي.

بين هذين القطبَين - قطبِ لغةِ القطيع، أي اللغةِ الحاصرة، وقطبِ اللغة الناشرة - هناك مسترسَلٌ من الاحتمالات، أي عدد من الاحتمالات التي تتداخل ولا تنقطِع.

مثال رجل جبال الألْب: غافُو (Gavot)

في أثناء إقامتنا مرة في وادي غوردولاسك (Gordolasque) الواقع في المنطقة الخلفية المحيطة بمدينة «نِيس»، سألْنا في يوم من الأَيام سيدةً عجوزاً كانت اللغة البروفنسالية لغتَها الأولى، عن تصوُّرِها للُّغات، أي عن "شعورها اللغوي»، كما يقول اللسانيون. أولُ شيءٍ مهم في جوابها كان أنَّ **البروفنسالية** لم تكن موجودةً بالنسبة إليها - باسمِها الحالي على الأقل - وأنها كانت تتكلمُ **اللهجةَ المحلية**(*) (Lou patois)، أي اللغةَ الحاصرة، لغةَ القطيع من جهة، والفرنسيةَ، أي اللغةَ الناشرة للبلد من جهة أخرى. أما مقابلةُ العجوز بين اللهجة المحلية من جهة، واللغةِ من جهة أخرى، فمقابلةٌ تحقيرية معروفة جيداً. ولكنَّ العجوز كانت، فضلاً عن ذلك، تُلِحُّ على وحدةِ اللغة الفرنسية التي كانت تضعُها على النقيض من تجزئة اللغة البروفنسالية، ولذلك كانت تُعنى عناية خاصة بتمييز لهجتها المحلية عن اللهجة المحلية للآخرين التي كانت، مع ذلك تفهمها تماماً. وقد شرحَتْ لنا أنه كان يقال للناس في منطقة لانتوسك (Lantosque): **كوغورديه** (Cougourdiais)، وأنَّ لهجتَهم هي **الكوغورْديّة** (لأنهم معروفون بأكْل القَرْع (كوغورْد

(*) ينقل المؤلّف نُطْقَ السيدةِ العجوز لأداة التعريف في كلمة «اللهجة المحلية» نقلاً يفضح فيه انتماءها اللغوي لو باتوا (Lou patois) في مقابل النطق العادي الشائع le patois.

(Cougourde)(*)، وأنَّه كان يقال للناس في منطقة «بولّين» (Bollène) «**أَمُويان**» (Amouyans) التي تعني «الكَرَز الجاف»، وللناس في سان مارتان دو فيسوبي (Saint-Martin-de-Vésubie): **توتْشي** (Totchis) التي ربما كانت تعني «الصِّغارَ الحديثي العهد». وأَسَرَّت لي في النهاية بأن «الآخَرين» كانوا يُسَمُّون الناس في قريتها التي اسمُها « بِلْفيدير» (Belvédère): «**بانْ**» (Banes)، التي ربما كانت تعني «قرون الوعل»، أو «الزوج المخدوع». تقع هذه الأماكنُ المختلفة جميعاً في دائرةٍ لا يتجاوزُ شعاعُها ثلاثين كيلومتراً، ولكن محدِّثتي كانت تُصِرُّ إصراراً شديداً على الخلاف بين لهجاتها، وكانت تفضِّل بدلَ تأكيدِ تواصُلِها بالبروفنسالية مع جميع العجائز في منطقتها أن تؤكِّد اختلافَها في مسائلَ تفصيليةٍ كانت تبدو لها ذاتَ أهميةٍ قصوى: فهي تقول للمِعزقة: **لُو مَغايْ**، بينما يلفظونها في قرية مجاورة **لُو مَغاوْ**.

وقد استمعنا مرة في المنطقة نفسِها إلى نقاشٍ بالبروفنسالية بين شخص من (نِيس) وآخرَ من (غراس) وهما يسخَران واحدُهما من الآخَر في تسميته للمكنسة، فيقول الأول (**لا سْكُوبا**)، ويقول الثاني (**لا راماسَّا**). تظهر في المثالين المذكورين أعلاه لغاتٌ حاصرةٌ يتداخل بعضُها في بعض، إذ تبدو أشكالُ البروفنساليةِ المُغرِقةُ في طابعها المحلي وكأنها مختلفةٌ جداً، بينما تبدو هذه الأشكالُ المختلفةُ بالتأكيد مجموعةً موحَّدَةً، ولغةً واحدة في مواجهة الفرنسية.

تجتمع في هذه العلاقة ما بين الوحدة والتنوُّع، حقيقيةً كانت أو متخَيَّلةً، وفي هذا التوتُّر العدائي، كلّ شروطِ «حربٍ» دائمة بين

(*) الكوغورد هو القَرع باللغة البروفنسالية، أما في الفرنسية فيسمّى كورْج (Courge). والسيدة العجوز إذاً تكذِّب نفسها، فتثبت دون أن تَدري، أنَّ اللغة الأولى في المنطقة كانت البروفنسالية، ولم تكن الفرنسية.

الأشكال اللغوية، لأنه مهما بلغت درجة «الاختلاف» بين **الكوغورْديه**، والأمويان، والتوتشي، والبان فإن أهلَ (نِيس) يجمعونهم في سلةٍ واحدة، ويطلقون عليهم اسماً عاماً واحداً هو «**غَوَاتْشْ**» (Gaouatchs) ينطبق على جميع سكان المنطقة الجبلية.

يُطلَق على سكان الجبل في منطقة البروفانس بصورة عامة اسم **غافو**، التي تعني في لغة اللانغدوك (Languedoc) جَبَلِيَّ منطقةِ اللُّوزِير (Lozère)، بينما تعني كلمة **غافاش** «الجَبَلِيّ» في غاسْكونْيا، وتعني كلمة **غاباش** في كاتالونيا أهلَ بِيارْن[*] (Béarn). في التأثيلِ الشعبي أن هذه الكلمة تعني «الحمَّص»، وتدلّ بالتالي على قوم فقراء، بالإشارة إلى قُوْتِهم اليومي. لا يتبنى فريدريك ميسترال هذا التأثيل في كتابه **كنز فيليبْريدْج** (*Trésor dóu Felibridge*). غير أن هذا لا يُغيِّرُ في الأمرِ كثيراً، لأن المؤلِّفَ يعلّق على هذه الكلمة قائلاً إنّها تعني: «رجل فظّ، خشِن، أبرص قذر»، وهو لقبٌ يعطى في البروفانْس للجبَلِيين من أبناء منطقة الألْب، ويُعطى في اللاَّنْغْدُوك لأبناء منطقة لُوْزِير. ويقارن بين هذه الكلمة وكلمة (**غافو**) الإسبانية التي تعني «الأبرص والقذِر»[2].

(*) لهجة بِيارْن واحدة من لهجات غاسْكونيا، كانت ناشرة منذ ستين عاماً، ثمّ ذوت، ثمّ عادت إلى الازدهار منذ ثلاثين عاماً، وقد أُسِّسَت أول مدرسة ثنائية اللغة: بيارِنيَّة ـ فرنسية، وتسمى كالانْدْريتا في مدينة بُو (Pau) عام 1979، على غرار المدارس الثنائية المسماة ديوان للبريطانية ـ الفرنسية، وإيكاسْتولاك للباسْكِيَّة ـ الفرنسية، وبْريسّولا للكتالونية الشمالية ـ الفرنسية. وكانت اللهجة البِيارْنِيَّة مستخدمة في النصوص الرسمية إلى جانب الفرنسية حتّى الثورة الفرنسية.

(2) Frederic Mistral, *Lou trésor dóu félibrige, ou dictionnaire provençal-français embrassant les divers dialectes de la langue d'oc moderne*... 2 tomes, avec un supplément établi d'après les notes de Jules Ronjat, etc., troisième édition ([Aix-en-Provence]: Is Edicioun Ramoun Berenguié, 1968), tome 2, p. 41.

وهكذا، فإن كلمةً تدلُّ على الجغرافيا في أول أمرها (أهل منطقة ما، هنا: أهل الجبل) تأخذُ شيئاً فشيئاً معنى اجتماعياً تحقيرياً، فيَجْنَحُ التمييزُ الجغرافي إلى السخرية والتحقير، معتمداً في تحقيره على اللغة الحاصرة للآخَر. إن هذا هو الأساسُ التاريخيُّ لسخريةِ الفرنسيين مما يسمونه: (حكايات كورسيكِيَّة) أو (حكايات بلجيكية)، وسخريةِ البرازيليين من الحكايات البرتغالية، وسخريةِ الإنجليز من حكايات إيكوسيا. وهو أيضاً أساسُ عددٍ من التصنيفات الاجتماعية، وفي بعض الأحيان، الصعوباتِ الدرامية في التواصل كما تظهره الأمثلة التالية:

بيغماليون ودومينيتشي

في مسرحية **بيغماليون** لبرنارد شو، أو في فِيلْم (*My Fair Lady*) الذي استوحاه منها كوكور (Cukor)، يبدو عِلْمُ أستاذِ الصَّوتيّات هيغّينز (Higgins) بالغَ الدلالة؛ ففي الفصل الأول من المسرحية يؤكِّد رهافةَ سمْعِه في التقاط الفروق الجغرافية اللغوية:

«يمكنك أن تحدِّد أنَّ رجُلاً ما من إيرلندا أو من يوزْكْشير من خلال نبرته، فأنا أستطيع أن أحدِّدَ مكانَ انتماءِ أيِّ واحدٍ منهم بفارق لا يتجاوز ستةَ أميال. أما اللندني، فأنا أحدِّدُ مكانَه بفارق لا يتجاوز ميلين، وأحياناً بفارق لا يتجاوز شارعين».

ولا يتردَّدُ أحدُ المارَّة الساخرين في تشبيه كفاءةِ هذا العِلم بكفاءة الموسيقِيِّين المتسوِّلين في الأسواق. ولكنَّ عالِم اللغة لم يشرُدْ ذهنُه، بل انتقل سريعاً إلى الجانب التحقيري من هذا التصنيف اللغوي:

«أما المرأةُ التي تتلفظ بهذه الأصوات الكئيبة المقرِفة فليس لها الحقُّ في أي مكان، وليس لها الحق في أن تعيش».

وفي الفيلم المستوحى من المسرحية تبدو الأغنيةُ التي لحَّنها ريكس هاريكسون (Rex Harrison) أكثرَ وضوحاً أيضاً:

«انظُرْ إليها، سجينةَ المجرى

يدينُها كلُّ مقطعٍ تتلفَّظُ به

وربما استحقَّتِ الإعدامَ شنقاً

لأنها قتلتِ اللغةَ الإنجليزيةَ بدمٍ بارد

استمعْ إلى حديثِ رجل من «يوركشير»،

أو إلى ما هو أسوأُ من «كورْنيش».

أنا أفضِّلُ أن أستمعَ إلى جوقةٍ لا تحسن الغناء،

أو إلى دجاجٍ يُقاقِي في مخازن الحبوب».

إليزا دوليتل (Eliza Doolittle) المسكينةُ لا تسيغُ هذا الأسلوبَ اللاذع، وهي تعلن ذلك. ولكنْ ليس أمامَها من سبيلٍ سوى التوجُّهِ إلى هيغّينز لتتعلَّم «تحسينَ» كلامها، أو تغييرَ هذا العالَم، أي التظاهرَ بتغيير طبقتِها الاجتماعية بتغيير لغتِها الحاصرة.

إنّها قصةٌ بالغةُ الدلالة. إنّها درسٌ في الأشياء لطلبة اللسانيات الاجتماعية يُظهر الوظيفة التمييزية اجتماعياً لمختلف الأشكال في اللغة الواحدة، ولِشَكل اللغةِ الحاصرة فيها. وتنتهي القصةُ نهايةً طيبة، كما تنتهي أكثرُ القصص، ولكنَّ الأمور لا تنتهي دائماً على هذه الصورة الطيبة في الواقع.

في شهر آب/ أغسطس من عام 1952 قُتِل ثلاثة بريطانيين هم السير جاك دريمّوندز (Jack Drummonds) وزوجته وابنته حين كانوا يخيِّمون في منطقة البروفانس بالقرب من مزرعة آل دومينيتشي. وقد

انتهى التحقيق الذي كان طويلاً متناقضاً متردداً بعد ستة عشر شهراً في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1953 باتِّهام ربّ العائلة غاستون دومينيتشي.

في أثناء المحاكمة التي جرت في العام التالي، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1954، نفى دومينيتشي كلَّ شيء: قال إنّه اعترف نتيجةَ ضغطٍ من رجال الشرطة، ولكنه بريء. يبدو في الواقع أن هذا الرجل الذي كان في السابعة والسبعين من عمره، لم يكن يعرفُ الفرنسيةَ إلا معرفةً تقريبية، فلغتُه هي البروفنسالية، «لو بَاتْوا»، أو اللهجة المحلية(*). وتُظهر المحاكمةُ كلُّها نوعاً من سوء التفاهم الهائل بين الرجل العجوز والمحكمة. ينقل رولان بارت هذا المقطع المعبِّر من المحاكمة:

- رئيس محكمة الجنايات: أَذَهَبتَ (êtes-vous allé) إلى الجسر؟

- غاستون دومينيتشي: مَمَرّ (Allée)؟ ليس هناك مِن ممر. أنا أعرف ذلك، فلقد كنت هناك.

يعلّق رولان بارت على هذا المقطع، فيقول: «كلُّ الناس بالطبع يتظاهرون بالاعتقاد بأنَّ اللسانَ الرسميَّ مشترك، وبأن لسانَ دومينيتشي ليس سوى شكلٍ بديلٍ إثْنيّ مثيرٍ بفقره. ومع ذلك فلسانُ رئيس محكمة الجنايات أيضاً لسانٌ خاص كمثل لسان دومينيتشي (...)، إنّهما بِكُلّ بساطة شكلان خصوصيان يتواجهان، ولكنَّ واحداً منهما يحتكرُ الشرفَ، والقانونَ، والقوة»[3]؛ لأننا إنِ اعتبرنا لغةَ

(*) في كتابة الكلمة ووضعها بين قوسين إشارة من المؤلّف إلى طريقة خاصة في النطق تُذكّر بالسيدة العجوز التي نقل حديثها في بداية هذا الفصل.

Roland Barthes, *Mythologies* (Paris: Editions du seuil, 1957), pp. 54-55. (3)

المحكمة ورئيسِها ونائبِها العام اللغة الفرنسية الناشرةَ، أو اعتبرناها لغةً حاصرةً، أي لغة هذا القطيع، فإن من الواضح أنَّ المعارَضة التي تبدو هنا بين شكلين لغويين (ناشر وحاصر، أو حاصر 1/ حاصر 2)، إنما تعكس موازين القوى التي يبدو دومينيتشي في الجهة الخاسرة منها. وفي الواقع سيُحكَم على دومينيتشي بالإعدام دونَ أدلَّةٍ حقيقية.

ومن علامات الشك في هذا الحُكْم أنَّ وزيرَ العدل سيأمرُ بعد خمسة عشر يوماً بفتح تحقيق جديد لن يؤدي إلى نتيجة، وأنَّ رئيس الجمهورية الفرنسي رِينيه كُوتي سيخفِّفُ حُكمَ الإعدام ليحوِّلَه إلى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة، وأنَّ رئيساً آخر للجمهورية هو شارل ديغول، سوف يُطلق سراحُه أخيراً في عام 1960 مستخدماً حقَّ العفو. ويختم بارت مقالته كما يلي: «كلُّ واحد منا دومينيتشي كامنٌ، دومينيتشي بالقوة، لسنا قَتَلة، لكننا متَّهَمون محرومون من اللسان، بل إننا في وضع أسوأ: مُتَزَيُّون بزِيٍّ غريب، مُهانون، ومتَّهمون بلسان متَّهِمينا. كُلُّ جريمة قتلٍ تبدأ شَرْعاً من هنا: أن تسرِقَ من شخصٍ ما لسانَه، باسمِ هذا اللسان نفسِه»[(4)].

لا ريب في أنه من الصعب أن نَحكُمَ بالبراءة أو بالإدانة على دومينيتشي. وليس هذا على أيِّ حال مَقْصَدَنا هنا، وإنما مقصدُنا أنْ نبيِّن كيف يشتغل اللسان، وكيف يمكن لبعض الأشكال اللغوية أنْ تعطيَ السلطةَ لِمَن يمتلكها.

في الحالة المتخيَّلة في مسرحية بيغماليون، يبدو الاختلاف في اللغة الحاصرة أمارةً اجتماعية؛ فهو يسمح في مرحلة أولى بتحديد موضع المتكلم، أي بتحديد أصله، وفي مرحلة ثانية بإعادة الاختلاف إلى دونيَّةٍ تبرِّرُ احتقارَ الأستاذِ هِيغِّينز لبائعة الزهورِ

(4) المصدر نفسه، ص 56.

الصغيرة، ولكلٍّ مثيلاتِها. أما في الحال الحقيقية لدومينيتشي فقد أدى العجزُ اللغوي إلى العقاب، بل إنّه كاد يؤدي إلى الهلاك.

هذه الأمثلةُ محصورةٌ محدودة بالطبع؛ ولكنَّ تراكمَها يؤدي عند جمْعِه إلى حَدَثٍ يُعتَدُّ به من الناحية الإحصائية. من المؤكَّد أنه لا تجري محاكمةٌ شبيهة بمحاكمة دومينيتشي في كلّ يوم؛ ولكننا يمكن أن نقرأ في كلّ يوم محاورةً لغوية فيها على درجات متفاوتة، موازينُ قوى مشابهة؛ فهذا النوعُ من النزاعات يخترق المجتمعَ دون توقُّف. حين يكون الشكلُ اللغوي الناشر إلى جانب السلطة والقانون (سوف نرى في الفصل السابع أن هذا الأمر ليس قاعدة دائمة) فإنه يضيف إلى وظيفته سلطةً يمارسُها على الأشكال اللغوية الحاصرة.

جزر موريس

نودُّ بعد هذا العدد المحدود من الأمثلة الطريفة أن نمثِّل لهذا الزوج الحاصر/ الناشر بوضعٍ أكثرَ تعقيداً، هو وضعُ جزر موريس.

تقع جزر موريس في المحيط الهندي، في أرخبيل مَسكارِنْيي (Mascareignes)، ولا تكاد تعُدُّ أكثرَ من مليون نسمة، ولكن فيها تعدُّداً مدهشاً للُّغات وللأعراق وللثقافات.

درَس عيسى أسغورالّي[5] (Issa Asgurally) هذا الوضع. وفي دراسته عددٌ من الأوجه البالغة الدلالة؛ فقد سأل على سبيل المثال - وعملُه قائمٌ على الاستبيان - عن اللغة التي ينبغي في رأي مَن استبيَنَهم أن تُؤدَّى بها الصلاة. وكان لِمَن سألهم سبعُ ديانات (هي

---

(5) Issa T. Asgurally, *La Situation linguistique de l'île Maurice: Matériaux pour une lamification linguistique dans un contexte post-colonial de multilinguisme et de multiculturalisme,* thèse 3e cycle: Linguist.: Paris 5: 1982 (Paris: [s. n.], 1982).

الأدفنتية، والبوذية، والكاثوليكية، والهندوسية، والإسلامية، والبروتستانتية، والتامولية)، وعشرُ لغات.

تمثِّل الإجابات قدراً كبيراً من التشتُّت؛ لكن الغلبةَ لأربع من بين اللغات العشر، وهي اللغةُ المزيج (25,5 في المئة)، والفرنسية (13,4 في المئة)، والهندية (14,6 في المئة) والعربية (7 في المئة). وكالعادة، فإنَّ مِنَ الصعب التعليقَ على هذا الفَرْز كما هو، ولكننا حين نعتمد على التقاطع في الإجابات بين اللغة المستعمَلة والانتماء الديني فإننا نجد أن للدين دوراً في اختيار الناس: فالكاثوليك يقولون في معظمهم إن الصلاة ينبغي أن تكون بالفرنسية، وقلةٌ منهم تختار اللغةَ المزيج. والهندوس يختارون الهندية أولاً واللغةَ المزيج بعد ذلك، والمسلمون يختارون العربية واللغةَ المزيج بعد ذلك . . . إلخ. هذا يعني أننا نجدُ عندَ كلِّ جماعةٍ لغةَ قطيع، أي لغةً حاصرةً تدلّ على الانتماء إلى دين معيَّن (العربية والفرنسيةَ والهندية) لها الأوليةُ، ولغةً ناشرة شعبية هي اللغة المزيج، التي تبدو خياراً ثانياً، بينما تظل الإنجليزيةُ، وهي اللغةُ الرسمية، الأقلَّ ذِكْراً(*).

بأي لغة تتحدث					
	إلى الأم	إلى العجائز	إلى الأصدقاء	إلى الموظفين	إلى أرباب العمل
اللغة المزيج	74,5 في المئة	81,5 في المئة	91,7 في المئة	45,5 في المئة	33,1 في المئة
الفرنسية	17,8 في المئة	18,5 في المئة	18,7 في المئة	61،2 في المئة	59,2 في المئة
الإنجليزية	3,8 في المئة	3، 2 في المئة	10 في المئة	21,7 في المئة	24,2 في المئة
البوجبورية	30,6 في المئة	28,7 في المئة	21 في المئة	3,2 في المئة	3,2 في المئة

(*) من اللافت غياب العربية في هذا الجدول مع أنَّ سبعةً في المئة من الأشخاص الذين قُدِّمَ الاستبيانُ لهم يقولون إنّها اللغةُ التي ينبغي أنْ تكون الصلاةُ بها. لكن غيابها من الجدول قد يعني أنّها لا تُستخدَمُ في خطاب الفئات المذكورةِ في الجدول.

الهندية	5,1 في المئة	6,4 في المئة	7,6 في المئة	1,3 في المئة	1,9 في المئة
الهندوستانية	4,5 في المئة	4,5 في المئة	3,8 في المئة	0 في المئة	0 في المئة
الصينية	6,4 في المئة	3,2 في المئة	2,5 في المئة	0 في المئة	0,6 في المئة
الأردية	2,6 في المئة	1,9 في المئة	2,6 في المئة	0,6 في المئة	0 في المئة
التامولية	1,3 في المئة	0 في المئة	0 في المئة	0 في المئة	0 في المئة
الكجراتية	0,6 في المئة	0 في المئة	0 في المئة	0 في المئة	0 في المئة

تبدو موازينُ القوى بين هذه الأشكالِ المتعددةِ أكثرَ وضوحاً حين ننظر في الإجابات في ضوء عددٍ من الأسئلة من نمط: «بأي لغة تتحدث إلى؟»، وهو ما يوضحه الجدول أعلاه.

إنَّ قراءة الجدول قراءةً عمودية من أعلى إلى أسفل تبيِّن لنا بالطبع الأهمية النسبية لمختلف اللغات في الأوضاع المختلفة؛ فنرى أنَّ اللغة المزيجَ والبوجبوريةَ أكثرُ اللغات استخداماً بين أفراد الأسرة، بينما الفرنسيةُ أكثرُ تداولاً في المواقف الرسمية.

غير أن قراءةً أفقية للجدول تعطينا، لِكُلّ لغة من اللغات، سلسلةَ الوظائف التي تقوم بها في الحصر والنشر؛ فهناك لغاتٌ بالغةُ الحصر، كالتامولية والكجراتية التي لا يتحدث أصحابُها بها إلا في داخل أسَرِهم، ولغاتٌ أكثرُ انتشاراً من ذلك بكثير، كالفرنسية والإنجليزية التي يتكلم أصحابها بها، خصوصاً في العمل، ولغةٌ هي اللغةُ المزيجُ التي تستخدم بدرجات متفاوتة في جميع الأوضاع.

تتناقص الأرقام تدريجياً من اليمين إلى اليسار بالنسبة للُّغةِ المزيج والبوجبورية، بينما تتزايد بالنسبة للفرنسية والإنجليزية، كاشفةً بذلك توزيعاً شديدَ التميُّز للوظائف، فاللغةُ المزيج التي لم تكن لغة وطنية، هي اللغةُ الأفضلُ توزُّعاً، وهي تتفوق تفوُّقاً كبيراً على غيرها في هذه الناحية. أما الإنجليزية، وهي اللغة الرسمية، فطابعُها لغةَ قطيع، أي لغةً حاصرةً، طابعٌ محدود، وهي ليست مع ذلك اللغةَ الأكثرَ انتشاراً.

عندنا إذاً درجاتٌ متفاوتة في **النشر** وفي **الحصر** نستطيع، إن شئنا، تحويلَها إلى أرقام؛ فإننا نقيسُ عموماً **نسبة النشر** بقياسِ النسبة بين العددِ الإجمالي للمتكلمين بلغةٍ من اللغات وعددِ الذين هي لغتُهم الأم. ونستطيع بالطبع أن نقيس **نسبة الحصر** التي ستكون مكملة للنسبة السابقة، فإن كان عددُ المتكلمين بلغةٍ ما مئة شخصٍ، وكانت اللغةَ الأمَّ لخمسةَ عشر شخصاً منهم فإننا نستطيع أن نقول مثلاً إن هذه اللغة لغةُ نشرٍ بنسبة 85 في المئة، ولغةُ حصرٍ بنسبة 15 في المئة.

غير أننا نستطيع أن نتساءل أيضاً عن سبب هذا التوزيع؛ فاللغة التي يُتحدَّث بها إلى العجائز مثلاً هي أما اللغةُ الوحيدةُ التي يعرفونها، أو اللغةُ الوحيدةُ المشتركةُ بينهم وبين مخاطِبيهم، أو اللغةُ التي لها دلالةٌ ثانوية على الاحترام. أما اللغةُ التي يُتحدَّثُ بها إلى الأم، فهي اللغةُ الأمُّ غالباً، وهذا أمرٌ بدهي. وأما اللغةُ التي يُتحدَّث بها إلى الموظفين فيُفترَضُ أنها اللغةُ الرسمية أو لغةُ انتشارٍ أخرى (غير أن هذا ليس وضعَ جُزُر موريس: فقد كانت الفرنسيةُ اللغةَ الغالبةَ فيها قديماً، فأنزلَتْها الإنجليزية عن عرشِها ابتداءً من احتلالِ الإنجليز للجزيرة في عام 1810). ويمكن أن يكون مشروعاً التفكيرُ في أنَّ لغةَ الأصدقاء هي اللغةُ المتخيَّرة، وأن هذا الاختيار هو الكاشفُ الأفضلُ للمواقفِ اللغوية لأن اللغةَ المختارة هنا ليست اللغةَ الأمَّ، ولا لغةَ السلطةِ، وإنما هي لغةُ العلاقاتِ الحميمة.

ويمكنُ أن نتساءل أخيراً عن مدى صِدْقِ هذه الإجابات، فالاستبيانُ، في نهاية المطاف، لا يقدِّم لنا حقيقيةَ الممارسةِ اللغوية، بل يقدِّم الفكرةَ التي يتصوَّرها الناس عن ممارستهم. ويمكن لهم أن يخطئوا، ويمكن أن يكذبوا أيضاً لأنهم يعتبرون هذه اللغةَ أرفعَ مقاماً من تلك. و«الكذب» هنا ذو دلالة، مَثَلُه كمَثل «الحقيقة». ولذلك فإن السؤال: «لِمَ يختار الناس أن يتحدثوا بهذه اللغة دون تلك؟

سؤالٌ لا يقلُّ أهميةً عن السؤال الآخر: «لِم يزعُم الناس أنهم يتكلمون هذه اللغة دون تلك؟».

اللغة والانتماء

أنْ أتحدَّث بلغةٍ ما أو بشكلٍ لغوي ما، وأنْ أُفضِّلَ استخدامَ هذا الشكلِ دون ذاك، أو أن أزعُمَ استخدامَ هذا الشكلِ دون ذاك، شيءٌ يتجاوزُ دائماً مجرَّد الاستخدامِ لأداةٍ من أدوات التواصل.

أنْ أتحدَّث لغةً ما يدلُّ دائماً، فضلاً عن حديثي بهذه اللغة، على شيءٍ آخر؛ لأنّني حين أكون قادراً في وضع ما على الاختيار بين عدد من اللغات، فإن لاختياري دلالةً كما أنَّ لمحتوى الرسالة دلالةً في الوقت نفسه. نريدُ أن نقول إنَّ للشكلِ اللغويِّ الذي نختارُ الحديثَ به **دلالةً ذاتية** هي الرسالةُ، ولهذا الشكلِ اللغويِّ على صعيد آخر **دلالةٌ إيحائية.**

بِمَ يوحي هذا الشكل؟

هنا بالتحديد يعلِّمنا تحليل المواقف اللغوية أشياءَ كثيرةً عن المجتمعات؛ فحين يتحدث الموظفون في بلدٍ أفريقي كان تحت الاستعمار الفرنسي باللغة الفرنسية فيما بينهم مع أنَّ لهم لغةً أمّاً واحدة، فذلك يوحي بأنهم يريدون مراعاةَ نموذجٍ غربي، والتمايزَ عن أبناءِ الشعب بأنهم درَسوا، وبأنهم من حَمَلَةِ الشهادات... إلخ. فإنْ رفَض أحدُ أفرادِ المجموعة مِمَّن لهم نفسُ المواصفات أنْ يتحدثَ بالفرنسية، وتحدَّث بلُغتِه الأمّ، فهذا يوحي برفْضِ لغةِ الاستعمار، ويوحي بالانتماء. ذلك أنَّ التعبير عن العلاقاتِ الحميمة، أو عن الانتماء باستخدام لغةِ القطيع، أي اللغة الحاصرة، أو باستخدام أشكالٍ لغويةٍ حاصرة منها، قد يكون أمراً **ضرورياً**، وقد يكون أمراً جائزاً **غيرَ ضروري** .هو أمرٌ ضروريٌّ حين لا يعرف

المتكلِّمُ إلا لغةَ القطيع، أي الشكلَ اللغوي الحاصر: في هذه الحالة يدلُّ استخدامه لهذا الشكل اللغوي على انتمائه لجماعة معينة، ولكن هذه الدلالةَ ليست دلالة مختارة. وهو أمرٌ جائزٌ غيرُ ضروري حين يمتلك المتكلِّمُ لغاتٍ أخرى أو أشكالاً أخرى: في هذه الحال يكون استخدامُه لِلُغةِ القطيع، أي للشكلِ اللغوي الحاصرِ، **علامةً** دالَّةً لا مجرَّد **أمارةٍ** كما كان عليه الأمر في الحال الأولى.

يقودنا موضوعُ اللغة الحاصرة واللغة الناشرة إذاً إلى موضوعٍ آخر هو استراتيجيات التواصل، وإلى الخيارات الواعية للمتكلمين ودلالات هذه الخيارات. ولا شكّ في أنَّ (قَسَمَ ستراسْبورغ) واحدٌ من أقدَمِ الأمثلة التي نعرفها على ذلك. الحدَثُ التاريخي معروفٌ عند الجميع: في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير عام 842 التقى في ستراسبورغ اثنان من أحفاد شارلمان (Charlemagne) هما: لويس لو جِرمانيك (Louis le Germanique) وشارل لو شوف (Charles le Chauve). وكانا قد انتصرا على أخيهما لوثير(*) (Lothaire) في فونتانِيه(**) (Fontanet) في العام السابق، وقرَّرا القَسَم على أن يتحالفا. وسجَّل لنا المشهدَ المؤرِّخُ نيتار (Nithard): أقْسَمَ لويس باللغة الرومانية، وشارل بالتُّودِسْكِيَّة(***)، أي أقسمَ كلُّ واحدٍ منهما بلغة الآخَر، ثمّ أقسمَ الجنودُ التابعون لكلِّ واحدٍ منهما بدورهم. ويرى الدارسون التقليديُّون أنَّ كلَّ واحدٍ من الأخوين أقسمَ بلغةٍ غيرِ لغتِه ليفهمَه الجنودُ الخصومُ الذين كانوا شهوداً. هذا مثلاً ما يكتبه

(*) هو لوثر الأول الذي كان قد تعاون مع أخويه المذكورين لخلع أبيه مرَّتين، ثمّ تولى السلطةَ بعد موته وعاد فقاتل أخويه بعد أن رفضا الاعتراف بسلطته.

(**) كذا في الأصل. بهذا الهجاء. وفي نصوص أخرى هجاء آخر لهذا الموضع، فقد جاء فيها أنَّ الأخويَين المتحالِفين انتصرا على أخيهما في معركة في 14/ 2/ 842.

(***) هي لغة جرمانية قديمة.

فرديناند برونو في **تاريخ اللغة الفرنسية**[6].

في كتاب عنوانه **نشوء اللغة الفرنسية**، اقترحت رينيه باليبار مقاربةً مختلفة اختلافاً بيِّناً لهذا الحدَث نفسِه، فهي ترى أن قَسَم كلّ واحد من الأخوين بلغة الآخر لم يكن يهدِفُ إلى أن يُفهِمَ كلٌّ واحدٍ منهما جنودَ الآخَر، وإنما كان ذلك اعترافاً بوجود كيانٍ وطني جغرافي تحدِّدُه اللغة:

«يصَرِّح كلٌّ واحدٍ من الوريثين بلغة الآخَر بأنه يتخلى عن ادعاءاته بشأن المملكة التي يخلِّفها الأب، فيعترفُ ملك شرقِ فرنسا بالحدود اللغوية بينه وبين فرنسا الغربية، بشرطِ انعكاسِ ذلك. وهو يعترف بأن السكان الذين يتكلمون اللغة الرومانية مواطنون فرنسيون، بينما يعترف ملكُ غربِ فرنسا بأن المواطنية الجرمانية تتحدَّدُ خارجَ أرضه عند ألمان المستقبَل»[7].

لقد كان محالاً بالطبع أن يعاد رسمُ ما كان يدور في خَلَدِ كلٍّ واحدٍ من الأخوين. وليس التحليلُ الذي تقدِّمُه رينيه باليبار سوى افتراض، بيد أننا نجد فيه فكرةً مهمة هي فكرةُ تحديدِ السيادةِ المطلقة (أو الإقطاعية) بواسطة اللغة. فجنودُ «شارل لو شوف» يُقسِمون اليمين بالرومانية، وهذه اللغة توحِّدهم، كما توحِّد اللغةُ الجرمانية جنودَ «لويس لو جِرمانيك». وكان الأخوان وهما يُقْسِمان اليمين، كلٌّ بلُغةٍ غيرِ لغته، يُرَمِّزان الاختلافَ والتقسيمَ: أنّها المرَّةُ

---

(6) Ferdinand Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900* (Paris: A. Colin, 1905-), tome I: *De L'Epoque latine à la renaissance*, 1905, p. 142.

(7) Renée Balibar, *L'Institution du français: Essai sur le colinguisme des Carolingiens à la république*, pratiques théoriques; ISSN 0753-6216 (Paris: Presses universitaires de France, 1985), p. 45.

الأولى في التاريخ التي يُستشهَدُ فيها بالدليل اللغوي لتحديد الدولة. ونحن نرى أن عملية التقسيم هذه تمضي في اتجاهين متكاملَين: فهي **تفَرِّق** لأنها ترسم حدوداً بين اللغة الجرمانية واللغة الفرنسية (أو على الأصح بين الجرمانية والرومانية)، وهي **توحِّد** لأنها تَجمَعُ تحت رايةٍ لغوية.

التفريق والتوحيد! هاتان المفردتان اللتان تحددان جيداً أهداف الحروب الإقليمية تحددان أيضاً العلاقة ما بين اللغة الحاصرة واللغة الناشرة.

سواءٌ أكانت الدلالة على الانتماء ضروريةً أم كانت جائزةً غير ضروريةٍ فإنها تعود دائماً إلى النمط نفسه من التقسيم. هذا حال المتكلم الأحادي اللغة التي تفضح الأصوات أو النحو أصلَه الاجتماعي أو الجغرافي، كما هو حال إليزا دوليتل في مسرحية بيغماليون: «قل لي كيف تتكلم أقلْ لك مَن أنت». ويمكن أن تُستَخدم هذه الأَمارة لأغراض التمييز، أو للغلبة، أو للإدانة كما هو الحال في قضية دومينيتشي أو في «اختبار شيبّولت» (Shibboleth)، الذي أشرنا إليه في الفصل الثاني؛ ولكنَّ «الآخر» هو الذي يستخدمها في هذه الحال مستفيداً من الشكل اللغوي الحاصر ليصنِّف في المرحلة الأولى، ويستخلص النتائج من هذا التصنيف في المرحلة الثانية. أما حين يتقاسَم لويس وشارل «لغوياً» إمبراطوريةَ شارلمان، فيستخدم كلُّ واحدٍ منهما لغة قطيع الآخر، أي لغته الحاصرة فإنَّ الأمرَ يجري في اتجاهٍ مغاير، لأنهما يختاران اللغة اختياراً واعياً: ليس مهمّاً في حقيقة الأمر المحتوى الدقيق للقَسَم، فما يهُمُّ هنا، وما يَفعلُ فعله، هو اللغةُ التي أُقْسِم بها. وحين يرفض أحد أنصار استقلال منطقة غوادلوب (Guadeloupe) أن يتكلم بغير اللغةِ المزيج أمام محكمةٍ تحاكمُه بالفرنسية، فنحن أمام نفس النوع من الممارسة،

وهي تأكيد إرادي للانتماء، أي تأكيدٌ للاختلاف.

ظلَّ الثوب زمناً طويلاً أكثر الأمارات التي يُعتَدُّ بها للدلالة على المنزلة الاجتماعية. غير أن قُبَّعة العامل أو ثوبه الأزرق، وحاشية الحرير في الحشايا المستديرة التي يضعها الموظفون على مقاعدهم، وبِزَّة المستخدَم، وقبَّعة الحريرِ المستديرة التي يضعُها الرأسماليُّ على رأسه صارت في أيامنا جزءاً من الفلكلور: فالناس جميعاً في أوروبا يرتدون نفس اللباس تقريباً، ولم يعُدِ الثوب علامة انتماءٍ إلى هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك. أما الأشكال اللغوية فإنها على العكس من ذلك لا تزال تسمح بتصنيف المتكلم: فنحن نعرف نظراءنا من كلامهم الذي يشبه كلامنا، ونرفض من كانت لغة قطيعِه، أي لغته الحاصرة، شديدة البعد عن لغةِ قطيعِنا. ولا بدَّ للحركية الاجتماعية من أن تمرَّ بعملية تكيُّفٍ لغوي، وذلك بخضوعها لنموذجٍ هو نموذجُ السلطة، فكما أنَّ إنجليزيّاً على طريقة (كوكني) لا يستطيع النطق بالهاء خارجاً معها النَّفَسُ(*)، فإن فرنسياً نبرُه نبرٌ بروفنساليٌّ واضحٌ لا يستطيع أن يطوِّر مستقبله المهني في *Le Monde*، وعلى كلّ واحد منهما ليضمن إمكان الترقِّي الاجتماعي، أن يجهد في التخلي عن نبرته، وأن يتقيَّد بالمعيار المركزي الذي يُزعَم أنه لغةٌ ناشرة وإن لم يكن في حقيقة الأمر سوى لغةِ قطيعٍ. ربما يبدأ التخلي الكبير بالتنكُّرِ لهذه الفوارق اليومية الصغيرة.

قد تكون لغة القطيع، أي اللغة الحاصرة، علامةً مَرَّةً أو أمارةً مرةً أخرى على موقعٍ اجتماعي أو جغرافي حين تحدِّدُ انتماءها بصورة إرادية (وبصورةٍ عدوانيةٍ أحياناً، كما هو حال المتحزِّبين للغات الأقلية مثلاً)، أو بصورة غير إرادية. وفي كلّ مرة يقع فيها

(*) انظر الحديث عن النظرة المزدَرية لهذه اللهجة الإنجليزية في الفصل السابق.

نزاعٌ بين هذه المواقع، يكون للُغة دورٌ في هذا النزاع، بل قد تكون اللغة موضعَ الرهان فيه. ويمكن أن يؤدي التوتر ما بين اللغة الحاصرة واللغة الناشرة إلى زوالٍ متدرجٍ لواحدٍ من هذين القطبَين. حين يبدو الانتماء للجماعة الفرعية الصغيرة أقلَّ أهميةً من الانتماء للجماعة الكبيرة التي تضمُّها تُعتَبر اللغةُ الناشرة، أي لغةُ الجماعة الكبيرة، لغةً محايدة، لا علامة لها، فتُصبح بذلك نقطة التقاءٍ تتَّجه نحوها مختلف لغات القطعانِ الحاصرة لتذوب فيها.

الفصل السادس

المعركة العائلية

في عدد من الثقافات، والثقافةُ الفرنسيةُ واحدةٌ منها، تكون الأسرةُ موضعاً تقليدياً للسُّلطة في تسمية الأعلام؛ فحين تتزوج فتاةٌ اسمُها ماري دوبّون (Marie Dupont) من رجلٍ اسمُه جان دوبوا (Jean Dubois)، فإنها تحملُ اسمَ زوجِها فتصبحَ (ماري دوبوا)، ويتغير لقبُها من آنسة إلى سيدة .وقد اعتُبر هذا الأمر طبيعياً لفترةٍ طويلة من الزمان، واقتضى تغييرُه نضالاً من جانب الحركات المناصرة للمرأة في الولايات المتحدة الأمريكية لتتلاشى التفرقة بين لقبي السيدة (Mrs) والآنسة (Miss)، ويكتبَ اللقبان بشكل موحَّد (MS). أما في فرنسا فنشهد ظهور أشكالٍ أخرى لهذا التلاشي يُجمع فيها بين اسم المرأة واسم زوجها: (ماري دوبّون ـ دوبوا)، أو يُحتفَظ فيها باسم المرأة دون زوجها: السيدة ماري دوبّون. غير أنه يظل من الصعب على (ماري دوبّون) التي وقَّعت على عملٍ من أعمالِها باسمها الزوجي (ماري دوبوا)، والتي عُرِفت بهذا الاسم، أن تسترجع بعد طلاقها اسمَها الأول الذي كان لها قبل الزواج: [دوبّون]. إن هذه العملية البَدهية على المستوى الشرعي، عسيرةٌ على المستوى الاجتماعي لأن الأسماء كالبطاقات التي تُلصق على الجلد

لصقاً فيصعب سلخها. الأسرة إذاً موضع لسلطة تسمية الأعلام، إنّها موضعٌ لسلطة الرجلِ على زوجِه.

على أن هذا ليس في حقيقة الأمر، موضوع هذا الفصل. ولئن كانت الخليَّة الأسرية موضعاً لانتقال الأسماء، نحو المرأة أولاً، ونحو الأطفال بعد ذلك، فإنها أيضاً موضع لانتقال اللغة حين يكون الزوجان أحاديَّي اللغة، أو لانتقال اللغات حين لا يكون للآباء لغةٌ أُمٌّ واحدة. ولنا أن نتساءل إن لم يكن **الزواج المختلط**، أو الزواج الثنائيُّ اللغةِ أوَّل موضعٍ للنزاع اللغوي: أَيُمكن لحرب اللغات أن تخترق الخليَّة الأسريّة؟

المثال السنغالي

في أثناء العام الدراسي 1963 ـ 1964 أطلق مركز اللسانيات التطبيقية في (دكار) استقصاءً واسعاً في المدارس الابتدائية في السنغال بهدف معرفة اللغات التي يتكلم بها الأطفال في بداية السّن الدراسية. وكان يُطلب في هذه الاستقصاءات قبيلة الأب، وقبيلة الأم، واللغة المستخدمة في المنزل، واللغات الأخرى التي يتكلم الأطفال بها. لم تكن النتائج مفاجئةً لمَن يعرف الوضع اللغوي في السنغال: فقد أثبتت لغة (الولف) نفسها لغةً أكثريةً واسعة (فـ 96,62 في المئة من الأطفال يتكلمون بها).

غير أن الدخول في تفاصيل النتائج يبيِّن ظواهرَ مفاجئةً تتعلق بعملية تعلُّمِ الأطفال للُّغة الأولى في أسرهم؛ لننظر في الجدول الآتي:

دكار وضواحيها
الوُلُف لغة أولى في المنزل
72,23 في المئة من التلاميذ من بينهم:
- 47,82 في المئة من أب وأمٍّ وُلُف
- 7 في المئة من أمٍّ وُلُف
- 5,59 في المئة من أب وُلُف
- 11,82 في المئة من أب وأم ليسا من الوُلُف

نرى في هذا الجدول أنَّ ثلثي الأطفال الذين لغتهم الأولى هي الوُلُف هم من أبوين لغتهما الوُلُف. وليس الأمر كذلك في نسبة لا بأس بها من الأسر؛ فسبعةٌ في المئة من مجموع الأطفال تعلموا الوُلُف من أمهاتهم، و5,59 في المئة من آبائهم. وأخيراً فإن 11,82 في المئة يتكلمون في بيوتهم هذه اللغة التي ليست لغةً أولى عند أمهاتهم، ولا عند آبائهم. هذا الوضع الذي قد يبدو غريباً مفارقاً في الفكر الغربي تؤكِّده نتائجُ أخرى في مناطق أخرى من السنغال. وفي مدينة زيغينشور (Ziguinchor) الواقعةِ في منطقة كازامانس (Casamance) الموجودة في أقصى جنوب البلد، والبعيدة عن مركز توسُّع لغة الوُلُف، وهي مدينةٌ فيها تعدُّدٌ لغويٌ واسعُ الانتشار، والوُلُف فيها لغة أقلية ضئيلة، نحصل على النتائج الآتية:

مدينة زيغينشور
الوُلُف لغة أولى في المنازل
33,93 في المئة من التلاميذ منهم:
- 8,83 في المئة من أبوين وُلُف
- 4,5 في المئة من أمٍّ وُلُف
- 6,02 في المئة من أب وُلُف
- 14,58 في المئة من أب وأمٍّ ليسا من الوُلُف

هذا يعني أن الوُلُف لغةٌ أولى أكثر عند الأطفال الذين ليست الوُلُف لغةً أولى عند أمّهم ولا عند أبيهم (14,58 في المئة) منها عند مَن هي اللغةُ الأولى لأمه وأبيه (8,83 في المئة)؟ وقد استخلص الباحثون في مركز اللسانيات التطبيقية بدَكار أنَّ: «الأطفال يتلقَّون أثر محيطهم لا أثر آبائهم، ونحن هنا أمام ظاهرة تمثُّلٍ من نمط اجتماعي»[1].

بيد أن الأمر يظل مستغرباً لأنه وإن صرَّح الأطفال بأنهم يعرفون لغة آبائهم أو لغات آبائهم، فإن ما نسميه عموماً «اللغة الأم» عندهم، إنما هي لغةٌ يتكلمها آباؤهم دون أن تكون اللغة الأمّ لهؤلاء الآباء. وهذه الظاهرة التي تطال في المثال المذكور أعلاه 15 في المئة من السكان ليست ظاهرةً هامشية.

حاولنا بعد ذلك إذاً مع طلبتنا، عن طريق استقصاءات في عدد من البلدان الأفريقية، أن نحاصر ظاهرة انتقال اللغة «الأم» لنرى إن كان الوضع السنغالي وضعاً معزولاً أو وضعاً له ما يماثله.

لغة الأم أمْ لغة الأب؟

في استقصاء عن طريق استبيانات في باماكو بمالي في نيسان/ أبريل من عام 1984 حصلنا في جوابٍ عن سؤالٍ يتعلق باللغة الأم، على المعطيات التي نعرضها في الجدولين الآتيين:

(1) François Wioland et Maurice Calvet, «L'Expansion du wolof au Sénégal,» *Bulletin de L'IFAN* (*Institut fondamental de l'afrique noire*), nos. 3-4 (1967), p. 617.

الأبوان لهما لغتان مختلفتان **ما هي اللغة الأم للشخص المستقصى عنه؟**							
اللغة:	بامبارا Bambara	سوناي Sonay	وُلُف Wolof	دُغُن Dogon	مالينكيه Malinké	بِّيل Peul	المجموع
لغة الأب	6	1		1		1	9
لغة الأم	4		1		1		6
لغة أخرى	4					1	5
المجموع	14	1	1	1	1	2	

نرى في هذا الجدول الأول أنَّ تسعةً من أصل عشرين طفلاً ولدوا لأبوين مختلطين لغةً، تعلموا لغة الأب أولاً، وستةً تعلموا لغة الأم، وخمسةً تعلموا لغةً أخرى. غير أن هذه الأرقام لا تأخذ معناها الحقيقي إلا إن قابلناها بتحديد اللغة المعنية: فنحن نرى في الواقع أنَّ البامبارا هي التي تسيطر لغةً للأب، أو لغةً للأم، أو لغةً أخرى. البامبارا إذاً هي التي تسيطر على أنها اللغةُ «الأم». ويؤكِّد هذا الميل أيضاً من كان لأبويه اللغة نفسها.

يبيِّن لنا الجدولُ التالي أنَّ مِن بين خمسين طفلاً يولدون من أبوين متَّفقين لغةً، سبعةً لا تكون لغة الأبوين لغتهم الأولى. كما يبيِّن الجدول أشياء أخرى على قدرٍ من الأهمية: يبيِّن من جهة أنه في اللغات الإقليمية الواسعة الانتشار (مثل البُّل والسوناي)، أو في اللغات الوطنية (مثل البامبارا) يحتفظ المستقصون بلغة آبائهم لغةً أولى، بينما يكتسب نصف المستقصين لغةً أُمّاً أخرى غير اللغة الأم لآبائهم حين تكون اللغة الأمُّ للآباء لغة أقلية [غير البامبارا واللغات الإقليمية الواسعة الانتشار]. ويبيِّن الجدول من جهة أخرى أن جميع المستقصين من غير أسرة البامبارا (38) متعددو اللغات، وأن السواد الأعظم منهم (35 من 38) يتكلمون البامبارا. أما الثلاثة الباقون الذين شذُّوا، فاثنان منهم من (الدوغون)، أصلهم من هضبة نائية يكتسب

أهلها لغة (البُل) لغةً ثانية، والثالث من ساحل العاج من أبوين من (الجولا). هذا يعني أنَّ اللغة الغالبة تظهر بشكلٍ شبه أكيدٍ لغةً ثانية، بينما معظم الذين يتكلمونها لغةً أولى (10 من 12) لا يشعرون بالحاجة إلى تعلُّم لغة أفريقية ثانية.

هاكم الجدول الثاني:

الآباء يتكلمون لغة واحدة ما هي اللغة الأم للمستقصَى؟				
	لغة الأهل	لغة أخرى	يتكلمون لغات أفريقية أخرى	منها البامبارا
البامبارا (Bambara)	12		2	
البُل (Peul)	10		10	10
الخاسُونكيه (Khassonké)	1	1	2	2
البوبو (Bobo)	1	1	2	2
السينوفو (Sénoufo)		1	1	1
الدُّغُن (Dogon)	1	1	2	
النونانكيه (Nonaké)	1		1	1
البوزو (Bozo)		1	1	1
الساراكوليه (Sarakolé)	2		2	2
الجولا (Jula)		1	1	
السوناي (Sonay)	13		13	13
الموسّي (Mossi)	1		1	1
المالينكيه (Malinké)	1		1	1
المجموع	43	7	40	35
(لغة الأهل موجودة في العمود الأيمن)				

حصلنا على نتائج مماثلة في استقصاء قمنا به في نيامي (بالنيجر)

في تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر عام 1983 :

لغة الأهل واحدة ما هي اللغة الأم للمُستقصى؟		
	هي لغة الأهل	هي لغة أخرى
الزَّرْما (Zarma)	28	
الهاوْسا (Hawsa)	31	
البُل (Peul)	4	2 (زَرْما)
السوناي (Sonay)	7	
التَّماشِك (Tamachek)		1 (هاوْسا)
الـغـورمـانْـتـشـي (Gourmantché)	1	
الكوتوكولي (Kotocoli)	3	
الوُبيه (Wobé)		1

نرى هنا أنَّ اللغة الأقليَّة هي التي تندثر لغةً أُمّاً لمصلحة اللغات الأكثرية كـ «الزَّرما» و«الهاوسا»، وإن كان ذلك في حالات قليلة. وتتعزَّز غلبة هاتين اللغتين حين يكون الأبوان من لغتين مختلفتين:

لغة الأهل واحدة ما هي اللغة الأم للمستقصى؟				
	هي لغة الأب	هي لغة الأم	هي لغة أخرى	هما اللغتان معاً
				2
الزَّرْما	7	6	2	
الهاوْسا	12	6	2	
البُل	2			
العربية التشادية	1			
الكانوري	1			
الكوتوكولي	1			

نرى هنا أنَّ الأطفال يمكن أن تكون لغتهم الأولى لغة الأب (19) أو لغة الأم (16)، أو اللغتين معاً (2)، أو لغةً أخرى (5)،

ولكنَّ هذه اللغة الأولى غالباً ما تكون واحدةً من اللغتين الغالبتين في البلد.

يعني هذا أنَّ هناك **علاقةً وثيقة بين الأُسرة والمجتمع**، وأن اللغة الأمّ في الزواج المختلط، وهي لغةٌ يمكن أن تكون لغة الأب أيضاً، تكون غالباً اللغة الغالبة خارج المنزل: أي الوُلُف في السنغال، والبامبارا في مالي، والزَّرما أو الهاوسا في النيجر. سوف نتابع من كثبٍ موقع اللغات الغالبة في الفصلين القادمين، إلا أننا نسجِّل منذ الآن هذا المُعطى الذي تقدِّمُه استقصاءاتُنا، وهو يشير إلى أنَّ **الأُسر المتعددة اللغات مكانٌ للنزاع اللغوي**، وهو ما لا يستغربه أحد، وإلى أن هذه الأسر **تسجِّل وتعكِس النزاعاتِ اللغوية الأوسع للمجتمع المحيط بها.**

من اللغة الأم إلى اللغة الوطنية

ليست هناك إذاً لغةٌ «أُمّ»، بل هناك لغة «أولى». بيد أن السواد الأعظم من الثقافات الأوروبية يمتلك صورةً واحدةً للتعبير عن هذه اللغة الأولى، [إنّها صورة الأم]: Mothertongue في الإنجليزية، Lengua materna في الإسبانية، Idioma materno في الإيطالية، Muttersprache في الألمانية . . . إلخ، مع توسُّعٍ لغويٍّ يجعل من لغة الأم اللغة التي لا بدّ من أن يرِثها الطفل.

إن فكرة الإرث هذه، أي فكرة النَّسَب، تتبدَّى أيضاً بشكلٍ أكثر وضوحاً في اللغة الروسية، حيث تحيل عبارة «اللغة الأمّ» إلى «الولادة» من جهة، وإلى «الأهل» و«المصدر» من جهة ثانية.

ولا تنقصنا ـ ولا سيما في اللغات الأفريقية ـ الاستعارات التي تجعل من هذه اللغة الأولى لغة الحليب، والثدي، وما رَضِعْناه . . . إلخ. ولكننا نجد، على العكس من ذلك، في بعض اللغات فكرة

اتصالِ هذه اللغة الأولى بالأرض. هذا ما نراه مثلاً في اللغة الصينية التي يُعبَّر فيها عن «اللغة الأم» بعبارة (بِن غيو يو يِن) التي تعني حرفياً: «لغة البلد الجذر».

يلخص **قاموس روبير** (*Dictionnaire Robert*) تلخيصاً جيداً الخلط الذي كنا أشرنا إليه أعلاه من خلال لغاتٍ مختلفة، وهو الخلط الذي نراه أيضاً في داخل اللغة الواحدة، كما هو الحال في الفرنسية التي نأخذها مثالاً هنا:

«تعرِّف القواميس الشائعة اللغة الأم بأنها «لغة البلد الذي فيه ولِدنا». هذا التعريف لا يغطي الحال العامة للُّغة الأم، فالفرنسية هي، بلا ريب، اللغة الأم لفرنسيٍّ ولد في اليابان ونشأ في محيط يتحدث بالفرنسية. وعلى العكس من ذلك، فإن فرنسيّاً من أبوين أصولهما أجنبية لم يعودا يتحدثان بغير الفرنسية، يستطيع تماماً أن يعتبر لغةً يجهلها لغة أجداده الأبعدين، «لغةً أمّاً» له إن كان لا يعُدُّ نفسَه فرنسياً على المستوى العاطفي. وهكذا، فإن اللغة الأم يمكن أن تكون حيناً لغة الأم، وحيناً آخر لغة الأم ـ الوطن»[2].

إنَّ إرادة التوضيح هذه تخلط من جديد خلطاً كاملاً بين وجهات النظر، فهي من جهة تجعل اللغة الأم لغة الأسرة، بل لغة الأجداد، فتعطي لهذه الاستعارة الدلالات الإيحائية المألوفة التي نجدها في ثديِ الأم، وحبِّ الأم، وغريزة الأم، ودم الأم، وغير ذلك؛ وهي من جهة أخرى، تجعل منها لغة إقليم، وبلدٍ، و«وطن». في الحال الأولى تمرُّ علاقة النَّسب عبر الأم، وفي الحال الثانية عبر الأبِ؛ لأنَّ جذر «الأب» في الفرنسية (Père) موجود في كلمة «الوطن» (Patrie)، (وفي الكلمة الإيطالية أو الإسبانية المقابلة (Patria)) التي يعني معناها الأول: «أرض الأب»، تماماً كما هو الحال في كلمة

(2) *Dictionnaire Robert*, tome 4, p. 314.

Vaterland الألمانية، وفي كلمة Fatherland الإنجليزية (وإن كان يقال بالإنجليزية أيضاً Motherland)، وإن كانت فكرة «الوطن» في الصينية لا ترتبط بالأب ولا بالأم، بل بالجدود (زو غيو) التي تعني «أرض الجدود».

في هذه الرؤية العامة التي تشهد عليها اللغات، يبدو أنَّ الأهل إذاً يتقاسمون الأدوار في علاقة النَّسب؛ فالأب يعطي الأرض (وهي هنا الأرض التي يدافع عنها بسلاحه أكثر مما هي الأرض التي يزرعها)، والأمُّ تعطي اللغة... إنَّ أكثر ما يثير في هذا التقسيم هو أنه تقسيمٌ يهمل التعدُّد اللغوي؛ فبين الخلية العائلية والكيان الوطني يقوم مسترسَلٌ لا انقطاع فيه، شهودُه الأساسيون لغة (الأم) وأرض (الأب). هكذا يكون الوطن واللغة ضامنين لوحدة أسطورية تجعل من لغة القطيع، أي من اللغة الحاصرة عالماً مصغَّراً للُّغة الناشرة، ومن الأُسْرةِ عالَماً مصغَّراً للوطن، لأن اللغةَ الأمّ ولغة الوطن شيءٌ واحد. هذا العالم الذي رأينا أنَّ التعدُّد اللغوي يحدِّده قبل أيِّ شيءٍ آخر، يُحلَمُ به إذاً عالماً مكوَّناً من وحدات أحادية اللغة يصفُّ بعضها فوق بعض، ويكون المبدأ المنتج له في زعمهم لغةً تورِّثها الأم لأبنائها، وأرضاً يورِّثها الأب لأبنائه في وقت واحد: فيُنتقل من اللغة الأم إلى اللغة الوطنية دون فرق بينهما.

الأُسرة في مواجهة المجتمع

إنَّ الأمثلة القليلة التي أخذناها من السنغال ومالي والنيجر تبيِّن أنَّ الأمور تجري بشكلٍ مغايرٍ تماماً في الحقيقة. ولم نكن بحاجة إلى الذهاب بعيداً في إثباتٍ ذلك؛ ففي مدينة غايّون التي تحدثنا عنها في الفصل الثالث، توصَّلنا تقريباً إلى النتائج نفسها في الاستقصاء الذي تناول تلاميذ إحدى المدارس الابتدائية من أبناء المهاجرين: فقد

وجدنا أنَّ 27 تلميذاً من أصل 41 يتكلمون لغة آبائهم (العربية أو البرتغالية أو الإسبانية) مع اللغة الفرنسية. أما الآخرون فلغتهم الأولى الفرنسية(3). هذا يعني مرةً أخرى أنَّ الخلية العائلية تعكس النزاعات اللغوية المحيطة بها. إنَّ لغة البلد المضيف، سواءٌ أكانت الفرنسية أم الإنجليزية، بالنسبة للطفل المولود من أبوين مغربيين في فرنسا، أو للطفل المولود من أبوين صينيين في الولايات المتحدة الأمريكية، أو من أبوين هنديين في بريطانيا العظمى، هي لغة الاندماج في البلد المضيف، ولغة الترقية الاجتماعية. كما أنها في الوقت نفسه، لغة التكيُّف مع نموذج غالب خارج الأُسرة، ولغة الترقي الاجتماعي. هذا التوتُّر بين المتماثِل (أيْ أن تكون مثيلاً للآخرين) والمتغايِر (أي أن تظل وفيّاً للأصول) يمكن أن يتطور نحو قبول الثنائية، فيصبح الطفل حينئذ ثنائيَّ اللغة، أو نحو رفضها فلا تعود لغته الأولى لغة الأهل. وقد بيَّن استقصاء مدينة غايُّون لنا شيوع عدمِ حديث أمهات أطفالِ بلدانِ المغرب العربي بالفرنسية. وبناءً عليه، فإن الطفل الذي لا يعرف (أو الذي لم يعد يعرف) لغته الأمَ الحقيقية يجد نفسه بالضرورة، في وسط نزاعٍ لغوي عائلي.

غير أن الأمورَ ليست دائماً بسيطةً قاطعة إلى هذا الحد. ولذلك قرَّرنا في استقصاء مدينة غايُّون، أن نستنطق تلاميذ المدرسة فضلاً عن الاستبيانِ الموجَّه إليهم للإجابة عنه. وقد استنطقنا يوماً تلميذاً صغيراً ـ فلنسمِّه محمّداً ـ من أبوين مغربيين. قال لنا محمّدٌ إنّه لا يتكلم العربية، وإنه وُلِد في فرنسا، وإنه لم يذهب قطُّ إلى المغرب، وإنَّ هذه اللغة العربية بالغة الصعوبة بالنسبة إليه. ثمّ تحدَّثنا في أمورٍ

(3) Louis-Jean Calvet, «Le Plurilinguisme à l'école primaire, note sur une enquête à Gaillon (Eure),» *Migrants formation*, no. 63 (1985), pp. 17-21.

كثيرة إلى أن وصلنا إلى أمه التي قال لي عنها إنّها لا تخرج من المنزل.

«لا تخرج حتى للتسوُّق؟»،

«لا» أجابنا محمّد باعتزاز. «أنا من يخرج للتسوُّق».

«أتعطيك أمُّك قائمةً بما عليك شراؤه؟»،

«لا، فأمي لا تعرف الكتابة. إنّها تقول لي ما ينبغي شراؤه. هذا كلُّ شيء».

راودنا الشكُّ فجأةً فسألناه: «أتتحدث أمّك بالفرنسية؟»،

«لا، إنّها لا تعرف شيئاً منها»،

«بأيِّ لغةٍ تتحدث معها إذاً؟»،

«بالعربية، بالطبع!»، هكذا أجابني بلهجة الواثقِ من بداهة الأمر.

لِمَ أحسَّ هذا الطفل ذو السنوات العشرِ بالحاجة إلى الزعمِ بأنه لا يعرف العربية في الاستبيان المكتوب وفي إجاباته عن أسئلتي الشفوية؟ النزاع هنا بين الفرنسية، لغة الترقي والحُظوة، ولغةِ المدرسة، ولغةِ المعيار والمماثلةِ على وجه الخصوص، وبين العربية، لغةِ المغايرة والاختلاف، نزاعٌ لم يُحسم بالاندثار الحقيقي للعربية، بل باندثارٍ مزعوم لها.

حين زعم محمّدٌ أنه لا يتكلم بلغته كان يؤكِّدُ مماثلته للآخَرين. كان يضحِّي رمزياً بلغة قطيعه، أي بلغته الحاصرة، لينتسب إلى اللغة التي تجعل منه فرنسياً، فلا يعود ابن مغربيٍّ: أن لا يتكلَّم العربية يعني المماثلة.

أما بالنسبة للبالغين، فالأمر على خلاف هذا. زرنا أهل محمّد

الذين جعلوا من داخلِ منزلهم، وهو منزلٌ لذوي الدخلِ المحدود، داخلاً مغربياً: الزرابيُّ، والطاولاتُ الخفيضة، وآياتُ القرآنِ المعلقة على الحائط. ظلّت أمُّه التي ترتدي اللباس التقليديَّ في المطبخ تحضِّر أطباق الطعام التي كانت تحملها إلينا البنت البكر. تعمَّد الأب أن يتحدث بالفرنسية. وكان الحرج يبدو على محمّدٍ بسبب نبر والده المميَّزة وكثرة أخطائه. لم يكن يدري أن فرنسيَّة أبيه المعرَّبة كانت علامةً من علامات الانتماء، تماماً كفرنسية الطفل التي تخلَّصت من أيِّ أثرِ مغربي. يقول هيريديا[4] (Heredia): «قد يحدث أن يرفض المهاجرون الفرنسية ليكونوا أفضل محافظةً على هُويَّة أصولهم. وقد يحتفظ بعضهم بنَبرٍ شديدٍ علامةً على «تميُّزهم» بالمعنى الذي ذكره بورديو». وهذا السلوك في حقيقته سلوكٌ مكمل لسلوك الأطفال الرافضين للغة آبائهم.

سواءٌ أتعلّق الأمر بأوضاعٍ يكثر فيها التعدُّد اللغوي والزواج المختلط الناشئ عن هذه الأوضَاع، أم بعائلاتٍ مهاجرةٍ متجانسةٍ لغوياً ولكنها تواجه لغةً هي لغةُ الحُظوة في الخارج، تبدو الأسرة مكاناً لنزاعٍ لغوي هو صدًى لنزاعات المجتمع. نحن نعرف منذ زمان طويل أنَّ اللغة يغيِّرها الأطفال؛ فأصواتهم على سبيل المثال، وهي أصواتٌ تختلف غالباً عن أصوات أجدادهم، تعطينا فكرة عما ستؤول إليه اللغة بعد عشرين عاماً، أو بعد ثلاثين عاماً؛ فأطفال هؤلاء الأطفال لن يتحدثوا قطعاً كما يتحدث أجداد آبائهم. والأمر على هذا في العلاقات ما بين اللغات. حين تكون لغة القطيع، أي اللغة

(4) C. de Heredia, «Les Parlers français des migrants,» dans: *J'cause français, non?*, cahiers libres; 380, APREF [association pour la recherche et l'expérimentation sur le fonctionnement du français]; sous la direction de Frédéric François (Paris: Maspero, 1983), pp. 115-116.

الحاصرة، لغةً أقليَّةً إلى أقصى الحدود وتبقى متداولةً في الأسرة بشكل يومي، فإنَّ حظوظها في البقاء طويلاً محافِظةً على هذه الوظيفة حظوظٌ كبيرةٌ جداً (هذا مثلاً حال البربرية في المغرب، أو الكورسيكية في فرنسا). وعلى العكس من ذلك، حين ينفر الأطفال من الحديث بهذه اللغة، وينسونها شيئاً فشيئاً، أو يدّعون نسيانها لأنهم يخجلون بها، فإنَّ مصيرها لا يعود مضموناً أبداً؛ فالطفل السنغاليُّ الذي ولد من أبوين لغتهما البُّل، والذي اكتسب الوُلُف لغةً أولى فلا يتحدَّث البُّل إلا مع جدِّه وجدَّته، لن يتحدَّث مع أبنائه بالبُّل، بل بالوُلُف.

كتبنا في المقدمة أنَّ تاريخ اللغات يشكِّل الجانب اللغوي من تاريخ المجتمعات. ونحن نرى هنا أنَّ تاريخ الأُسرة اللغوي نتاجٌ للتاريخ الاجتماعي. فابن المهاجرِ الذي يرفض العربية نتاجٌ للعنصرية المحيطة به، وللحطِّ الأيديولوجي من شأن لغته. وهو يضع حدّاً للمعركة اللغوية بالتنازل والتخلي عنها. هذا الحلّ حلٌّ فردي بالطبع، ويمكن أن يؤدِّي إلى اندثار اللغة في حالات مخصوصة. لكننا سوف نرى في ما يلي من البحث ما هي الظروف التي تؤدي إلى اندثارٍ جماعي للغة.

الفصل السابع
الأسواق واللغات

إنَّ التعددَ اللغويَّ الذي رأينا أنه يشكِّلُ على سطح الكرة الأرضية الوضع اللغويَّ الأكثر انتشاراً، يطرح بالطبع عدداً من مسائل التواصل.

يلتقي في كلّ يوم، وفي كلّ نقطةٍ على سطح الأرض، مئات الآلاف من البشر. وهم يحتاجون إلى التواصل، ولكنهم لا يتكلمون اللغة نفسها. والتجارة هي الممارسة الاجتماعية الأكثر تعرُّضاً لهذه المشكلة؛ فكيف يمكن أن نبيع وأن نشتري ممَّن لا يتكلم اللغة نفسها؟ إنَّ الإنسان في واقع الأمر قادرٌ على إيجاد وسيلةٍ للتواصل في كلّ مرة يحتاج فيها إلى ذلك. يصف موريس ديلافوست مثلاً طرق التبادل في القرون الوسطى في أفريقيا الغربية فيقول: ·

«كان التجّار يكشفون بضائعَهم (ملح، وحلقات نحاس، ولؤلؤ أزرق): كان كلُّ واحدٍ منهم يضع بضاعته أرضاً، في أكوام صغيرة منفصلة، ثمّ يبتعدون جميعاً عن أنظار السكان الأصليين. حينئذ، كان هؤلاء يقتربون، ويضعون بجانبِ كلِّ كومةٍ من البضاعة كميةً محددةً من التِّبْر، أي من قُراضة الذهب، ثمّ ينسحبون. ويعود التجار بعد ذلك فيأخذ كلُّ واحدٍ منهم ما وجده من قراضة الذهب إلى جانب

كومته، ثمّ ينسحبون وهم يقرعون الطبول إيذاناً منهم بالذهاب وبإتمام الصفقة، تاركين البضاعة في الأماكن التي وضعوها فيها. يبدو أن هذه المبادلات الصامتة كانت تجري بصورة منتظمة، دون أن تخشى جماعةٌ منهم أن تخدعها الجماعة الأخرى»[1].

كان العرب إذاً يشترون الذهب دون أن يجري أيُّ تبادلٍ لغوي، ولكن دون أن يعني ذلك غياب التواصل. في المشهد الذي نقلناه أعلاه، يلاحظ عالم الاقتصاد أنَّ هذه «التجارة» كانت تستغني عن **النقود**، وهي بشكلٍ عام المُكافِئ للبضائع الذي يتحدث عنه كارل ماركس (لا ينبغي أن نغترَّ باستعمال الذهب هنا في التبادل لأنه في هذا المثال بضاعةٌ وليس نقداً). ويلاحظ عالم السيمياء غياب اللغة مع وجود تبادلٍ **للرسائل** (كومة من بضاعتي = كومة من ذهبك، وأنا أقرع الطبل إيذاناً بتمام الصفقة). هذه المبادلة الصامتة تتميَّز إذاً بغيابين: غيابِ اللغة وغيابِ النقود. ولكنها تتميز رغم هذا الغياب بإتمام التبادل والتواصل. حاول الناس دائماً في مواجهة العوائق اللغوية أمام التواصل، تذليل الصعوبات في ممارستهم الاجتماعية: **على الأرض**، **في الجسم الحي**، بتوليد لغاتٍ خليط، أو باستخدام لغاتٍ ناشرة[2]، فيما كان بعضهم في **مختبره**، **في بيئة مصطنعة**، يبحث عن حلولٍ متجِّهاً صوب اللغات الاصطناعية، مثل الإسبرنتو، أو صوب التخطيط[3]. هذه المعالجة في **الجسم الحيِّ** للتعددية اللغوية هي التي نودُّ تقديمها هنا مبتدئين بمكان مميَّز: السوقِ المتعدِّد اللغات.

---

(1) Maurice Delafosse, *Haut-Sénégal, Niger* (Paris: E. Larose, 1912), tome 2, p. 47.

(2) انظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(3) انظر الباب الثالث كلَّه من هذا الكتاب.

نظراً لعدد اللغات المتواجهة في السوق، ونظراً لضرورة التواصل الذي يفرضه (الدعاية لبضاعته، دعاء المشتري، الاستفسار عن الثمن، المساومة في الثمن)، يبدو **السوق** كاشفاً جيداً لإدارة التعدُّد اللغوي الذي تشكِّلُه الممارسة الاجتماعية: فنحن نجد فيه لغات تفرض كلٌّ واحدةٍ منها نفسها لغةً ناشرةً قد لا تستخدم إلا في هذا الموضع، وقد تكتسب مواقع في أماكن أخرى، ووظائف أخرى غير الوظيفة التجارية، لأنَّ هذه اللغات التي تفرض نفسها في هذا الموضع، ومن أجل هذه الوظيفة يمكن أن تكون، في المجتمع كلِّه، لغات الغد الناشرة.

سوق كانتون (الصين)

تشهد مدينة كانتون الواقعة في جنوبي جمهورية الصين الشعبية تعايُش لغتين على الأقل: الكانتونية، أو لغة «كانتون» من جهة، وهي لغةٌ محليةٌ ناشرةٌ في مقاطعة كوانغدونغ (Kuangdong) بكاملها وفي هونغ كونغ، ولغة بيتونغ هوا (Putonghua) من جهة أخرى، وهي «لغةٌ مشتركة» (تسمى في الغرب إن تركنا بعض التفاصيل جانباً بـ «المانداران» (Mandarin)، وهي لغةٌ تدرَّس في المدارس، وتستخدمها وسائل الإعلام المرئيِّ والمسموع. وهي اللغة الأولى في شمالي الصين، ولكنها لغةٌ ثانية في كانتون. يضاف إلى هاتين اللغتين بعض اللغات الصينية (الوو (Wu)، والهكّا (Hakka)، وغيرهما)، وعددٌ من لغاتِ «الأقلِّيات». وقد قمنا مع عدد من طلابنا في معهد اللغات الأجنبية[4] بين أيلول/ سبتمبر وتشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1985 باستقصاءٍ في سوقين من أسواق المدينة: سوقِ كينغ بينغ لو

(4) شارك ستة من الطلبة في هذا الاستقصاء، وهم: Lin Yi, Zeng Yeng, Zi Du, Shao Yang Li, Zhang Xin Mu.

(Qing Ping Lu) للمواد الغذائية الواقع على شاطئ بحيرة اللؤلؤ، في مقابل جزيرة شميان، وسوقِ غاو دي جييه (Gao Di Jié) للألبسة الواقعِ في وسط المدينة قرب الشارعِ التجاري الكبير لبيجينغ لو (Beijing Lu).

من المفيد قبل أن نتحدث عن التواصل اللغوي الحقيقي، أن نقدِّم وصفاً لما رأيناه في جانبٍ صغير من سوق « كينغ بينغ لو» حيث يباع الخزف الصيني والشجر القزم المعروف بِـ (البونزاي)، وهو الجانب الوحيد الذي يقصده الأجانب أحياناً للشراء منه. لا يتكلَّم الباعة هناك أيّاً من اللغات الغربية، وتقتصر معرفتهم عموماً على عبارة التحيّة الإنجليزية هِلّو (Hello) التي يستدعون بها الزبائن الأجانب المحتملين، وعلى عبارة السؤال على الحال How Do You Do? في أحيان نادرة. فإن بدا السائحُ مهتمّاً بقطعةٍ ما، يُخرِجُ البائع من جيبه قطعة كرتونٍ مقوًّى كتبت عليها في أعمدةٍ منتظمة الأرقام من 1 إلى 100، وعادةً ما تكون الأرقام من 1 إلى 50 على وجه الكرتون، والأرقام الباقية من 50 إلى 100 على القفا، ثمّ يحدِّد الرقم المقابل للثمن الذي يرغب في الحصول عليه بِعملةِ اليُوَان (Yuan)، ويحددُ المشتري بدوره الثمن الذي يريد أن يدفعه بالإشارة إلى الرقم بسبّابته التي تسترجع وظيفتها الأولى، فهي «التي تشير». وتجري المساومة هكذا باستخدام الإشارات المتتابعة. تستدعي هذه الممارسة البالغة البساطة عدداً من الملاحظات:

ـ من المفيد أن نسجِّل منذ البداية أنَّ جميع الأجانب عند هؤلاء التجار هم ممَّن يتكلمون الإنجليزية؛ فلا يتساءل التجار عن اللغة التي يخاطبون بها زبائنهم (كما هو الحال مثلاً في أسواق مراكش بالمغرب، إذ يتمكن الباعة بالنظرة الخاطفة من «تحديد هوية» زبائنهم). كلمة «هِلّو» في سوق كانتون أكثرُ من كافية. في هذا العالم

أماكن للتجارة يعرف التاجر فيها عدداً من اللغات، ويستطيع أن يتوجه فيها إلى الزبون بلغته، أو بلغة عالمية (كالإنجليزية، والفرنسية) كما هو الحال مثلاً في مصر والمغرب، وفيه أماكن يُتحَدَّث فيها إلى السائح بلغةٍ موروثةٍ من أيام الاستعمار (كما هو الحال عموماً في أفريقيا)، وأماكن يُنتظَر فيها أن يتحدث الزبون بلغة التاجر (كما هو الحال في أكثر البلدان الأوروبية)، وأماكن يُفرض فيها أن يُبتدع نظامُ تواصلٍ خاص.

- الملاحظة الثانية: هي أنَّ الكرتون الذي وصفناه أعلاه يقيم تناسباً تاماً بين الحاجة إلى التواصل، والجواب الذي تقدِّمه الممارسة الاجتماعية لهذه الحاجة؛ فالمضمون الضروري الوحيد للاتصال هنا يتعلق بالثمن وبالمساومة عليه، والشِّفرة المستخدمة هنا كافيةٌ للتعبير عن هذا المضمون. أما الاعتراضات المعتادة في المساومات فتعوض عنها الإشارات والإيماءات.

- الملاحظة الأخيرة: يحدد النظام الذي وضعه تجار سوق (كينغ بينغ لو) عدداً من اتجاهات التفكير في تفسير ولادة الشفرات استجابةً لحاجات التواصل؛ فللغات الخليط مثلاً أصلٌ مشابه، لأنها تستجيب للنمط نفسه من الحاجات؛ ولكنها تشكِّل **خياراً لغوياً**، فيما يشكِّل نظام كينغ بينغ لو خياراً من **الرموز الخطية والإشارات والإيماءات**. ولا ريب في أن التواصل في هذا النظام الأخير تواصلٌ محدود جداً (يقتصر على تحديد الأسعار والمساومة فيها)؛ ولكن المثال مهمٌّ لهذا السبب بالتحديد: شفرةٌ بسيطةٌ محدودة لتواصلٍ محدود يقتصر على نقلِ محتوى بسيط. ولا تتعقد الشفرة إلا حين يتعقد المحتوى. من هذه الزاوية يوجد فرقٌ أكيد في الدرجة، لا في الطبيعة، بين الكرتون في كينغ بينغ لو واللغات الخليط.

لننتقل الآن إلى اللغات المستخدمة في التواصل التجاري، فقد

سجَّل طلابنا على بطاقات خاصة[5] ما شاهدوه من حديث متبادل [بين التجار وزبائنهم]. وفي الجدولين الآتيين ملخص لهذا التبادل:

كينغ بينغ لو ملاحظة 283 حديثاً متبادلاً لغة الحديث المتبادل	
كانتونية	249
بو تونغ هوا	14
كانتونية / بو تونغ هوا	10
هكّا	2
هنان	2
سيشوان	2
الإشارات والإيماءات	2
الكتابة	2

غاو دي جيِه ملاحظة 132 حديثاً متبادلاً [لغة الحديث المتبادل]	
بو تونغ هوا	86
كانتونية	38
كانتونية/ بو تونغ هوا	4
شاووشو	2
تيان سو	2
هو ناي	2
شانْتونغ	2

(5) نُظِّمَت البطاقات على الطريقة التالية:

المكان: التاريخ:

المُنتَج:

الجنس	السن	النمط	الموضوع	اللغات

على سبيل المثال: إن خطأ مكتوباً في البطاقة على الشكل التالي:

ر - ر	30 - 40	ب - م	نداء	كانْت

ينبغي أن يُقرأ هكذا: بائعٌ في الثلاثين من عمره ينادي بالكانْتونية مشترياً في الأربعين من عمره.

من الملاحظ أن الكانتونية هي لغة التواصل في سوق كينغ بينغ لو (249 مبادلة من أصل 283)، وأن استعمال اللغة الوطنية، وهي بو تونغ هوا، قليلٌ جداً، بينما تنعكس النسبة في غاو دي جيِيه (88 في المئة بالكانتونية في الحال الأولى، و65 في المئة بلغة بو تونغ هوا في الحال الثانية). يدل هذا التوزيع بين اللغتين على وظائف مختلفة لكل واحدةٍ منهما؛ فالكانتونية لغة الأسرة والشارع والعلاقات الحميمة. وهي تقوم بالنتيجة بوظيفة لغةٍ حاصرةٍ لا يمكن أن تقوم بها البو تونغ هوا، وهي اللغة الرسمية التي تدرّس في المدارس، ولغة الإدارة ووسائل الإعلام... إلخ. ولهذا السبب تبدو الكانتونية بصورةٍ طبيعية لغة السوق الغذائي. في المقابل، يجتذب سوق غاو دي جيِيه عدداً من الزبائن من شمالي البلاد، لأن كانتون تُعد مدينةً أنيقة (وقربها من هونغ كونغ سبب أكيد في شهرتها)، فيأتي الزبائن إليها ليشتروا بالجملة ملابس يبيعونها في شنغهاي أو في بكين. يعني هذا أن المبادلات التجارية تجري في كثير من الأحيان بين بائع من الجنوب يتكلم الكانتونية وزبون من الشمال يتكلم البو تونغ هوا. وبالنتيجة، فإنَّ الباعة سوف يستخدمون مع زبائنهم الذين لا يعرفون الكانتونية لغة البو تونغ هوا، أي اللغة الرسمية، فتظهر بوضوحٍ وظيفة لغة البو تونغ هوا لغة نشر.

تعطينا هذه الأرقام القليلة المستقاة من استقصاءٍ أوسع، عدداً من المعلومات:

ـ إظهار التعدد اللغوي في كانتون، وهو تعدد يظهر في الثنائية اللغوية بين الكانتونية والبو تونغ هوا على وجه الخصوص.

ـ التمثيل للموقع المختلف لكل واحدة من اللغتين، فالكانتونية لغة الحصر من جهة، والبو تونغ هوا لغة النشر من جهة أخرى.

- التمثيل لشيء من موازين القوى، لأنه حين يتعلق الأمر باختيار إحدى اللغتين الأساسيتين فإن البو تونغ هوا هي التي تختار. ولكننا لا نستطيع أن نعرف حتى الآن إن كان اختيار هذه اللغة على أساس أنها لغة الزبون، أو على أساس أنها اللغة الرسمية. أيخضع البائع للزبون الذي يفرض ما يريد، أم للمركزية التي يفرضها الشمال؟ الأكيد هو أن الباعة الكانتونيين ثنائيو اللغة، وأن الشراة القادمين من الشمال أحاديو اللغة، وهذا يشكل بدايةً للإجابة عن السؤال المطروح.

- أخيراً، الدور الكاشف للسوق الذي يظهِر لنا الحركات اللغوية الكبرى التي تخترق المجتمع. غير أن هذه النقطة الأخيرة ليست خاصةً بأسواق كانتون. وسنرى في ما يلي أن الأمر على هذه الشاكلة في جميع الأسواق المتعددة اللغات.

أسواق برازافيل (الكونغو)[6]

تحدد حركة الهجرة من الريف إلى المدينة بدرجةٍ كبيرة الوضع اللغوي للعاصمة الكونغولية؛ فسكان الكونغو في حقيقة الأمر حضرِيون في المقام الأول، إذ يقطن 34 في المئة منهم في المدينتين الأساسيتين: برازافيل وبوانت نوار (Pointe-Noire).

أما في ما يخص برازافيل، فقد كان سكانها البالغ عددهم عشرة آلاف نسمة في عام 1917 يشكلون 10 في المئة من مجموع السكان، فأصبحوا 25 في المئة في عام 1981 إذ تجاوز عددهم ثلاث مئة ألف نسمة. ويظهر ازدياد هذه النسبة من خلال الأرقام الآتية:

(6) نستخدم هنا المعطيات التي نشرناها بمزيد من التفصيل، لا سيما في كتابنا عن **لغات السوق:** Louis-Jean Calvet, *Les Langues du marché* (Paris: Université René-Descartes, 1985).

1917: 10000 نسمة

1955: 95520 نسمة

1961: 127964 نسمة

1974: 298967 نسمة[7].

وقد أدى ازدياد عدد السكان إلى خليط لغوي يميز المدن في أيامنا.

تقع برازافيل على الضفة اليمنى لنهر الكونغو. وقد كانت منذ القديم، بحكم موقعها، ملتقى الهجرات التي كانت تسلك أولاً اتجاه النهر. وكان المهاجرون الأوائل إليها من منطقة ستانلي بول (Stanley Pool): يرى ب. ديبوز أن 60 في المئة من الذين وصلوا إلى العاصمة منذ أكثرَ من عشرين عاماً كانوا من البُول (Pool)، أي من منطقة برازافيل. أما القادمون إليها في السنوات الخمس الأخيرة (1975 ـ 1979) فليس فيهم من أصولِ البُول سوى 21 في المئة فقط؛ فقد تناوبَ مع هذه الهجرة المحلية حركتان كبيرتان: الأولى قادمةٌ من الشمال وتحمل معها لغةَ الشمال الناشرة، أي اللغةَ **اللِّنْغالية** (Lingala)، والأخرى قادمةٌ من الجنوب ولغتها الناشرة هي **المونوكوتوبية** (Munukutuba). وليست هاتان اللغتان اللغتين الأولَيَيْن لسكان المدينة. وقد استقرَّ أبناءُ الحركتين المهاجرتين كل في الجزء المقابل لمنطقته من المدينة؛ فاستقر المتكلمون باللِّنْغالية في شمال المدينة (في أحياء بوتو ـ بوتو وموغالي)، واستقر المتكلمون

(7) P. Duboz, *Etude démographique de la ville de Brazzaville, 1974-1977* (Bangui: ORSTOM, 1979).

بالمونوكوتوبية في جنوبها (في حي باكونغو). هكذا تبدو برازافيل صورةً مصغرة للكونغو، إذ تتمثل فيها اللغتان الكبيرتان الناشرتان، ولغة أخرى هي اللارِية (Lari) أو الكيلارِية (Kilari) التي يظل تحديد موقعها أصعب منالاً.

«اللارية بديل لهجي حضري لمجموعة كانغو (Kango)، وهو بديل علت منزلته لأنه لغة المدينة ولغة العاصمة. ولذلك غالباً ما يقول الناس العاديون من منطقة البول حين يسألون عن لغتهم الأم «إنهم لاريون». وهذا الجواب أكثر شيوعاً عند الناس الذين استقروا في برازافيل منذ فترة قصيرة»[8].

وفضلاً عن هذا، تتمثّل في العاصمة كل المجموعات العرقية، مما يعزز اعتبارها «بلداً مصغراً»:

مجموعة الكونغو (Kongo): 65,5 في المئة من السكان.

مجموعة التيكي (Téké): 17 في المئة.

مجموعة مبوشي (M'bochi): 11,3 في المئة.

مجموعات أخرى: 2,6 في المئة.

غير كونغوليين: 3,6 في المئة[9].

يطرح هذا الوضع على عالم اللغات الاجتماعية سؤالاً مهما بلا ريب: ما الذي سوف تسفر عنه هذه المواجهة اللغوية؟ ما هي اللغات التي سوف تفرض نفسها في التواصل الاجتماعي، وتلك التي

(8) A. Le Palec, «Brazzaville, note sur la situation linguistique de deux quartiers,» (communication à la Ve table ronde de l'AUPELF, Yaoundé, 1981).

(9) Duboz, Ibid.

سوف تبقى مقصورة على الاستعمال في الأسرة، لغة قطيع حاصرة؟ في كانون الأول / ديسمبر 1980 قمنا باستقصاء أولي حول هذه النقطة مع عدد من الطلبة الذين كانوا يتابعون دروسنا في جامعة نغوابي في برازافيل، ومع آني لو باليك (Annie le Palec) التي كانت معيدةً في تلك الجامعة والتي كانت تحضر رسالة دكتوراه عن الوضع اللغوي الاجتماعي للمدينة: كان الطلبة يوزعون في أحيائهم استبياناً هذه أسئلته الرئيسة: أين تتسوق؟ وبأي لغة تتسوق؟ وكانوا يحترمون في استقصائهم أن يكون عدد الرجال مساوياً لعدد النساء، وأن يأخذوا بالتساوي عمّن هم دون الثلاثين من العمر، وعمّن هم بعد الثلاثين. سمح لنا هذا العمل بتبيُّن ميل واضح: بروز ثلاث لغات ناشرة تفرض نفسها بشكل جلي؛ ولكن الحضور الإحصائي لكل واحدة منها يختلف اختلافاً كبيراً من حي لآخر: فالناس يتكلمون اللنغالية، لغة الشمال المنتشرة في أسواق شمال المدينة، والمونوكوتوبية واللارية في أسواق الجنوب. أما اللغة الرسمية للدولة، وهي الفرنسية، فتظهر خصوصاً في الهضبة المسماة: «15 سنة» (Quinze ans)، وقد سميت بذلك لأن الأفارقة المجندين في الجيش الاستعماري الفرنسي كانوا يستقرون فيها عند التقاعد بعد 15 سنةً من الخدمة، لأن راتبهم التقاعدي كان يسمح لهم ببناء بيت فيها يفوق البيوت المتوسطة مرتبة وبذخاً. وكان هؤلاء يستخدمون الفرنسية عموماً في مخاطباتهم لأنهم لم يكونوا بالضرورة من الكونغوليين، ولم يكونوا بالضرورة يتكلمون لغات الكونغو.

هاكم النسب المئوية للإجابات التي جمعت في أربعة أسواق في المدينة على السؤال الآتي: بأي لغةٍ تتسوق؟

لا تعتمد هذه الأرقام إلا على استقصاء أولي من 300 استبيانٍ تقريباً، ولكنها مع ذلك، تقدم عدداً من التوجهات الواضحة:

ـ إن وضع التبادل الذي فرضته الهجرة المستمرة نحو المدينة، فضلاً عن التعدد اللغوي للكونغو قد طرح مشكلة التواصل التي وجدت لها حلاًّ في ظهور لغاتٍ منتشرة، أو في تأكيد موقع هذه اللغات. إحدى هذه اللغات، وهي اللنغالية، حاضرة حضوراً قوياً بين السكان المنحدرين من الشمال، بينما يبدو أن المونوكوتوبية تكسب المزيد من المواقع بين السكان المنحدرين من الجنوب في مواجهة لغة الحظوة المنتشرة عند الجماعات نفسها، وهي لغة اللاري. هذا يعني أن هناك قدراً من الحصر في اختيار لغة النشر. أما اللغة «الثانية» المستخدمة فمرهونة إلى حد ما بالأصول الجغرافية للسكان.

سوق بوتو بوتو	
لينغالية	65,56 في المئة
لينغالية ومونوكوتوبية	17,24 في المئة
فرنسية	10 في المئة
لينغالية وفرنسية ومونوكوتوبية	3,5 في المئة
لارية	3,5 في المئة

سوق مونغالي	
لينغالية	30,36 في المئة
مونوكوتوبية	25 في المئة
لينغالية ومونوكوتوبية	16 في المئة
لينغالية وفرنسية ومونوكوتوبية	8,9 في المئة
لينغالية وفرنسية	5,3 في المئة
لينغالية ولارية	5,3 في المئة
لارية	3,5 في المئة
لارية، لينغالية ومونوكوتوبية	1,7 في المئة
لارية ومونوكوتوبية	1,7 في المئة
فرنسية	1,7 في المئة

سوق هضبة 15 سنة	
مونوكوتوبية	26,3 في المئة
فرنسية	15,7 في المئة
لينغالية	15,7 في المئة
مونوكوتوبية	15,7 في المئة
لارية ومونوكوتوبية	10,5 في المئة
لارية	10,5 في المئة
لينغالية، فرنسية ومونوكوتوبية	5,5 في المئة

سوق باكونغو	
لارية	57,8 في المئة
مونوكوتوبية	20,3 في المئة
لارية ومونوكوتوبية	12,5 في المئة
فرنسية	3,1 في المئة
فرنسية، لارية ومونوكوتوبية	1,5 في المئة
لارية وفرنسية	1,5 في المئة
لينغالية ومونوكوتوبية	1,5 في المئة

- اللغات الأول في المقابل غائبة في السوق. ولا ريب في أن هذه اللغات تستخدم في المنازل، في وظيفة حاصرة ولكنها لا تستخدم في المبادلات التجارية.

- والأمر كذلك بالنسبة للفرنسية التي هي اللغة الرسمية، باستثناء هضبة الـ 15 سنة. غير أن للأصل الاجتماعي هنا غلبة على الأصل الجغرافي، وليس للمتخاطبين فيها لغة أفريقية مشتركة. ولذلك تقوم الفرنسية جزئياً بوظيفة لغة النشر، كما تقوم بهذه الوظيفة اللينغالية والمونوكوتوبية.

السوق الصغيرة في نيامي (النيجر)

في تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر عام 1983 حين دعينا إلى التدريس في جامعة نيامي، قمنا مع طلبتنا باستقصاء من النوع المذكور سابقاً؛ ولكنه استقصاءٌ يزاوج بين نوعين من المقاربات؛ فقد قمنا فيه، كما قمنا في كانتون، بمراقبة المحادثات في السوق، وقمنا فيه أيضاً، كما قمنا في برازافيل، باستقصاء عن طريق الاستبيان.

شهدت نيامي في السنوات الأخيرة، على غرار برازافيل وعددٍ كبير من المدن الأفريقية، توسعاً متسارعاً تشهد عليه الأرقام الآتية:

السنة	عدد السكان	المصدر
1908	2887	سيديكو (10)
1931	2168	برنوس (11)
1941	4895	برنوس
1950	12000	سيديكو
1953	15000	برنوس
1960	34500	برنوس
1967	57000	سيديكو
1975	195874	سيديكو
1977	225314	إحصاء

(10) A. H. Sidikou, «Niamey: Etude de géographie socio-urbaine,» (Thèse pour le doctorat, université de Rouen haute-Normandie, 1980), 2 vols.

(11) Suzanne Bernus, *Particularismes ethniques en milieu urbain, l'exemple de Niamey*, mémoires de l'institut d'ethnologie; 1 (Paris: Musée de l'homme, institut d'éthnologie, 1969).

تطور التشكل السكاني للمدينة تطوراً كبيراً منذ إنشائها في القرن الماضي. ولئن كانت «المدينة الحالية الناشئة عن خمسة أحياء أصلية موزعةً توزيعاً عرقياً عشائرياً، كما يقول سيديكو، هي: ماوريه (Maourey)، وغانداتييه ـ كواراتيغي (Gandatié- Koiratégui)، وكاليه (Kalley) (الذي يضم كاليه زرما (Kalley-Zarma) وكاليه ـ بل (Kalley- Peul) (فولانكوارا) (Foulankoira)، وغاوييه (Gaweye)، وزونغو[12] (Zongo)، فإنه لم يعد هناك مِن مطابقة بين الحي والعرق واللغة (كما يمكن أن يتوهَّم من خلال اسم فولاكوارا[*]، وهو حي كان في الأصل للبل، ويسكنه اليوم الناطقون بالزرما والهاوسا، وغيرهم). سبب هذا التحول أن الهجرة كانت رافداً لسكان المدينة. ويشرح سيديكو أن 54,6 في المئة من العينة التي اعتمد عليها في استقصائه ليسوا من مواليد نيامي[13]. ويظهر استقصاء لـ ج. يانكو أن 31 في المئة من المتخاطبين بلغة الزرما القاطنين في نيامي قد ولدوا فيها، والأمر كذلك لـ 6 في المئة من المتخاطبين بالهاوسا[14]. وتشير العيِنة التي اعتمدنا عليها إلى أن 82,5 في المئة منهم ليسوا من مواليد نيامي.

اللغات المستخدمة في الأسواق: الإجابات على الاستبيان							
	السوق الصغيرة	واداتا	الضفة اليمنى	يانتالا	السوق الجديدة	المجموع	النسبة المئوية التقريبية
زرما	9	7	3		3	22	14,5
هاوسا وزرما	36	19	2	6	3	66	42,5

(12) Sidikou, Ibid., p. 233.

(*) كذا في الأصل بهجاءين مختلفَين: «فولانكوارا» و«فولاكوارا».

(13) المصدر نفسه، ص 361.

(14) J. Yanco, *Niamey, une communauté bilingue*, non publié (Niamey: [s. n.], 1983).

هاوسا	11	9			1	21	14,5
هاوسا وفرنسية وزرما	4	3	1			8	5,8
فرنسية وزرما وبامبارا	1	1				2	(*)
زرما وهاوسا وفرنسية	9	6	2			17	11,2
زرما وهاوسا وبامبارا	1	1				2	(**)

المدينة إذاً مكان هام للمزج العرقي واللغوي (فقد وجدنا في عينتنا ما يقرب من خمس عشرة لغة مختلفة). وكان استقصاؤنا يهدف إلى معرفة لغات التواصل في الأسواق. ولهذا اخترنا بأن نقوم في استقصائنا بتوزيع استبيانٍ من جهة، وبالملاحظة في سوق في وسط المدينة تدعى «السوق الصغيرة» (بالمقارنة مع «السوق الكبيرة» التي احترفت قبل سنوات عديدة من ذلك) من جهة أخرى. وقد أعطت هاتان المقاربتان النتائج الآتية:

نلاحظ هنا أن معظم اللغات الأول (البل، والكانورية، والكوتوكولية، والووبيه، والغورمانتشيه، وغيرها) تختفي في الإجابات لمصلحة لغتين تغلبان غلبة كبيرة هما الهاوسا والزرما (اللتين يمكن أن نضيف إليهما السوناي، وهي بديل لهجي). إليكم الآن نتيجة ملاحظاتنا في سوق مخصوصة، هي السوق الصغيرة:

(*) يخلو الجدول في هذا المكان من تحديد النسبة المئوية، وهو أما أن يكون سهواً، وإما لأن النسبة قليلة لا يُعتَدُّ بها.

(**) انظر الهامش السابق.

السوق الصغيرة ملاحظات حول 213 محاورة								
	نداء	تجارة	نقاش	مجموع	في المئة	بائع - بائع	بائع - شار	شارٍ - شار
زرما	11	45	32	88	41,3	12	68	8
هاوسا	16	31	16	63	29,5	11	47	5
فرنسية	6	12	5	23	10,7	22	1	
هاوسا/ زرما	2	12	8	22	10,3	3	16	3
فرنسية/ هاوسا	3	5	1	9	4,2	1	8	
فرنسية/ زرما		1		1	0,4		1	
بول		2		2	0,8		2	
إيويه (Ewe)		1					1	1
ولف			1	1		1		
غورمانتشيه (Gourmantché)			1	1				1
يوروبا (Yoruba)			1	1				1
فانغ (Fang)			1	1				1
بول/ هاوسا		1		1			1	
مجموع	38	109	66			28	165	20

يمثل هذا الجدول مجمل ملاحظاتنا، فإننا نجد في الخط الأفقي منه عدد المحاورات في لغة معينة موزعةً على ثلاثة أنواع (هي نداء الزبائن، أو المبادلات التجارية، أو النقاشات غير التجارية) من جهة، وعلى ثلاثة أنماط (هي المحاورة بين الباعة، والمحاورة بين البائع والمشتري، والمحاورة بين المشترين) من جهة ثانية.

إنِ اعتبرنا نتائج هاتين المقاربتين فإننا نلاحظ ما يلي:

- هناك غلبة واضحة للهاوسا والزرما لغتين للسوق.

- تستخدم بعض اللغات الأوَل في وظيفة حصرية بين الباعة (الولف) أو بين المشترين (الغورمانتشيه واليوروبا والفانغ).

في المقابل لا تتطابق نتائج الاستقصاءين المتعلقة باللغتين الأساسيتين:

	استقصاء عن طريق الاستبيان		استقصاء عن طريق الملاحظة
	عام	في السوق الصغيرة	في السوق الصغيرة
هاوسا	14,5 في المئة	14,2 في المئة	29,5 في المئة
زرما	14,5 في المئة	11,6 في المئة	41,3 في المئة
هاوسا وزرما	42,5 في المئة	46,7 في المئة	10,3 في المئة

تعود هذه الفروق إلى أن المدخل المعتمد «هاوسا وزرما» لا يحمل المعنى نفسه في الاستقصاءين؛ فالناس الذين يجيبون في الاستبيان بأنهم يستخدمون هاتين اللغتين في السوق يعنون بذلك أنهم يستخدمون واحدة منهما تختلف باختلاف التاجر. أما في الاستقصاء الذي هو عن طريق الملاحظة فإننا نعني به محاورة ثنائية اللغة (أي ما يسمى في المصطلح اللساني بـ «تبديل الشفرة»(*). ولذلك فإن النقص الذي نلاحظه في السطر الأخير بالانتقال من 46,7 في المئة إلى 10,3 في المئة تعوضه الزيادة في السطرين السابقين.

بيد أن ملاحظة المحاورات تظهر أن الزرما أكثر استخداماً من الهاوسا، فيما يشير الاستبيان إلى المساواة بين اللغتين؛ فهناك إذاً فرق جلي بين **ما يقول الناس إنهم يفعلونه وبين ما يفعلونه في الواقع.**

كل المختصين يعرفون أن استقصاءً عن طريق الاستبيان لا

(*) يُعنى بتبديل الشّفرةِ انتقال المتكلم من شِفرة إلى شِفْرة أومن لغة إلى لغة في أثناء الخطاب كأنْ يخلط بين العربية والفرنسية والإنجليزية في العبارة الواحدة، على غرار الأغنية التي تخلطُ، على سبيل السخرية، كلمةً إنجليزيةً بكلمة عربية بكلمة فرنسية في عبارة واحدة للتحيّة: هايْ، كيفك، سافا؟ أي «مرحباً»، «كيف حالك؟»، «هل أنت على ما يرام؟».

يستطيع قياس الممارسة الحقيقية للناس، بل يقيس الصورة التي يتخيلها هؤلاء الناس لممارستهم. ومن الواضح أننا حين نستطيع المقارنة بين الطريقتين فإننا نمتلك مادة تحليل مهم للمواقف اللغوية.

الزرما في نيامي، لغة محلية. وهي بهذا المعنى، لغة قطيع حاصرة تقوم بدورٍ لغة نشرٍ في الوقت نفسه. أما الهاوسا فلغة قادمةً من مكان آخر. وهي لغة واسعة الانتشار في نيجيريا، ويزداد انتشارها ازدياداً كبيراً في النيجر عن طريق تجارٍ أغنياء، وتتمتعُ بنوع من الحُظوة فيها؛ فليس من المستغرب إذاً أن يحاول عدد من الذين استقصيت مواقفهم المبالغة في إظهار كفاءتهم في هذه اللغة، وتكثير المناسبات التي يقولون إنهم يستخدمونها فيها: أهناك طريقة أمثل في إعلاء المنزلة من أن يزعم المسؤول في مثل هذا النمط من الاستبيان أنه يتحدث لغة هي نفسها لغة عالية المنزلة؟ تدخل هذه الفرضية التفسيرية عاملاً من نمط نفسي في صراع اللغات الذي تشكل السوق ساحته: فهناك من جهة، ديناميكية للغات أخذناها في الحسبان في أرقامنا، وهناك من جهة أخرى، علاقة (عاطفية، نفسية... إلخ) بين المتخاطبين ولغاتهم تأخذها في الحسبان الفروق بين الأرقام في الاستقصاءين اللذين قمنا بهما.

السوق وإدارة التعدد اللغوي

نستطيع أن نكثر الأمثلة بتقديم استقصاءات أخرى في باماكو (مالي)، أو في زيغينشور (السنغال)[15]، ولكنها قد لا تقدم

---

(15) انظر بشكل خاص: Calvet, *Les Langues du marché*,

وانظر كذلك: Louis -Jean Calvet: «Mehrsprachige Märkte und Vehicularsprachen: Geld und Sprache,» *OBST*, no. 31 (1985), and «Trade = Function and Lingua Francas,» in: *The Fergusonian Impact: in Honor of Charles*

عناصر جديدة؛ ففي كانتون، وبرازافيل، ونيامي، رغم تباعدها، نقاطٌ مشتركة مهمة. منها أولاً أن التعدُّد اللغوي يولِّد مشكلةً في التواصل. وفي كل مرة تتعايش فيها لغتان أو أكثر من لغتين في جماعة بشرية يتوجب على أفراد الجماعة أن يبحثوا عن سبيل لـ **إدارة الخلاف اللغوي** في علاقاتهم. وتشكل السوق نقطة لقاء أخرى في جميع الاستقصاءات التي قمنا بها، إذ يقدم لنا النشاط الاقتصادي صورة جيدة عن الحلول التي تعتمدها الممارسة الاجتماعية لانتشار اللغة في أوضاع التعدد اللغوي. في مواجهة **العوائق اللغوية للتواصل** ترينا السوق كيف يتواصل الناس في ما بينهم رغم كل شيء. يبقى سؤال آخر: **لِمَ** يستخدمون هذه اللغة دون تلك في إدارة تعددهم اللغوي؟ فتقاسم النفوذ في برازافيل المقسمة إلى «منطقتين لغويتين»، والهيمنة المطلقة للبامبارا في باماكو، والثنائية اللغوية في نيامي أو في كانتون دلائل على موازين القوى بين الجماعات البشرية التي تتكلم هذه اللغات. في السوق (وفي غير السوق في ميادين الحياة الاجتماعية، وإنما ذكرنا السوق مثالاً مناسباً) إدارةٌ للتعدد اللغوي؛ ولكنَّ فيه أيضاً حرباً بين اللغات تشهد عليها هذه الإدارة. إذ ليس غريباً أن تتظاهر بائعة في سوق بوتو بوتو في برازافيل بأنها لم تفهم إن طرحنا عليها السؤال عن ثمن السمك المدخَّن بلغة اللاري. وليس غريباً أن ترفع الثمن بصورة جنونية: إنّه رفضٌ للبيع يشهد على رفض لغة الآخر. ومن هذه الناحية تعمل السوق كاشفاً كما تكشف آلة

A. Ferguson on the Occasion of his 65th Birthday, Contributions to the Sociology = of Language; 42, 2 vols., Edited by Joshua A. Fishman... [et al.] (Berlin; New York: Mouton de Gruyter, 1986), vol. 2: *Sociolinguistics and the Sociology of Language*.

التصوير «الفوتوغرافي»، لأنها تسرِّع كشف موازين القوى بين الجماعات اللغوية.

يعرف المسافرون أن هناك عملات في العالم مرغوبة أكثر من غيرها؛ فالتجار يفضلون غالباً أن تدفع لهم بالدولار، أو بالفرنك، أو بالمارك على أن تدفع لهم بالعملة المحلية. والأمر على هذا في اللغات؛ إذ يحبِّذ المتخاطبون أو يرفضون هذه اللغة أو تلك، سواء أكانت لغةً حاصرة أم لغة ناشرة، لأسباب تتعلق بالحظوة أو بالحقد. فهناك ما يشبه «بورصة اللغات». غير أن سوق اللغات يبيِّن لنا شيئاً آخر: في المثال الأفريقي الذي قدمناه في بداية هذا الفصل عن مبادلة التجارِ العرب بضائعهم مقابل التِّبر في غرب أفريقيا يجري التبادل التجاري دون نقدٍ ودون لغة. وتدلنا أمثلةٌ تاريخية عديدة على أن المقايضة في غالب الأحيان نشاطٌ **أخرس**. هاكم على سبيل المثال وصفاً للمقايضة في البيرو، في جبال الأنديز، يُظهِر ميزات هذه الظاهرة:

«امرأةٌ جالسة في ساحة السوق أمام كوم من البضاعة (فواكه أو أشياء أخرى مشابهة). تقترب منها امرأة أخرى، ثم تقرفص وتخرج حبوباً من الذرة تصنع منها كومةً، فتعلن بعملها هذا أنها ترغب في مقايضة هذا الكوم من الذرة بما عند البائعة. غير أن البائعة لا تحرك ساكناً، فتجبِر المشترية على زيادة كوم الذرة. ويستمر الأمر حتى الوصول إلى التكافؤ. حينذاك تظهر البائعة رضاها بأخذ كوم الذرة. ولا ينطق بكلمة واحدة في أثناء العملية»[16].

غير أن ظهور النَّقد أوجب استخدام اللغة، لأن عليك أن تتكلم

(16) E. Mayer cité par: Ibico Rojas Rojas, *La expansión del quechua: sus primeros contactos con el castellano* (Lima: Ediciones Signo, 1978), pp. 65-66.

لتطلب الثمن، ولتساوم فيه. أما نظام الحد الأدنى الذي رأيناه في سوق كانتون فنظام محدود جداً في إمكانات التواصل. ولا يعني هذا أبداً أن الناس الذين كانوا يقايضون لا يتكلمون، وإنما يعني بكل بساطة أنهم لم يكونوا بحاجة إلى الكلام من أجل إتمام المقايضة: في السوق حرك النَّقد اللسان. وحين كانت السوق متعددة اللغات كان على النشاط التجاري أن يواجه أشكالاً متعددة من اللغات الحاصرة واللغات الناشرة عند الحاجة. ظاهرة النَّشرِ اللغوية التي نخصص لها الفصل التالي نوعٌ من الجواب على تحدي بابل. ولئن كانت السوق لا تنتج، بالمعنى الحقيقي للكلمة، لغات نشرٍ فإنها، كما رأينا، عاملٌ محفِّزٌ في بروزها.

الفصل الثامن

ظاهرة النشر اللغوية

كنا ذكَّرنا بهذا الوهم الشائع الذي يرى العالم مقسّماً بصورة متقابلة إلى بلدان وإلى لغات تطابِق فيه الحدود اللغوية حدود الدولة وحدود الوطن. هذا وهم لأنه لا يكاد يوجد بلد أحادي اللغة، ولا تكاد توجد لغة، على العكس من ذلك، محصورةً في حدودِ بلدٍ واحد. رأينا إذاً[1] أن الإنسان كان في مواجهة عالم متعدد اللغات. وبينت لنا الاستقصاءات التي عرضناها في الفصل السابق كيف يدير الإنسان التعدد اللغوي في الممارسة الاجتماعية؛ فقد وجدنا من خلال أمثلة شديدة الاختلاف كمثالي كانتون وبرازافيل، عاملين لهما قيمة عامة شاملة:

- بروز حل لمشاكل التواصل قائم على النشر اللغوي

- وجودُ موازاةٍ دقيقة بين بنية النشر الواسعة القائمة في السوق والحركات الاجتماعية الكبرى في المجتمع.

هذا الحل القائم على النشرِ اللغوي وعلاقاته بالمجتمع هو ما

---

(1) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ندرسه الآن منطلقين من المثال الذي تقدّمه لغة نحاول أن نعيد بناء تاريخها لغةً ناشرةً لنستخرج منها بعد ذلك العوامل الكبرى في التوسُّع.

مثال الكيشوا

الكيشوا لغة يتكلم بها ما يقرب من عشرة ملايين هندي في ستة من بلدان أمريكا اللاتينية: في البيرو وبوليفيا والإكوادور بصورة منتظمة، وفي كولومبيا والشيلي والأرجنتين بصورة أقل. ويتوزع الناطقون بها بصورة أساسية على امتداد جبال الأنديز مع عدد من الجيوب في أمازونيا الاستوائية حيث يثير وجودها مشكلة تاريخية[2]. إن محور انتشارِ هذه اللغة ووجودها لغة غالبة في القرن السادس عشر عند وصول الإسبان إلى كوزكو، عاصمة الإنكا، دفع طويلاً إلى الاعتقاد بأن أصل هذه اللغة من هذه المنطقة نفسها، وإلى أنها قد انتشرت من هناك في باقي منطقة جبال الأنديز.

أثبت ألفريد توريرو (Alfred Torero)، وهو لساني من البيرو، خطأَ هذه الفرضية، واقترحَ إعادةَ تأسيسٍ لتاريخ هذه اللغة اعتماداً على مقاربةٍ لسانية (هي تاريخُ تفَرُّعِ اللّغاتِ الذي وضعه موريس سواديش)، وعلى مقاربةٍ تاريخية (باستعمال الأرشيف المكتوب)، ومقاربةٍ من علم الحفريات (ولا سيما استخدام التأريخ بواسطة الكربون 14). وترى إعادةُ التأسيس هذه أنَّ أصلَ هذه اللغةِ قد يكون من الساحل من المنطقة الحالية لمدينة ليما، حيث كانت في أواخر القرن العاشر في مواجهة الآرو (Aru)، (وهي جماعة لغوية تضم اللغات الحالية: أيمارا (Aymara) وهَكارو (Haqaru)، وكوكوي (Cauqui) والبوكوينا (Puquina). وربما كانت العلاقات الاقتصادية بين الساحل وسلسلة الجبالِ محركاً دفع هذه اللغات إلى التوسع في

اتجاه جبال الأنديز. وربما استخدمت إمبراطورية إينكا، بين القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، لغة الكيشوا لغة تواصل عامةً في المناطق التي تسيطر عليها(3). ذاك، على الأقل، هو الوضع الذي وجده الإسبان الأوائل. ولا نعدم شهاداتٍ مكتوبةً على هذه المرحلة التي نبدأ منها عرضنا لتوسع لغة الكيشوا.

في عام 1575 أصدر نائبُ الملك، توليدو (Toledo) مرسوماً بتعيين غونزالو هولغين (Gonzalo Holguin) مترجماً بين «الكيشوا والأيمارا والبوكوينا، وهي اللغات التي يستخدمها عموماً هنود ممالك البيرو ومقاطعاتها». وفي 1586 يشير نص مكتوب في لاباز، عاصمة بوليفيا الحالية، إلى أنَّ «جميع الهنود في هذه المقاطعة وهذه المدينة يتكلمون اللغة العامة المسماة أيمارا، ولكن كثيرين منهم يتكلمون ويفهمون أيضاً لغة الكيشوا التي هي اللغة العامة في إينكا. وفي هذه المنطقة أيضاً لغة خاصة أخرى في بعض القرى تدعى البيكوِينا». وفي عام 1599 يطلب أسقف كويزو من اليسوعيين استنطاق المرشحين للرهبنة بلغات الكيشوا والأيمارا والبيكوينا «لأن هذه اللغات مستخدمة في مناطق عديدة من الأسقفية»(4).

يؤكد عدد من الرحّالة وضع التعدد اللغوي هذا، ولا سيما بيدرو دو سييزا دو ليون (Pedro de Cieza de Léon) (1518 ـ 1560)

---

(2) انـظـر: P. Muysken, *Pidginization in the Quechua of the Lowlands of Eastern Ecuador* (Amsterdam: Instituto interandino de desarrollo, Universidad de Amsterdam, 1975).

(3) A. Torero, «Linguistica e historia de los Andes del Peru Y Bolivia,» in: Alberto Escobar, *El reto del multilingüismo en el Perú* ([Lima]: Instituto de Estudios Peruanos, 1972).

(4) المصدر نفسه، ص 52 - 58.

الذي سافر من 1541 ـ 1550 بين كولومبيا الحالية والبيرو الحالي، والذي يصف في كتابيه *La Cronica del Peru* و*El senorio de los Incas* شعوباً تتكلم بلغاتها «الخاصة»، وباللغة «العامة»، الكيشوا، في إقليم كوزكو. وهكذا فإن المستعمرين الإسبان وجدوا إمبراطوريةً في إينكا يتكلم سكانها الهنود لغاتٍ محليةً متنوعة هي لغاتهم «الخاصة» في مصطلحات نصوص تلك المرحلة، ويتكلمون حسب المنطقة، لغةً «عامة» أو لغتين «عامتين» ـ الكيشوا والأيمارا ـ ويتَّخذون الكيشوا بصفة خاصة، لغة الإدارة: «بما أن السفر كان مهمةً عسيرة جداً على أرض بهذا الاتساع حيث في كل مكان وفي كل معبر لغةٌ جديدة. وقد اختاروا الحل الأضمن فأمروا جميع سكان الإمبراطورية بمعرفة لغة كوزكو وفهمها»[5].

ابتداءً من ذلك التاريخ، سوف يصبح التاريخ اللغوي لمنطقة الأنديز تاريخاً استعمارياً تحدده الخيارات الإسبانية في مجالات الإدارة والتعليم والدين. وسوف تحوم الشكوك حول مستقبل لغة الكيشوا لغةً «عامة» ولغةً ناشرة: كانت لغة الإدارة في إمبراطورية إينكا، وكانت مستخدمةً في وسط الشيلي ومن الشمال الشرقي من الأرجنتين إلى الأكوادور وإلى كولومبيا، ولكنه كان من الممكن مع ذلك أن تندثر باندثار إمبراطورية إينكا لأنها قطِعت عن وظيفتها الأساسية، مفسحةً المجال أمام ازدواجية لغوية: الإسبانية من جهة، واللغات «الخاصة» من جهة أخرى. وكان يمكن لهذه اللغات الخاصة أن تكون البوكوينا أو الأيمارا أو لهجةً من لهجات الكيشوا أو لغةً هندية أخرى. غير أن الجنود الأسبان كانوا أقلَّ من أن يستطيعوا

---

(5) Pedro de Cieza de León, *El Señío de los Incas; 2a. parte de la Crónica del Perú*, Introd. de Carlos Aranibar (Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1967), p. 84.

المصدر المذكور هو طبعة جديدة لمخطوط القرن السادس عشر.

محاولة فرض لغتهم على السكان الأصليين، فوجدوا في الكيشوا، اللغة الناشرة، أداةً حاضرةً للفتح ولتهدئة إمبراطورية إينكا[6]. كان التواصل بالطبع، يجري عن طريق التراجمة المدربين على اللغة الإسبانية. وكان مقدراً أن يؤديَ استئناف الممارسة اللغوية بالكيشوا في إمبراطورية إينكا إلى تعزيزِ استخدام هذه اللغةِ العامة في المرحلة الأولى. غير أن السلطة الإسبانية من مقرها البعيد في شبه الجزيرة الإيبيرية، لم تكن تنظر إلى الأمور بهذا المنظار، فاتخذ الإمبراطور شارل الأول قراراً: «بعد أن نظرنا إن كانت اللغات الهندية، حتى أكثر اللغات الهندية كمالاً ـ قادرةً على التعبير عن إيماننا الكاثوليكي المقدّس، ووجدنا ذلك محالاً». ويعلّق توريرو قائلاً: «كانت نية الإمبراطور الحقيقية بلا شك، أن ينشر اللغة الإسبانية في المستعمرات الأمريكية، كما نشر الرومان اللاتينية في القسم الأعظم من ممالكهم الأوروبية»[7].

في الواقع، لم يكن المستعمرون الإسبان الذين جاؤوا منذ نهاية القرن السادس عشر لتعزيز الفاتحين الأوائل، يبدون أي اهتمام باللغات الهندية التي كان الرهبان وحدهم، ولا سيما اليسوعيون منهم، يتعلمونها. وكانت إدارة نائب الملك تستخدم تراجمةً في العلاقة مع الهنود الذين أُسكنوا في قرى جديدة لتسهل مراقبتهم وجباية الضرائب منهم. وقد قررت السلطة المستعمرة محو آثار الثقافة الماضية، فدمّرت مراكز الإدارة والعبادة (هواكاس[*] Huacas)،

(6) Alfredo Torero, *El quechua y la historia social andina* (Lima: Universidad Ricardo Palma, Dirección Universitaria de Investigación, 1974), p. 181.

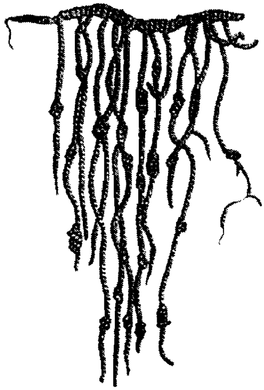
(7) المصدر نفسه، ص 184-185.

(*) الهُواكاس بيوت على شكل أهرامات متدرجة كانت تستخدم مقرات لإدارة الدولة، أو مراكز للعبادة تُقدَّمُ فيها القرابين للآلهة.

والقبور الهندية، والمومياء التي كانت فيها، وأحرقت أدوات العدّ والإحصاء (Quipus)، ومنعَت الرقص التقليدي. وطبَعت في موازاة ذلك كتبَ التعليم الديني المسيحي بلغة الكيشوا الواسعة الانتشار، وبلغة الأيمارا(*).

في هذه الفترة، في أواخر القرن السادس عشر، كانت ثلاث لغات هي الكيشوا والأيمارا والبوكوينا لا تزال مستخدمةً في إدارات الدولة للإشراف على السكان الهنود. غير أن لغة البوكوينا ما لبثت أن خرجت من الاستعمال لغةً ناشرة «ربما لجنوحها اللهجي الأقصى، أو لتناقصٍ سريع في عدد المتخاطبين بها»[8]. وقد خسرت الأيمارا أيضاً من نفوذها، ولم يعد لها في « كوزكو» سوى أثرٍ باق في أصوات الكيشوا المحلية وفي معجمها. وشيئاً فشيئاً، سوف تزول آثار إمبراطورية إينكا، ويزول تنظيمها الذي اعتبره بعضهم تنظيماً «اشتراكياً

(*) الكيبوس التي تعني «الإحصاء» في لغة الكيشوا، حبالٌ متعددة الألوان فيها سلسلة من العُقَد تدلّ بحسب عددها وطولها ولونها على قيمة حسابية معيَّنة، وكانت الإدارة في إمبراطورية إينْكا تستخدمها في عمليات الإحصاء المتعلّقة بالاقتصاد وبالمجتمع. وهذه صورة لها:



(8) المصدر نفسه، ص 189.

بدائياً». ومن المفارقة أن تكون الكيشوا، لغة النشر، أداةً في تدمير المجتمع الذي كان قائماً قبل وصول الإسبان، على امتداد جبال الأنديز؛ فقد انقسم الهنودُ في قرنٍ واحد إلى مجموعاتٍ صغيرة تسهُل السيطرة عليها، فيما كانت لغة الكيشوا تستفيد من السياسة الإسبانية.

يعلّق توريرو على هذا الواقع بمرارة، فيقول: «يمكن للتاج ولرجال الدين أن يشعروا بالرضى، فلم تعد ثمة حاجة لحملة كبيرة جديدة للتبشير بالدين المسيحي، لأنه لم يعد في مواجهة الأمة الغريبة الغنية القوية سوى «أمة هندية» واحدة حصرت في الريف، وأُفقرت، وخنقت اجتماعياً وثقافياً. لقد حصل الإسبان على **التوحيد النهائي** إذ توحدت «الأمة الهندية» وطبقة العبيد في كتلة واحدة يختلط فيها الهيمنة الاستعمارية، والاستبداد الوطني، والاستغلال الاجتماعي»[9].

لم تعد الكيشوا إذاً تهم السلطة التي سوف تنتقل في أواخر القرن السابع عشر إلى مرحلة فرض اللغة الإسبانية التي لم يكن حظها من النجاح واحداً في كل مكان. وقد تحوَّل السهل الساحلي سريعاً إلى الإسبانية، فيما ظلت الغلبة للكيشوا والأيمارا في الداخل. ولم يغيِّر استقلال الدول هذا الوضع كثيراً؛ ولذلك نجد لغتين تتصارعان اليوم: الإسبانية، لغة السلطة ولغة البرجوازية الخليط من جهة، والكيشوا (وفي بعض المناطق الأيمارا)، لغة الهنود من جهة أخرى. هكذا نرى أن لغةً قادمةً من الساحل لغة نشرٍ للإدارة (في إمبراطورية إينكا) وهي الكيشوا التي استخدمها التاج الإنجليزي في هذه الوظيفة أيضاً لمدة من الزمان قبل أن يستغني عنها، قد أصبحت

(9) المصدر نفسه، ص 198.

بعد قرون لغةً وحيدة يذوب فيها عددٌ من اللغات «الخاصة» منتشرةً على مساحة واسعة من الأرض على امتداد سلسلة جبال الأنديز، ورمزاً وحيداً «للأصالة الهندية» في مواجهة الثقافة الاستعمارية. وقد لاحظنا في استقصاء قمنا به لدى الجماعة الهندية في الإكوادور عن الشعور اللغوي عند هذه الجماعة، أنَّ المتخاطبين كانوا يعلنون تمسكهم بلغتهم، الكيشوا، لأنها لغة أتاهويالبا (Atahualpa) (آخر إمبراطور في إينكا قتله بيزارو عام 1533). وهذا التمسك بالكيشوا تمسك عاطفي وإيديولوجيّ بالأثر (اللغوي) للحظةٍ من لحظات مقاومة اللغة الغازية. ومن سخريات القدر أن يكون هذا الأثر اللغوي نفسه، أي الكيشوا، لغةً قادمةً هي الأخرى من مكان آخر.

ماذا سيكون مصير الكيشوا؟ أنهى لساني بوليفي هو كزافيِيه ألبو (Xavier Albo) دراسةً عن مدينة كوشابامبا بالنتيجة المتشائمة الآتية: «يمكن أن يُتوقع بسهولة أن الكيشوا سوف تتراجع تراجعاً بطيئاً أمام اللغة الإسبانية. لكن من الصعب جداً أن نتوقَّع عدد السنوات، أو العقود أو القرون اللازمة لكي لا تعود الكيشوا لغة قطاعٍ هام من السكان»[10]. الأكيد هو أنه حين يلتقي اليوم في السوق مزارِع لغته الكيشوا مع زبون لغته الإسبانية، فإن المحاورة بينهما غالباً ما تجري بالإسبانية[11]: لقد صارت اللغة الناشرة في الجهة الأخرى.

---

(10) Xavier Albó *Los mil rostros del quechua: sociolinguística de Cochabamba*, Serie Lengua y sociedad; 1 (Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1974), p. 228.

(11) هذا على الأقل ما لاحظناه في استقصاءات أوَّليّة (لم تُنشَر) قمنا بها في الإكوادور في أسواق ساكيسيلي (Sakisili) وأوتافالو (Otavalo) في جبال الأنديز، وفي أسواق بَوِيُو (Puyo) في أمازونيا.

أُخِذت الكيشوا هنا على سبيل التمثيل. وكان يمكن أن يؤخذ مكانها أكثر من خمس عشرة لغة نشر أخرى في العالم. وفي الكتاب الذي خصَّصته لهذه المسألة دراسات أخرى(12). بيد أن مثال الكيشوا كما رأيناه، يسمح لنا بإعداد قائمة بالعوامل التي تقوم بدور في بروز لغة النشر وتوسعها، ولا نحتاج إلى الإشارة إلى حالات أخرى إلا في سبيل توضيح عدد من المسائل.

العامل الجغرافي

رأينا أن الكيشوا قد انتشرت لغةً ثانيةً في البداية، ثم لغةً أولى على محور الشمال ـ الجنوب على طول الممر بين مناطق جبال الأنديز المعروفة بالمنطقة الأنديزية(*)، ويحدُّها من الغرب السهول الساحلية الخصبة التي يحتلها المستعمرون، ومن الشرق قمم جبال الأنديز التي تشكل من جبل أكونكاغوا (وارتفاعه 7021 م) في الأرجنتين إلى جبل شمبورازو (6310 م) أو إلى جبل كوتوباكسي (5896 م) في الإكوادور حاجزاً منيعاً يصعب اختراقه. صحيح أن جماعةً صغيرةً من الكيشوا موجودة في أمازونيا، في مقاطعة نابو، ولكنها استثناء؛ فالمتحدثون بالكيشوا ينتشرون في غالبيتهم العظمى في شريط عرضه يقارب مئة كيلومتر، وطوله يتجاوز ألفي كيلومتر.

انتشرت كل لغات النشر في ظروف مماثلة؛ فقد انتشرت اللغة

---

(12) Louis-Jean Calvet, *Les Langues véhiculaires*, que sais-je?; 1916 (Paris: Presses universitaires de France, 1981).

(*) هي المنطقة الغربية في أمريكا اللاتينية، وتضم منظمةُ البلدان الأنديزية أو الأنديـنية أربعَ دول أعضاء هي البيرو والإكوادور وكولومبيا وبوليفيا، وخمسَ دولٍ مشارِكة هي البرازيل والأرجنتين والباراغواي والأوروغواي وتشيلي.

اللينغالية لغة نشر على امتداد نهر الكونغو، وأصبحت لغة سانغو لغة نشر في أفريقيا الوسطى على امتداد نهر أوبانغي، وأصبحت الماليَّة لغة نشر في أندونيسيا بانتقالها من مرفأ إلى مرفأ آخر، وبهذا الانتقال بين المرافئ أيضاً تكوّنت لغة مشتركة في كل البحر الأبيض المتوسط في القرون الوسطى. ومن مرفأ إلى مرفأ على امتداد الساحل أصبحت اللغة السواحلية (التي جاء اسمها من لفظة «السواحل» العربية) أولاً لغة البحَّارة، ثمّ اخترقت أفريقيا من الشرق إلى الغرب. . . إلخ.

يحدد العامل الجغرافي إذاً شكل توسع اللغات التي حين تنتشر يكون انتشارها على امتداد الخطوط الطبيعية التي تتجنب العوائق. وهذا أمرٌ بدهي. لكن الظروف الجغرافية يمكن أن تكون أيضاً مصدر توسّع النشر اللغوي، أو أن تحفز هذه الوظيفة حين يستدعي تقسيمٌ طبيعي للأرض (كما هو حال الأرخبيل مثلاً) أو للأعراق أداةً مشتركةً للتواصل. تعتبر ميلانيزيا نموذجاً مثالياً لهذه الحال؛ ففي مجموعة الجزر هذه (غينيا الجديدة، وجزر سالومون، وأرخبيل بسمارك، وجزر تروبريان) التي يخترقها ما يقرب من ألف لغة، أربع لغات نشرٍ (هيري موتو، والميلانيزية الجديدة، واللغة الخليط لجزر سالومون، وبيشلامار) تحل مشكلة التواصل التي خلقتها الظروف الجغرافية.

العامل الحضري

تربط الخطوط الطبيعية غالباً بين المدن أو المرافئ أو الأسواق. وتتحول المدينة إلى مضخة تسرِّع حركة اللغات المتوسعة. لقد رأينا مثلاً كيف كانت «كوزكو»، عاصمة إمبراطورية الإينكا التي كانت الأيمارا لغتها على الأرجح، نقطة انطلاقٍ لنشر لغة الكيشوا، وهي اللغة «العامة» الإدارية. وتبدو الأمور أكثر وضوحاً في السنغال، في المناطق التي ليست لغة الوُلُف فيها اللغةَ المحلية؛ فإننا نرى في هذه

المناطق أن عدد الذين يتحدثون في مركز الولاية بلغة العاصمة، وهي اللغة المنتشرة، يصل إلى أربعة أضعاف، أو خمسة أضعاف الذين يتحدثون بهذه اللغة نفسها في جميع أنحاء الولاية باستثناء المركز. وهذا ما يظهره الجدول الآتي.

نسبة المتحدثين بالوُلف	
في المدينة	في مجمل الولاية
مدينة زيغينشور 80,04	ولاية زيغينشور 17,33
مدينة بودور 80	ولاية بودور 12,75
مدينة شديو 40,72	ولاية شديو 9,33
مدينة بنيونا 37,15	ولاية بنيونا 6,75
مدينة كولدا 27,81	ولاية كولدا 5
. . .إلخ(13)	

يمكن إعادة هذا الدور الذي تقوم به المدينة في نشر اللغة إلى أسباب عديدة: فالمدينة أولاً مركز التجمُّع الإداري، والموظفون الذين يدفعهم عملهم إلى التنقُّل في البلد أكثر تعلّماً للغات المنتشرة من الريفيين الذين لا يغادرون قراهم. والمدينة فوق ذلك، مركزٌ اقتصادي. وقد رأينا في الفصل السابع أهمية الأسواق في بروز اللغات الناشرة، وهو ما يقودنا بالطبع إلى العامل التالي.

العامل الاقتصادي

المحاور الطبيعية التي أشرنا إليها في أثناء حديثنا عن العامل

(13) François Wioland et Maurice Calvet, «L'Expansion du wolof au Sénégal,» *Bulletin de L'IFAN* (*Institut fondamental de l'afrique noire*), nos. 3-4 (1967).

الجغرافي خطوط نقلٍ للتبادل التجاري: فالطريق والنهر والمرفأ أماكن لعبور التجار الذين ينقلون معهم لغات التبادل التجاري فضلاً عن بضائعهم. وقد انتقلت الكيشوا التي كانت في أول الأمر لغة الحديث في السهول الساحلية للبيرو إلى جبال الأنديز عبر المبادلات التجارية بين الساحل والجبل. كما أن اللغة السواحلية التي كانت في الأصل لغة زنجبار، ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً بازدهار التجارة في الجزيرة.

بين عامي 1832 و1834 دخلت إحدى وأربعون سفينة أجنبية ميناء زنجبار، بينما استقبل هذا الميناء في عام 1856 وحدَه 89 سفينة معظمها قادم من أمريكا؛ ذلك أن التجارة قد تطورت فيها بشكل كبير: استيراد الملبوسات القطنية من ماساشوستس، وتصدير القرنفل والعاج. وقد أوجب ذلك البحث عن العاج في داخل القارة، ومن أماكن تزداد بعداً شيئاً فشيئاً، وكان توسّع اللغة السواحلية يتبع طريق القوافل بالتحديد. وعلى غرار هذا كان توسّع الماندينغ في أفريقيا الغربية مرتبطاً في البداية بتبادل تجارة الملح والذهب، ومرتبطاً بانتقال تجار «جولا»[14] بصفة عامة. وفي كل الحالات تقتضي العلاقات التجارية التواصل اللغوي. وحين لا توجد لغة مشتركة، تفرِض لغة نشر نفسها.

العامل الديني

كانت مسألة اللغة التي ينبغي استخدامها للتبشير بالدين

(14) انظر على سبيل المثال: Louis-Jean Calvet: «La Route sel/ or et l'expansion du manding,» *Traces*, no. 4 (1980), and «The Spread of Mandingo: Military, Commercial and Colonial Influence on a Linguistic Datum,» in: Robert L. Cooper, ed., *Language Spread: Studies in Diffusion and Social Change* (Bloomington: Indiana University Press; Washington, D. C.: Center for Applied Linguistics, 1982).

المسيحي واحدةً من المسائل التي طرَحها المستعمرون الإسبان على أنفسهم في القرن السادس عشر. ولم يكن استخدام لغة الكيشوا في التبشير غريباً عن ازدهار هذه اللغة رغم التعليمات الصادرة في إسبانيا [بعدم قدرة أي من لغات الهنود على نشر التعاليم المسيحية المقدسة]؛ فالعلاقة بين الكثلكة ولغة الكيشوا هنا وليدة الصدفة، بينما ترتبط بعض الأديان ارتباطاً مباشراً بلغةٍ من اللغات، ولا سيما حين يكون للدينِ نص مؤسِّس، أي كتاب مقدّس. حينئذ ينعكس تقدم الدين تقدماً في اللغة. كان هذا واقع اللاتينية والكثلكة لفترة طويلة، ولا يزال هذا واقع السنسكريتية والهندوسية. وأوضح من هذين المثالين معاً واقع العربية والإسلام. في موازاة توسّع هذه اللغات وهذه الأديان، قد نشهد أحياناً توسّعاً وانتشاراً للكتابة: فالأبجدية العربية مستخدمة في البلدان الإسلامية غيرِ الناطقة بالعربية، كما تستخدم الأبجدية السيريليكية حيث تنتشر الأرثوذكسية... إلخ.

لا شكّ في أن اللغة المعنية هنا لغة العلم والأدب. غير أن اللاتينية ظلت طويلاً في أوروبا لغة نشر مشتركةً بين المثقفين. وفي أيامنا أصبحت العبرية لغةً وطنيةً في إسرائيل تستخدم لغة نشرٍ مشترَكة للمهاجرين القادمين من مختلف بلدان العالم.

العامل العسكري

من الطبيعي أن يُعدَّنا عنوان الكتاب: **حرب اللغات** لدراسة العلاقات بين التوسّع العسكري وتوسّع لغات النشر. ويبيِّن لنا احتلالُ الإسبان لأمريكا اللاتينية بصورة نموذجية، العلاقات بين التقدّم العسكري ومستقبل اللغة الإسبانية. ويقوم الجيش أيضاً، بكونه مؤسَّسة، بدور لا يستهان به في تاريخ اللغات الناشرة؛ فالبامبارا على سبيل المثال، وهي اللغة الناشرة في غرب أفريقيا، كانت لغة قائد

الجيوش الاستعمارية الفرنسية في أفريقيا، وكان للجيش كتابٌ رسمي لتعلُّمها[15]. كما أن اللنغالية الآن لغة الجيش الزائيري، وكانت السواحلية لغةً تستخدمها الجيوش الاستعمارية الإنجليزية.

العامل السياسي

إن تردد الإسبان في مواجهة قضية اللغات التي أشرنا إليها في الحديث عن العامل الديني تثير ما نسميه في أيامنا بـ «السياسة اللغوية». وغالباً ما ترتبط الخيارات السياسية بمصائر اللغات الناشرة؛ فقد أدت السياسة اللغوية الألمانية أولاً والبريطانية ثانياً، إلى تعزيز توسّع اللغة السواحلية في شرق أفريقيا على سبيل المثال، وعززت خيارات الحزب الوطني الأندونيسي موقع اللغة الماليزية في أندونيسيا... إلخ. وستكون هذه الخيارات، ومسائل التخطيط والسياسات اللغوية موضوع الباب الثالث من هذا الكتاب، وسنعود إليها مطولاً فيه.

ومع ذلك فإنهم يتواصلون في ما بينهم

«Eppur' si muove»: ومع ذلك فإنها تتحرك: قالها غاليليه بصوتٍ منخفض مؤكِّداً اعتقاده بحركة الأرض حين ألزمته محكمة التفتيش بالتراجع عن أفكار كوبرنيكوس [بدوران الأرض حول الشمس]. ونستطيع بدورنا أن نقول في مواجهة تعدد اللغات في العالم، وفي مواجهة الصعوبات الناجمة عن ذلك: «ومع ذلك فإنهم يتواصلون»؛ ذلك أن ظاهرة اللغة الناشرة تبيِّن لنا أنه في كل مكان تظهر فيه مشكلة في التواصل، تتولى الممارسة الاجتماعية حل هذه

(15) Francis Pierre Louis Marie Delaforge (Capitaine), *Grammaire et méthode Bambara*... (Paris: Charles-Lavauzelle, [n. d.]).

المشكلة، **فالتواصل قائمٌ رغم تعدد اللغات**. وتشكل اللغات الناشرة مواجهةً حيةً على الأرض لتحدي [أسطورة] بابل.

غير أن كل توسّع لغوي يجري على حساب لغات أخرى. وبروز لغةٍ ناشرة إنما هو نوعٌ من المبارزة في مجال اللغة. إن عوامل التوسّع التي عرضناها، والتي قد تجتمع في ما بينها حسب الأوضاع لتسهم في تاريخ لغة ناشرة، تؤثر لغةً على لغات أخرى، وتسهم في إقامة تراتبية في وظائف كل واحدة منها. ومن المفيد أن نلاحظ في هذا الصدد أنه يندر أن تجد لغة نشرٍ في العالم لا يكون الناطقون بها إلا في بلدٍ واحد؛ فلغات النشر عابرة للحدود، تنتشر على مساحات شاسعة من الأراضي بخلاف لغة القطيع، أي اللغة الحاصرة التي تظل غالباً محصورةً في منطقة، وربما في قرية. يمكن لما قرّرناه هنا أن يقدِّم التفسير الآتي: كلما ازدادت رقعة انتشار اللغة اتساعاً ازدادت قدرتها على أن تفرض نفسها لغة نشرٍ في مواجهة اللغات الحاصرة.

يثير هذا التفسير مسألةً في التصنيف: كيف نعلل إذاً التمييز القائم بين **لغة ناشرة ولغة دولية؟** فالكيشوا التي يتداولها الناس كما ذكرنا، في ستة بلدان من أمريكا اللاتينية، والهاوسا المنتشرة في النيجر ونيجيريا، والسواحلية في تنزانيا وكينيا وبوروندي وزائير . . . إلخ، لغات دوليةٌ بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأن كل واحدة منها تستخدم لغة نشر بين الأمم. **في قاموس روبير**، على سبيل المثال، تعريف ممتاز، وهو أن لغة النشر «لغة تستخدم للتواصل بين شعوبٍ لكل واحدٍ منها لغة أم مختلفة عن لغة الآخر»، وتعني الصفة «دولي»: ما «يخص علاقات الأمم في ما بينها». بهذا المعنى، يبدو واضحاً أن اللغة الناشرة لغة دولية.

ومع ذلك، يقدم بيار بورني (Pierre Burney) في كتيب مخصص للغات الدولية، قائمةً بـ «اللغات الوطنية المرشحة للعالميّة»

فضلاً عن الفرنسية والإنجليزية والإسبانية والروسية والصينية والألمانية والعربية[16]. ويكتب رالف فاسولد في علم اللسان الاجتماعي للمجتمع قائلاً إن اللغات الدولية تشكِّل «قائمة قصيرة من اللغات، معظمها أوروبي: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والألمانية، وربما تضاف إليها الصينية الماندرانية ولغة أخرى أو لغتان أخريان»[17]. يبدو المؤلفان متفقين إذاً في تحديد اللغات الدولية، مع خلاف بسيط في واحدة منها، وهي العربية. ولكننا نلاحظ أنهما لا يذكران الكيشوا، ولا السواحلية، ولا الماندينغية، ولا الماليزية، ولا اللنغالية. وكان يمكن أن نتابع التعداد، ولكننا تجاوزنا «اللغة الأخرى أو اللغتين الأخريين» اللذين أشار إليهما فاسولد. ويبدو أن التمييز بين لغة نشر ولغة دولية يعيدنا إلى المبارزة بين اللغات التي تحدثنا عنها أعلاه، فضلاً عن كونه نزعةً عصبية أوروبيةً.

نستطيع إذاً في مرحلة أولى، أن نرى في هذا التمييز بين لغة نشر ولغة دولية أثراً إضافياً من آثار التعصب العرقي في اللسانيات: تتواصل الأمم الأوروبية في ما بينها بلغات دولية، بينما تتواصل بلدان العالم الثالث بلغات ناشرة. بعبارةٍ أخرى، يتحدث عامة الشعب بلغات ناشرة، ويتحدث «المجتمع المخملي» (Jet Society) بلغات دولية.

ونجد هنا خصوصاً التمييز بين الحق والواقع: فاللغات التي يستخدمها أبناء الشعوب استخداماً حياً على الأرض لغات نشرٍ لحل مشاكل التواصل في ما بينهم، لا ترقى إلى مستوى اللغات الدولية

(16) Pierre Burney, *Les Langues internationales*, que sais-je?; 968, 2è édition (Paris: Presses universitaires de France, 1966), p. 60.

(17) Ralph Fasold, *The Sociolinguistics of Society*, Language in Society; 5 (Oxford; England; New York, NY, USA: B. Blackwell, 1984), p. 76.

الشريفة التي تُصْنَع في المختبَرات، إلا حين يقرر ذلك بصورة شرعية (في الأمم المتحدة، أو في اليونيسكو... إلخ). من جهة، ساحة المعركة التي نسعى لوصفها في هذا الباب الثاني، ومن جهة أخرى هيئة الأركان التي نصفها في الباب الثالث. اللغات الناشرة في الجهة الأولى، على الأرض، وينبغي عليها أن تمر إلى الجهة الأخرى، عبر مكاتب [هيئات الأركان]، لتصبح لغاتٍ دولية.

الفصل التاسع

موت اللغات

لا يستغرب أحد فكرة «موت اللغات»؛ ففي المعجم العام ذكرٌ لـ «اللغة الميتة» التي يعرِّفها القاموس الفني كالآتي: «لغة لم يعد الناس يتحدثون بها، ولكن موقعها في جماعة اجتماعية ثقافية قد يسمح أحياناً بأن يكون لها دورٌ في التعليم، وفي الطقوس والاحتفالات، وغير ذلك. مثالها اللاتينية»[1]. ويعطي قاموس **ليتري** (*Littré*) منها مثالين هما اللاتينية والعبرية بعد أن عرّف اللغات الميتة بأنها «اللغات التي لم تعد موجودةً إلا في الكتب». وفي وقت قريب منا يقول قاموس **روبير**: «اللغات الميتة: التي لم يعد الناس يتحدثون بها» دون أن يقدّم أمثلةً عليها، ولكنه في المقابل يذكر الإغريقية واللاتينية في مدخل اللغات الكلاسيكية.

يمكن أن نتساءل، في هذه المرحلة من البحث، عن سبب ورود اللاتينية هنا لغةً ميتة، وعن ورودها لغة كلاسيكية هناك. ولكن هذا التساؤل لا يفضي بنا إلى نتائج مهمةٍ لأنه لا تناقض بين هذين

---

(1) Jean Dubois, [et al.], *Dictionnaire de linguistique* (Paris: Larousse, 1972), p. 326.

التصنيفين؛ **فالأمثلة الوحيدة للغات الميتة التي نجدها في القواميس تعتبر في الوقت نفسه، لغاتٍ كلاسيكية**. والتعريف الذي يقدمه قاموس **ليتري** («اللغات التي لم تعد موجودة إلا في الكتب») هو الأكثر تمثيلاً لهذه النظرة لأنه يذكر أمرين في وقت واحد: اللغة الميتة لغة **مكتوبة**، أي إنها كانت مكتوبةً «في زمانها» وربما لا تزال مكتوبةً في زماننا، واللغة الميتة لغة **ما عاد يتحدَّث بها**. أي بعبارة أخرى، إن بين العدد الكبير من اللغات التي كان الناس يتحدثون بها عبر التاريخ، وما عادوا يتحدثون بها، **لغاتٍ ميتةً، ولغات مندثرةً** ليست في المرتبة نفسها: فاللاتينية، أو الإغريقية، أو العربية الفصحى (الكلاسيكية)، أو السنسكريتية لغاتٌ أكثر حظوةً من اللغات التي كان أجدادنا على سبيل المثال، يتحدثون بها أيام استعمار الرومان لهم، والتي لم تترك أدباً، والتي لم ترتبط بدين... إلخ. هذه على الأقل، خلاصة النظرة التي يبدو أن المعنى العام يقدمها لهذه المسألة.

نحن نتحدث بلغات ميتة

من المفارقة أن هذه اللغات التي تعتبر رسمياً لغاتٍ ميتةً لا يزال الناس يتحدثون بها ويكتبون بها في أيامنا، ولكن بأشكالٍ قد يستغربها المتخاطبون الأوائل. وأنا أتحدث باللاتينية حين أعطي درساً في اللسانيات في جامعة السوربون، أو حين أشتري علبة السجائر من أحد أكشاك بيع التبغ على ناصية الشارع. ويتحدث باللاتينية الزبون الذي يطلب طبقاً من «سدِّ الحنك»(*) (Tapas) في إحدى الحانات الصينية في برشلونة، وصياد السمك الذي يبيع

(*) Tapas: كلمة إسبانية تعني المُشَهِّيات الشائعة في المطبخ الإسباني، والتي تُقدَّم في الحانات بكميات قليلة إلى جانب كأس من النبيذ.

سمك المورة على الشاطئ في البرتغال، والمومس التي تسعى إلى غواية زبون في شوارع نابولي. سيقول بعضهم بالطبع إن أربع لغات، هي لغات فرنسا وكتالونيا والبرتغال ونابولي، تستخدم في هذه الأوضاع المختلفة. وليس مخطئاً من يؤكد الاختلاف بين هذه الأشكال الأربعة على الأقل. ولكن هذا لا يغير شيئاً في أن الفرنسية والإسبانية **من اللاتينية**، ولكنها لاتينية حرَّفها استعمالٌ شعبي طوال خمسة عشر قرناً، وحناجِر تعودت على أصواتٍ مغايرة، وتكيفت مع عادات نحوية أخرى. إنها لاتينيةٌ هجينة مالت إلى العامية، وكثر فيها الدخيل المقترض من لغات أخرى حتى لم تعد تعرف. ولكنها تبقى لاتينية رغم كل ذلك. اللغات التي يقول القاموس إنها ماتت لا تزال حيةً، ونحن نتحدث بها في كل يوم: فالعاميات العربية التي يتحدث بها الناس في شوارع فاس أو تونس هي امتدادٌ مباشرٌ للعربية الفصحى (الكلاسيكية)، والإغريقية الأكثر حداثةً امتداد للإغريقية القديمة.

بيد أنه من الثابت أن التواصل سيكون صعباً إن تحدثت باللاتينية إلى جاري، أو بالعربية الفصحى إلى فلاح تونسي. والقول بأن فرنسياً أو أفغانياً أو تشيكياً أو رجلاً من شعبِ (الغال) يتحدث باللغة الهندية ـ الأوروبية حين يتحدث اليوم قول يظل على مستوى النظرية؛ إذ ينبغي في الواقع تصور «عمليةٍ متطورةٍ تمتد من فجر التاريخ إلى أيامنا»، على حد قول أندريه مارتينه[2]، وهي عملية تشتت الناس في أثنائها على مساحات شاسعة من الأرض، في محورٍ أصلي من الشرق إلى الغرب، متحدثين في البداية أشكالاً محليةً

(2) André Martinet, *Des Steppes aux océans: L'Indo-européen et les «indo-européens»*, langages et sociétés (Paris: Payot, 1986), p. 13.

مشتقةً من اللغة نفسها. وكانت هذه الأشكال تتحول من جيلٍ إلى جيل وشيئاً فشيئاً بمقدار البعد عن نقطة البداية، وبمقدار الالتقاء بلغات أخرى. ولئن كانت اللاتينية في غضون عشرين قرناً وفي مساحة جغرافية محدودة نسبياً، قد تطورت متأثرة بالزمان وباللغات التي التقت بها، فأعطت أشكالاً كبيرة الاختلاف كالفرنسية والرومانية والبرتغالية، فلنا أن نتخيل الحجم الذي يمكن أن تصل إليه هذه العملية على مدى أربعين قرناً، وعلى مساحة من الأرض تفوق هذه المساحة عشر مرات.

اللاتينية إذاً لغة **ميتة**، بمعنى إننا لا نستخدمها بالشكل الذي كان يستخدمها عليه يوليوس قيصر. ولكنها **حية** بمعنى أنها تمتد عبر اللغات الرومانية التي ظل المتخاطبون فيها سنواتٍ طوالاً يظنون أنهم يتحدثون باللاتينية حتى تبين لهم بعد ذلك أن اللغة التي يتحدثون بها لم يعد لها كبير صلةٍ لا بما كتبه قيصر، ولا بما يتحدث به سكان مناطق أخرى من المفترض أنهم، هم أيضاً، يتحدثون باللاتينية. هو ذا مثال جيِّد على ما نقول إنه مثال «القسم في ستراسبورغ» الذي تحدثنا عنه في الفصل الخامس: في العمود الأيمن من الجدول، النصف الأول من النص ترجمه إلى اللاتينية الكلاسيكية ف. برونو[3]، وفي الوسط النص الأصلي مصفى من مختصراته ومن أخطاء فواصله، وفي العمود الأيسر النص بالفرنسية الحديثة:

(3) Ferdinand Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900* (Paris: A. Colin, 1905-), tome I: *De L'Epoque latine à la renaissance*, 1905, p. 144.

<table>
<tr>
<td>Pour l'amour de Dieu et pour le salut commun du peuple chrétien et le nôtre, à partir de ce jour, autant que Dieu m'en donne le savoir et le pouvoir, je soutiendrai mon frère Charles de mon aide et en toute chose, comme on doit justement soutenir son frère, à condition qu'il m'en fasse autant, et je ne prendrai jamais aucun arrangement avec Lothaire, qui à ma volonté soit au détriment de mondit frère Charles</td>
<td>Pro deo amur et pro christian poblo et nostro commun saluament, d' ist di in avant in quant Deus savir et podir me dunat, si salvarai eo cist meon fradre Karlo, et in aiudha et in cadhuna cosa, si cum om per dreit son fradre salver deit, enço que il mi altresi fazet, et ab Ludher nul plait onques ne prendrai, qui mien vueil cest mien frere Charlon en dam seit</td>
<td>Per Del amoremet per christiani populi et nostrum commu - nem salutem. ab hac die, quantum Deus scire et posse mihi dat, servabo hunc meum fratrem Caro- lum. et ope mea et un quacumque re, ut quilibet fratrem suum servare jure debet, dummodo mihi idem faciat, et cum Clotario nullam unquam pactionem faciam, quae mea voluntate huic meo fratri Carlo damno sit</td>
</tr>
<tr>
<td colspan="3">حرفياً: من أجل محبة الله، ومن أجل خلاص الشعب المسيحي وشعبنا، فإنني ابتداء من هذا اليوم، سأساند أخي شارل ما أعطاني الله العلم والقدرة، وأقدم له العون في كل شيء كما ينبغي على المرء أن يساند أخاه شرط أن يعاملني بالمثل، ولن أعقد أبداً أي اتفاق مع لوثر يمكن أن يكون بإرادتي على حساب أخي شارل.</td>
</tr>
</table>

لا ريب في أن القارئ الفرنسي غير المتخصص يجد صعوبةً في فهم العمود الأوسط [أي النص الأصلي] من دون مساعدة العمود الأيسر [باللغة الفرنسية الحديثة]. ولا ريب في أن يوليوس قيصر ما كان لِيفهم هذا العمود الأوسط نفسه لو استطعنا أن نعرضه عليه. غير أن من الثابت أن بين النصوص الثلاثة، أو على الأقل، بين اللغات الثلاث التي يشهد عليها، نوعاً من الاستمرار: اللاتينية لم تمت، فما زلنا نتحدث بها.

اندثار اللغات

لكن ما الذي يمكن أن نقوله عن اللغات التي حلّت اللاتينية محلها، والتي ليست لدينا حتى الآن فكرة دقيقة عنها، وهي اللغات

التي كانت مستخدمةً في شبه الجزيرة الإيبيرية، أو في بلاد «الغول» (Gaule)، أو في رومانيا الحالية قبل الفتح الروماني؟ إنها بالطبع لغات **ميتة** إن عنينا بذلك أنها لم تعد مستخدمةً الآن. غير أن موتها ليس شبيهاً بموت اللاتينية، لأن هذه اللغات المندثرة لم تكد تترك أثراً سوى طبقات سفلى تميز مختلف اللغات الرومانية. أما في الحال الثانية، فإن موت اللغة ليس اندثاراً، بل هو مجرد تحول، كما حدث في اللاتينية.

هناك إذاً ثلاثة أنواع من الغياب تميز اللغة:

ـ الغياب **بالتحول**. يحدث هذا النوع من الغياب في كل مرة يتطور فيها الشكل اللغوي، ويتمايز جغرافياً في أثناء توسع الشعب الذي يتحدث به ليولد عائلةً من اللغات، كما هو الحال في اللغات الرومانية. مثال اللاتينية كما قلنا مشابه نوعياً لمثال الهندية ـ الأوروبية التي غابت بالتحول في فترة زمنية أطول بكثير. وهو أيضاً مشابه نوعياً لمثال العربية الفصحى التي تحولت في فترة قصيرة من الزمان إلى عدد من «اللهجات» الحديثة.

ـ الغياب **بالانقراض**. يكون هذا النوع من الغياب حين يموت آخر المتخاطبين بلغةٍ من اللغات من دون أن يترك عقِباً يخلفه. كان في بداية الثمانينيات في أمازونيا المدارية، في مقاطعة نابو (Napo)، شيخٌ هرم مع زوجه العجوز، وكانا يتكلمان لغةً هي الـ «تت» (Tete)، ولم يكن ممكناً إلا أن تنقرض هذه اللغة بموتهما. هذا الغياب بالانقراض الذي ينتج عن غياب جماعة من المتخاطبين، لا يحدث لمصلحة لغة أخرى بالتحول أو بالاستبدال.

ـ الغياب **بالاستبدال**. يحدث في كل مرة تغيب فيها لغة مغلوبة تهيمن عليها لغة غالبة. هذه الحال الثالثة مناظرةٌ للحال الأولى،

فتحوُّل اللاتينية إلى هذه اللغة أو تلك من اللغات الرومانية يعني بالضرورة غياب اللغات التي كانت مستخدمة سابقاً قبل اللاتينية.

نرى إذاً أنه لا ينبغي الخلط بين اللغات، والشعوب والأعراق، فالناس الذين يتكلمون اليوم لغةً هندية ـ أوروبية ليسوا بالضرورة من «عِرق» هندي ـ أوروبي، هذا إن كان لهذا المفهوم من معنى، كما أن المتكلمين بالفرنسية ليسوا من اللاتين. ونرى في السياق نفسه أن هناك أغلبيةً كبيرة من سكان المغرب العربي من أصل بربري، ولكن لسانهم عربي: في حال الغياب بالاستبدال لا تكون الحركة اللغوية رديفاً لحركة السكان كما هو الحال في مثال الشيخ الهرِم وزوجه العجوز، وهو المثال الذي سقناه في حديثنا عن لغة الـ «تت» التي غابت بالانقراض. والأمر كذلك في الأسرة المتعددة اللغات التي درسناها في الفصل السادس حين تحدثنا عن الأطفال الذين لم تعد لغتهم الأولى لغة أحد آبائهم، وإنما اللغة المهيمنة في المجتمع المحيط بهم (كما هو حال الوُلُف في السنغال)، إذ لا يتناقص عدد السكان من البّل (Peule)، أو من السيرير (Sérère)، بل يتناقص عدد المتكلمين بهذه اللغة أو بتلك. قد يبدو هذا التمييز ملتبساً، ولكن المشكلة تكمن في معرفة ما إن كانت اللغة هي المعيار (أو واحداً من المعايير) في تحديد هوية شعبٍ من الشعوب أو أمةٍ من الأمم. إن النقاش في هذا الموضوع لا يعنينا إلا بصورة غير مباشرة. بيد أن علينا أن نشير إلى أن وجود أمة صينية لا يتطابق بالضرورة مع استخدام هذه اللغة أو تلك، وإلى أن امتلاك أمريكي جواز سفرٍ من الولايات المتحدة الأمريكية لا يعني أن تكون اللغة الإنجليزية لغته الأولى، وإلى أن كون مواطنٍ ما سنغالياً لا يدلنا في شيء على اللغة أو على اللغات التي يتكلمها.

استبدال لغة بأخرى يمكن أن يكون استبدالاً **بالتناوب** حين تتغير اللغة في جيل من الأجيال (كأن يتحدث ابن البْل أو ابن السيرير

بالوُلُف). ولكنه يمكن أيضاً أن يكون استبدالاً **مستمراً** حين تذوب لغةٌ من اللغات المغلوبة بعد عملية طويلة بطيئة في لغة غالبة. ونسمي هذا النوع من الاستبدال المستمر استبدالاً **بالامتصاص** .لا يكاد يوجد بين أيدينا شهادة تاريخيةٌ على مراحل هذا النمط من العمليات؛ فاللسانيات التاريخية تقدِّم لنا وصفاً جيداً لتحوُّل اللغة اللاتينية إلى الفرنسية أو إلى الكتالونية عن طريق القوانين الصوتية، وعن طريق بِلى أواخرِ الكلمات الذي يستتبع سقوط العلامات الإعرابية، وبالنتيجة حصول تحوُّلات نحوية... إلخ. غير أن اللسانيات التاريخية لا تبيّن لنا جيداً كيف تحولت لغات الشعوب التي غلبها الرومان بتأثير اللاتينية حتى ذابت فيها: وهذا يعني إننا لا نستطيع بسهولة أن نكون شهوداً مباشرين على موت لغة من اللغات.

من هنا يكتسب المثال الآتي أهميته، لأنه يعطي عدداً من الأَمارات والدلائل على عملية الاستبدال المستمر بامتصاص لغة للغةٍ أخرى.

الكيشوا في كوشابامبا

ذكرنا في الفصل السابق اللساني البوليفي كزافييه ألبو الذي كان يتساءل عن مستقبل لغة الكيشوا في منطقة الكوشابامبا: كم سنةً، أو عقداً أو قرناً ستمضي قبل أن تسقط هذه اللغة أمام اللغة الإسبانية؟ كان السؤال مجرد سؤالٍ نظري؛ فليس أكيداً أن الكيشوا لن تستطيع المقاومة. غير أن عملاً جامعياً يعطينا عدداً من الدلائل المهمة عن هذا الوضع، وهو العمل الذي قامت به إليزابيث ميشنو التي درست آثار الاحتكاك بين لغة الكيشوا في الكوشابامبا واللغة الرسمية[4].

(4) Elisabeth Michenot, «Parler-pouvoir: Etudes des caractéristiques du =

تصِف إليزابيث ميشنو شكلين من أشكال الكيشوا، ولكنهما ليسا شكلين جامدين مفترقين، بل اتجاهين تترجح اللغة بينهما، تسمي الأول كيشوا 1 (ك1)، وهو اتجاه يستخدمه المزارعون الأحاديو اللغة عادةً في الأرياف، وتسمي الثاني كيشوا 2 (ك2) وهو اتجاهٌ يستخدمه أهل المدن ولا سيما التجار منهم، وهو لغة الإدارة والإذاعة. ويمكن أن يقال عن الشكل الأول إنه الشكل الأكثر «صفاء» لأن الثاني قد اقترض كثيراً من الإسبانية.

لكن، في مقابل هذا الحُكم اللغوي يعتبر الشكل الثاني من الناحية الاجتماعية أعلى قيمة، وهو يعلي من شأن المتكلمين به لأن أصحابَه من ذوي الحظوة. ما العلاقة بين هذين الشكلين؟ هذا ما سنعرضه انطلاقاً من قضيتين بسيطتين هما نظام الصوائت، وبنية الجملة.

في الكيشوا عادةً ثلاثة صوائت هي الكسرة والضمة والفتحة، وهو ما يشكل مثلثاً يمثل تقليدياً على الصورة الآتية:

i u
a

غير أن لهذه الصوائت نوعاً مما يُسمّى بـ «حقل التشتت»، أي إنها يمكن أن تتحقق صوتياً بطرقٍ مختلفة، فيمكن للكسرة أن تتحقق على شكل [e]، وللضمة أن تتحقق على شكل [o]. وهكذا يمكن أن تتحقق كلمة [urqu] التي تعني «التلّة» على شكل [orqo]، وكلمة [qulqi] التي تعني «المال» و«الفضة» على شكل [qolqi] . . . إلخ.

quechua et des conséquences de la situation de contact avec la langue officielle: = Cochabamba, Bolivie,» (Thèse de 3è cycle sous la direction de D. François. Paris: Université René Descartes, 1983).

في الشكل الأول من اللغة (ك1)، وهو الشكل المستخدم عند المزارعين، يدخل هذان الصوتان [e] و[o]، اللذان ليسا وحدتين صوتيتين، أي فونيمين، بل بديلين صوتيين، يدخلان في نزاع مع الوحدتين الصوتيتين /e/ و/o/ الموجودتين في الكلمات المقترضة من الإسبانية، مما يخلق نوعاً من **التذبذب**. مثال ذلك: الكلمة الإسبانية [uniko] التي تتحقق على شكل /oneko/ ، والكلمة الإسبانية [peso] التي تتحقق على شكل /piso/ أو /pesu/ أو /pisu/ . . . إلخ.

في المقابل، يتضمن الشكل الثاني (ك2) المستخدم في المدينة والمتأثر بالإسبانية، مثلثاً من خمسة صوائت:

i u
e o
a

تظهر الصوائت [e] و[o] في الكلمات المقترضة من الإسبانية وفي الكلمات الأصيلة في الكيشوا على حد سواء. وهكذا يكون عندنا /mesa/ للكلمة الإسبانية [mesa] التي تعني «الطاولة»، و/perqa/ لكلمة الكيشوا التي تعني «الحائط»، والتي تتحقق في مكان آخر /pirqa/. وبذلك يكون نظام الأصوات الإسباني قد أثَّر في نظام الكيشوا، وأسهم في إعادة تنظيمه.

على المستوى النحوي، يتميز النمط الأكثر تواتراً في الشكل الأول (ك1) (الذي تسميه إليزابيث ميشلو «النمط المفضَّل») بجمل قصيرة نسبياً يكون الفعل في آخرها، بينما الاتجاه الغالب في الشكل الثاني (ك2) عبارات من نمط طويل واستخدام لعلاقات التبعية والموصولات. . . إلخ.

ك 1: 80 في المئة أفعال	3 ـ 4 كلمات في العبارة في نهاية العبارة
ك 2: 25 ـ 30 في المئة أفعال	7 ـ 10 كلمات في العبارة في نهاية العبارة

وهكذا فإن المعنى الواحد يعبر عنه بجملة واحدة في ك2 وبأربع جمل في ك1. ويمكن أن يُمثَّل لهذه المقابلة بين ك1 وك2 بالعبارات التقريبية الآتية:

ك2: إن شئت أن تعطي لبقرتك هذا العَلَفَ الذي عالجته

ليتخلص من المرض فعليك أن تنتظر مرور ثلاثة أسابيع.

ك1: لقد عالجت العَلَفَ من هذا المرض.

تريد أن تُطعم بقرتك.

لا تُعطها هذا العلف.

عليك أن تنتظر ثلاثة أسابيع من أجل ذلك[5].

يلاحَظ في ك2 نوعٌ من دخول بطيء للإسبانية في الكيشوا ـ وهذا شأن كل تداخل بين نظامين ـ وليس هذا على مستوى مفردات المعجم فحسب (اقتراض)، بل على المستويين الفونولوجي والنحوي أيضاً. ولكن علينا أن نضيف مباشرة أننا نشهد الثنائية نفسها في الإسبانية أيضاً؛ فهناك الإسبانية الشعبية المتأثرة بالكيشوا من جهة، والإسبانية المهذَّبة الأقرب إلى النموذج الإيبيري من جهة أخرى. تعتبر الإسبانية الشعبية المسماة بـ «إسبانية الأنديز» إسبانيةً يستخدمها عموماً مَن يتحدَّث بـ الكيشوا لغةً أولى. ولكن الكاتبة تشير إلى أن هذا النموذج من الإسبانية الشعبية ينتشر شيئاً فشيئاً بين أبناء الطبقات الفقيرة لغةً أولى، ولذلك فهي تقترح علاقة متوازية بين اللغتين تمثل لها بالرسم الآتي:

(5) المصدر نفسه، ص 253-255.

كيشوا 1 = إسبانية شعبية

كيشوا 2 = إسبانية مهذَّبة[6].

تتوقف إليزابيث ميشلو عند هذا الحد. وليس لها في نهاية المطاف إلا أمنيةٌ في أن تستطيع الكيشوا مقاومة الإسبانية. ولكننا نود من جهتنا أن نشير إلى أنه إن كان لدينا في الحالين شكلٌ لغويٌ غالب اجتماعياً و«شرعي» لأن النخبة تستخدمه (الكيشوا 2 والإسبانية المهذبة)، فإن فارقاً مهماً يفصل ما بين هذين الزوجين؛ فالشرعي في الإسبانية هو الشكل اللغوي الأكثر صفاءً، والأقل تأثراً بلغة الكيشوا. أما «الشرعي» في لغة الكيشوا فهو، على العكس من ذلك، الشكل اللغوي الأكثر تأثراً بالإسبانية. يمكن أن نتخيل إذاً أن الفوارق بين الكيشوا 2 والإسبانية الشعبية، أي الإسبانية الأنديزية، سوف تتناقص، وأنه إن كانت الكيشوا مهددةً بالاندثار في نهاية المطاف فإن امتصاص هذه اللغة يمكن أن يحدث في نقطة اللقاء بين الكيشوا 2 والإسبانية الأنديزية، أي في اليوم الذي يشعر فيه المتكلمون بالكيشوا أن مستخدمي الكيشوا 1 ما عادوا يفهمونهم، وإنما يفهمهم مستخدمو الإسبانية الأنديزية.

موت اللغات

ماذا يعني إذاً في هذه الحال موت اللغة؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال قبل أن نحدد منذ البداية ما نعنيه باللغة. لنأخذ مثالين:

جملة: Der Militär - Attaché kokettierte mit der Dame and

---

(6) المصدرنفسه، ص 313.

der Terrasse[7]، التي تعني: «كان الملحق العسكري يغازل السيدة على الشرفة»، جملةٌ ألمانية بالطبع، وإن كانت لا تستخدم إلا كلماتٍ مقترضةً من الفرنسية(*). كما أن الجملة Le Fourgue s'est fait cornancher par une michetonneuse، التي تعني: «تعدَّت مومسٌ على مُخبِّئ المسروقات» جملةٌ فرنسيةٌ بالطبع وإن كانت جميع كلماتها من رطانة عامية إحدى الجماعات.

يدل النحو وعلامات الإعراب والتصريف والكلمات الأدوات على اللغة في المثالين، لأن في اللغة ثلاث مكوِّنات هي النحو والأصوات والمعجم. والمعجم دائماً أكثر المكونات خضوعاً للتغيير، وهو تغييرٌ يطال الدلالة والاقتراض بصورة خاصة. مَن يتذكَّر من الفرنسيين مثلاً أن Amiral: «أمير البحر»، وMagasin «المخزن» مأخوذان من العربية، وأنَّ Tomate: «الطماطم» وChocolat: «الشوكولاته» مأخوذتان من لغة الأزتيك في المكسيك، وأن Puma: «الأسد الأمريكي» مأخوذٌ من الكيشوا، وأن Maïs: «الذُّرة» مأخوذة من بلاد الأنتيل؟ جميع هذه الكلمات فرنسية. ربما تكون كذلك بالتطبيع، ولكنها ليست أقل فرنسيةً من غيرها؛ فقد اغتنت اللغات دائماً بهذه المقترضات، أي بالكلمات المسافرة، ولم يؤثر هذا الاقتراض في خصائصها ومزاياها.

لكن على العكس من ذلك، حين ترى لغة من اللغات أن نظامها الصوتي يذوب في نظام لغة أخرى، وترى أن جملها صورة لجمل لغةٍ أخرى فإنها تكون حينذاك في خطر الامتصاص؛ فالأصوات والنحو هيكل البناء اللغوي. أما المعجم فليس سوى

---

(7) جملة مأخوذة عن: Pierre Burney, *Les Langues internationales*, que sais-je?; 968, 2e édition (Paris: Presses universitaires de France, 1966), p. 16.

(*) ينبغي أن يُستثنى منها الحروف والأدوات.

الطلاء. إن ما يجعل الكيشوا2 في المثال المذكور أعلاه مهددةً بالامتصاص لا يكمن في اقتراضها كلماتٍ من الإسبانية؛ فما يقرب من نصف مفردات اللغة الإنجليزية من أصل فرنسي، وليست الإنجليزية مع ذلك مهددةً بالاندثار، وإنما التهديد بالامتصاص كامن في قلة اهتمامِ اللغة بتكييف هذه المقترضات في نظامها الصوتي من جهة، وفي ميلها إلى صياغة تراكيبها النحوية على غرار تراكيب اللغة الغالبة من جهة أخرى. لا نستطيع في الوضع الحالي بالطبع أن نتنبأ بامتصاص اللغة الإسبانية للغة الكيشوا البوليفية في نهاية الأمر (ولا يمكن لهذه العملية على أي حال إلا أن تكون عملية طويلة جداً). ولكن هذا المثال يعطينا فكرةً مبسَّطة عن الطريقة التي يمكن أن تموت بها اللغات في ساحة المعركة، ويبين لنا ما يجري على الضفة الأخرى، ضفة اللغة الغالبة حين يكون موتها بالتحول وهي تمتص لغةً مغلوبة، كما هو الشأن في اللغة اللاتينية.

تقودنا الفكرة التي تقول إن اللغات يمكن أن تموت إلى الاستعارة الواضحة عن «اللغات المائتة»[*]: أيمكن أن نتلمَّس وجود أماراتٍ تدل على أن اللغة تعاني من خطر الاندثار؟

من السهل بالطبع أن نقيس العوارض الإحصائية للموت القريب للغة من اللغات (مع الإشارة إلى أن الإرادة البشرية قادرة دائماً على قلب الأمور رأساً على عقب): فكما نقيس معدل انتشار لغة من اللغات، أي نسبته، وهو النسبة بين عدد المتخاطبين بلغة من اللغات وعدد الذين يستخدمون هذه اللغة لغةً أولى[8]، نستطيع أن نقيس

(*) نعني بالمائتة: التي تموت، كما جاء في حدّ الإنسان بأنه «الحي الناطق المائت» (الزجّاجي: **الإيضاح في علل النحو**، ص 46).

(8) انظر على سبيل المثال: Louis-Jean Calvet, [et al.], *Rapport de mission à Ziguinchor* (Paris: Centre d'études et de planification linguistique, 1985).

نسبة تراجع اللغة أو نسبة المتخاطبين الذين لم يعودوا يتكلمون لغة جماعتهم الأولى[9]. مثال ذلك أنه إن كان عندنا 1000 شخص ينتمون إلى مجموعة ثقافية لغتها (ل)، فإن كان 400 منهم لا يتكلمون بهذه اللغة فإننا يمكن أن نعتبر أن نسبة 400 من 1000، أي 0,4 هي نسبة تراجع اللغة (ل). تقوم هذه المقاربة إذاً على ملاحقة اندثار لغةٍ من اللغات من وجهة نظر إحصائية. ويمكن بالطبع أن ندقّق النظر فيها حين نأخذ في الاعتبار السن، والجنس، والمقابلة بين الريف والمدينة . . . إلخ، لكي نحيط بمختلف عناصر التراجع. ولكن من الممكن أيضاً قراءة «أخطار الموت» في شكلِ اللغة نفسها، بالإلمام بما يمكن تسميته بعلم أعراض اندثار اللغات. ومن الصعب هنا أن نختصر الأعمال المتعلقة بهذه المسألة لكثرتها[10]، ولذلك فإننا سوف نكتفي بالتذكير بمسألة «التذبذب» التي رأينا مثالاً سريعاً منها يتعلق بلغة الكيشوا. ويقوم التذبذب على ملاحظة أن عدداً من المقابلات الفونولوجية في لغة من اللغات يميل إلى الاندثار لمصلحة مناوبةٍ (أو

---

(9) M. Dieu et P. Renaud, «A Propos d'une étude statistique du multilinguisme au Cameroun: Quelques problèmes méthodologiques,» dans: *Plurilinguisme: Normes, situations, stratégies: Etudes sociolinguistiques*, réunies et présentées par Gabriel Manessy et Paul Wald; [publié par] l' institut d'études et de recherches interethniques et interculturelles... Centre d'étude des plurilinguismes, université de Nice (Paris: L'Harmattan, 1979), pp. 69 et suivantes.

(10) انظر على سبيل المثال: Nancy C. Dorian, *Language Death: The Life Cycle of a Scottish Gaelic Dialect* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1981); W. Dressler, «On the Phonology of Language Death,» in: *Papers from the 8th Regional Meeting* (Chicago: Chicago Linguistic Society, 1972); Brigitte Schlieben-Lange, «The Language Situation in Southern France,» *Linguistics*, vol. 191 (1977), et A. Fernandez-Garay, «La Mort des langues, bibliographie critique,» (Memoire de DEA, Paris, université René Descartes, 1986).

«ذبذبة») عابرة تشهد على تدمير النظام بكامله من الداخل.

نستطيع إذاً من وجهة نظر إحصائية قياس اتجاه لغة نحو الاندثار، أي قياس تراجع عدد المتخاطبين بها. ونستطيع من جهة ثانية، أن نستطلع في الشكل اللغوي نفسه علامات اندثار متوقعةً أو وشيكة، وأن نرى أبسط أعراض المخالفة مع لغةٍ أخرى تكون بصدد امتصاصها. ذلك لأن لموت اللغات دائماً أسباباً ليست لغوية (كميزان القوى، وغير ذلك) علينا تتبّع مسارِها من الوجهتين اللسانية ـ الاجتماعية واللسانية.

اللسانيات واللسانيات ـ الاجتماعية

يقدِّم ما ذكرناه مثالاً واضحاً لما تعنيه اللسانيات ـ الاجتماعية في دراستها للأثر الاجتماعي على اللغة: فليس اندثار لغة من اللغات حدثاً إحصائياً يظهر في تناقص عدد المتخاطبين بها، وإنما هو أيضاً حدثٌ لساني داخلي يظهر من خلال علامات إنذار مبكرة. تقودنا هذه الإشكالية التي أشرنا إليها إشارةً سريعةً إلى تفكيرٍ نظري أعمق؛ ففي داخل اللسانيات نفسها اتجاه يعتبر أن «النواة الصلبة» وحدها في اللسانيات، وهي النواة القائمة على الوصف والشكلنة، تنتمي إلى العلم، وأما المقاربات الأخرى (كاللسانيات النفسية، واللسانيات الاجتماعية، وغيرهما) فتدفع باتجاه الهامش، أي باتجاه ما يسميه بعض اللسانيين الألمان، وهي تسميةٌ لا تخلو من الدعابة، بـ «اللسانيات الرِّخوة»، أو بِلسانيات «الشَّرطة» (وهي الشَّرطة التي تفصل في الكتابة الألمانية بين كلمة «لسانيّ» والكلمة الثانية في مثل «لساني ـ نفسي» (Psycho-Linguistique)، و«لسانيّ ـ اجتماعيّ» (Socio-Linguistique) وقد مثَّل جان كلود ميلنر هذا الاتجاه في فرنسا، إذ انتقد ما سماه بـ «ضد اللسانيات التي ليس لها من دورٍ

سوى مساعدة اللسانيين على أن يصبروا على أنفسهم، كاللسانيات الاجتماعية، وعلم الدلالة التوليدي وغير التوليدي، والاستنطاقات الأيديولوجية. ولا تهم التسميات»[11]. لئن كان هم ميلنر أن يحتمل في داخله تعايش لاكان (Lacan) وشومسكي (Chomsky) (من الطريف مثلاً أن اللسانيات النفسية لا تظهر في لائحة الأسماء التي سخِر منها بين اللسانيات الاجتماعية وعلم الدلالة)، فإن هذا النمط من الرفض يستحق أن نتوقف لحظةً أمامه؛ فالتيارات اللسانية في النصف الثاني من القرن العشرين تواجه خياراً أساسياً: فإما البقاء في الخط الذي رسمه فرديناند دو سوسير، في التحليل وفي وصف **اللغة** (وهذا هو الخيار النظري لبعض المدارس مهما بلغت اختلافاتها الأخرى، كالمدرسة الوظيفية لأندريه مارتينه، والمدرسة التوليدية لشومسكي)، وإما أن تعتبر **الكلام** الذي تتحقق هذه اللغة من خلاله المكان الوحيد الذي يسمح بمحاصرة الجانب الاجتماعي من التواصل، فاللغة والكلام يحددان هنا مقاربتين مختلفتين، واحدةٌ منهما هي اللسانيات الشكلية، وواحدة يعتبرها أتباع الأولى «غير شكلية» وهامشيةً.

ليس هناك ما يدعو بالطبع إلى اعتبار لسانيات الكلام [أي اللسانيات التي لا تهتم بالنظام اللغوي، بل بالقول] أقلَّ علميَّةً بطبعها من لسانيات اللغة. المشكلة هي أنَّ أصحابَ المقاربة الأولى يهوِّنون الأمر كثيراً على أنفسهم حين يقصرون اللغة على شفرة، وعلى بنية، وعلى قواعد لإنتاج الجمل، فيما لا يزال أصحاب المقاربة الثانية يتلجلجون في البدايات. وقد حاولنا نحن من جهتنا، في بداية الأمر،

---

(11) Jean-Claude Milner, *L'Amour de la langue*, connexions du champ freudien; ISSN 0337-1352 (Paris: Editions du seuil, 1978), p. 126.

أن نقيم مقابلةً حادة بين المقاربتين، أي أن نقابل بين اللسانيات الاجتماعية واللسانيات، حتى ليمكن الظنُّ بأننا حاولنا إحلال لسانيات القول محل لسانيات اللغة. إن الوصف الشكلي للغات في واقع الأمر مقاربة ضرورية لا نقاش فيها، وإنما النقاش في زعمها بأنها هي اللسانيات دون غيرها. ولهذا فإن العرض السريع الذي قدمناه للكيشوا في الكوشابامبا، والنقاش المتعلق بإمكان قيام علم لأعراض موت اللغات يبدوان لنا مهمين، لأنهما يقدِّمان لنا بالتأكيدَ دلائل عن عملية امتصاص لغة للغة أخرى، ولأنهما يبيِنان أيضاً كيف أن اللسانيات الوصفية (مهما كانت نظرية التوصيف المختارة، فالمسألة ليست هنا) تدخل في اللسانيات الاجتماعية، وكيف أن الحدث الاجتماعي حاضر على جميع المستويات. ويعني هذا، على الصعيد العام، أنه ليست هناك إلا لسانيات واحدة يمكن أن نسمِّيها، لوضع النقاط على الحروف، بـ «اللسانيات الاجتماعية»، أو أن نقول إن شئنا، إن اللسانيات الاجتماعية هي كل اللسانيات. ويعني هذا على الصعيد الخاص، صعيد عملنا، أن حرب اللغات لا تقع بين اللغات المختلفة فحسب، ولكنها تظهر أيضاً في داخل اللغة نفسها. وهذا يعيدنا بشكل آخر إلى ما كنا قد كتبناه في بداية الفصل الخامس من هذا الكتاب: إننا وإن كنا أحاديي اللغة، فإننا جميعاً متعدِّدو اللغات.

الباب الثالث

في قيادات الأركان

الفصل العاشر

السياسة اللغوية والتخطيط: مقاربة أولى

عالجت الفصول الخمسة السابقة من زوايا مختلفة، كيف يعيش المتخاطبون وضع التعدد اللغوي وكيف يديرونه. وقد درسنا فيه موضوعات متعددة (الأسرة، والسوق، واللغات المنتشرة . . . إلخ) واستخدمنا فيه مقاربات مختلفة (الاستقصاءات عن طريق الاستبيان أو عن طريق الملاحظة، وصف اللغات، إعادة رسم تاريخ اللغات عن طريق دراسة الوثائق . . . إلخ). غير أن الدرس المستخلص من دراساتنا واستقصاءاتنا على اختلاف الموضوعات والمقاربات يبقى واحداً: خلف العلاقات اللغوية علاقات اجتماعية تشهد عليها الظواهر اللغوية التي نصفها. سنترك الآن **ساحة المعركة**، أي إدارة التعدد اللغوي والعلاقات بين اللغات **في الميدان، أي في الجسم الحي**، لندرس إدارة هذا التعدد **في البيئة المصطنعة، أي في المختبر**، أي لندرس التدخل المباشر والإرادي للسلطة السياسية في الميدان اللغوي. وسنحاول في هذا الفصل القصير أن نحدد بعض المصطلحات الرئيسة، ونقدم عدداً من التعريفات التي سنستخدمها مراجع نعود إليها.

يدور حديث كثير عن **السياسة اللغوية** والتخطيط اللغوي منذ

سنوات عديدة، أي منذ أن أطلق اللساني الأمريكي هوغن (E. Haugen) في عام 1959 عبارة التخطيط اللغوي (Language Planning) في مقالةٍ مخصصة للوضع اللغوي في النروج[1]. يظهر لنا هذا التاريخ من وجهة نظر «تأثيلية»، إن اعتبرنا أن هناك تزامناً بين ظهور الأشياء وظهور أسمائها، أن التخطيط اللغوي مسألة حديثة العهد. أيفترض أن نستنتج من هذا القول أننا شهدنا في غضون أربعين عاماً فقط، وفي وقتٍ واحد، بروز مشغلٍ اجتماعي جديد، وبروز فرع جديد من فروع اللسانيات التطبيقية أو اللسانيات الاجتماعية؟

ليست الأمور على هذه الدرجة من البساطة، فإنِ اعتبرنا إدارة التعدد اللغوي واحداً من فروع السياسة اللغوية اعتبرنا هذه السياسة قديمةً قدم التعدد اللغوي نفسِه، واعتبرنا أن أسطورة بابل كانت تحمل في ثناياها موضوع هذا الكتاب. يعج التاريخ بالأمثلة على تدخل الإنسان في اللغات قبل أن نضع هذا التدخل تحت اسم «السياسة» أو تحت اسم «التخطيط» بزمانٍ طويل. وتسمح لنا قصة شارل كوينت الذي قرر في عام 1550 أن يُحل الإسبانية محل لغة الهنود الأمريكيين بتصور سلسلة من المراحل المميزة لهذا النوع من التدخل:

- مرحلة التفكير بالمشكلة اللغوية، وبتحليل الوضع (التفكير محدد هنا بمسألة واحدة: أيمكن تدريس تعاليم الدين المسيحي بلغة الأيمارا أو بلغة الكيشوا؟)

- مرحلة التقرير (في هذا المثال: استخدام اللغة الإسبانية لتمسيح الهنود).

---

(1) Einar Haugen, «Planning for a Standard Language in Modern Norway,» *Anthropological Linguistics*, vol. 1, no. 3 (1959).

ـ أخيراً، مرحلة التطبيق أو وضع القرارات موضع التنفيذ (التي يفترض أنها اقتضت تعليم اللغة الإسبانية قبل تعليم الدين المسيحي [بهذه اللغة]).

سيسمح لنا هذا التسلسل في المراحل بتعريفٍ أفضلَ لمصطلح **السياسة**، ولمصطلح **التخطيط** اللذين استخدمناهما حتى الآن بطريقة مبهمة، واللذين قد نجد الواحد منهما مستخدماً مكان الآخر وكأنهما مترادفان. نحن نعتبر أن السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن. ونعتبر أن **التخطيط اللغوي** هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ. وإن عُدنا إلى المثال المذكور أعلاه فإن قرار شارل كوينت يشكل خياراً في السياسة اللغوية. أما احتمال وضعه موضع التنفيذ على الساحة الأمريكية الجنوبية فيشكّل تخطيطاً لغوياً.

تبدو السياسة اللغوية كما عرفناها مرتبطة بالدولة. وليس هذا خياراً نظرياً من جانبنا، وإنما هو تقرير للواقع. ولا ينبغي أن يستبعد القول بارتباط السياسة اللغوية بالدولة احتمال وجود سياسةٍ لغويةٍ عابرةٍ للحدود أو، على العكس من ذلك، محصورة بجماعة محدودة أصغر من الدولة، وتتعايش في كنفِها مع جماعات أخرى. لنذكر نموذجاً للحال الأولى جماعة الصُم ـ البُكم التي تستطيع عقد مؤتمراتٍ عالمية واتخاذ قرارات والتصويت على توصيات في مجال التعليم (أينبغي تعليم الصم لغة الإشارات، أم ينبغي محاولة التعبير الشفوي؟)، أو جماعة الإسبرنتو التي سنعود إليها في فصل لاحق. في هذين المثالين جماعة شتات لا تحدها الحدود. ولنذكر نموذجاً للحال الثانية الأقليات اللغوية، كسكان منطقة بريطانيا الفرنسية، أو سكان التيبت في الصين . . . إلخ، الذين يمكن أن يكون لهم برنامج

أو مطالب شبيهة بالسياسة اللغوية. في المقابل، يستدعي التنفيذ الذي يتطلبه التخطيط اللغوي تدخل الدولة في أغلب الأحيان؛ فليس لسكان منطقة بريطانيا الفرنسية من الناحية التقنية، الوسائل التي تكفل لهم تطبيق مطالبِهم اللغوية.

لئن كان مفهوم التخطيط اللغوي يفترض وجود سياسة لغوية، فإن العكس ليس صحيحاً. ويمكن أن نعد قائمةً طويلة بالخيارات اللغوية التي لم تطبق قط. ولكن السياسات اللغوية التي لم تطبق (أو التي لا يمكن تطبيقها، لانعدام السلطة [القادرة على التطبيق]) لا ينبغي إهمالها، لأنها لا تعود جميعاً إلى الهيئة الوظيفية نفسها؛ إذ ينبغي التمييز في واقع الأمر، بين **وظيفة عملية** ووظيفة رمزية. حين تأخذ دولة حديثة العهد بالاستقلال قراراً باتخاذ اللغة المحلية لغةً وطنية، يُعد هذا القرار عملياً في حال تبعه تخطيط يدخل هذه اللغة في المدرسة، وفي الإدارة ... إلخ. حتى تحلَّ محل اللغة الاستعمارية في جميع نواحي الحياة الوطنية. ولكن القرار نفسه يعد رمزياً، إما لأنه لم يوضع قط موضع التنفيذ، وإما لأنه لا يمكن تنفيذه في مرحلة أولى. وهذا ما حصل حين قرر الحزب الوطني الأندونيسي ترقية اللغة الماليزية إلى مستوى لغةٍ وطنية، في ظلّ الحكم الاستعماري، وفي ظل غياب أي وسيلةٍ لتنفيذ هذا القرار. غير أنه بتأكيده وجود لغةٍ وطنية، كان يؤكد رمزياً وجود أمة أندونيسية في مواجهة الاستعمار الهولندي. وقد اقتضى الأمر أن يمر عشرون عاماً، وأن تستقل أندونيسيا قبل أن يصبح هذا القرار عملياً، ويوضع موضع التنفيذ.

بقي زوج ثالث سيساعدنا على تقديم السياسات اللغوية المختلفة وتحليلها، وهو الذي يقابل فيه بين **التأثير في اللغة**، والتأثير في اللغات؛ إذ يمكن أن تهدف السياسة اللغوية (والتخطيط من

ورائها) إلى التأثيرِ في شكل اللغة، أي إلى تنميط اللغة الوطنية وتقييسها. إن تدخلاً كهذا يقع على مستويات ثلاثة:

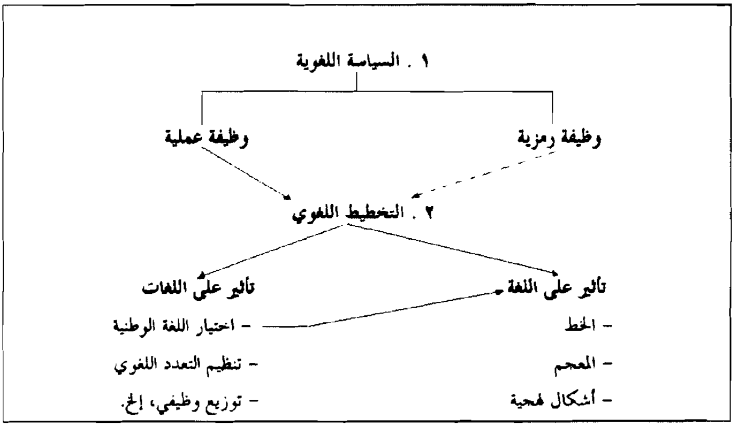
ـ **مستوى الخط**: حين يتعلق الأمر بأن يبتدع خط للغة الشفوية، أو أن يغيَّر الخط المعتمد فيها، أو أن تغير أبجديتها.

ـ **مستوى المعجم**: حين يتعلق الأمر بخلق وحداتٍ معجمية جديدة (بالاقتراض أو بالتوليد) ليسمح للغة بالتعبير عن معانٍ كان يعبر عنها بلغةٍ أخرى (كمفردات السياسة، والعلوم، وغير ذلك).

ـ **مستوى الأشكال اللهجية أخيراً**: حين يكون للغة التي ارتقت حديثاً إلى مستوى اللغة الوطنية أشكالٌ مختلفة باختلاف مناطقها، ويجب إما أن يختار واحدٌ من هذه الأشكال، وإما أن يُخلق شكل جديد يأخذ من مختلف اللهجات.

ولكن السياسة اللغوية تستطيع أيضاً أن تتدخل في العلاقات بين اللغات في أوضاع التعدد اللغوي، حين يجب اختيار لغة وطنية من بين عددٍ من اللغات الموجودة، أو تهيئة تعددٍ لغوي في إحدى المناطق، أو اختيار لغات التعليم ووسائل الإعلام . . . إلخ. وهذه أكثر الأمور حضوراً كما تُبينه الأمثلة التي نفصل الحديث فيها في الفصول اللاحقة. غير أن هذين النوعين من التأثير يمكن أن يتداخلا، إذ يمكن أن يؤدي التدخل في لغة من اللغات إلى ترقيتها واعتمادها لغةً وطنية تسعى السياسة اللغوية فيما بعد إلى تنميطها.

يمكن أن نجمل الحدود المختلفة التي قدمناها لهذه المصطلحات المختلفة، والعلاقات التي تربط بينها، في الرسم الآتي:



تشير الأسهم الممتلئة في هذا الرسم إلى الرابط المنطقي بين سياسة لغوية ذات وظيفة عملية والتخطيط اللغوي الذي يضعها موضع التنفيذ. أما الأسهم المتقطعة فتدل على إمكان ترابط الحلول التي تتناوب ظاهرياً في ما بينها.

أشرنا في بداية هذا الفصل إلى أن عبارة «التخطيط اللغوي» (Language Planning) عبارةٌ أطلقها هوغن في عام 1959. وقد أضاف فيشمان عبارة «السياسة اللغوية» (Language Policy) في كتيب نشره عام 1970[2]. وسوف يزداد شيوع الثنائي «السياسة/ التخطيط» يوماً بعد يوم دون أن يحد هذان المصطلحان حداً دقيقاً.

كنا ذكرنا أن التخطيط عند هوغن جزءٌ من اللسانيات التطبيقية[3]، أما فيشمان (Fishman) فيعالجه في فصل عنوانه:

---

(2) Joshua A. Fishman, *Sociolinguistics: A Brief Introduction*, Newbury House Language Series (Rowley, Mass.: Newbury House, [1970]), p. 108.

(3) Einar Ingvald Haugen, *Language Conflict and Language Planning; the Case of Modern Norwegian* (Cambridge: Harvard University Press, 1966), pp. 24, and 26.

«لسانيات اجتماعية تطبيقية». وفي فترة قريبة العهد بنا كتب فرغيسون (Ferguson) وداس غوبتا (J. Das Gupta) في مقدمة كتاب جماعي يشرح التخطيط اللغوي:

«التخطيط اللغوي قادم جديد إلى أسرة تخطيط التطور الوطني»، و«المحاولات الإرادية الهادفة إلى تغيير اللغات أو إلى الحفاظ عليها وعلى استخدامها يمكن أن تكون قديمة قدم السياسة الاقتصادية»، ولكن «لم يُعترف إلا حديثاً بهذه النشاطات مظهراً من مظاهر التخطيط الوطني في الميدان اللغوي»[(4)].

ولِد مصطلح **التخطيط** في الفرنسية في القرن العشرين في مجال الاقتصاد بمعنى **التنظيم بمقتضى خطّة**. وفي هذا التحديد إحالةٌ إلى دور الدولة الذي أشرنا إليه، لأن **الخطّة** من اختصاص الدولة. غير أن ورود التخطيط اللغوي في النص المذكور أعلاه في إطار «التخطيط الوطني»، مقارناً بالتخطيط الاقتصادي، يثير مشكلة أخرى، فمجرَّد ذكرِ مصطلح التخطيط يصنِّف اللغة إلى جانب الأشياء التي يمكن التخطيط لها (كالمدرسة، والولادة، والتطور، والبناء... وغير ذلك)، أي إلى جانب الأشياء التي للسلطة نفوذ عليها، وتستطيع إدارتها وتوجيهها.

ولكن لم يطرح قط السؤال المحوري الذي أصوغه على الشكل الآتي: إلى أي حدٍّ **يمكن التخطيط** للغة؟

تقتضي فكرة التخطيط اللغوي ثلاثة أمور: خصيصتين لغويتين وقدرةً إنسانيةً على الفعل:

---

(4) J. Das Gupta et C. Ferguson, «Problems of Language Planning,» in: Joan Rubin, [et al.], ed., *Language Planning Processes*, Contributions to the Sociology of Language; 21 (The Hague: Mouton, 1977).

- تقتضي خصيصةً أولى هي أن اللغة متغيِرة. وهذا مما لا جدال فيه، فتاريخ اللغات حاضر لإثبات ذلك.

- وتقتضي خصيصةً ثانية هي أن العلاقات بين اللغات قابلة للتغيير. ولدينا أدلة عديدة على صحة هذه الفرضية أيضاً.

- ولكنها تفترض خصوصاً أن الإنسان قادر على التدخل في هاتين المسألتين السابقتين، وأنه قادر في **بيئة مصطنعة، أي في المختبر**، أن يغير اللغة، وأن يغير العلاقات بين اللغات.

بيد أن عكس هذا كان دائماً مضمراً في الخطاب اللساني؛ فاللسانيات الحديثة، في مقابلتها بين المعيار والوصف، تعتبر نفسها علماً لا يهدف إلى تقرير القاعدة، ولا إلى تثبيت صحة الممارسة، بل إلى وصف الممارسات والقواعد. وترى أن التطور، سواءٌ أكان تطور اللغة نفسها أم تطور العلاقات بين اللغات، يخضع للحدث الاجتماعي لا للتدخل الموجِّه: فاللساني يشرح الحدث الاجتماعي، ولكنه لا يحدثُه. ولهذا تشكِّل فكرة التخطيط اللغوي بحدِّ ذاتها، نوعاً من التحدي للسانيات.

حين كتب المؤلف البريطاني جورج أورويل (Georges Orwell) روايته سنة **1984**، استخفوا بآرائه المتعلقة باللغة، وبفكرته القائلة بوجود سلطةٍ مطلقة تتدخل يومياً بواسطة «النحويين»، مؤثِّرةً في مفردات المعجم لتشكل لغةً جديدة (Newspeak). ينبغي في الواقع أن يُميَّز في هذه الصورة المتوهمة بين شيئين يخلط بينهما المؤلف خلطاً شديداً: فهناك من جهة التدخل المطلق الذي يبغي التحكم بالأفكار بواسطة اللغة (إن صدر مرسومٌ يقول إن جملة: «فليسقط القائد» ليست جملةً نحوية صحيحة فسيتخلى الجمهور عن فكرة «فليسقط القائد»)، وهناك من جهةٍ أخرى إمكان تحويل اللغة بمرسوم.

فإن أردنا التفصيل نقول: ينبغي التمييز بين أمرين:

ـ من جهة أولى: محاولة تعديلِ الإحساس بالتجربة الاجتماعية عبر تعديل اللغة (Joycamp)، أي «مخيم الفرح» يعني مخيم الأشغال الشاقة، و(Minipax) ـ وهو اختصار إنجليزي لـ «وزارة السلام» ـ يعني وزارة الحرب. والفكرة الكامنة وراء ذلك هي أن المتكلمين يحللون تجاربهم عبر الكلمات، وأن كل تعديل في الدلالة سوف يعدل إحساسهم بالعالم.

ـ من جهة ثانية: إرادة خلقِ لغةٍ منطقية لا شواذ فيها يمكن أن يقوم الأس(*) فيها بمجرد إضافة لاحقة إليه بوظيفة الاسم أو الفعل أو الصفة. مثال هذا: Speed تعني «السرعة»، فإن أردنا «ذهب سريعاً» قلنا (Speedfull) [بإضافة اللاحقة full] بدل أن نقول: (Rapid). وإن أردنا «بسرعة» قلنا: Speedwise [بإضافة اللاحقة Wise] بدل أن نقول: Quickly. وكذلك الحال في الصفات التي يعاد تنظيمها بناءً على ما له علامة، في مقابل ما لا علامة له، بزيادة سابقةٍ في أوله (وبدل أن يقال لـ «المظلم» (Dark)، يقال له: (Unlight)، أي «غير المنير» [بإضافة سابقة un] في مقابل (Light) التي تعني «المنير»).

كنا، في أول مقالةٍ منشورة لنا خصصناها للسانيات، انتقدنا نقطةً نقطة هذا التصوُّر بمجمله[5].

(*) الأسُّ في اللغات الإلصاقية كالفرنسية والإنجليزية مكوَّنٌ، خلافاً للجذر في العربية من حروف صوامت وحروف صوائت في آنٍ واحد؛ فهو إذاً كتلةٌ تضافُ إليها السوابق أو اللواحق لتشكيل كلماتٍ من أسرةٍ واحدة.

(5) Louis-Jean Calvet, «Sur une conception fantaisiste de la langue: La Newspeak de Georges Orwell,» *La Linguistique*, no. 1 (1961), pp. 101-104

لكن تزايد عمليات التخطيط اللغوي، والمؤلَّفات المخصصة لوصفها وتحليلها في أيامنا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن أورويل ربما كان محقاً في مواجهة اللسانيين. إنها مفارقة!

الفصل الحادي عشر
دراسة أمثلة تطبيقية: إدارة التعدد اللغوي

سنعرض في هذا الفصل وفي الفصول التي تليه عدداً من السياسات اللغوية الملموسة التي ستشكِّل لنا قاعدةً لنقاشٍ لاحق. ونعرض في البداية السياسات التي تواجه تعدداً لغوياً مهماً، ولا تزعم أنها في المرحلة الأولى ستعيده إلى أحادية اللغة.

مثال الصين

يستخدمون في جمهورية الصين الشعبية ما يقرب من خمسين لغةً مختلفة، يمكن لنا من أجل التوضيح، أن نقسمها إلى قسمين: لهجات (هان)، واللغات الأقلية.

تعني كلمة (هان) العرق الصيني (يميزون في الصين بين «**هان زي رن**» أي «الناس الذين من عرق هان»، أو الصينيين، **وزنغ غوو رن** أي «الناس الذين من وسط البلاد»، أو المواطنين الصينيين). وتضم مجموعة هان، مختلف اللغات الصينية المستخدمة في الصين التي يعتبر الخطاب الرسمي أنها في الواقع لغةٌ واحدة ومجموعة لهجات. عدد هذه اللغات ثمانية:

1 ـ لغة الشمال التي يتكلم بها 70 في المئة من السكان،

وتسمى غالباً في الغرب بـ «المندارانا» (Mandarin).

2 ـ الوو (Wu)

3 ـ الكزيان (Xian)

4 ـ الغان (Gan)

5 ـ المن في الشمال (Min)

6 ـ المن في الجنوب (Min)

7 ـ اليويه (Yué)

8 ـ الهكا أو كجيا[1] (Hakka, Kejia)

قسم موريس كويو هذه اللهجات إلى منطقتين:

المنطقة 1

(الجنوب الشرقي للصين)

1 ـ كانتون (Canton)

2 ـ كان هكا (Kan Hakka)

3 ـ أموي سواتو (Amoy swatou)

4 ـ فوجيان (Fujian)

5 ـ وو (Wu)

6 ـ كسيانغ (Xiang)

---

(1) انظر خصوصاً الخرائط ص 250-251 من: Alexis Rygaloff, *Grammaire élémentaire du chinois*, collection Sup. Le Linguiste; 14 ([Paris]: Presses universitaires de France, 1973).

المنطقة 2

(لهجات مندرانية)

7 ـ بكين، منشوريا، حوض هوانغيه (Huanghe)

8 ـ هانكو (Hankou)، نانكين (Nankin)

9 ـ الجنوب الشرقي، سيشوان (Sichuan)، يونان (Yunnan) غويزهو (Guizhou)، غوانغكسي (Guangxi)، هوباي (Hubei)

وقد شرح تقسيمه على الشكل الآتي:

«إن التفاهم بين لغات المنطقة الأولى ولغات المنطقة الثانية معدوم (كما هو الحال بين الفرنسية والإسبانية)، والتفاهم بين لغات المنطقة الأولى ضعيفٌ جداً أو معدوم. نقول إذاً إن هذه «اللهجات» لغاتٌ مختلفة في الحقيقة. أما المانداران فهي لغةٌ واحدة ذات لهجاتٍ ثلاث مذكورة [في الجدول في المنطقة الثانية]»[2].

لدينا من جهةٍ المتكلمون بإحدى لغات جماعة الهان الذين يمثلون 95 في المئة من مجموع السكان (70 في المئة يتكلمون المانداران، و25 في المئة يتكلمون اللغات الأخرى، أي ما يقرب من 250 مليون متحدث بهذه اللغات)، ولدينا في الجهة الأخرى النسبة الباقية وهي خمسةٌ بالمئة يتكلمون واحدةً من اللغات التي يقال عنها إنها لغات «الأقليات» (غير أن 5 في المئة من مليار ساكنٍ يعطي أقليات ليست بالقليلة لأنه يساوي عدد السكان في فرنسا). وهي نسبةٌ موزعةٌ بين أربعِ عائلاتٍ مختلفة: جماعة الألتييك (منغول، ويغور،

---

(2) Maurice Coyaud, *Questions de grammaire chinoise*, documents de linguistique quantitative; 3 (Saint-Sulpice de Favières: Association Jean-Favard pour le développement de la linguistique quantitative; Paris: Dunod, 1969).

كازاك . . . إلخ)، والجماعة التيبتية البيرمانية (تيبتية، يِي)، وجماعة التّاي (زوانغ، بويِي)، والياو والمياو الذين يشكلون جماعة منفصلة.

منذ القرن الثالث عشر أصبحت اللغة المستخدمة في الشمال باسم غوان هوا (Guan hua) «لغة الموظفين، أي نوعاً من لغةٍ منتشرةٍ إداريةٍ وثقافية (وهو ما نسميه في القرن السادس عشر بـ «الماندارين»، وهي كلمةٌ مشتقةٌ من فعل برتغالي (مَندر) الذي يعني «أَمَر». في هذا الوقت كانت تتعايش لغتان مكتوبتان هما: لغة ون ين (Wen yan) أي «لغة الحروف»، وهي لغة للسلطة مكتوبة، ولغة للإدارة وللمثقفين، أي اللغة المكتوبة الغالبة اجتماعياً، ولغة باي يان (Bai yan) «اللغة البيضاء السهلة»، وهي قريبة جداً من اللغة المستخدمة في الشمال التي كُتبت بها كلُّ الروايات الشهيرة، والمسرحيات. . . إلخ.

منذ 1919 في أثناء تحرّك 4 أيار/ مايو نشأ تيار معادٍ للغة (ون ين) التي نُظر إليها على أنها أداةٌ للهيمنة، ومؤيّدٌ للغة (غيو يو) التي تعني: «لغة وطنية» بهدف تسجيل وجود صينٍ لغوية **واحدة**. وقد استعيدت هذه الفكرة بعد ثورة 1949 باسم: بو تونغ هوا (Pu tong hua) التي تعني «اللغة المشتركة»، بينما ظلت تسمية (غيو يو) شائعةً في فورموزا. سنعرض إذاً السياسة اللغوية الصينية منذ الثورة فيما يتعلق بلغات (هان)، وباللغات الأقلية تاركين إلى فصل آخر مشاكل إصلاح الخط.

اعتمد الحزب الشيوعي الصيني منذ تأسيسه في عام 1921 مبدأ حقِّ الأقليات في الحكم الذاتي، واعتمد في ما يخص موضوعنا مبدأ حقّ كلّ أقليةٍ منها في أن تكون التربية بلغتها. وبعد 1949 توضح مقدمة الدستور بالفعل أن «الصين دولةٌ موحدةٌ متعددة الوطنيات»، بينما ينص القانون الأساسي في المادة 39 منه على أن إدارة مناطق

الحكم الذاتي ينبغي أن تعتمد لغةً أو أكثر من لغات المنطقة، وفي المادة 40 منه على أنه يجب مساعدة الأقليات الوطنية على تطوير ثقافاتها، هذه هي المبادئ.

أما في الواقع، فإن السياسة اللغوية للسلطة الصينية سوف تتذبذب كثيراً بتذبذب السياسة بالمعنى الواسع للكلمة. ويمكن أن نعيد هذا التذبذب إلى أربع فتراتٍ رئيسة: 1 ـ (1949 ـ 1656)، 2 ـ (1956 ـ 1965)، 3 ـ الثورة الثقافية، 4 ـ الفترة منذ 1976 إلى أيامنا.

1949ـ1956 التنوع اللغوي

رأينا أن الدستور الصيني يكفل حقوق الأقليات، ولا سيما الحقوق اللغوية منها. محوران مِن محاور التخطيط سوف يسمان إذاً هذه المرحلة: تشرف على الأول منهما لجنة إصلاح اللغات الأقلية التي أنشئت عام 1951 للعمل على إحصاء اللغات، وعلى كتابتها... إلخ، وتُشرف على الثاني جمعية إصلاح اللغة (التي أنشئت بعد عشرة أيام من الثورة، وأصبح اسمها عام 1952: لجنة البحث في إصلاح اللغة، ثم في عام 1954: لجنة إصلاح اللغة) للعمل على اللغة الصينية. وقد أعدت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1955 مؤتمرين خصّص الأول منهما لـ «إصلاح اللغة المكتوبة»، والثاني لـ «تنميط الصينية الحديثة». وقد خرج تعريف «اللغة المشتركة» (Pu tong hua) من هذا المؤتمر الثاني.

سوف يساعد عددٌ من الأقليات طوال هذه الفترة على تطوير التعليم في اللغات الخاصة به، وتعطى أبجدية للغات غير المكتوبة (وهي أبجدية مشتقة عموماً من الأبجدية اللاتينية)، ويساعد على محو الأمية، وتكوّن في معهد الأقليات الوطنية الأطر والكوادر في المناطق المستقلة ذاتياً ... إلخ. أما في المناطق التي تنتمي أعراقها

إلى « الهان »، فإن التعليم يجري باللغات المحلية: بلغة كانتون في كانتون، وبلغة شنغهاي في شنغهاي ... إلخ، وهو ما سيغيِّر فيه المؤتمر الثاني الذي عقد في تشرين الأول/ أكتوبر 1955.

1956 ـ 1965: برنامج بو تونغ هوا

عرفت اللغة الوطنية على أنها اللغة التي تتبنى نطق لهجة بكين، ونحو لهجات الشمال، ومفردات «باي هوا» وأدبها الحديث. وسوف تصبح هذه اللغة المشتركة لغة التعليم الوحيدة في مناطق «هان»، وستعتبر ترقيتها مهمةً وطنية. هكذا نشرت في السادس من شهر شباط/ فبراير 1956 «توجيهات مجلس الدولة المتعلّقة بترقية اللغة الوطنية» التي تشكِّل مرجعاً في توجيه الراشدين. أما التلاميذ فيرجعون إلى النص المشابه الذي نشرته وزارة التربية الوطنية في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1955[3].

قُرِّر إذاً أن يكون تعليم اللغة والأدب باللغة المشتركة (بو تونغ هوا) ابتداء من مطلع العام الدراسي 1956. أما المواد الأخرى فينبغي البدء بتدريسها باللغة المشتركة في مهلة أقصاها عامان. ومن أجل مساندة هذا الإجراء أسِّس مركز لتكوين المعلمين في بكين، وصارت وسائل الإعلام تنشر معلوماتٍ حول اللغة لمساعدة المعلمين... إلخ. هذا البرنامج الذي سيحرِّك طاقات كبيرة، والذي سيصحبه إصلاحٌ للخط نتحدث عنه في مكان آخر (الفصل الذي عنوانه: حرب الكتابة)، لن يطال الأقليات التي ستتابع في أثناء هذه الفترة السياسة

(3) Dayle Barnes: «The Implementation of Language Planning in China,» in: Juan Cobarrubias and Joshua A. Fishman, eds., *Progress in Language Planning: International Perspectives*, Contributions to the Sociology of Language; 31 (Berlin; New York: Mouton Publishers, 1983), p. 295.

التي بدأتها في الفترة السابقة، وهي عموماً سياسة تعليمِ ثنائيِّ اللغة.

يلاحظ دايل بارنس[4] (Dayle Barnes) أن المتكلمين بلغات الهان من غير المانداران سوف يستقبلون استقبالاً حسناً فكرة الثنائية اللغوية، وأن برنامج اللغة المشتركة لن يكون محل خلاف حين ستنطلق «حركة التصحيح» الكبرى في أذهان «مئة زهرة»[*]. لئن كان في أذهان الحُكّام أن اللغة المشتركة يجب أن تؤدي إلى اندثار «اللهجات» فإن الناس لم يكونوا يشعرون بأن ترقية اللغة المشتركة ستؤدي بالضرورة إلى اندثار لغاتهم المحلية. نقرأ بقلم إليكسي ريغالوف منذ 1973، محاولة تقويمٍ مستقبليٍّ لما سيؤدي إليه هذا البرنامج:

«تاريخ هذه اللغة الشائعة [المشتركة] هو بلا شك أقصر من أن يستطيع إعطاء نتائج ذات قيمة تذكر. وعلينا ألا نتخيَّل أن استخدام اللهجات في كانتون وشنغهاي وفوتشايو سوف يزول أمام النموذج الوطني الجديد. ولكن ما يمكن أن نقبله في مقابل ذلك، هو أن الصينيين في طريقهم إلى أن يصبحوا ثنائيِّي اللغة في غالبيتهم العظمى. ونقرر ما نقرره في ظل غياب معلومات مصرَّح بها تسمح بالحُكم على تطور اللغة المشتركة، وبتحديد مدى تأثيرها على التنوع اللغوي الكبير الذي كان موجوداً قبل محاولات التوحيد»[5].

هذا الوصف للفترة المفترضة يطابق مطابقةً جيدة ما لاحظناه على الأرض بعد اثني عشر عاماً؛ فحين قمنا باستقصاء عام 1985

(4) المصدر نفسه، ص 297.

(*) حركة «مئة زهرة» حركة تصحيحية أطلقها ماو تسي تونغ ما بين شباط/ فبراير وحزيران/ يونيو 1957، وقد قضَت بإعطاء المثقفين حقّ نقد الحزب الحاكم.

(5) Rygaloff, *Grammaire élémentaire du chinois*, pp. 5-6.

على 224 طالباً في معهد اللغات الأجنبية بجامعة باي يون شان في كانتون سجّلنا أن اللغة المشتركة لم تكن اللغة الأولى للغالبية فيهم. وهو ما تظهره إجابات الجدول الآتي عن سؤال: «في أي سنٍّ تعلمت اللغة المشتركة؟»:

في أي سنٍّ تعلمت اللغة المشتركة؟

في المدرسة الابتدائية	144
اللغة المشتركة لغة أولى	49
في المدرسة الثانوية	12
في الجامعة	10
في دار الحَضانة	9

1966ـ1976 الثورة الثقافية

في هذه الفترة التي لا يجدي نفعاً عرض إطارها العام لأنها معروفة للجميع، سيستمرُّ برنامج اللغة المشتركة (مع أن المدارس والجامعات قد شهدت بعض التغيُّرات). ولكن السياسة المتبعة مع الأقليات على وجه الخصوص ستتغير تغيُّراً هائلاً، بل ستعتبر فكرة الاستقلال الذاتي للأقليات فكرةً مناقضة لوحدة الحزب، وستعتبر لغاتهم وعاداتهم ممارساتٍ بورجوازية، وسيقام بحملة تطهيرٍ واسعة للأطر والكوادر الذين ينتمون إلى هذه الأقليات.

في عام 1974 دعي وفدٌ من اللسانيين الأمريكيين لقضاء فترة شهرٍ في الصين. وقد نشر أعضاء الوفد بعد عودتهم بياناً بالمقابلات التي أجروها[6]، تمثِّل بعض مقاطعه هذا التحولَّ تمثيلاً لا يخلو من

---

(6) Winfred Philipp Lehmann, *Language & Linguistics in the People's Republic of China* (Austin; London: University of Texas Press, 1975).

الفائدة، ففي المعهد المركزي للوطنيات الذي يهدف نظرياً (وكان هذا ما يجري في الواقع قبل الثورة الثقافية) إلى العمل في قضايا الأقليات الوطنية، يشرح الأستاذ في كسيياو تونغ (Fei Xiao-tong) للوفد أن «المهمة المباشرة للسانيات الصينية هي نشر اللغة المشتركة على الصعيد الشعبي الواسع»[7]. ونجد في فصلٍ من فصول الكتاب مخصصٍ لنظرية اللغة في الصين، عودةً إلى فكرةٍ قديمة لستالين يرى فيها أنّ انتصار الاشتراكية في العالم سوف يؤدي إلى بروز لغةٍ دولية واحدة[8]. لا نملك وثائق كافيةً عن تلك الفترة، فترة ستالين، ولا ندري تماماً إن كانوا يعتقدون في تلك الفترة أن اللغة المشتركة ستصبح لغة الصين الوحيدة قبل هذا الانتصار العالمي للاشتراكية، ولكن من السهل أن نتخيل أن خصوصيات الأقليات ووطنيتها قد تعرضت لحرب قاسية كالحرب التي تعرضت لها آثار الماضي الصيني، كالفلسفة الكونفوشيوسية أو الدين.

ويكتب اللسانيون الأمريكيون أنفسهم أن قسم اللغات في المعهد المركزي للوطنيات يكوّن التراجمة الفوريين والتحريريين للغات الأقلية. ونطّلع عرضاً على أن دروس اللسانيات قد حُذفت من البرنامج بعد الثورة لأنها مغرقة في التنظير، وعلى أن التراجمة الذين في طور التكوين هم في الواقع متكلمون باللغات الأقلية يتعلمون اللغة المشتركة. ولا يشكل استثناءً على هذا الواقع سوى وجود العديد من أبناء «هان» الذين يدرسون، على ما ينقل المؤلفون، لغة التيبت[9]، وهو ما يعزز الانطباع العام الآتي: تدرَّس اللغة المشتركة في حقيقة الأمر تحت ذريعة تكوين المترجمين، إلى طلبةٍ لا

(7) المصدر نفسه، ص 21.

(8) المصدر نفسه، ص 133.

(9) المصدر نفسه، ص 110.

يتكلمون بها، أي إنهم يهدفون إلى نشر اللغة الرسمية أكثر مما يهدفون إلى تكوين المتكلمين باللغات الأقلية. أما العناية الخاصة للسلطة بلغة التيبت فيشير إلى خصوصية هذه اللغة.

منذ 1976

أدى موت ماو تسي تونغ في ميدان اللسانيات، ثمّ اعتقال «عصابة الأربعة»، وعودة تينغ هسياو بينغ إلى السلطة، أدى إلى الانقلابات نفسها التي حصلت في الميادين الأخرى. استمر برنامج اللغة المشتركة، بل إنه تنامى باستخدام التلفزة. غير أن الأقليات الوطنية استعادت الصلاحيات التي كانت قد خسرتها، وازداد نشر الكتب، والقواميس، والأبحاث، وغير ذلك.

إن النموذج العام الذي يمكن أن نتخيله بعد هذه العملية هو نموذج الثنائية اللغوية المعمَّمة (باستثناء أهل الشمال الذين تقترب لغتهم كثيراً من اللغة الوطنية)، وهي ثنائيةٌ لغوية ذات نمطين:

1ـ ثنائية صينية ـ صينية، أو ثنائية «الهان» بين اللغة المشتركة و«لهجة» من لهجات «هان»، كما هو الحال في كانتون، وشنغهاي، وغيرهما.

ونتساءل: كم من الوقت تستطيع هذه اللغات التي لا تدرَّس في المدرسة أن تقاوم اللغة المشتركة، حتى ولو بدا أنها ليست مهددة في هذه اللحظة؟

تطال هذه الثنائية 25 في المئة من السكان (البالغ عددهم 1008200000 نسمة حسب إحصاء عام 1982).

2 ـ ثنائية بين الصينية والأقليات حين تكون اللغة الأولى لغةً أقلية، سواء أكانت من لغات الكازاك، أو الكورية، أو التيبتية . . .

إلخ. يبدو في هذه الحال أن مستقبل هذه اللغات أكثر ضماناً، لا لأنها تدرَّس فحسب وتستخدم في الإدارة مثل اللغة المشتركة، بل لأن هذه الأقليات الوطنية التي تغطي 50 في المئة من أرض الصين، وتقع على أطراف الإمبراطورية، في وضع جغرافي حساس على حدود الاتحاد السوفياتي، ولأن السلطة لا تسعى إلى إغضابها. تغطي هذه الثنائية اللغوية من 5 إلى 6 في المئة من عدد السكان.

لم تسعَ الصين في مواجهة تعدّدها اللغوي، باستثناء فترة الثورة الثقافية القصيرة، إلى تحويل التعدد إلى الأحادية في اللغة: لقد تطورت الأقليات نحو التعدد اللغوي، وأصبحت «اللهجات» الصينية، في نهاية المطاف، في وضع أكثر صعوبة، إذ يهددها برنامج اللغة المشتركة، وهو ما سوف نراه بوضوح حين نعالج مشكلة الخط.

مثال الهند

جاء في إحصاء 1951 أن في الهند 782 لغةً ولهجة مختلفة. وهو رقمٌ يقفز إلى 1652 في إحصاء عام 1961. لا يعني الفارق بين الرقمين أن عددَ اللغات في الهند قد تضاعف على مدى عشر سنين (!)، ولكنه يقدم مثالاً جيداً على الصعوبات التي تعترض الباحث في إحصاء لغات إقليم من الأقاليم. وتتمثل هذه الصعوبات من جهة في أن إحصاء 1961 قدّ أخذ في الحساب ثلاث لغات ومئة لغة أجنبية لم تكن مسجَّلة في الإحصاء السابق، ومن جهة أخرى في أن مجرَّد سؤال الناس عن اللغة التي يتكلمونها [لإحصاء اللغات] قد يثير مشكلةً، وفي أن عدد اللغات المسجَّلة ـ مهما كان هذا العدد ـ لا يعني شيئاً مهماً في نهاية المطاف؛ فقد لا يكون لعددٍ كبير من هذه اللغات إلا عددٌ محدود من المتكلمين بها، كما يشير إلى ذلك ماهاديف أبت (Mahadev Apte):

«هناك مئاتٌ من هذه اللغات الأمهات التي لا يتكلم بها إلا عددٌ قليل من الناس؛ فهناك على سبيل المثال 64432 من الناطقين بـ 527 لغة. وهناك 210 لغات لا يتكلم بالواحدة منها إلا شخصٌ واحد أو شخصان. وهناك مجموعة أخرى من 400 لغة يتكلم بها 426076 شخصاً. وغالباً ما تظهر اللغة الأم الواحدة بتسميات أخرى لا تختلف إلا اختلافاً طفيفاً في ما بينها. وغالباً ما يعطي الناس اسم عشيرتهم، أو اسم منطقتهم أو اسم مهنتهم حين يسألون عن لغتهم الأم»(10).

مهما يكن الأمر، ومهما يكن العدد الحقيقي للغات في الهند، فإن هذا البلد يبرز لنا وضعاً مدهشا في التعدد اللغوي، في عدد لغاته، وفي تصنيف هذه اللغات في وقت واحد. والناس يتحدثون في الهند لغات هندية ـ أوروبية، كاللغة الهندية، والكجراتية، والكشميرية . . . إلخ. (73 في المئة من السكان)، ولغات درافيدية مثل التلغو أو التاميل (24 في المئة)، ولغات آسترالية ـ أسيوية (1,5 في المئة)، ولغات صينية ـ تيبتية (0,7 في المئة). وتشكل اللغة الهندية وحدها اللغة الأولى لما يقرب من 30 في المئة من السكان. ويزيد هذا التعدد اللغوي تعقيداً أن الأفراد الهنود، لا يتكلمون لغاتٍ عديدةً، رغم كثرة اللغات عندهم. وفي عام 1961 على سبيل المثال، أعلن 7 في المئة من السكان، أي ثلاثون مليون شخص، أنهم يعرفون لغة ثانية (الإنجليزية لـ 11 مليوناً منهم، والهندية لـ 9 ملايين) ما يعني، بِكل بساطة، أنه لم يكن في الهند لغة نشرٍ قادرةٌ على توحيد البلد من الناحية اللغوية.

بيد أن علينا لكي نفهم الوضع الحالي أن نعود بالتاريخ إلى القرن

---

(10) Mahadev Apte, «Multilingualism an dits Socio-political Implications: An Overview,» in: William M. O'Barr and Jean F. O'Barr, eds., *Language and Politics*, Contributions to the Sociology of Language; 10 (The Hague; Paris: Mouton, 1976), pp. 141-142.

التاسع عشر: فقد شهد وسط الهند وشمالها صراعاً دينياً عنيفاً بين المسلمين والهندوس، وهو صراع ديني يصحبه صراع لغوي وصراعٌ سياسي في الوقت نفسه. ولقد كان الهندوسيون، ومعظمهم يتكلم الهندية، أكثر حداثةً على الصعيد السياسي، وكانوا لا يعارضون توجُّه النخبة الهندية نحو اللغة الإنجليزية، ويحاولون أن يحصلوا من السلطة البريطانية على الاعتراف بلغتهم على غرار الاعتراف باللغة الأوردية، لغة المسلمين التي كانت مستخدمةً في المحاكم.

ومن المفارقة أن المتكلمين بهاتين اللغتين كانوا قادرين على أن يفهم بعضهم بعضاً، كل بلغته، لأن الخلاف بين اللغتين كان خلافاً بين المتكلّمين أكثر مما كان خلافاً بين طبيعة هذه اللغة وتلك. وكانت الأوردية التي تُكتب بالحروف العربية، قد اقترضت كثيراً من العربية ومن الفارسيّة. أما الهندية المكتوبة بحروف دنفاناغارية، وهي حروف السنسكريتية(*)، فقد اقترضت كثيراً من السنسكريتية. ولأن المسلمين عارضوا المحتل الإنجليزي، فقد حصل الهندوس منه على بعض الترضيات، فأحل الهندية محل الأوردية لغة للدولة في بيهار عام 1861. وكان هدف الهندوس أن تعتمد لغتهم في كل المقاطعات الوسطى والشمالية الغربية. وتدل عريضة كانت توقع في ثمانينيات القرن التاسع عشر على جوٍّ هذه الحملة اللغوية:

«لا يقبل أي رجل مهذب أن ينحط إلى مستوى تربية.. النساء باللغة الأوردية أو الفارسية لأن الكتب بهاتين اللغتين كتبٌ بذيئة تتجه إلى إفساد الخُلُق»(11).

(*) هي كتابة حرفية مقطعية، تكتب من اليسار إلى اليمين، وتتعلّق الحروف من أعلاها بخط أفقي كما يظهر في هذا المثال.

(11) Jyotirindra Dasgupta, *Language Conflict and National Development: Group Politics and National Language Policy in India* (Berkeley: University of California Press, 1970), p. 103.

في الواقع، إن أكثر الأشكال قرباً من السنسكريتية في اللغة الهندية، وأكثرَ الأشكال قُرباً من الفارسية في اللغة الأوردية كانا وحدهما القطبين اللذين لا يمكن التواصل بينهما بسبب اختلافاتهما المعجمية الكبيرة. غير أنه كان يمكن للهندوستانية، وهي شكلٌ شعبيُ يجمع بدائل لهجيةً من الأوردية ومن الهندية أن يكون لغة توحِّد الجزء الشمالي من الهند. وقد حاول غاندي أن يستغل هذه الإمكانية، فأقرّ الهندوستانية لغةً رسميةً لحزبه، حزب المؤتمر الوطني الهندي عام 1925، وتبعه في ذلك نهرو الذي أعلن عام 1937 أن هذه اللغة «تقرّب ما بين الهندية والأوردية، وتساعد أيضاً على تطوير الوحدة اللغوية في الهند كلها»[12]. غير أن هذا الحل لقي معارضة المتشددين من الهندوس والمسلمين، ومعارضة سكان الجنوب الذين يتكلمون بلغاتٍ درافيدية والذين كانت الهندية والأوردية والهندوستانية لغاتٍ أجنبيةً بالنسبة إليهم على حدٍ سواء. ولهذا أصبح التناقض بين اتجاهين سياسيين: الاتجاه الهندي الذي يمثله حزب المؤتمر الوطني، والاتجاه الإسلامي الذي تمثله رابطة المسلمين محور النقاش (اللغوي والسياسي). وقد وجد هذا النزاعُ حلاً جزئياً وقت الاستقلال عن طريق التقسيم (فقد أُنشئت الباكستان جمهوريةً إسلاميةً لغتُها الوطنية هي الأوردية).

على أن إنشاء الباكستان لم يحلَّ شيئاً من مشاكل الهند اللغوية؛ فقد عقدت جلسات الجمعية التأسيسية التي اجتمعت عام 1946 بالإنجليزية وبالهندوستانية أولاً، فيما كانت تنظم حملة واسعة لصالح اللغة الهندية، محتجةً بأن الهندوستانية تشكِّل تنازلاً للأوردية، أي للمسلمين. وقد كشف التصويت الذي جرى في البرلمان عام 1949 هشاشة الموقف، إذ صوَّت 78 نائباً لمصلحة اللغة الهندية، فيما

---

(12) المصدر نفسه، ص 112.

صوَّت 79 للغة الهندوستانية. لكن هذه المشكلة الهندية/ الهندوستانية التي كانت بديلاً للمشكلة الهندية/ الأوردية، كانت تخفي في الوقت نفسه مشكلةً أخرى أشرنا إليها أعلاه، وهي مشكلة الجنوب الهندي بأكمله الذي يتكلم بصورة أساسية لغات كناغا، وتاميل، وتليغو. ولهذا السبب اعتمد الدستور حلاً قائماً على الانتظار: تظلُّ اللغة الإنجليزية لغةً رسمية لمدة خمسة عشر عاماً، وتحل الهندية محلها عام 1963، وتختار الدول الأخرى [في المقاطعات] لغاتها الرسمية.

سيضع هذا القرار الاتحاد الهندي على طريق تقسيم الدول على أساس لغوي. وفي سنة 1952 قدَّم نائبٌ شيوعي من البنغال مشروعاً يقضي باعتماد حدود للدول على أساس الوضع اللغوي فيها، ولكن المشروع رُفِض بأغلبية 261 صوتاً في مقابل 77 صوتاً. غير أن الوضع في الجنوب ظلّ صعباً؛ فقد مات في أواخر عام 1952 شخص يدعى بوتي شري رامولو بعد أن أعلن إضراباً عن الطعام من أجل إنشاء دولة للتلغو. وقد أجبرت حركة التمرد العنيفة التي تلت ذلك الحكومة على التصويت لصالح إنشاء دولة أندرا براديش التي جعلت التلغو لغةً رسميةً لها[13]. بعد ذلك اعتمدت مختلف دول الاتحاد لغاتٍ رسمية متنوعة. وهناك اثنتا عشرة لغةً مختلفة في 28 دولةً وإقليماً: إنجليزية، وأساميزية، وبنغالية، وفرنسية، وكجراتية، وهندية، وماراتية، وأورية، وبنجابية، وتاميلية، وتليغية، وأردية.

الوضع إذاً بالغ التعقيد لأن مجمل سكان دولةٍ ما لا يتكلمون بالضرورة لغاتها الرسمية. وهذا ما يظهره الجدول الآتي[14]:

---

(13) Mahadev Apte, «Language, Controversies in the Indian Parliament: 1952 - 1960,» in: O'Barr and O'Barr, eds., *Language and Politics*, pp. 216 - 217.

(14) نقلاً عن ماهاديف أبْت، المصدر نفسه، ص 161، 163، و190: «Eleventh Report of the Commissionner for Linguistic Mino Rities».

الاسم	اللغة الرسمية	اللغة المحلية الأساسية (في المئة)	اللغات الأقلية الأساسية (في المئة)
أولاً: الدول			
1 ـ أندرا براديش	تِلغية	تلغية (85,9)	أردية (7,1) لمبادية (1,62) تاميلية (1,55)
2 ـ أسام	أساميسية	أساميسية (57,14)	بنغالية (17,6) هندية (4,4) بودوية (2,9)
3 ـ بيهار	هندية	هندية (44,3)	بيهارية (39، 35) أردية (8،93) سانتالية (3,57)
4 ـ كجرات	كجراتية وهندية	كجراتية (90,5)	أردية 2,8) سندية (2,42) بهيلية (1,34)
5 ـ هريانا	هندية	هندية (88,6)	بنجابية (8,1)
6 ـ هيماشال برادش	هندية	لا شيء	باهادية (38,4) هندية (10,6) مارديالية (16,7)
7 ـ جامو وكشمير	أوردية	كشميرية (54,4)	دوغرية (24,4) بهارية (6,84)
8 ـ كيرالا	الإنجليزية	مالايالامية (95,04)	تاميلية (3,12)
9 ـ ماديا براديش	هندية	هندية (78,07)	راجاستانية (4,9) ماراتية (3,8) غوندية (3,2)
10 ـ ماهاراشترا	ماراتية	ماراتية (76,5)	أردية (6,8) هندية (3,1) كجراتية (2,7)
11 ـ ميسور	إنجليزية	كناغية (65,1)	تلغية (8,6) أردية (8,6) ماراتية (4,5)
12 ـ ناغالاند	إنجليزية	لا شيء	كونياكوية (15,4) سِماوية (12,8) أنغمائية (11،4)
13 ـ أوريسا	أورية وإنجليزية	أورية (82,3)	كُوية (2,9) تلغية (2,2) سانتالية (2,1)
14 ـ بنجاب	بنجابية	بنجابية (67,2)	هندية (35,2)
15 ـ راجستان	هندية	راجستانية (56,49)	هندية (33,32) بهيلية (4,13) أردية (2,5)

16 ـ تاميل نادو	تاميلية	تاميلية (83,1)	تلغية (9,9) كناغية (2,8) أوردية (1,8)
17 ـ أُتّار براديش	هندية	هندية (85,3)	أوردية (10,7) كومونية (1,3) غروالية (1)
18 ـ بنغال الشرقية	بنغالية	بنغالية (84,28)	هندية (5,4) سانتالية (3,27) أوردية (2,3)
ثانياً: الأقاليم			
1 ـ أبْدَمان ونيكوبار	إنجليزية وهندية	لا شيء	نسيكوبارية (21,9) بنغالية (21,8) مالايالامية (10,5)
2 ـ شانديغار	إنجليزية	دون معطيات	دون معطيات
3 ـ دادرا وناغر هافِلي	إنجليزية	فارلية (51, 47)	كجراتية (19,5) كونكانية (12,9) دوديائية (6,9)
4 ـ دِلهي	هندية وإنجليزية	هندية (77,3)	بنجابية (11,9) أوردية (5,7) بنغالية (1,3)
5 ـ غُوا دَمان وذْيو	إنجليزية	كونكانية (88,8)	كجراتية (5,5) ماراتية (1,8) أوردية (1,5)
6 ـ لاكاديف وجزر مينيكوي	إنجليزية	مالايالامية (83)	محلية (16,7)
7 ـ مانيبور	إنجليزية	مانيبورية (64,46)	تانغولية (5,6) تادوية (3,6) ماوية (3,6)
8 ـ نِفّا	لا معطيات	لا معطيات	لا معطيات
9 ـ بونديشيري	إنجليزية وفرنسية	تاميلية (88,2)	مالايالامية (5,6) تلغية (4,4)
10 ـ تريبورا	بنغالية	بنغالية (65,2)	تريبورية (24,8) مانيبورية (2,4)

نجد إننا هنا أمام وضع محلي متعدد الطبقات؛ فمن المفارقة أن نجد فيه دولاً لا يتكلم اللّغة الرسمية فيها إلا قلة من الناس (مثل الأوردية في جامو وكشمير، والهندية في راجستان)، وأن نجد بصورة خاصة، بين دولةٍ ما من هذه الدول ودولة الاتحاد الهندي، ثلاث لغاتٍ رسمية يضاف إليها عددٌ من اللغات المحكية.

بقيت مشكلة لغة الاتحاد الهندي والموعد الذي حدده الدستور لنفسه بحلول عام 1963. الواقع أن وضع دولِ الجنوب جعل من غير الممكن اعتماد الهندية لغةً رسمية وحيدة، ولذلك صوِّت عام 1963 على قرار لغوي رسمي ينصّ على أن تبقى الإنجليزية إلى جانب الهندية لغةً رسمية. وهو قرار عزَّزه تعديلٌ صدر عام 1967 تحتفظ الإنجليزية بموجبه بموقعها إلى أجلٍ غير مسمى.

مثال غينيا

غينيا هي البلد الوحيد في أفريقيا الناطقة بالفرنسية الذي صوَّت بـ «لا» على الاستفتاء الذي اقترحه الجنرال ديغول عام 1958. فضلاً عن ذلك، تتفرد غينيا باختيارها سياسةً لغوية لـ «إزالة الاستعمار»، أي إنها خلافاً لجميع البلدان الأفريقية الأخرى التي كانت تستعمرُها فرنسا (لا نتحدث هنا عن بلدان المغرب العربي)، قامت في وقتٍ مبكرٍ جداً بترقية بعض اللغات الأفريقية بجعلها لغاتٍ وطنيةً مستخدمةً فعلاً في تكوين الراشدين وفي التعليم. وقد قامت غينيا لهذا السبب ولأسباب سياسية مباشرة، بدور هامٍّ في أفريقيا خلال عشرين عاماً، إذ اعتبر عددٌ من الأفارقة الرئيس الغيني سيكوتوري رمزاً للكفاح في وجه الاستعمار الجديد لأنه يعارض سياسة بلادهم. ولذلك، فإن تحليل السياسة اللغوية لغينيا يكتسب أهمية خاصة.

في غينيا ما يقرب من عشرين لغةً أفريقية بحسب الإحصاء الذي جرى عام 1982 تحت رعاية البنك الدولي:

اللغات الغينية الأساسية وعدد الناطقين بكل لغة	
بولار (بل) (peul) (Pular)	12000000
مالينكيه (Malinké)	750000
سوسو (Soso)	650000
لوما (توما) (toma) (Loma)	350000
كبيلووو (غير زي) (guerzé) (Kpéléwöö)	300000
كيزييه (Kisié)	250000
أونييان (بساري) (bassari) (Onëyan)	75000
وام (كونياغي) (koniagui) (Wame)	60000
باغا (Baga)	40000
نالو (Nalou)	25000
توباكاي (Toubakay)	20000
لاندوما (Landouma)	15000
ليلي (Lélé)	15000
ديالونكا (Dyalonka)	10000
يولا (Yola)	4500
ميكيفوري (Mikiforé)	4000
كونو (Könö)	3000
كونيانكيه (Konianké)	2500
ماندينيي (Mandenyi)	2000
توماماناين (Tomamanian)	2000
(يشير القوسان إلى الاسم الذي كان للغة إبان الحقبة الاستعمارية)	

تتعلق أرقام هذا الجدول باللغات التي هي لغاتٌ أولى. وتجب الإشارة، فضلاً عن ذلك، إلى أن ثلاث لغات فيه وهي بولار، ومالينكيه، وسوسو تقوم بدور لغات نشرٍ في بعض المناطق. وقد اختار الحزب الديموقراطي الغيني اللغات الثماني الأكثر انتشاراً لغاتٍ وطنيةً ليطلق ابتداء من عام 1962 حملة تخطيط في اتجاهين: اتجاه الأشخاص الراشدين، واتجاه المدرسة.

أُطلقت أربع حملات متتالية لمحو الأمية في اللغات الوطنية الثماني. أشرفت على الأولى والثانية منهما عام 1962 وعام 1964 الدولة الغينية إشرافاً كاملاً. أما الثالثة فقد أُطلقت عام 1970 بمساعدة اليونيسكو. في هذه الفترة قررت المنظمة الدولية بعد المؤتمر الذي عقدته في طهران أن تغيِّر سياسة محوِ الأمية التي تتبعها؛ فقد قررت اعتماد سياسة **محو الأمية الوظيفي** لتفادي عودة الأمية التي لوحظت عند تقويم عددٍ من حملات محو الأمية السابقة. يقوم محو الأمية الوظيفي على عددٍ من المبادئ البسيطة: محوِ الأمية في اللغة الأم أو في لغةٍ إقليمية يستخدمها الراشدون (لم يكن الأمر دائماً كذلك في الحملتين السابقتين؛ فقد كانوا يمحون الأمية في الإنجليزية والفرنسية، لأن غينيا تمثّل استثناءً في أفريقيا)، وربط محوِ الأمية بعملية التنمية، فمزارعو الذرة البيضاء مثلاً يتعلمون في الوقت نفسه القراءة والكتابة والتقنيات الزراعية الحديثة، ويستمرون في استعمال معرفتهم الجديدة بعد الحملة لأنهم يستمرون في تلقي النشرات والكتب التقنية المتعلّقة بزراعة الذرة البيضاء، والسماد، والمحراث، وغير ذلك. وقد يتلقون في الوقت نفسه الصحف ونشرات الإذاعة . . . إلخ.

غير أن خيارات السياسة الدولية لغينيا سوف تدخل في تعارض مع ضرورات محو الأمية: قطعت غينيا علاقاتها الدبلوماسية مع اليونيسكو عام 1971، فلم تسفرِ الحملة التي كانت قد بدأت بها قبل عام عن نتيجة. وقد استأنفت غينيا هذه الحملة عام 1973 من دون نجاح كبير على ما يبدو (فليس عندنا تقويم يمكن الركون إليه لهذه الحملات الأربع).

لم يدخل الإصلاح المدرسي حيز التنفيذ إلا عام 1968 : وقد قضى بأن يكون التدريس في السنة الابتدائية الأولى تدريساً خالصاً باللغة الإقليمية، أي بإحدى اللغات الثماني التي لها هذا الموقع. ويقوم المشروع على التقدم سنةً في كل سنة بحيث يغطي السلك الابتدائي بكامله عام 1974. في موازاة ذلك، تدخل الفرنسية بمعدل أربع ساعات في الأسبوع ابتداءً من السنة الثالثة الابتدائية. أما التعليم الثانوي فيكون بالفرنسية، وتدرَّس اللغات الوطنية في التعليم الثانوي من دون أن تكون هي نفسها لغة التعليم.

سوف يلاقي هذا البرنامج في الواقع كثيراً من الصعوبات؛ فقد طرح تكوين المعلمين مشكلةً منذ البداية لأنَّ تكوين القدامى منهم كان بالفرنسية، وكان عليهم أن يتعلموا القراءة والكتابة باللغة الوطنية، وأن يعلِّموا القواعد والحساب والمواد الأخرى بهذه اللغة. أما الجدد من المعلمين فكان ينبغي تكوينهم في آجال قصيرة. ولذلك فُتحت دورٌ متخصِّصة للمعلمين مكلَّفةٌ بإعداد المعلمين اللازمين. غير أن هذا الأمر واجه مشكلةً جديدة هي غياب الكتاب المدرسي. كانت المطبعة الوحيدة في العاصمة كوناكري أعجز من أن تستطيع تلبية الحاجات، ولذلك ظلت المخطوطات التي سلَّمها الباحثون إليها في مجالات التربية مخطوطةً مرميَّة في الأدراج. وفي عام 1978 كان برنامج إدخال اللغات الوطنية إلى المدرسة قد تأخر أربع سنوات. اتُّخذ قرار بخفض عدد لغات التعليم من ثمانية إلى ستة باستبعاد لغتين هما الأونيانيَّة والواميَّة اللتين لم يكن يوجد عددٌ كافٍ من المدرِّسين المؤهَّلين لهما. وقد أُدخِلت هاتان اللغتان في السنة الثانية من التعليم الثانوي عام 1983 فيما كان يلحَظ البرنامج الأصلي أن يكون ذلك في عام 1976. وبهذا يكون البرنامج قد تأخر ثماني

سنوات. وقد ظهرت مشكلةٌ أخرى في أثناء التطبيق، وهي تنوُّع اللهجات في اللغات الوطنية، ولذلك أُنشئت عام 1972 أكاديميةٌ للغات كُلِّفت بالعمل على توحيد الأشكال اللهجية المختلفة.

في ظل فشل نسبي للمشروع، كانت الوفاة المفاجئة للرئيس سيكوتوري في عام 1984، فقرر الحكَّام الجدد في ضوء ذلك، وفي ضوء ردود الفعل التي تلَت على تجاوز السلطة، أن يعودوا إلى اعتماد التعليم بالفرنسية وحدها. وكلِّفت أكاديمية اللغات ببساطة أن تدرس احتمال اعتماد لغةٍ وطنية واحدة لتوحيد البلد بعد مهلة ستِّ سنوات، أي في عام 1990.

لن نناقش الخيارات الجديدة للحكومة الغينية، ولكننا نحاول الإحاطة بأسباب فشل التجربة لأن من الواضح أنه لو كانت سياسة سيكوتوري اللغوية قد نجحت لما غيَّرها الذين خلفوه.

هناك أولاً أسباب فنية:

ـ غياب وثائق مكتوبةٍ للراشدين، وندرة الكتب المدرسية جعلا التخطيط معلقاً في فراغ، من دون أرضية صلبة يستند إليها.

ـ ويمكن أن يقال الأمر نفسه بالنسبة إلى المعلمين والعاملين في مجال محو الأمية الذين كانوا يفتقرون إلى التكوين الكافي.

ـ ويبدو أخيراً أن الإصلاح اللغوي قد انطلق بأسرع مما كان ينبغي دون القيام بالدراسات اللغوية الممهِّدة له (وصف اللغات، ووضع نظام كتابي لها، وتوحيد البدائل اللهجية ... إلخ).

ولكن هناك أيضاً، وربما قبل ذلك، أسباباً سياسيةً لهذا الفشل، لأنه يمكن التدريس إن اقتضى الأمر من دون كتاب مدرسي، ومن دون سبّورة، ومن دون دفتر. إلا أن من الصعب التدريس خلافاً لرأي

الأهل، ولرأي المعلمين؛ فقد كان البلد خارجاً من فترة طويلة كانت اللغة الفرنسية فيها لغة الترقي الاجتماعي. صحيح أنه تَرَقٍّ فردي لا اجتماعي، ولكنه ترقٍّ ظاهر ملموس. وكان أهل التلاميذ جميعاً يعرفون على وجه الخصوص أن أولادهم لا يستطيعون نيل الشهادات و«النجاح» في الحياة إلا إن كانوا يحسنون هذه اللغة. كان إدخال اللغات الوطنية إلى المدرسة يستدعي حملة شرحٍ وتوعيةٍ لم تحدُث، فلم يقتنع الأهل، والمعلمون، ونُخَب البلد بالأسباب الموجبة لهذا الإصلاح. أضِف إلى ذلك أن تقسيم البلد إلى ثماني مناطق (ثم إلى ست مناطق) يثير مشكلاتٍ فنيةً أمام قطاعات مثل الموظفين على سبيل المثال، الذين إن اضطروا إلى الانتقال من منطقة إلى أخرى لأسباب وظيفية فإنّهم سيجدون أولادهم ملزمين بتغيير لغة التعليم. تبيِّن هذه الأسباب مجتمعةً أن السلطة السياسية كانت ضحية نوع من التسرُّع ومن التصور البيروقراطي للتخطيط اللغوي. كل ذلك يجعل التجربة الغينية تجربة غنية بالدروس والعِبر وإن كانت لم تستطع، في نهاية المطاف، أن تؤدي خدمة إلى قضية اللغات الأفريقية لأن الهوَّة التي تفصل بين الآمال التي علّقها بعضُهم عليها وبين النتائج التي توصلت إليها هوةٌ واسعة جداً.

مناقشة

بين الصين والهند وغينيا التي عرضنا سياساتها اللغوية عددٌ من المسائل المشتركة:

- في الحالات الثلاث كانت الدولة تواجه إقليماً متعدد اللغات. ويمكن في الحالات الثلاث اكتشاف ميل إلى تكوين الوحدة اللغوية. وبعد أن حاولت غينيا تنظيم دولةٍ ذات ثماني لغات وطنية، ثم ذات ست، عادت ووجَّهت اختيارها نحو لغة وطنية واحدة. وحلمت الهند

طويلاً بأن تجعل من الهندية لغةً وطنية وحيدة. وتحاول الصين، مع احترامها للغات الأقليات، أن تقيم عند الغالبية من « لهان» لغةً واحدةً هي البو تونغ هوا، أي إننا نشهدُ في السياسات اللغوية فكرةً كامنةً ترى أنَّ الدولة تتجسَّد في أمة **واحدة**، وأنَّ هذه الأمة الواحدة تتجسد بدورها في لغة **واحدة**.

ـ ونجد في الأمثلة الثلاثة تكريس الفارق بين الدولة والأمم التي تشملها، رغم أن في هذا التكريس مفارقةً وتناقضاً مع الميل الذي أشرنا إليه نحو التوحُّد اللغوي. وهذا الأمر واضح في غينيا التي تفرِّق ما بين اللغة الرسمية **الواحدة** (وهي الفرنسية) واللغات الوطنية **المتعددة** (ثماني لغات أفريقية معتمدة ثم ست لغات). وهو واضح في الصين حيث يستقر ببطءٍ تعايشٌ بين **اللغة الوحيدة** للدولة، بو تونغ هوا، ولغات الأقليات. وهو واضح كذلك في الهند حيث يُميَّز بين اللغتين الرسميتين للاتحاد الهندي (الإنجليزية والهندية) ولغات مختلف الدول والأقاليم المكوِّنة لهذا الاتحاد. وينتج هذا التناقض عن قوَّتين لا تسيران بالضرورة في اتجاه واحد: أولاهما إدارة التعدد اللغوي **على الأرض**، أي **في الجسم الحي**، وهي الإدارة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، وثانيتهما إدارة هذا التعدد **في بيئة مصطنعة**، أي **في مختبرات** المخططين. وتكشف هذه السياسات اللغوية بعبارة أخرى، صراعاً مزدوجاً: صراعاً بين الممارسة الاجتماعية وسلطة الدولة من جهة، وصراعاً بين الحدود اللغوية وحدود الدول من جهة أخرى. إننا هنا أمام مستوى من حروب اللغات نسميه الحرب **الداخلية**، وهي الحرب التي تنشب بين لغاتٍ في حدود الدولة الواحدة. ويتراءى خلف هذه الحرب الداخلية صراعٌ من أجل السلطة: حيث تسعى لغة العاصمة، أو لغة العرق الغالب أن تفرض نفسها لغةً وحيدة تستبعد الأخريات، وبذلك يحاول المتحدِّثون بها أن يفرضوا ثقافتهم على الآخرين.

ـ ونجد فضلاً عن ذلك في المثالين الغيني والهندي، أي في أوضاع التخلص من الاستعمار، بحثاً عن تمايز لغوي عن النظام اللغوي الاستعماري. ومهما كان الخلاف بين المثالين فإن المشروع يبقى في حقيقة الأمر واحداً، وهو إثبات القدرة على التخلص من الفرنسية لإقامة دولة حديثة قائمة على لغة محلية أو على عدد من اللغات المحلية في ما يتعلق بالبنى الخاصة بالتواصل. ويكاد هذان البلدان لا يأتيان بجديد في هذه المسألة لأنهما يحاولان إنتاج النموذج نفسه الذي أتت به القوى الاستعمارية التي يريدان التمايز عنها، وهو نموذج الدولة الأحادية اللغة. ونجد هنا الفرق الذي أدخلناه بين ما هو عملي وما هو رمزي: فالإنجليزية تبقى اللغة الرسمية في الهند لأسباب عملية، وقد حاولوا أن يحلّوا الهندية محلَّها لأسباب رمزية.

ـ هناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام في المقارنة بين هذه الأمثلة الثلاثة، وهي اللحظة التي بدأ فيها طرح مسألة السياسة اللغوية: فهي في الصين في أثناء الحركات الثورية عام 1919، ثم بعد ثورة 1949، وهي في الهند أيام الاحتلال البريطاني، ثمّ في وقت الاستقلال، وهي في غينيا أيام الاستقلال.

تعني هذه الملاحظة أن المشكلة اللغوية لا تُطرح في فترة الهدوء، بل تبرز إما في وقت تكوُّنِ الدولة، وإما في وقت مقاومة السلطة الأجنبية. نؤكِّد مرة أخرى أن حرب اللغات ليست سوى المظهر اللغوي لحربٍ أوسع. فإن أخذنا التاريخ المحوري للظهور الرسمي للدولة إلى الوجود (الاستقلال، الثورة) مقياساً ومعلماً، رأينا أن المثال الغيني يختلف عن المثالين الآخرين في أن المشكلة اللغوية فيه قد طرِحت **بعد** تكوّن الدولة بينما كان **قبل** ذلك في الهند والصين.

ويمكن أن يمثّل لهذا الوضع تمثيلاً سهلاً في الجدول الآتي:

بروز المسألة اللغوية		
	قبل ولادة الدولة	بعد ولادة الدولة
مشاكل عملية	كيف نتحدث إلى الناس، القيام بالدعاية والنضال من أجل الاستقلال	إدارة الشؤون اليومية، التربية، الترقية الجماعية، إخضاع الأقليات، تثبيت سلطة الدولة
مشاكل رمزية	كيفية تأكيد الوجود الوطني مقاومة الاستعمار	تعزيز الوحدة الوطنية، إبراز الحدود

المطالبة بـ «لغة وطنية» (غيو يو gyu yu) في المثال الصيني عام 1919 مطالبةٌ رمزية، ولكن برنامج «اللغة المشترَكة» (بو تونغ هوا) بعد عام 1949 برنامجٌ عملي وإن كان هذان المفهومان [أي مفهوم اللغة الوطنية ومفهوم اللغة المشتركة] مترادفين من الناحية اللغوية، ويعودان إلى لغة واحدة. أما في الهند فإن تعارض الهندية والأرديّة، أو موقفي غاندي ونهرو المؤيدين للهندوستانية قبل الاستقلال فمواقف رمزية. غير أن النقاش في الجمعية التأسيسية عن لغة الاتحاد الهندي موقف عمليّ بامتياز. وتظهِر لنا العلاقة بين المسألة اللغوية ومسألة الدولة التي اعتمد في أمثلتها التي أعطيناها هنا على التعددية اللغوية في نهاية المطاف، تظهر أن اللغة تشكّل رهاناً هائلاً. ورغم الاتجاه إلى احترام اللغات المحلية والتنوعِ الظاهر في هذه الدول الثلاث، فإن خطّاً واضحاً يبرز إلى العلن، تدفع فيه السلطة إلى الأحادية اللغوية وفرض لغتها على رعاياها.

الفصل الثاني عشر

دراسة أمثلة تطبيقية: التخطيط اللغوي والشعور الوطني

سندرس الآن مثالين هما مثال النروج وتركيا، وهما مثالان لا تقوم المشكلة فيهما على إدارة التعدد اللغوي (وإن كان هذان البلدان لا يشكِّلان في حقيقة الأمر بلدين أحاديَّي اللغة: ففي تركيا أيضاً لغةٌ للأكراد، وفي النروج أيضاً لغة لابّون (Lapon)، ولكن على إدارة اللغة نفسها، فإننا نجد في هذين البلدين إرادةً سياسية واحدة تقوم على تكييف اللغة لتكييف البلد نفسه. وسنرى فيهما تشكُّل فكرةٍ معيَّنة عن الوطن عبر التأثير في اللغة.

مثال النروج

أصل المشكلة اللغوية النروجية كأصلها في الأمثلة السابقة، حدثٌ سياسي؛ فبعد ثلاثة قرون من الهيمنة على النروج (من 1523 إلى 1814) وَجدت الدانمرك التي كانت تخوض حروب نابوليون بجانب بريطانيا العظمى، نفسها ملزمةً بضغط من برنادوت للتنازل عن هذه الهيمنة لصالح السويد (معاهدة كييل (Kiel)، 1814). وفي محاولة لتفادي انتقال السيادة قامت الدانمرك بمناورة في الساعات

الأخيرة، فأعطت للنروج دستوراً ليبرالياً جداً سمّي بـ «دستور إديسفولد» (Edisvold)، ومجلساً للنواب يسمى ستورتنغ. ستسمح هذه الإجراءات التي لن تقوم السويد بإلغائها، بأن نعرض النقاشات التالية بشأنها.

يميِّز هوغن (E. Haugen)، التي تعتبر دراساته عن الحال السويدية مرجعاً يمكن الركون إليه، خمسة أشكال لهجيةٍ في تلك الفترة:

1 ـ الدانمركية الصافية التي يستخدمها بعض المهاجرين. وهي بشكل خاص لغة المسرح الذي كان يهيمن عليه الممثلون الدانمركيون.

2 ـ اللغة الأدبية القياسية، أي اللغة الدانمركية التي ينطق بها على الطريقة النروجية. وكان مستخدموها الأساسيون من المعلمين في المدارس، ومن الأساقفة في المعابد.

3 ـ اللغة القياسية العائلية التي تستخدمها الطبقات المثقفة يومياً، وهي لغةٌ وسطٌ بين النوعين السابقين والنوعين التاليين.

4 ـ اللغة القياسية العائلية للمدن، وهي لغةٌ تختلف من مدينة إلى أخرى، وتتكلم بها الطبقات الشعبية.

5 ـ اللهجة القروية للمزارعين وصيادي الأسماك والتي تختلف من قرية إلى أخرى[1].

لم يكن المتحدثون باللغتين الواقعتين على الطرفين في هذا التصنيف يفهم بعضهم بعضاً، أي إن مزارعاً يتكلم بلهجته القروية

(1) Einar Ingvald Haugen, *Language Conflict and Language Planning; the Case of Modern Norwegian* (Cambridge: Harvard University Press, 1966).

وأستاذاً يتحدث اللغة القياسية الأدبية لم يكن بإمكانهما التواصل. وعلى العكس من ذلك كان التفاهم ممكناً بين أبناء طبقة معينة وأبناء الطبقة التي تسبقها، أو التي تليها.

كان الأثر اللغوي للدانمركية التي هيمنت طويلاً يتعايش مع تنوّع اللهجات الشعبية النروجية. وقد أرادت النُّخبة ذات الشعور الوطني أن توحِّد البلد عن طريق اللغة لتفصل فصلاً واضحاً بين ما هو دانمركي وما هو نروجي، فتواجهت سريعاً مقاربتان مختلفتان: اقترح كنود كنودسن (Knud Knudsen) (1812 ـ 1895) من جهة أن يُعتمد على **اللغة المستخدَمة في المدينة** (byfolkets talesprog)، وأن يُنطق بالدانمركية على الطريقة النروجية للوصول إلى «**نُطق وطني نروجي**» (den landsgydige norske uttale). واقترح إيفار آسين (Ivar Aasen 1813 ـ 1896) من جهة أخرى أن يُعتمد على اللهجات القروية التي يعتبرها وريثاً للنروجية القديمة. وقد خصص عدداً من الكتب لنحو هذه اللغة ومعجمها، وسمَّى هذه اللغة تسميات مختلفة: «**لغة شعبنا**»، «**اللغة الشعبية النروجية الحقيقية**»، «**اللغة الوطنية النروجية** (norskje landsmaal)، وأخيراً «**النروجية**». غير أنه لم يبق من هذه الأسماء إلا اسم «**لغة الوطن**»(*) (Landsmaal)، الذي لم يكن في بداية الأمر إلا فكرةً عن اللغة، واتجاهاً للبحث قائماً على اللبس الذي تعبّر عنه كلمة (Land) في النروجية، التي يمكن أن تعني الريف كما يمكن أن تعني البلد، أي إنها تعني عموماً «الأرض».

وسيتحرك أنصار «اليسار» متجمعين حول هذه الفكرة لتوحيد

(*) هذه الكلمة مركبة من كلمتين هما (لانْد) التي تعني في النروجية «الأرض» أو «الوطن»، و(مال) التي تعني «القول، اللغة».

الوطن النروجي لغوياً، ولمواجهة التفوق اللغوي للطبقات الحاكمة.

في المقابل، سوف يتجمع المؤيدون لـ «كنود كنودسن» حول فكرة rigsmaal (هي كلمة مركبة، على غرار الكلمة الألمانية reichssprache)، التي تعني اللغة القياسية الأدبية(*)، والتي سيسميها الخصوم من باب السخرية (dansk)، أي «الدانمركية»، أو (dansk-norsk)، أي «الدانمركية النروجية».

وقد شهدت النروج فترة اضطرابٍ في آخر القرن التاسع عشر حول الثنائي «لغة الوطن» أو «لغة الأرض» (لاندسمال Landsmaal) من جهة، و«اللغة القياسية» (ريغسمال Rigsmaal) من جهة ثانية.

تركز النقاش سريعاً على مسألة الخط: كيف يمكن إبعاد خط اللغة القياسية (ريغسمال) عن الخط الدانمركي ليقترب من خط «لغة الأرض» (لاندسمال). وهكذا ابتداء من عام 1905، وهو التاريخ الذي نالت فيه النروج استقلالها نهائياً بعد فسخِ اتحادها مع السويد، سوف تتوالى اللجان اللغوية، بالموازاة مع إصلاحاتٍ للخط يصوِّت عليها البرلمان (1907، 1913، 1916، 1923، 1934، 1936 . . . إلخ).

يعلق هوغن على الوضع قائلاً: «أعطى إصلاحان جريئان للخط في عقدٍ واحد وجهاً جديداً تماماً للغة القياسية يصعب معه تشبيهها باللغة الدانمركية»[2].

لم يكن إصلاح الخط سوى واحدٍ من الأهداف التي تقضي

(*) كلمة (ريغْسْمال) مركبة من كلمتين هما (ريغ) التي تعني في النروجية « الدولة» و (مال) التي تعني «القول، اللغة»، أي «لغة الدولة»، وكانت اللغةَ الدانمركية، ثمّ أصبحت (ريكسمال) ثمّ (بوكْمال) أي «لغة الكُتُب».

(2) المصدر نفسه، ص 103.

بتمييز اللغة القياسية النروجية من الدانمركية تمييزاً واضحاً. ويبقى الهدف الآخر وهو المشروع الذي يقضي بتوحيد النروج لغوياً. لقد استمر الانقسام اللغوي صورةً للانقسام الاجتماعي؛ فالطبقات الحاكمة من جهة تتكلم لغةً قياسية قريبةً من اللغة المكتوبة التي يسمونها (ريغسمال) أي «اللغة القياسية»، ومن الجهة الأخرى الطبقات الشعبية التي تستخدم شكلاً أقرب إلى اللهجات المحلية التي يسمونها (لاندسمال) أي «لغة الوطن» أو «لغة الأرض». هذه الصورة على ما فيها من تبسيط ليست بعيدةً جداً عن الحقيقة، وقد استخدمها على كل حال الحزب الشيوعي النروجي الذي كان يقوم بدور سياسي هام في الثلاثينيات، وكان يردِّد أن الصراع من أجل اللغة الشعبية جزء من صراع الطبقات.

لم يكن النقاش اللغوي عبر تاريخ النروج نقاشاً مستقلاًّ عن النقاش السياسي، فمنذ الكتابات الأولى لِكنودسِن ولآسين، غيَّر القطبان اللغويان اللذان تحدثنا عنهما أسماءهما كثيراً:

- الدانمركية/ النروجية.
- ريغسمال «لغة الدولة»/ لاندسمال «لغة الأرض».
- بوغسبروغ «اللغة المكتوبة»/ لاندسمال «لغة الأرض».
- بوكمال «لغة الكتاب»/ لاندسمال «لغة الأرض».
- وأخيراً في أيامنا: بوكمال «لغة الكتاب»/ نينورسك «لغة الأرض»(*).

(*) (نينورْسْك) هو الاسم الحالي لِ(لانْدْسْمال) التي كانت تعني: «لغة الوطن» أو «لغة الأرض».

غير أن هذا الزوج كان يمثل دائماً المعارضة السياسية نفسها بين خطين يمكن أن نعرفهما بشيء من التبسيط، بأنهما يمثلان مقاربةً يمينية ومقاربةً يسارية للشعور الوطني. ولذلك فإن إصلاح الخط الذي أقر عام 1938 حين كان الحزب الشيوعي واسع التمثيل في مجلس النواب، قد أُلغي إبان الاحتلال الألماني عام 1941 بتهمة «إدخال دكتاتورية البروليتاريا في المجال اللغوي»، ثمّ أعيد العمل به في عام 1945 بعد التحرير.

تعبّر الطُّرفة الآتية تعبيراً صادقاً عن المناخ السائد؛ ففي عام 1959 ترجم أندريه بييركه (André Bjerke) إلى النروجية الكوميديا الموسيقية لِـ ألان جي لارنر (Alan Jay Lerner): **يا سيدتي الحسناء** (*My Fair Lady*)، المقتبسة من بغماليون لبرنارد شو. ولكي يبيِّن الفارق بين إنجليزية المثقفين التي يمثلها الأستاذ هيغينز، ولهجة «كوكني» لندن «السُّوقيَّة» التي تمثلها إليزا دوليتل يستخدم المترجم «لغة الكِتاب» (البوكمال bokmaal) للأول، والنينورسك (nynorsk)، أي «لغة الأرض، لاندسمال» للثانية، فالوضع اللغوي للنروج يسمح تماماً بهذه المطابقة.

غير أن المترجم كتب في برنامج العرض مقدمةً أثارت الجدل من جديد: «عندنا في النروج وضعٌ غريب، فـ (إليزا دوليتل) هي التي تعلِّم الأستاذ (هيغينز) كيف ينبغي عليه أن يكتب لغته الأم ويتكلمها بشكل صحيح [وليس العكس]. في هذا البلد، لا تبيع إليزا دوليتل زهوراً بريَّةً على الرصيف [كما في الكوميديا المقتبسة من مسرحية بغماليون]، ولكنها تنشر عثرات اللسان في اللجنة اللغوية». يبدو واضحاً أن المترجم كان من أنصار (البوكمال) أي «اللغة الكتابة»؛ فهو يوضح بكثير من الاستفزاز أن مصدره الأساسي المكتوب عن لهجة إليزا كان كتاباً عن المعيار اللغوي نشر عام

1957. ويمكن أن يمثَّل لحدّة الجدال بالمثال الآتي: جاء في النص الإنجليزي:

«هذا [التعبير هو] ما يقول الشعب البريطاني عنه إنه أبسط مبادئ التربية والأدب»،

فقال المترجم في نقله:

«هذا التعبير هو الذي يقول الناس عنه في بلادنا إنه المعيار الجديد للكتاب المدرسي»[3].

أضيف مرة أخرى أن النقاش الذي قدمت ملخَّصاً عنه نقاش في صفوف النخبة، فقد كشف استطلاع للرأي قام به غالوب (Gallup) عام 1946 يهدف إلى الإحاطة برأي النروجيين في المشكلة اللغوية، أن 80 في المئة من السكان يؤيدون اندماج اللغتين في لغة واحدة، وأن 75 في المئة منهم يعتقدون أن لغة (البوكمال) أي «لغة الكتاب» ينبغي أن تكون قاعدة لهذا الاندماج. ويعني هذا الأمر أن النقاش في المشكلة اللغوية، وإن كان ديموقراطياً، لا يعكس فعليا المواقف «التلقائية» للسكان الذين هم أكثر تمسكاً بالمعيار من المخطِّطين، وأقل عداوة للدانمركيين منهم.

مثال تركيا

«الثورة اللغوية» التركية (dil devrimi) أيضاً منتَجٌ من منتجات الأحداث السياسية[4]؛ فقد انتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية

(3) المصدر نفسه، ص 265 وما يليها.

(4) نعتمد هنا بشكل أساسي على بازان في مقالته عن الإصلاح اللغوي في تركيا: L. Bazin, «La Réforme linguistique en Turquie,» dans: *Language Reform: History and Future = La Réforme des langues: Histoire et avenir*, 6 vols., With a Preface by Joshua A. Fishman; Edited by István Fodor, Claude Hagège (Hamburg: Buske, 1983-1994), tome 1, 1996.

التركية عام 1923 بدعم حركةٍ علمانية متحمسة للوطنية ومعاديةٍ للتوجه العثماني، فباشر سلسلة من الإجراءات الهادفة إلى تحديث الدولة لن نتناول منها هنا سوى الإجراءات المتعلقة باللغة والتي تشكل «الثورَة اللغوية». كانت التركية حتى ذلك الحين تُكتَبُ بالحروف العربية، وكانت اللغة الرسمية التي تستخدمها النُّخبة تغص بالمفردات المقترضة من العربية ومن الفارسية فلا يفهمها السوادُ الأعظم من الناس. دفع مصطفى كمال تركيا في عملية واسعة للإصلاح اللغوي، وأُخذت في إطار هذه العملية قرارات نقدِّم في ما يلي قائمة غير مكتملة بها.

- إنشاء لجنة لغوية في عام 1928 مهمتها وضع أبجديةٍ جديدة. وكانت الحجة في ذلك أن الحروف العربية لا تسجّل أصوات التركية تسجيلاً جيداً، فالصوائت القصيرة الثمانية للتركية والصوائت الطويلة الثلاثة مثلاً لا يمكن نقلها بالحركات العربية الثلاث. والحرف العربي الواحد كالواو كان يستخدم لكتابة خمسة أصوات تركية هي (o، ö، u، ü، v)[5]. وقد اعتمدت اللجنة أبجديةً «تركية» تستخدم الحروف اللاتينية، وتكتب الوحدات الصوتية الدنيا للغة المنطوقة، أي فونيماتها بدقة بالغة.

- أقرَّت الجمعية الوطنية هذه الأبجدية في شهر كانون الأول/ ديسمبر 1928 وبُدِئ باستخدامها فوراً في التعليم، وبصورة تدريجية في إدارات الدولة، حيث أخذت تحل محل الأبجدية القديمة في وثائق الإدارة ومطبوعاتها على أن تنتهي العملية في شهر حزيران/ يونيو عام 1930.

- ألغي تعليم العربية والفارسية في المدارس عام 1929.

(5) المصدر نفسه، ص 162-163.

ـ وكان من النتائج المنطقية للقرارات السابقة أن يُلزم بقراءةِ **القرآن** بالتركية لا بالعربية ابتداء من عام 1931. وهو أمرٌ يشكِّل هرطقةً حقيقية عند المسلم الملتزم لأن الله أنزل **الكتاب المقدس** باللغة المختارة، وهي العربية.

ـ أُنشئت في عام 1932 «جمعية دراسة اللغة التركية» التي كلِّفت بـ «تنقية» اللغة التركية، أي باختيار كلماتٍ مشتقة من أصول تركية لتحل محلَّ الكلمات المقترضة، وذلك باختيار كلماتٍ تركية قديمة ميتة، أو كلماتٍ عامية حية، أو كلماتٍ مقترضة من لغاتٍ تنتمي إلى العائلة اللغوية نفسها، كاللغة الأذربيجانية وغيرها. وقد اقتضت هذه العملية مشاركة عددٍ كبير من المتطوعين («علماء وأساتذةٍ ومدرِّسين وموظفين وضباط» على حدِّ قول بازان) الذين أرسلوا إلى جمعية دراسة اللغة التركية آلاف البطاقات التي كانت تُفرز بعناية، وتطبع بعد ذلك. وهكذا نشر في عام 1934 كتاب في 1300 صفحة (مصنَّف الفرز) يعتمد على 125000 بطاقة، تبعه في عام 1939 مصنَّف المفردات المعجمية المجموعة.

ـ صدِّق في شهر حزيران/ يونيو من عام 1934 على قانون يلزم المواطنين بأن يتسمَّوا بأسماء ذات أصلٍ تركي، فسمى مصطفى كمال نفسه باسمِ (أتاتورك) أي «أبو تركيا» ليقتدي به الناس.

ـ نشر قاموس للتركية القديمة والحديثة، كما نشرت قواميس للغاتٍ أخرى تنتمي إلى المجموعة اللغوية نفسها (الكيرغيزية والياقوتية)، وكتب في النحو، وكتب مدرسية تأخذ في حسابها هذه الإصلاحات، وكتب تعميمية موجهة إلى الجمهور الواسع من القراء . . . إلخ.

يبدو واضحاً ما في هذا الإصلاح من طابع جذري، وما فيه

أيضاً من استفزازٍ في أرض الإسلام؛ ذلك أن اللغة لم تكن وحدها هدف أتاتورك، فقد كانت هذه «الثورة» ترجمةً لغوية لمعركةٍ علمانية تحديثية معادية للعثمانية. غير أن هذا لا يمنع من القول إن هذه «الثورة» قد قلبت اللغة رأساً على عقب. ويذكر بازان أن «أكثر النصوص العثمانية في الفترة المتأخرة التي نُقلت من الأبجدية العربية وكتبت بالأبجدية اللاتينية التركية الجديدة تستعصي على فهم التركي الذي لم يبلغ الستين من العمر إن لم يكن قد حصَّل تعليماً متخصصاً (في مستوى جامعي)»[6]. من هذه الزاوية، تبدو تجربة «الثورة اللغوية» التركية مثالاً فريداً في تاريخ التخطيط اللغوي.

مناقشة

بين التجربة النروجية والتجربة التركية قاسم مشترك؛ فاللغة فيهما كانت ساحةً لمعركة تتجاوز اللغة تجاوزاً بعيداً لأنها الكاشف للسياسة الوطنية.

لئن حاولت السياسة النروجية تأسيس لغةٍ وطنية **واحدة** فلم تنجح، فلأنها أعطت للغة وظيفتين في وقتٍ واحد: وظيفة التوحيد، ووظيفة التمايز، فقبل أن تكون هذه اللغة لغةً نروجية، أي قبل أن تكون لغة توحيدٍ للبلد، كان يُسعى بصورة ملتبسة من أيام كنودسين (Knudsen) أو آسين (Aasen)، إلى أن لا تكون لغةً دانمركية، أي إلى أن تميِّز البلد. إن إرادة تأكيد الذات متميزةً عن الآخر في الخط أولاً، وذلك بمحاولة فرض كتابة النطق النروجي، تظهر لنا أن **شكل** اللغة نفسه يمكن أن يكون مجالاً للصراع السياسي.

وتشكِّل «الثورة اللغوية» التركية مثالاً صارخاً على ذلك. قلنا

(6) المصدر نفسه، ص 155.

سابقاً إن التأثير في اللغة لقلب شكلها في وقت قصير جداً ينبغي النظر إليه على أنه الجانب اللغوي لسياسة تحديث مبنية على معارضة آثار الإمبراطورية العثمانية من جهة، وعلى إرادة العلمنة من جهة ثانية. لقد فرض هذا الإصلاح فرضاً في مواجهة التراث الإسلامي بتغيير الأبجدية، وبإلغاء تدريس العربية والفارسية في المدارس، وبقراءة **القرآن** بالتركية. ولم يكن ممكناً أن يشعر رجال الدين إلا بأن هذا عدوان متعمد.

غير أن الدروس المستخلصة من التجربتين السابقتين أكثر شمولاً وعموماً كما يتضح في ما يلي:

1 ـ النقطة الأولى التي تلتقي فيها هاتان التجربتان هي العلاقة بين الشعور الوطني والسياسة اللغوية، ففي المثالين تتراءى صورة البلد خلف إصلاح اللغة، وفيهما يراد تعزيز أسس الوطنِ بإرساءِ أسس للغة، إذ كانت النروج تريد تأكيدَ وجود منفصلٍ عن الدانمرك، وكانت تركيا تريد القطيعة مع ماضيها العثماني.

ولئن كان الهدف واحداً في المثالين فإن الوسائل كانت مختلفة تمام الاختلاف: إن مجرد عدد الإصلاحات المتتابعة التي أقرَّها البرلمان النروجي يدل على أن هذا البلد قد أدار التخطيط اللغوي فيه إدارةً ديموقراطية؛ فهناك مناقشات عامة، ومناقشات في مجلس النواب، وتصويت... وغير ذلك. في مقابل هذه المناقشات وهذا التردد وهذه العودة إلى الوراء في التجربة النروجية، تمضي «الثورة اللغوية» التركية قدماً دون أن يستطيع أي عائق أن يقف في وجهها، فتغيَّر الوضع اللغوي في تركيا في 15 عاماً أكثر مما تغير الوضع اللغوي في النروج على مدى 150 عاماً. بيد أن لهذه الفعالية التركية ثمناً يظهر الخلاف بينها وبين التجربة النروجية؛ فلقد كانت إدارة التخطيط اللغوي في تركيا إدارةً شديدة الصرامة. ومهما يكن الشأن

في توجُّه مصطفى كمال نحو الحداثة، وفي الدعوة الموجهة إلى السكان ولا سيما في جمع المعطيات المعجمية، فإن طرائقه في الحكم كانت بالغة الاستبداد، فلا يمكن لغير السلطة القوية أن تسم اللغة وسماً بهذا العمق وبهذه السرعة.

رأينا في الفصل السابق، ولا سيما في مثالي الهند وغينيا، أن السياسات اللغوية التي ترعى التعدد اللغوي كانت مدعوةً في نهاية المطاف إلى تأكيد الاختلاف بين الدولة والوطن بإرساء اختلافٍ بين اللغة الرسمية واللغات الوطنية، وهو اختلاف لا يعترف به الآخرون في غالب الأحيان. ومن الجلي أن الأمر على خلاف هذا في المثالين النروجي والتركي حيث تقوم المطابقة بين الدولة والوطن، وتقوم مساواة مزدوجة يتساوى فيها الدولة والوطن واللغة، ويمكن فيها التأثير في الدولة الوطن عبر التأثير في اللغة. وتظهر هذه السياسات اللغوية بجلاء كبير كل ما يختبئ خلف الشعور الوطني، مع فارقٍ بسيط وهو أن الحقد والعنصرية ورفض الآخر لا يتجلى في لون جلده، ولكن في ما يقترضه من مفردات المعجم، وفي ما يعتمده من قواعد الخط، وطريقة النطق، والأبجدية، وغيرها: إنها حرب اللغات.

2 ـ وتتقارب السياستان النروجية والتركية في مسألة أخرى تتعلق بـ «النقاء» اللغوي؛ ففي التجربتين بحث عن الأصالة اللغوية، وعن النسب القديم. حين يقرر مصطفى كمال أن يخلّص اللغة التركية من مفرداتها العربية الفارسية، وأن يستبدل بهذه المقترضات كلماتٍ تركيةً أصيلة، فإن في قراره نوعاً من العودة إلى الأصول لا يخلو من الالتباس.

يشير بازان (Bazin) إلى ما يلي:

«يعني أصحاب «الثورة اللغوية» بكلمة «تركي» كل لغة، قديمةً كانت أو حديثة، تنتمي إلى الأسرة اللغوية التركية: ابتداءً بلغة نقوش الأورخون(*) وانتهاءً باللغات المحكية في تركستان، والقوقاز، والفولغا، وسيبيريا، وغيرها، مروراً بالأويغور(**) والتشاغاتاي(***)، من دون أن ننسى بالطبع عاميَّات الأناضول والبلقان»[7].

يتَّبع آسين (Aasen) المنهج نفسه في بحثه عن اللهجات العامية في الريف، وعن النروجية القديمة، وفي إرادته إرساء أسسٍ جديدة للخط قائمة على نطقٍ نروجي أصيل، أي على نطقٍ غير دانمركي، كما رأينا. يعتمد البحث عن «نقاء» مفردات المعجم على مبدأين لا يسلمان من الاعتراض: أما الأول، وهو ما نسميه بمبدأ تجارة الآثار، فيربط النقاء بالأقدمية في الزمان، فـ «ما ازداد قدماً ازداد فضلاً». وأما الثاني فيربط النقاء بالبلد، فـ «ما ازداد قرباً من البلد ازداد فضلاً». بيد أن مفهوم النقاء نفسه، قبل هذين المبدأين، لا يسلم من الاعتراض، وهو أمر سوف نعود إليه في فصل لاحق نخصصه لأثر السياسات اللغوية على مفردات المعجم.

يعطينا المثالان السابقان النروجي والتركي صورةً شاملة عن مختلف المجالات التي تتعرض لها السياسات اللغوية حين تحاول التأثير في اللغة:

(*) الأورخون اسم واد في منغوليا على اسم نهر فيها يبلغ طوله 1124 كم، وهذه المنطقة مهد جنكيز خان.

(**) هي لغة النويغورجه التي تنتمي إلى الأسرة التركية في آسيا الوسطى، ولا سيما في كازاخستان.

(***) لغة من الأسرة التركية كانت في القرون الوسطى في منطقة تشاغاتاي في منغوليا، ويعود الاسم إلى تشاغاتاي الابن الثاني لجنكيز خان.

(7) المصدر نفسه، ص 167.

ـ **الخط**: الخط مسألة رئيسة في قلب السياسات اللغوية، سواء أتعلق الأمر بتغيير الخط كما في المثال النروجي، أم بتغيير الأبجدية، كما في المثال التركي، أم باعتماد أبجديةٍ ما للغاتٍ غير مكتوبة، كما في أمثلة كثيرٍ من البلدان، ولا سيما في أفريقيا. وسوف نخصص لهذه المسألة فصلاً نسميه (حرب الكتابة).

ـ **المعجم**: كانت المسألة اللغوية التركية كما رأينا، مسألة «تنقية» وعودةٍ إلى الأصول. غير أن السياسات اللغوية غالباً ما تواجه مشكلة تحديث مفردات المعجم، وتطويع اللغة في مجالات التواصل (في العلوم والتعليم وغير ذلك) التي لم تكن مستخدمةً فيها، أي مشكلة التوليد والاقتراض التي نخصص لها أيضاً فصلاً نسميه: (حرب الكلمات).

ـ **اللهجات**: حين تصبح إحدى اللغات التي كانت مغلوبةً في موقع اللغة الرسمية أو اللغة الوطنية فإنها غالباً ما تواجِه مشكلة البدائل اللهجية. ويقدم مثال **لغة الأرض** (لاندسمال) النروجية شهادةً حقيقية عن الصعوبات التي تعترض طريقنا حين نحاول توحيد الأشكال المتباعدة، وتنميط اللغة الموحدة. يغلب على هذه المحاولة في المثال النروجي الطابع الأيديولوجي المتأثر بالرومانسية الألمانية، وبالفكرة التي تقول إن الشعب يحمل الأصالة اللغوية. وسوف نجد في أماكن أخرى ميلاً إلى فرض لهجة العاصمة، أو لهجة الفئة الاجتماعية أو العرقية التي تمتلك السلطة. غير أننا نشهد في جميع الأحوال، مهما كان المبدأ المتبع في التنميط، ومهما كان المعيار الذي يتحكم في تحديد الشكل الرسمي للغة أن هناك محاولةً لرد المختلف إلى المتشابه بنوع من التسلط الذي يسعى إلى فرض المركز، وهو أمر يمكن أن نتفَّهمه بلا ريب إن نظرنا إليه من وجهة نظر مصالح الدولة.

ـ **المحيط اللغوي**: في التاسع من شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1938 غيِّرت لوحات أسماء ثلاث مئة شارع من شوارع أوسلو احتراماً لقواعد الخط الجديدة التي اعتمدت قبل ذلك بفترة وجيزة. وكان هذا التغيير نوعاً من الالتزام الرمزي تعبِّر بلدية أوسلو من خلاله عن تأييدها لإصلاح الخط. وكان مجرد النظر إلى طريقة الكتابة في الصحف النروجية كافياً لمعرفة خياراتها السياسية.

ثمة قيمةٌ أشمل تتجاوز هذه الحادثة، لأن أي تخطيط يطال شكل اللغة لا بد له من أن يستخدم المحيط بشكل عام، وأن يضع دائماً أمام عيون المشاهدين، وفي آذان المستمعين نتائج الإصلاحات المعتمدة. وسواء أتعلق الأمر بلوحات أسماء الشوارع التي تغيّرت كتابتها، كما في النروج، أو تغيّرت لغتها، كما حدث في الجزائر العاصمة عام 1967 حين طمست الحروف اللاتينية في هذه اللوحات بالقطران إبّان موجة التعريب، أم بلوحات السيارات، أم بلوحات الإرشاد في الطرقات، أم بلافتات المحال، أم بالنص القرآني . . . أم بغير ذلك، فإن المحيط اللغوي يشكِّل رهاناً سيميائياً مهماً يكون عوناً للتخطيط كما يكون، في الوقت نفسه، كاشفاً لموازين القوى غير اللغوية. يكفي للتحقق من ذلك أن نلقي نظرةً خاطفة على اللافتات التجارية في مدينة كمدينة باريس، وأن نقارن ما نراه في حيٍّ تجاري غني كثير السياح كشارع الأوبرا، حيث اللافتات باليابانية والإنجليزية، وما نراه في حي للعمال المهاجرين كحي بلفيل، حيث اللافتات بالعربية والصينية والعبرية. إن الشعور الوطني الذي يدفع ببعض الناس إلى رفض الكتابات باللغة الأجنبية يجد مقابلاً له في العلاقات الاقتصادية التي تدفع بعضهم الآخر لإشهار أسماء محالهم بلغة الزبون المحتمل. ليس الصراع واحداً في الحالين، ولكنه في كلتيهما صراع تجسِّده اللغة.

الفصل الثالث عشر

دراسة مثال: الصراع اللغوي للجيفاروس(*) في الإكوادور

لنبدأ بتحديد المصطلح: لم يسم الجيفاروس أنفسهم بهذا الاسم قط، وإنما سمّوا أنفسهم شوار (Shuar). ذلك أن «الجيفاروس» المأخوذ من لفظ «جيبارو» (Jibaro)، يعني بالإسبانية «المزارعين»، على سبيل التحقير. وقد أطلق القادمون الأوائل من شبه الجزيرة الإيبيرية في القرن السادس عشر هذا الاسم على سكان مناطق الأمازون بين البيرو والإكوادور. وقد احتفظنا بهذا الاسم في عنوان هذا الفصل رغبةً في إفهام ما نريد، لأن الأوروبيين لا يكادون يعرفون (الشوار)، ولا يعرفون ثقافتهم، باستثناء معرفتهم بالتقليد الشهير المسمى Tsantsas والذي يعني «الرؤوس المصغَّرة»(**). غير أننا في

(*) أطلق المستعمرون الإسبان هذا الاسم الذي يعني «المتوحشين» على السكان القاطنين بين الإكوادور والبيرو. ويُطلق هذا الاسم أيضاً على الهنود الحمر الذين تركوا أرضهم واستقروا في ضواحي المدن.

(**) الرؤوس المصغرة أشياء مصنوعة على شكل رؤوس، وهو تقليد يعود إلى ما كان يقوم به الجيفاروس أو الشُّوار من قطع رأس المستعمر الإسباني القتيل، ثمّ تصغير حجمه إلى ثلث الحجم الأصلي، بنزع الجمجمة، وخياطة العينين... إلخ، ثمّ يعلقه المقاتل في عنقه.

ما يلي من البحث نسمي هذا الشعب بالاسم الذي اختاره لنفسه، أي الشوار. يوجد في مناطق الأمازون ما يقرب من 150000 شوار ينقسمون إلى قسمين تفصل بينهما الحدود التي رسمها بروتوكول ريو دي جانيرو، يعتبر 120000 منهم من البيرو، و30000 من الإكوادور.

وسوف نعرض هنا للسياسة اللغوية في المجال المدرسي لهذا القسم الثاني اعتماداً على الملاحظات التي سجلناها في أثناء إقامتنا في سوكوا (Sucua) «عاصمة» الشوار الإكوادوريين في شهر تموز/ يوليو من عام 1980. وقد أتيح لنا إجراء مقابلاتٍ مع المسؤولين في «اتحاد مراكز الشوار»، وزيارة المدارس، والاطلاع على عدد من الوثائق التي أصدرها الاتحاد(1).

في شرقي سلسلة جبال الأنديز، بين ريو باستازا في الشمال

---

(1) كنا نشرنا عَرضاً لهذه السياسة نستعيدها جزئياً في هذا الفصل: Louis-Jean Calvet: «Les Jivaros et les mégahertz,» *Les Nouvelles littéraire* (4 septembre 1980), et «écoles radiophoniques chez les Shuars,» *Le Monde diplomatique*, no. 336 (mars 1982).

كما نعتمد فضلاً عن ذلك على ما كتبه آلان دوبلي: Alain Dubly, *Evaluacion de las Escuelas Radiofonicas de Riobamba, Sucua, y Tabacundo. Informe de Síntesis* (Quito: Instituto Ecuatoriano para el Desarrollo Social, 1973), الذي لا يتناول إلا السنة الأولى من التجربة، ونعتمد على رافاييل ماشينكياش: Rafael Mashinkiash, *La educación entre los Shuar* (Sucúa: Mundo Shuar, [1976]), وهي دراسة تتوقف عند حدود سنة 1972 قبل إدخال المذياع إلى المدرسة. ونعتمد على ميغيل أليوني: Miguel Allioni, [et al.], *La Vida del pueblo shuar*, Ilustraciones de Tonino Clemente ([Guayaquil?]: Mundo Shuar, [Between 1978 and 1984]), وهو كتاب لأحد المبشّرين الذين أقاموا بين الشُّوار من 1908 إلى 1912 ويعطي فيه بشكل خاص معلومات عن نظام العدد التقليدي عندهم. كما نعتمد على: Federación de Centros Shuar, *Solución original a un problema actual,* recopilación a cargo del Directorio de la Federación Shuar (Sucúa, Ecuador: La Federación, 1976).

ونشير إلى أن جميع الكتب المطبوعة في سوكوا طبعها اتحاد مراكز سوكوا.

ومورونا في الشرق ومارانون في الجنوب، يقطن الشوار في مساكن متفرقةٍ في الغابة الأمازونية، في قرى صغيرة منعزلة. ولا يسهل غياب طرقِ المواصلات العلاقات بين هذه الجماعات، ولا تنظيم المدارس التقليدية. ولهذا السبب قرر المرسلون الساليزيون(*) الذين جاؤوا للتبشير بالمسيحية أن يكون التدريس داخلياً ابتداء من عام 1934؛ لأن هذا النمط من التدريس الذي يبعد الأطفال عن محيطهم العائلي يتيح تمسيحهم، ويسهِّل تعليمهم اللغة الإسبانية والثقافة الإسبانية في الوقت نفسه.

غير أن عاملَين اثنين سوف يلتقيان شيئاً فشيئاً على تعديل هذه السياسة المدرسية:

أولهما أن المرسلين الساليزيين سوف يزداد اهتمامهم بالثقافة الشوارية، وسوف يبحثون عن الوسائل التي تكفل لها البقاء في مواجهة النموذج الإسباني الغالِب.

وثانيهما أن الشوار أنفسهم سوف يقررون أخذ مصائرهم بأيديهم، ولذلك أنشؤوا في عام 1964 اتحاد مراكز الشوار. ويضم كل مركزٍ ما معدله خمس عشرة أسرة. وينتخب كل مركزٍ من المراكز البالغ عددها مئتي مركزٍ مسؤولية الذين ينتخبون بدورهم مسؤولي الجمعيات الجهوية البالغ عددها أربعاً وعشرين جمعية والتي ترسل مندوبيها إلى الاتحاد. ويعمل هذا الاتحاد على أنه دولة الشوار في داخل الدولة الإكوادورية؛ فهو يهتم بتعاونيات الإنتاج، وبالأحوال الشخصية، وبسجلات المساحة، وبالملكية العقارية، وبتطوير تربية المواشي، وبالتربية، وبالصحة، وببيع المصنوعات التقليدية والفولكلورية، وغير ذلك.

(*) الساليزيون، نسبة إلى سان فرنسوا دو ساليز، جماعة تضم عدداً من رجال الدين المسيحيين أسسها سان جان بوسكو في تورينو عام 1859.

في عام 1966 ولدت فكرة إذاعة شوارية، فأرسِل اثنان من الفتيان الشوار بمساعدة مالية من المرسلين الساليزيين للقيام بدورة تدريبية في المدرسة الإذاعية في مدينة ريو بامبا في جبال الأنديز. وكانت النية أن يستطيع هذان الشابان بعد تكوينهما إدارة محطةٍ تستطيع أن تبثَّ من هذه المدينة نحو مناطق الأمازون. غير أن سلسلة جبال الأنديز تشكل حاجزاً طبيعياً لا تستطيع الأمواج الصوتية اختراقه، ولذلك تقرر إنشاء مركزٍ للبثِّ في سوكوا عام 1968 اسمه: (إذاعة الاتحاد)، وطلب مساعدةٍ دولية للتنفيذ. وقد مولت الإذاعة منظمة اليونيسكو، وجمعيات خيرية ألمانية وإيطالية وهولندية، لأن الشوار أرادوا من وراء تنويع مصادر التمويل أن يحتفظوا بإشرافهم على المال. وقد مضت الأمور بعد ذلك سريعاً:

- في عام 1968: بدأ البث لمدة خمس ساعات في اليوم باللغتين الإسبانية والشوارية من الإثنين إلى السبت: ساعتين في الصباح، وساعةً عند الظهيرة، وساعتين في المساء.

- في عام 1969: أصبح البث سبع ساعات في اليوم، وساعتين يوم الأحد.

- في عام 1970: أصبح البث إحدى عشرة ساعة في اليوم، وساعتين يوم الأحد باللغتين الإسبانية والشوارية. غير أن البث الموجه للشوار لم يغير شيئاً في المدرسة التي ظلت تعلم الأطفال اللغة الإسبانية والثقافة الإسبانية.

- في عام 1972 فقط حدث التغيير الحاسم؛ فقد وضع موضع التنفيذ تعليمٌ عن طريق الإذاعة لمساندة المدارس المزدوجة اللغة التي أنشئت حديثاً، إذ أصبح البث متواصلاً من الخامسة صباحاً حتى العاشرة ليلاً في كل يوم. وغيِّر في الوقت نفسه جهاز الإرسال الأول

الذي كان بقوة كيلوواط واحد ليحل محله ثلاثة أجهزة: اثنان بقوة 5 كيلوواط، والثالث بقوة 10 كيلوواط.

اعتمدت فكرة المدرسة المزدوجة اللغة على عدد من المبادئ البسيطة:

- يشكّل التعليم باللغة الإسبانية صدمة نفسيةً لأطفال الشوار، وقطيعةً بالنسبة إلى محيطهم ولثقافتهم. ومن المستحسن أن يبدؤوا الدراسة باللغة التي يتكلم بها آباؤهم.

- تستطيع جميع اللغات أن تعبر عن الحداثة حين يكون هناك حدٌّ أدنى من التخطيط.

- ينبغي أن يعطى لتراث الشوار وثقافتهم قيمته الحقيقية.

- ينبغي أيضاً أن تدرس اللغة الوطنية، وهي الإسبانية.

انطلاقاً من هذه المبادئ وضع الشُّوار نظاماً دراسياً يحترم البرنامج الوطني فيعدُّ التلاميذ لتقديم الامتحانات الإكوادورية باللغة الإسبانية من جهة، ويضيف إليه برنامجاً خاصاً من جهة ثانية هذه ميزاته:

1 ـ تستوحى البرامج من ثقافة الشوار ومن محيطهم: نصوصٌ للقراءة مأخوذة من التراث الشفوي بعد كتابته، دراسة للأساطير، وللعادات، وللغة، ولمزروعات المنطقة وحيواناتها، وللصناعات التقليدية، كالنسيج وصنع الآلات الموسيقية والمراكب الصغيرة وأدوات المطبخ.

2 ـ تستمدُّ موضوعات الإنشاء والتأليف مباشرةً من الحياة اليومية المحلية. وقد سجلنا في أثناء تصفحنا لدفاتر التلاميذ المواضيع الآتية: حكاية أسطورة الفهد الأسود، حياة رئيس الاتحاد، وصف مجلسٍ للشوار، عيد تقليدي... إلخ.

3 ـ يقام بالتدريب على الترجمة بين اللغتين، وتدرَّس قواعد اللغة تدريساً تقليدياً جداً، فهي قواعد ظاهرةٌ مباشرة.

ليس في النموذج التربوي المتَّبع إذاً أي مظهر من مظاهر «الحداثة».

وتحترم البرامج الوطنية احتراماً دقيقاً في الشق المتعلق بالإسبانية، طبقاً للاتفاق مع وزارة التربية الوطنية. أما في الشق المتعلق بالشوار، فتكيَّف البرامج بحسب الواقع واللغة المحلية. تكمن النقطة الوحيدة الأصيلة في هذه التجربة في ثنائية اللغة وثنائية الثقافة، إذ لم تستطع أي مجموعةٍ هندية في الإكوادور أن تحقق مثل هذا النظام، وظلَّت الإسبانية لغة التعليم في كل مكان مع أن الكيشوا، على سبيل المثال، أكثر عدداً من الشوار.

إدخال الإذاعة في البرامج المدرسية ابتداء من عام 1972 يشكِّل النقطة الثانية الأصيلة في البرنامج المدرسي.

في أثناء العام الدراسي 1972 ـ 1973 استخدم واحد وثلاثون مركزاً البرامج الإذاعية في السنة الابتدائية الأولى. وفي عام 1975 ـ 1976 وصلت البرامج التي تبثها الإذاعة إلى تلاميذ السنة الرابعة. وفي عام 1980، وهو العام الذي زرنا فيه سوكوا كانت موجات إذاعة الاتحاد مخصصةً للمدرسة من الثامنة صباحاً إلى الواحدة والنصف بعد الظهر، وكانت هذه البرامج تغطي المرحلة الابتدائية بكاملها، ويستمع إليها في مئة وثلاثة وخمسين مركزاً. وفي كل واحدٍ من هذه المراكز مساعد للمدرس يعينه الاتحاد ويشرف على عملية الاستماع إلى الإذاعة، فيما يهتم المدرس بتلاميذ مستوى دراسي آخر. وكانت الحصة التربوية تدوم أربعين دقيقة: نصفها للاستماع، ونصفها الآخر لاستغلال المسموع.

هكذا تطورت المدارس الإذاعية تطوراً منتظماً منذ عام 1972، فيما تناقص في الوقت نفسه عدد الأميين وعدد التلاميذ في المؤسسات الدينية ومدارس الدولة التي لا تدرس إلا بالإسبانية. فيما يلي جدول ببعض الأرقام التي أمدَّنا بها الاتحاد:

	عدد التلاميذ	
	1972	1979
المدارس الإذاعية الثنائية الثقافة	506	3419
المدارس الدينية الأحادية اللغة	1660	500
مدارس الدولة الأحادية اللغة	1790	906
الأمّيون في عمر الدراسة	1148	500

في المدارس الثنائية الثقافة تتطور نسبة الساعات المخصصة لكل واحدةٍ من الثقافتين تطوراً بطيئاً طوال مدة الدراسة، إذ يخصص 90 في المئة للشوار و10 في المئة للإسبانية في السنتين الأوليين، ثم 70 في المئة للشوار و30 في المئة للإسبانية في السنتين التاليتين، ثم يتساوى عدد الساعات المخصَّص لكل واحدة من اللغتين ابتداء من السنة الخامسة.

ليس في كل ما ذكرنا شيء جديد تمام الجِدّة، فقد استخدمت الإذاعة قبل ذلك في السنغال سنوات طويلة على سبيل المثال، حين طبق مركز اللسانيات التطبيقية في دكار طريقته في السلك الابتدائي. كما أن استخدام لغتين: واحدة محلية والأخرى وطنية، ليس أمراً جديداً هو الآخر، فقد رأينا مثالاً منه في غينيا. أما الجديد الأصيل في تجربة الشوار فشيء مختلف، لأننا أمام سياسة لغوية مثالية وغيرِ نمطية في عدد من المسائل:

1 ـ إنها أولاً سياسة غير نمطية لأنها لا ترتبط بالدولة؛ فهي سياسة لإحدى الأقليات تقررها هذه الأقلية، وتضعها موضع التنفيذ؛ فالإصلاح المدرسي الذي يطبقه الشوار يختلف عن جميع الأمثلة التي عرضناها حتى الآن (وإن كان ليس مثالاً فريداً من نوعه، إذ

يمكن أن نسوق مثال المدارس التي ينظمها أنصار الاستقلال في بلاد الباسك(*).

2 ـ إنها أيضاً سياسة غير نمطية، لأن تدخُّل الإنسان في اللغة ليس شكلاً من أشكال الغلبة الاجتماعية لطبقة على أخرى، وإنما هو على العكس من ذلك، شكل من أشكال التحرر، لأن شعب الشوار، القابل باللغة الإسبانية لغةً وطنية، أقام ببساطة نوعاً من الثنائية اللغوية بين لغتين: إحداهما لغة القطيع، أي اللغة الحاصرة التي هي لغته، والثانية اللغة الناشرة، وهي لغة الدولة. هذا يعني أنهم جعلوا جماعتهم صورةً لواقع البلد؛ فحين يجتمع هنود الإكوادور في أحد المؤتمرات فإنهم جميعاً، شواريين وكشويين وكولوراديين . . . إلخ، يتكلمون اللغة الإسبانية فيما بينهم. وتتمثل قضيتهم في المحافظة على استخدام لغاتهم المحلية في أوطانهم، وهو ما يحاول الشعب الشواري القيام به.

3 ـ إنها أخيراً مثالية لأنها تبيِّن ما يمكن عمله بتضييق حدود المستحيل. لا ريب في أن الوضع الجغرافي لهذا الشعب في المناطق الوعرة بعيداً عن العاصمة يفسر جزئياً هذا القدر من الاستقلالية النسبية التي يتمتع بها. ولكن هذا لا يقلل من قيمة ما قام به شعب الشوار في أنه يكاد يعامل الحكومة الإكوادورية معاملة الند للند، وفي أنه وجد وحده مصادر التمويل، وفي أنه قدم أخيراً مثالاً مدهشاً لجميع شعوب العالم.

هناك نقطة أخرى مهمة في ممارساتهم، وهي تدخلهم في اللغة نفسها، لأنه كلما حاول الناس أن يُدخلوا في نظامِ تعليمٍ تقليدي لغةً

(*) هي المنطقة الواقعة بين فرنسا وإسبانيا والتي تطالب بالاستقلال. ويقرُب عدد المتحدثين بلغة الباسْك من مليون شخص، معظمهم في المناطق الشمالية الغربية من إسبانيا.

حديثة العهد بالكتابة تمتلك تراثاً شفوياً ولكنها لا تمتلك لغةً واصفةً، لغة لنشر الخطاب النحوي، والرياضي ... إلخ، طُرح موضوع التوليد وخلق مفردات المعجم. هنا أيضاً، حل الشعب الشواري مشكلته بنفسه. ولن نقدم إلا مثالاً واحداً لهذا الحل المعتمد في مسألة العدد:

نظام العدد في تقليد شعب الشوار نظام خمسي قائمٌ على الرقم (5)، لأنهم يستخدمون **اليد للعد، ثم القدم**، بالإشارة إلى الأصابع وتسميتها: شيكيشيك (chikichik = 1)، جيميار (jimiar = زوج من الأصابع = 2)، مينانك (menaink = 3)، أنتيوك (aintiuk = زوجان = 4)، أوِج (uwej يد = 5)، ناو (nawe = قدم = 10). وكانت هناك تسميةٌ خاصة لرقم 6: ((Wigni) ويغني). أما للأرقام 7 و8 و9 فيضاف إلى اللائحة السابقة لفظ هراكو (Hiraku) الذي لا نعرف تماماً معناه (وربما يكون معناه «من اليد الأخرى»)، فيقال: جيميار هراكو (7)، ومنانك هراكو (8)، وأنتيوك هراكو (9).

يبدو واضحاً أن النظام لا يكاد يسمح بالعد بعد العشرة. ولا يدل هذا على نقصٍ فيهم، وإنما فيه دلالة واضحة من النمط الذي نراه في علم الأناسة عن العدد القليل لشعب الشوار. حين أَدخل المرسلون التبشيريون الكتابة، والنظام العشري، والأرقام، ثم نظام التعليم الثنائي الثقافة فرض ذلك اندثار نظام العدد الذي يستخدم الأصبع، واليد، والقدم، وتبني نظام آخر يقلد إلى حد ما نظام العدد الإسباني. وتتجلى خصوصية الحلَّ الذّي تصوره شعب الشوار في احترامه للتقليد، وذلك بتسمية الأرقام الناقصة بالإحالة إلى شكلِها الكتابي؛ فيقال لرقم ستة مثلاً: ((Ujuk) أوجوك) أي «ذنب القرد» الذي يوحي به شكل هذا الرقم (6)، ولرقم سبعة: ((Tsenken) تسنكن) وهو اسم آلةٍ تستخدم في الفلاحة يوحي بها شكل هذا الرقم (7)، ولرقم ثمانية (8):

((Yarusk) ياروسك) وهو اسم النملة في لغة الشوار، ولرقم تسعة: ((Nsumtai) نسومتاي) وهو اسم الإبهام، أي الإصبع الذي يستخدمونه ليرسموا على وجوههم أشكالاً تزيينية تشبه شكل هذا الرقم (9)، ولرقم مئة: ((Washin) واشن) وهو اسم قفة لصيد السمك، ولرقم ألف: ((Nupanti) نوبانتي) التي تعني «الكثير». بهذا يكون العد العشري عندهم على الصورة الآتية:

1 ـ شيكيشيك

2 ـ جيميار

3 ـ مينانك

4 ـ آنتيوك

5 ـ أوج

وهي إلى هذا الحد تسميات تقليدية

6 ـ أوجوك

7 ـ تسنكن

8 ـ ياروسك

9 ـ نسومتاي

10 ـ ناوي

11 ـ ناوي شيكيشيك

12 ـ ناوي جيميار... إلخ.

20 ـ جيميار ناوي

21 ـ جيميار ناوي شيكيشيك... إلخ.

أما الأعداد 30 و40 فيقال لها: (مانينكا ناوي)، أي «ثلاثة أقدام»، و(أنتيوك ناوي)، أي «أربعة أقدام». ويقال (واشين ناوي)، أي «مئة وعشرة»، و(واشين ناوي شيكيشيك)، أي «مئة وعشرة وواحد»(*) ... إلخ.

نحن إذاً أمام تحول مزدوج: تحول من الإشارة إلى الصورة (إذ كانوا يعدون بالإشارة بأصابعهم فصاروا يكتبون)، وتحول إلى النظام العشري من نظام يعتمد على العدد (5). كان الجسد في البداية أساساً لقياس كل شيء، كما هو الحال في عدد كبير من الثقافات؛ بل ذكر أن نظاماً للعدد في مضيق توريز الواقع بين أستراليا وغينيا الجديدة يسمح بالعد حتى 33[2] باستخدام مفاصل الجسد واحداً بعد الآخر. غير أن الترقيم العشري الذي جاء به الاستعمار الإسباني نظر إلى صورته على أنها صورة أجنبية ينبغي أن تسمى من خلال التجربة اليومية. ولم يأت الحل المنشود من جهة المنطق الداخلي للغة (باعتماد الشكل التقليدي (هيراكو) الذي ربما يعني «اليد الأخرى")، بل من جهة المنطق الخارجي بالنظر إلى الشكل المكتوب للأرقام (بتشبيه رقم (7) بالآلة المستخدمة في الحراثة، ورقم (8) بالنملة ... إلخ.

(*) ورد في الأصل رقم 11، وهو خطأ ظاهر.

(2) ذكر لوسيان ليفي ـ برول (Lucien Lévi-Bruhl) أن ويات جيل (Wiyat Gille) هو الذي وصف هذا النظام: Lucien Lévy-Bruhl, *Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures*, bibliothèque de philosophie contemporaine, 9e édition, [index par Madeleine Rivet] (Paris: Presses universitaires de France, 1951), pp. 209-210.

أما في ما يتعلق بأنظمة العدد بشكل عام فيمكن الرجوع إلى: Geneviève Guitel, *Histoire comparée des numérations écrites*, préface de Charles Morazé (Paris: Flammarion, 1975).

تظهر مما سبق القيمة السياسية للنموذج الشواري الذي ينبغي أن يحكم عليه في ضوء ما آلت إليه الثقافات الهندية الأخرى في أمريكا الجنوبية، وفي ضوء ما آل إليه وضع الأقليات الثقافية في العالم بشكل عام؛ فحروب اللغات في أحسن الأحوال، تعبر عن نفسها في قسمة تسايِر تصنيف الأَعمار، إذ يتعلم الأطفال في المدرسة اللغة الوطنية التي غالباً ما تكون إرثاً من مرحلة الاستعمار. أما الكبار فقد يتعلمون كتابة لغة محلية، فإن لم يتطور هذا الوضع في اتجاه تعليم اللغة المحلية في المدارس فإنه يؤدي شيئاً فشيئاً إلى أن ينحسر دور اللغة الأولى ليقتصر على وظيفة التواصل المحصور في داخل الأسرة، مع احتمال اندثارها في نهاية المطاف. وعدم تعلم الأطفال كتابة لغة آبائهم، على وجه الخصوص، يجعل بينهم وبين الآباء هوة يمكن أن تقضي على اللغة الأولى، لغة الآباء، بعد جيل واحد أو جيلين.

لقد اختار شعب الشوار حلاً جذرياً، لا على المستوى اللغوي فحسب، بل على مستوى إدارة اقتصاده، وأراضيه، وغير ذلك. وامتلك الوسائل التقنية التي يتطلبها هذا الحل، فكان هذا العالم الصغير في سياسته اللغوية وفي تخطيطه صورةً نموذجية مصغرة؛ فهو يثبت لنا أن الإمبراطوريات اللغوية التي تتكون ببطءٍ في هذا العالم ليست قدراً محتوماً سواء أكانت اللغة فيها فرنسيةً أم إنجليزية أم روسية أم إسبانية، وأن الكفاح من أجل فضاء للاختلاف ممكن في هذا العالم الذي يتوجه نحو التماثل.

الفصل الرابع عشر
السياسة اللغوية والإمبريالية: المعهد اللغوي الصيفي[1]

تناولنا في الفصول الثلاثة السابقة نماذج من السياسات اللغوية تشرف الدول على السواد الأعظم منها (كما هو الحال في الصين، والهند، وغينيا، وتركيا، والنروج)، وتشرف أقلية وطنية في إحدى الدول، هي شعب الشوار، على نموذج واحد منها. ونود أن نعالج الآن نموذجاً مختلفاً بعض الاختلاف، هو نموذج **السياسات اللغوية بالوكالة**، أي السياسات التي يقوم بها في داخل الدولة، وباسم الدولة، عنصر من خارجها هو «المعهد اللغوي الصيفي».

عرض عام

أسَّس المعهد اللغوي الصيفي (Summer Institute of Linguistics - SIL) في عام 1934 الأسقف الكالفاني[*] كاميرون

(1) هذا الفصل نسخة معدلة ومزيدة للنصّ المنشور عام 1981 في: «Evangélisation et impérialisme culturel,» *Le Monde diplomatique*.

(*) هي فرقة بروتستانتية تنتسب إلى كالْفِن (Calvin) الذي بشَّر بها والتي لا تعترف بسلطة الأساقفة.

تاونسند (Cameron Townssend)، وصادقت عليه ولاية كاليفورنيا في عام 1942. وقد سمِّي بالمعهد اللغوي الصيفي لأنه ينظم في كل صيفٍ في عدد من البلدان المختلفة دورات للتكوين على وصف اللغة تهدف بشكل أساسي إلى هدفين: وصف لغات العالم التي ليس لها وصف ـ ما يعني العمل بصورة أساسية في ما نسميه بالعالم الثالث ـ من جهة، وترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات من جهة ثانية. ولهذا الغرض، أسَّس تاونسند أيضاً في عام 1942 منظمةً توأماً للمعهد هي منظمة وايكليف(*) لمترجمي الكتاب المقدس (Wicliffe Bible Translators - WBT).

تكرِّس هاتان المنظمتان (SIL - WBT) عملهما لنشر المسيحية وتربية سكان البلاد في كثير من أرجاء العالم. في الجدول التالي، على سبيل الإيضاح، صورة عن وضع هاتين المؤسستين في العالم في عام 1978: 3700 شخص يعملون في 29 بلداً من بلدان أفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وآسيا، وأوقيانيا ويتناولون بالدراسة 675 لغة:

المعهد اللغوي الصيفي في العالم (SIL) (بين قوسين تاريخ بدء العمل في البلد المعني)
المكسيك (1935): 372 شخصاً
البيرو (1945): 234 شخصاً. في شهر أبريل/ نيسان 1976 أمرت حكومة الرئيس موراليس برموديس المعهد بمغادرة البلاد، ولكنها ما لبثت أن تراجعت عن قرارها، ووقعت معه عام 1976 عقداً جديداً لمدة خمسة أعوام
الإكوادور (1952): 100 شخص
غواتيمالا (1952): 91 شخصاً
هندوراس (1960): 4 أشخاص
بوليفيا (1955): 115 شخصاً

(*) جون وايكليف أول مترجم للكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية في عام 1382.

البرازيل (1956): 302 ثلاث مئة شخص وشخصان. في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر انسحب المعهد من المناطق القبَلية بأمر من وزارة الداخلية، واحتفظ بقواعده في بورتوفيلو، وكولابا، وبيليم، ومانوس
كولوميبا (1962): 217 شخصاً
بنما (1970): 17 شخصاً
سيرينام (1967): 20 شخصاً
شيلي (1977)
فيليبين (1953): 251 شخصاً
بابوازي ـ غينيا الجديدة (1956): 546 شخصاً
فيتنام الجنوبية (1957): 66 شخصاً غادروا البلاد في عام 1975 بعد سقوط حكومة سايغون
كمبوديا (1971): شخصان غادرا البلاد بعد سقوط حكومة لون نول
أستراليا (1961): 82 شخصاً
جزر سلومون (1977)
الهند (1966)
نيبال (1966): 83 شخصاً طردتهم الحكومةُ جميعاً في عام 1976
أندونيسيا (1971): 81 شخصاً
ماليزيا (1977)
أثيوبيا (1973)
السودان (1974)
كينيا (1977)
تشاد (1977)
غانا (1962): 46 شخصاً
نيجيريا (1962): 71 شخصاً عيَّنت الحكومة النيجيرية مكانهم مواطنين نيجيريين في عام 1976
الكاميرون (1967): 71 شخصاً
توغو (1967): 65 شخصاً
ساحل العاج (1970): عقد مع جامعة أبيدجان
فولتا العليا (1974): 57 شخصاً[2]

يظهر من الجدول أن المعهد الذي يتولى الإشراف عليه المبشّر

(2) انظر هذه الأرقام في: *Dominación ideológica y ciencia social: el I. L. V. en México*, declaración José Carlos Mariátegui del Colegio de Etnólogos y Antropólogos Sociales, A. C. (México: Nueva Lectura, 1979).

الأمريكي اللساني كينيث بايك (Kenneth Pike) يتخذ له مقراتٍ في عددٍ من النقاط الإستراتيجية في العالم، وهي نقاط اضطر إلى الخروج من عدد منها (كما جرى في البرازيل ونيبال وفيتنام وكمبوديا وغيرها) ولا سيما بعد سقوط الحكومات الموالية للولايات المتحدة الأمريكية فيها، وهو أمر له أهميته.

في عام 1947 أنشأ المعهد ومنظمة المترجمين جهازاً لوجستياً مهماً هو (طيران الأدغال ومصلحة الراديو) (Jungle Aviation and Radio Service - JARS) الذي يشرف على النقل الجوي، وعلى الاتصالات اللاسلكية وصيانة المعدات في كل الأماكن التي يكون فيها المبشِّرون ـ اللسانيون. وقد أعطى هذا الجهاز اللوجستي للمعهد وللمنظمة قدراً كبيراً من الاستقلال الذاتي في عمليات النقل والاتصالات اللاسلكية. وقد حصل في بعض البلدان على حق الطيران فوق أراضيها مما يسمح له بالانتقال مباشرة من الولايات المتحدة إلى قواعده التبشيرية دون المرور بمطار محلي، وبالنتيجة دون المرور عبر أجهزة الجمارك المحلية.

يعمل المعهد في البلدان التي وردت في الجدول إما بالتنسيق مع الحكومة، وإما عبر علاقةٍ مع إحدى الجامعات. ويقوم أفراده بدراسة اللغات المحلية، ونشر النصوص العلمية عن هذه اللغات، ولا سيما باللغة الإنجليزية، وتعليم القراءة والكتابة بين السكان المحليين في بعض الأحيان، ويقومون ـ بالطبع ـ بترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغات. وفي الجملة، فإن المعهد اللغوي الصيفي يقوم في آن واحد بالتبشير بالمسيحية، وبمحوِ الأمية، وبنشاط علمي يمكن متابعة نتائجه عبر ما ينشره. وهو من هذه الناحية، شبيه بمنظمات إنسانية أخرى تنشط في مختلف أنحاء العالم، أو ربما كان شبيهاً بها على الأقل لولا المشاكل العديدة التي سنعرض لها في ما يلي.

الانتقادات الأولى

بدأت الأصوات ترتفع أول ما بدأت في كولومبيا معترضةً على ممارسات المعهد والمنظمة والجهاز التابع لهما؛ فقد صرح اللواء يواكيم متالانا، المدير العام للأمن الكولومبي في عام 1974 أمام الكونغرس بأن هذه المجموعة «تقوم بتهريب الزمرّد في تونيبيا، وبتهريب المخدرات في السهول الشرقية، وبالبحث عن الموارد الطبيعية واستغلالها، وبالقيام بأعمال جراحية لمنع النسل، والتحكم الإلزامي بالولادات بين سكان منطقة أروكا». وقد ندد النائب الكولومبي نابوليون بيرالتا أمام الكونغرس نفسه بعد عام من ذلك، في الرابع عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1975 بوجود قاعدة عسكرية لأمريكا الشمالية في منطقة جبال ماكارينا تتخذ من المعهد الصيفي اللغوي في لوميلاندا قاعدةً لوجستية لها.

وقد توالى التنديد بالمعهد وأجهزته بعد ذلك في أمريكا الجنوبية؛ فقد شاع في البيرو عام 1975 بأن الحكومة سوف تطلب من المعهد مغادرة البلاد قريباً بعد حملة إعلامية استمرت طويلاً تتهم المعهد بأن له صلات بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وبأنه يستثمر الذهب واليورانيوم بشكل مباشر. وفي الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر في المكسيك نددت بأنشطة المعهد مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع والطلبة العاملين في مناطق الهنود، وذلك في رسالة موجهة إلى رئيس الجمهورية عرفت باسم «تنديد باتزكوارو» (Denuncia de Patzcuaro). وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1975 عرَّضت صحف الإكوادور بالمعهد في عناوينها بشكل حذر، فكتبت: «كولومبيا تلغي عقداً مع منظمة أمريكية تعمل أيضاً في الإكوادور»[3]، فيما نشر

(3) *El Commercio* (21 Novembre 1975).

قسم علم الأنثروبولوجيا في الجامعة الكاثوليكية في كويتو في شهر شباط/ فبراير من عام 1976 وثيقةً في ما يقرب من عشر صفحات عنوانها: «ما هو المعهد اللغوي الصيفي؟»، مندِّدة بالدور الذي يقوم به المعهد في الإكوادور، ولا سيما في قاعدته الأمازونية في ليمونكوشا.

في الواقع، أعلن رئيس الجمهورية الكولومبي ألفونسو لوبيز ميشيلسين (Alfonso Lopez Michelsen) في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير عام 1975 بأنه سوف يتخلص تدريجياً من مبشري المعهد الصيفي للغات ليحل محلهم باحثين كولومبيين. غير أن وزير التربية هيرناندو ديران (Hernando Duran) أرسل بعد عام من ذلك، في الرابع عشر من شهر شباط/ فبراير من عام 1976 رسالة دعم إلى كاميرون تاونسند (Cameron Townsend) يجدِّد له فيها الثقة به[4]. وقد حدث في البيرو سيناريو مشابه لهذا السيناريو؛ فقد أعلنت الحكومة في الثاني من نيسان/ أبريل من عام 1977، بعد أن كانت شكّلت لجنة تحقيقٍ في شهر كانون الثاني/ يناير بأن البلاد «بحاجة إلى عمل اللسانيين في المركز الصيفي للغات». أما في البرازيل فقد حدث عكس هذا، إذ أعلنت الحكومة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1977 أنها ترفض تجديدَ التأشيرات الممنوحة لمئة وخمسين من مبشري المركز الصيفي للغات ومنظمة المترجمين التابعة له. وفي كولومبيا اتُّهم المركز والمنظمة وجهاز الطيران والاتصالات اللاسلكية باستخدام طائرات يزوِّده بها الجيش الأمريكي، ويقودها طيارون ممن خاضوا حرب فيتنام[5] ... إلخ.

(4) نُشِرت الرسالة في *El Espectator* بوغوتا، 20 شباط/ فبراير 1976.

(5) برقية من وكالة الأنباء IPS بتاريخ 20 أيلول/ سبتمبر 1978، بوغوتا، كولومبيا.

وسنعرض تالياً بعضاً من الاتهامات ـ وليس كلها ـ في حملة دامت أربع سنوات أو خمس سنوات، في خمسٍ أو ست من دول أمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى، التي سيقت ضد المجموعة التي تضم المركز وجهاز المترجمين وجهاز الاتصالات:

ـ إقامة علاقات مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

ـ تنظيم معسكرات للتدريب على مقاومة حرب العصابات (ولا سيما في كولومبيا والمكسيك) تحت ستار مراكز التكوين.

ـ الاتجار بالذهب واليورانيوم والزمرد والمخدرات.

ـ فرض منع النسل على الهنود.

ـ إقامة صلات بالأبحاث الأمريكية المتعلّقة بالنفط ... إلخ.

يضاف إلى هذه الاتهامات الخطيرة التي ليست في نهاية الأمر شبهاتٍ، انتقادات أقل دعائيةً، وإن كانت أكثر ثبوتاً من الأولى، ولا تقل خطورة عنها، وهي:

ـ الهدف الأول المعلن للمعهد ولجهاز الترجمة التبشير بالمسيحية بين الهنود، وترجمة **الكتاب المقدس**، وهو ما يسمح بالقيام بنوع من البحث العلمي في لغات الهنود بلا ريب، ولكنه في الوقت نفسه يطمس الثقافات المحلية، إذ يقوم التبشير بدور المحدلة التي تسحق كل ما تحتها.

ـ يخلق هذا التبشير حرباً وهميةً بين الأديان، بين الإنجيليين والكاثوليك في أوساط الجماعات الهندية، فيتصارع الأمريكيون الإنجيليون مع الإسبان الكاثوليك لاجتذاب «الزبائن». وقد لاحظنا في أثناء دورة للقائمين بمحو الأمية في الإكوادور في شهر تموز/

يوليو من عام 1982 أن كل الخلافات النظرية والسياسية والتربوية التي كانت تطل برأسها راجعة في الحقيقة إلى خلافات دينية، وأن الهنود الإنجيليين كانوا يعارضون سياسة الحكومة لأن الكاثوليك يساندونها. وقد سجلنا في الفترة نفسها عند شعب الشوار أغنيةً تعبِّر عن هذه الحرب الدينية كان الكاثوليك قد وضعوها قبل ذلك بثلاثين عاماً حين أراد أحد الكهنة الإنجيليين أن يستقر بينهم؛ فقد كان «كورس حربٍ» من الكاثوليك يذهب لينشد أمام الهيكل الإنجيلي: «أيها البروتستانتيون! لا تكذبوا؛ فكنيستكم ليست من المسيح. وكل من تعلِّمونه فالشيطان ملهِمه. [أما] أنا فمسيحي وكاثوليكي، رسولي حتى أموت»(*).

- يعمل المعهد الصيفي للغات محتقراً الثقافات المحلية أشد الاحتقار؛ فقد حرم على الهنود في المكسيك أكل «الحيوانات غيرِ الطاهرة» التي تشكل غذاءهم الرئيس، وأحل الكوكا كولا محل الخمور التقليدية من نوع شيشا (Chicha) عند شعوب الأوكا (Aucas) في الإكوادور ... إلخ.

- ومن المفيد أن ننقل من قارة أخرى، على سبيل التنويع، شهادة أنغيلا جيليام (Angela Gilliam) عن المعهد وجهاز الترجمة في بابْوازي غينيا الجديدة[6] (Papoouasie-Nouvelle Guinée).

(*) بعد استشارة عدد من كبار المختصين باللغة الإسبانية، والذين وجدوا صعوبةً في فهم جزء من هذا النصّ القديم، ارتضينا أن نترجمه على هذه الصورة. والنص الإسباني هو الآتي: «Protestantes non mentais, Vuestra Iglesia no es de Cristo, Cada recto que formais, Obra fue de algun ministro, Soy cristiano, soy catolico, apostolico hasta morir».

(6) Angela M. Gilliam, «Language and «Development» in Papua New Guinea,» *Dialectical Anthropology*, vol. 8, no. 4 (April 1984), pp. 309-312.

تصف المؤلفة أولاً مركز المبشِّرين في قاعدة أوكارومبا (Ukarumpa) التي «تشبه قاعدةً للجيش الأمريكي ومعها مخازنها» (وهي نوع من قاعات مخصَّصة لأكل الجنود على شكل مخزنٍ كبير تباع فيه المنتوجات الأمريكية). ثم تصف عمل المعهد فتقول: «بما أن الحكومة الوطنية لم تغيِّر السياسة اللغوية تغييراً جوهرياً فإن أهداف الوكالات الاستعمارية التي كانت قبل الاستقلال ـ من كنائس وإدارات استعمارية ـ والتي جاءت بالمعهد وبجهاز المترجمين إلى بابوازي ـ غينيا الجديدة، ظلت قائمة»[7].

وتسجل المؤلفة على وجه الخصوص اختلال التوازن الفاضح بين ما ينشره المعهد بالإنجليزية وما ينشره باللغات المحلية: «يُكتب بالإنجليزية العمل اللغوي ذو الطابع العلمي الذي يعزِّز شهرة المؤلف ويجعل منه خبيراً دولياً. أما ما يكتب في لغات بابوازي ـ غينيا الجديدة التي أبجدياتها حديثة العهد، فنزرٌ يسير، يتناول أحياناً كتب تدريس للمبتدئين، أو كتب تغذية، وأحياناً كتباً في الأحاجي والمواعظ». وهناك، كما تقول المؤلفة، الشَّفرة التقنية للسانيين من جهة، مكتوبة باللغة الإنجليزية، مثل مقالة عن عمليات الاشتقاق والنقل بين صيغتي المعلوم والمجهول (Barai Derivationai Operations vs Universal Passivization and Antipassivization)، وهناك من جهة أخرى، نصوص فارغة في النصح والمواعظ، مكتوبة باللغات المحلية، مثل: «كيفية معيشة اليهود قديماً وبعض العادات التوراتية». وتصل المؤلفة إلى خلاصة مؤداها أن المعهد وجهاز الترجمة لا يهدفان إلى فتح نقاش حول السياسة اللغوية للبلد، وإنما إلى التبشير ونشر **الكتاب المقدس**.

---

(7) المصدر نفسه، ص 311.

كان من الطبيعي أن يرد المعهد على هذه الانتقادات المتواترة، فأصدر عدداً من الوثائق التي يريد منها إثبات حسن نواياه، ولا سيما الوثيقة التي عنوانها: «عرض فلسفة المعهد اللغوي الصيفي وطرائقه في البيرو» (Exposicion de la filosofia y los metodos del Instituto Linguistico de verano en el Peru) في شهر آب/ أغسطس من عام 1976، و«المعهد اللغوي الصيفي في الإكوادور» (Instituto Linguistico de Verano en Ecuador) في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1979. ولئن كانت الانتقادات التي أوردناها غير دقيقة دائماً، فإن ردود المعهد على هذه «الشائعات المغرضة» مذهلة في ضبابيتها وغموضها.

فوثيقة المعهد المنشورة في كويتو تؤكِّد:

- أن الدخول إلى حرم المعهد حر إلا حين لا تكون سلامة الزوار مؤَمنة (أَمن الواجب التذكير بأن أرض المعهد أرضٌ إكوادورية؟).

- أن النظام الداخلي للمعهد يمنع على أعضائه أن يكون لهم أي اتصال بمصالح الاستخبارات.

- أن المعهد لا يسعى لفرض أي دين (غير أن هذه الوثيقة تنسى هنا أن المعهد وثيق الصلة بجهاز تراجمة الكتاب المقدس، بل هما جهاز واحد).

- أن أي عضو من أعضاء المعهد لا يقوم بتهريب المخدرات.

لا تستطيع هذه الردود التي هي ردود مبدئية عامة، أن ترد على عدد من الأسئلة، منها على سبيل المثال السؤال الآتي: أكان النقيب هيربير بريساو (Herber Brusow) الذي كان أحد مسؤولي مركز اللغات في كولومبيا في عام 1980 الشخصِ نفسه المتورِّط في قتل

تشي غيفارا في بوليفيا أم هو شخص آخر؟[8] وما هو تعليق المركز على هذا النص الذي نشره المعهد نفسه في عام 1959:

«لا بد للوصول إلى قلب الهندي من فهم نفسيته، وهذا يكون بواسطة لغته. ولا بد لكسب منطقة أوريونت واستغلال ثرواتها الاقتصادية من دمج الهندي في الثقافة الوطنية، وأول خطوة في هذا الاتجاه هي محو الأمية التي من خلالها يتعلم سكان البلاد الأصليون قراءة لغتهم وكتابتها، فتكون لغتهم جسراً لتعلم اللغة الإسبانية»[9].

من الصعب علينا من جهة أن نصدق أن هذا النص يعكس لا مبالاة بالثروات الاقتصادية في باطن الأرض (فمنطقة الأوريونت في الإكوادور هي منطقة النفط الأمازونية). ونرى من جهة أخرى أن محو الأمية وتعليم اللغات الهندية إنما يهدف إلى تسهيل تعليم الإسبانية. وحين نقرأ في الصفحة الأولى للوثيقة نفسها: «لقد حافظ المعهد منذ تأسيسه على استقلالٍ مطلق عن أي جهة حكومية أو سياسية أو دينية»، فإننا نقول إن هذا يتناسى سريعاً جهاز مترجمي الكتاب المقدَّس على الأقل: أتتناسب ترجمة الكتابِ المقدس والتبشير حقاً مع الاستقلال «المطلق عن أي جهاز للإكليروس»؟

من الواضح أن التبشير هو الهدف الأول للمعهد ولجهاز المترجمين. وهو أمر لا اعتراض عليه في نهاية المطاف، إن صاحب الدعوة إلى نشر الدين احترام للثقافات المحلية. أما الاتهامات الباقية

---

(8) نشرت هذا الخبر الصحيفة المكسيكية **إل دِيا** (*El Dia*) في 19 تموز/ يوليو 1979.

(9) *Estudios acerca de las lenguas huarani (auca), shimigae y zápara,* [Ecuador] Publicaciones científicas del Ministerio de Educación (Quito: Tall. Gráf. de Educación, 1959).

فيصعب التحقق من صحتها لأنها تتعلق بمجالات غامضة. وما هي مصادر تمويل المعهد والأجهزة التابعة له على سبيل المثال؟ ومن يموّل المبشرين، وطائراتهم، وأجهزتهم، ووسائل اتصالهم؟ إنها المؤسسات الخيرية حسب جواب وثيقة كويتو التي تذكر من بينها: «الجهاز الإنجيلي المركزي للتنمية (Evangelische Zentralstelle für Entwicklungshilfe) في ألمانيا الاتحادية، و«الوكالة الدولية الكندية للتنمية» (CIDA) في كندا، والوكالة الدولية الأمريكية للتنمية (USAID) في الولايات المتحدة، والروتاري الدولي(*). وإن أخذنا واحدةً من هذه المنظمات (وما نقوله عنها لا ينبغي أن يُسقَط على غيرها)، وهي الوكالة الدولية الأمريكية للتنمية، فإن أقل ما يمكن أن يقال عن سلوكها إنه مريب في بعض الأحيان. يقول فيليب آجي (Philip Agee) وهو عميل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية سجل مذكراته في كتاب، إن مهمات المساعدة التقنية التي تقدّمها «الوكالة الكندية الدولية» (ICA) (التي سبَقت الوكالة الأمريكية الدولية للتنمية USAID) تضم غالباً تقنيين أمريكيين يعملون في مصالح الشرطة المحلية. ويضيف: «إنَّ مهمات الأمن العام مفيدةٌ جداً لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لأنها تشكل غطاءً لعملاء الوكالة الذين يرسَلون للعمل بدوام كامل مع أجهزة استخبارات الشرطة»(10).

أما علاقة المعهد بالبحث النفطي الأمريكي فإن المثال الآتي يلقي بعض الضوء عليها.

(*) الروتاري الدولي منظمة تضم ما يقرب من 32 ألف ناد في 170 بلداً من بلدان العالَم، وتقول إنّها منظمة غير سياسية تعمل للسلم بين البشر.

(10) Philip Agee, *Journal d'un agent: Dix ans dans la C. I. A. = [Central Intelligence Agency]*, collection combats, trad. de l'américain par Alain André, Sylvie Barjanski et Nathalie Savary (Paris: Editions du seuil, 1976), p. 61.

مثال الإكوادور

استقر المعهد اللغوي الصيفي في الإكوادور منذ عام 1952، ثم طردته الحكومة منها في عام 1982 بعد أخذٍ ورد؛ فقد استقر المعهد في منطقة الأمازون، في قلب منطقة ليمونكوشا (Limoncocha) حيث قدمت له الحكومة الإكوادورية 1287 هكتاراً من الأرض لمدة 50 عاماً بنى عليها مساكن ومكاتب ومكتبة وعيادة ومطاراً وورش صيانة، وأجهزة إذاعة، ومحطة رصد جوي، وملعب غولف، ومدرسةً خاصة لأبناء الموظفين، وغير ذلك، فهو أشبه ما يكون بقاعدةٍ حقيقية تستورد غذاءها مباشرة من الولايات المتحدة بطائراتها الخاصة. وقد أعطى العقد الموقَّع مع الحكومة الإكوادورية المعهد حريةً كبيرة:

- حرية دخول أعضاء المعهد إلى الأراضي الإكوادورية.

- إعفاء الأجهزة المستوردة إعفاءً كاملاً من الضريبة حالياً ومستقبلاً.

- السماح ببيع السيارات وأجهزتها في الإكوادور بعد أربع سنوات من الاستعمال.

- السماح لطائرات المعهد (أي لطائرات طيران الأدغالِ ومصلحة الراديو (JAARS) بالتحليق فوق الأراضي الإكوادورية.

- إعفاء ممتلكات المعهد من الضريبة إعفاء كاملاً . . . إلخ[11].

يوضح النص الرسمي للاتفاقية أن على المعهد في مقابل ذلك

---

(11) *Registro Oficial, organo del gobierno del Ecuador* (19 mai 1971).
اتفاقية وقَّعها ج. م. فيلاسْكو إيبارّا (J. M. Velasco Ibarra) الذي كان حينذاك رئيساً للجمهورية.

العمل على تنمية اللغات المحلية في الأمازون، ودراسة الفولكلور، ونباتات البلد، والطب التقليدي.

لم نجد في أي مكانٍ أي نوع من أنواع التقويم الرسمي لعمل المعهد. غير أننا وجدنا في مقابل ذلك وثيقةً أعدّها مركز محو الأمية في الكلية الكاثوليكية في كويتو تقدّم قائمةً بعددٍ من الاعتراضات على المعهد:

- لم ينشر في ليمونكوشا سوى عدد من الدراسات اللغوية الجزئية عن اللغات الهندية.
- لا توجد أجهزة ووسائل لمحو الأمية عند الراشدين.
- يقوم المعهد بتسويق المصنوعات التقليدية فيبيع ما اشتراه من الهنود بثلاثة أضعاف ثمنه.
- حوَّل المعهد منطقة ليمونكوشا إلى مركزٍ سياحي عبر فلوتل أوريلانا، وهي باخرة تقوم بنقل السياح للنزهة في أمازونيا.

غير أن هنالك ما هو أخطر من هذا؛ فالمعهد هو الذي أدخل الشركات النفطية الأمريكية الشمالية إلى المنطقة لأن الطائرة هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ليمونكوشا، ولم يكن يصل المنطقة بالخارج سوى طائرات المعهد. وقد أدخل المعهد في عام 1964 أول جيولوجي أمريكي إلى الإكوادور أتى للتنقيب عن النفط. وتستغل شركة تكساكو غولف (Texaco Gulf) نفطَ منطقة الأورينت (Oriente) معتمدةً على البنية التحتية للمعهد، ولا سيما على طائراته وإذاعته. وتكفي النظرة الخاطفة إلى الخريطة لاكتشاف المطابقة الغريبة بين منطقة عمل المعهد وحقول التنقيب عن النفط التابعة لشركة تكساكو غولف. غير أن النص المنشور في مكسيكو[12]

(12) = *Dominación ideológica y ciencia social: el I. L. V. en México,*

يشير إلى أن المعهد قد يكون عملَ في الإكوادور لمصلحة أربع من شركات أمريكا الشمالية: اثنتان منهما تهتمان باستغلال الخشب، وهما شركتا جيورجيا باسيفيك (Georgia Pacific) وبواز كاسكاد (Boise Cascade)، واثنتان باستغلال البترول وهما تكساكو غولف وشيناندوا أويل (Shenandoah Oil).

ما ذكرناه يشير بالطبع إلى كثير من التوافق. ومن الصعب أن نصدّق أن كل ذلك كان بمحض الصدفة، وأنه لم تكن للمعهد مصلحة فيه. ماذا الآن عن الاتهامات الأخرى؟ لا ريب في أن بلدان أمريكا الجنوبية تخضع لضغوط كبيرة، ولانقلابات كثيرة تدبر بمساعدة الاستخبارات الأمريكية، وهو ما يساعد على نوع من الهذيان يدفع إلى تصور علاقة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بأي منظمة أمريكية. غير أن في المعطيات المتعددة المصادر من التقارب والاجتماع في نقطة واحدة ما لا يكفي في تعليله اعتباره مجرد هذيان يتوهم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وراء كل شركة.

= وهو مصدر سابق ينقل نصاً عن سكوت روبنسون Scot Robinson, «Fullfilling the Mission: North American Evangelism in Ecuador,» in: Hvalkof et Aaby, *Introducing God in the Devil's Paradise*,

الذي يقدَّم على أنه «تحت الطبع»، والذي نفترض أنه نفسه: Søren Hvalkof and Peter Aaby, eds., *Is God an American?: An Anthropological Perspective on the Missionary Work of the Summer Institute of Linguistics*, Document / IWGIA/ Survival International, 0105-4503; 43 (Copenhagen: International Work Group for Indigenous Affairs (IWGIA); London: Survival International, 1981),

الذي ذكره غيليام (A. Gilliam) في لائحة المراجع (انظر الهامش 6).

أي سياسة لغوية؟

مهما يكن من أمر، فإنه لا يشغل بالنا أن نعرف إن كانت هذه المجموعة، المكوَّنة من المعهد اللغوي وجمعية مترجمي الكتاب المقدس وطيران الأدغال وجهاز الإذاعة، صنيعةً لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وإنما يهمنا أن نعرف أي نوع من أنواع السياسات اللغوية تطوره هذه المجموعة.

الملاحظة الأولى: هي أن معهد اللغات في وصفه للغات المحلية، يستخدم محو الأمية في غالب الأحيان وسيلةً لتيسير تعليم اللغة الرسمية (ووثيقة عام 1959 المنشورة أعلاه صريحةٌ في دلالتها على هذه المسألة). نعني بذلك أن المعهد يقوم بدور المتحزب(*) في الوقت الذي يمارس فيه عملية اختيار بين وظيفتين من وظائف اللغة: وظيفة لغة القطيع الحاصرة مخصصة للدين (إذ يترجم الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية)، ووظيفة اللغة الرسمية لما تبقَّى. وهو بإدخاله اللغات المحلية إلى الهيكل يستبعدها خارجه، مفسحاً المجال واسعاً أمام اللغات الرسمية.

الملاحظة الثانية: السياسة اللغوية التي لخصناها أعلاه هي اختيار المعهد اللغوي، وليست اختيار الحكومات التي وقع المعهد الاتفاقيات معها. وهذا أمر جوهري، لأن بلدان أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا التي أقام المعهد فيها مراكزه تعاني مشكلةً كبيرة في التخطيط اللغوي: أعليها أن تختار اللغة الاستعمارية القديمة (كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والبرتغالية) فتجعل منها لغةً وطنية للتعليم

(*) يشبِّه المؤلِّف هذا الدور بدور «اليعاقبة» المتحمِّسين للديموقراطية المركزية وللثورية في فرنسا، وكانت لهم أدْيِرةٌ يجتمعون فيها، منها ديرٌ في باريس عُرِفَ باسم نادي اليعاقبة. ومن البارزين فيهم روبسبيار الذي قام بدور هام في أثناء الثورة الفرنسية.

وللحياة العامة، أم تختار على العكس من ذلك، إدخال اللغات المحلية التي يتخاطب بها الناس؟ قدَّمنا في الفصول السابقة عدداً من الأمثلة على هذه المسألة التي لم تحسم حتى الآن في كثير من البلدان حيث يستمر الوضع في غالب الأحيان على ما كان عليه في أيام الاستعمار. وهنا يمكن للمعهد أن يقوم بدورٍ مركزي لم يكلَّف القيامَ به في حقيقة الأمر. يمكن أن يُفهم الآن مغزى حديثنا في أول هذا الفصل عن **سياسة بالوكالة** تقضي بأن تترك الدولة للمعهد أمر القيام بما قد لا تريد القيام به، أو بما قد لا تجرؤ على القيام به بنفسها.

الملاحظة الثالثة: تتعلق بالأيديولوجية التي تنشرها نصوص المعهد اللغوي وجماعة مترجمي الكتاب المقدس، ولا سيما النصوص المكتوبة باللغات المحلية، والموزعة على السكان الأصليين. يقدِّم كتاب **المعهد الصيفي للُّغات في مكسيكو** (El ILV en Mexico) الذي ذكرناه تحليلاً لهذه النصوص يظهر منه عددٌ من الخصائص الثابتة:

- ميل إلى تعزيز النزعة الفردية، والجهد المعزول، وإبعاد كل فكرة للمشاركة، وللتعاون الاجتماعي؛ فلا وجود للجماعة إلا فيما يتعلق بالعقاب وبالثأر.

- تصوير مثالي لأجهزة الدولة المكسيكية السياسية والإدارية والقمعية.

- تصوير الولايات المتحدة الأمريكية على أنها التعبير الأسمى عن المجتمع المثالي الذي يؤسسه «شعب الله المختار».

- إدخال عقيدةٍ خلقية تتميز بالتزمت وبعدم المرونة.

- التنديد بالقبيلة لمصلحة نظام مثالي للمجتمع الوطني الذي يجب على الهندي أن يندمج فيه . . . إلخ[13].

في منطقة الأمازون الإكوادورية، لا يقوِّم شعب الشوار الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وجود المعهد اللغوي تقويماً أكثر إيجابية من التقويم السابق في المكسيك. تشير إحدى وثائقِ فدرالية الشوار إلى أهمية العمل اللغوي للمبشرين، ولكنها تعيب على البعثات التبشيرية الإنجيلية، وعلى المعهد اللغوي «أنها كانت عامل تقسيم وتجزئة»، وأنها قامت بحربٍ أيديولوجية ثابتة في وجه الكاثوليك (تقول الوثيقة إن الاتهامات كانت متبادلة بين الجانبين في أول الأمر، حتى عقد الفاتيكان الثاني، فصارت من جانب الإنجيليين وحدهم)، أي إنها باختصار قد قامت بعمل مناقض لأهداف توحيد شعب الشوار[14].

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الوثيقة لا تقيم أي تمييز بين لسانيي المعهد اللغوي، والمبشرين الإنجيليين.

لئن كان من الصعب التأكيد بأن المجموعة المكونة من المعهد اللغوي، وجماعة مترجمي الكتاب المقدس، وطيران الأدغال وجهاز الإذاعة، ترتبط ارتباطاً مباشراً بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، فإننا نرى على الأقل، أن نشاطات هذه المجموعة تتجاوز تجاوزاً كبيراً الإطار الذي تزعم هي نفسها أنها تلتزم به؛ فهي تمارس في أكثر من مكان على وجه الكرة الأرضية سياسةً لغوية تعمل في واقع الأمر لمصلحة السلطة المركزية تحت ستار العمل لمصلحة

---

(13) المصدر نفسه، ص 17- 18.

(14) Federación de Centros Shuar, *Solución original a un problema actual*, recopilación a cargo del Directorio de la Federación Shuar (Sucúa, Ecuador: La Federación, 1976), pp. 109-110.

اللغات المحلية، فتقوم بالتضحية بالثقافات المحلية، وبعادات الأقليات وبمعتقداتهم خدمة لأيديولوجية الدولة. وهي تقوم فضلاً عن ذلك، بحملة تبشير دينية مباشرة، وبحملة دعائية تروِّج للنموذج الأمريكي. وهي في جميع هذه المسائل، تعمل بالوكالة عن السلطات المحلية، وهو ما تحلم الاستخبارات الأمريكية بالقيام به إن كان لها دور ما في هذه المجموعة. وهكذا يتقاطع دور هؤلاء اللسانيين مع دور الإمبرياليين. غير أن إمبرياليتهم إمبريالية ملتبِسة، لأنها إمبريالية الولايات المتحدة الأمريكية بلا ريب، وهي أيضاً، في كل بلد من البلدان المعنية، إمبريالية السلطة المركزية التي توكل إليهم أمر التخطيط الذي لا تستطيع القيام به بنفسها.

الفصل الخامس عشر
حرب الكتابة

الكتابة تصوير خطي للغة، ووسيلة من وسائل حفظ الكلام؛ فهي تشكل من هذه الناحية وسيلة اتصال من الدرجة الثانية. أليس تقييد الخط إذاً مجرد عملية تقنية بامتياز؟ يكفي أن لا يكون للغة من اللغات الشفوية نظامٌ مكتوب، فيأتي اللسانيون فيدرسون نظامها الصوتي، ويتصورون الأبجدية الأكثر انسجاماً والأكثر ملائمةً لأصوات اللغة، ثمّ يقترحون ذلك على أصحاب الحل والربط الذين يقررون، كما تقضي بذلك الأصول، بطبع كتب محو الأمية، والنشرات . . . وغير ذلك. هذا باختصار مجرَّد تصورٍ نظري لسيناريو تقليديٍّ مألوف في التخطيط اللغوي يمكن أن نستنتج منه أن تقييد الأبجدية عمل تقني محايد في الوقت نفسه. غير أن هذا ليس إلا ظاهر الأمر. وسوف نرى أن الصورة الخطية للغة يمكن أن تكون موضع رهان إيديولوجي وسياسي.

مثال أبجديات الماندينغ (Manding)

من المعروف في أيامنا، خلافاً للرأي السائد الذي يزعم أن اللغات الأفريقية لغات شفوية لم تعرف الكتابة إلا مع الاستعمار، أن

عدداً من هذه اللغات كان مكتوباً قبل الحقبة الاستعمارية؛ فقد وصفت كويل (S. Koelle) في القرن الماضي، كتابة لغة الفاي[1] (Vaï)، وسجل وسترمان (Westermann) فضلاً عن هذا خطوط لغات الـ: بسا (Bassa)، ونسيبيدي (Nsibidi)، ونوم[2] (Noum)، ودرس دالبي (D. Dalby) حديثاً عدداً من مدونات لغات أفريقيا الغربية[3]. غير أن هذه الأبجديات المستوحاة غالباً من الأبجدية العربية (لأنها ترسم الصوامت بحروفٍ على السطر، وترسم الصوائت بعلامات إضافية) كانت نادرة الانتشار، وكانت مستخدمةً لأغراضِ السِّحرِ على وجه الخصوص.

أما بخصوص الماندينغ (التي تتعدد لهجاتها الشفوية كما تتعدد اللهجات الشفوية للغات الـ: بامبارا (Bambara)، ومالينكيه (Malinké)، وجولا (Jula)، وغيرها في مالي وبوركينا فاسو والسنغال وغينيا وغامبيا وساحل العاج وغينيا بيساو وسييراليون وليبيريا) فيذكر جيرار غالتييه (Gérard Galtier) أن لها أبجديةً ترسم الصوامت، وهي **الماسابا** (Masaba)، اخترعت حديثاً، واستخدمت في عدد من قرى البامبارا في مالي[4]. كما نعرف أيضاً كتابة **نكو**

(1) Sigismund Wilhelm Koelle, *Outlines of a Grammar of the Vei Language, Together with a Vei-English Vocabulary* (London: Church Missionary House, 1854).

(2) Hermann Baumann and Diedrich Westermann, *Les Peuples et les civilisations de l'afrique* (Paris: Payot, 1970).

(3) David Dalby, «The Indigenous Scripts of West Africa and Surinam: Their Inspiration and Design,» *African Language Studies*, no. 8 (1967), and no. 10 (1969).

(4) Gérard Galtier, *Problèmes dialectologiques et phonographématiques des parlers mandingues*, thèse 3e cycle: Paris 7: 1980 ([s. l.]: [s. n.], 1980). =

(Nko) (التي تعني بالبامبارا: «أقول») التي اخترعها سليمان كانتي في منطقة كانكان بغينيا، والتي استخدمت في عدد من الكتب المطبوعة في كوناكري. وبالموازاة مع محاولات الكتابة هذه عند أهل البلاد، قام المبشرون الكاثوليك والبروتستانت بإعداد أبجدياتٍ خاصة تختلف بعض الاختلاف فيما بينها، مستخدمين الحروف اللاتينية[5]. غير أن توحيد الأبجديات لم يصبح هماً رسمياً إلا في إطار حملات محو الأمية التي أطلقتها اليونسكو.

عُقد في باماكو من 25 شباط/ فبراير إلى 5 آذار/ مارس من عام 1966 اجتماع لخبراء مكلفين باقتراح أبجديات لست لغات هي الماندينغ، والبل، والتاماشك، والسنغاي ـ زرما، والهاوسا، والكانوري. وسرعان ما تمحور النقاش حول جدوى اعتماد أبجديةٍ واحدة هي اللاتينية لتسهيل تعليم غير الأميين ولاستخدام الآلات الكاتبة، أو اعتماد أبجدية «أفريقيا» Africa التي أعدها المعهد الأفريقي الدولي، والتي كانت مستخدمةً في البلدان الناطقة بالإنجليزية. وقد اقترحت اللجنة المكلفة بالماندينغ أخيراً اعتماد أبجدية لاتينية تكتب الصوائت التي فيها غنة بكتابة نون لا بمطة فوق الحرف، ولا تلتزم العلامات الصوتية التي يقترحها المعهد الأفريقي الدولي. غير أن أياً من البلدان لم يلتزم التزاماً كاملاً بهذا الاقتراح، بل كيَّفه كل بلد منها في بعض المسائل التفصيلية؛ فصوت الباء الذي تسبقه غُنَّة يُكتب، على سبيل المثال، / **مب** / في غينيا والسنغال وساحل العاج وغامبيا، ويُكتب / **نب** / في مالي وفي بوركينا. وتُكتب الصوائت المفتوحة على ثلاثة أشكال مختلفة . . . إلخ،

= وهي رسالة دكتوراه من الحلقة الثالثة أعِدَّت بإشراف ليونيل غِير (Lionel Guerre) وسيرْج سوفاجو (Serge Sauvageot) بجامعة باريس السابعة، ص 244 وما يليها.

(5) المصدر نفسه، ص 255 ـ 259.

وتُكتب الكلمة الواحدة التي تعني «ثمانية» بأشكال مختلفة، فهي **سغين** (Séegin) في مالي، وسيين (Séeyin) في غينيا، وسيغين (Séegin) في بوركينا فاسو. وهو وضع مثير للسخرية بالطبع، لأن الكتاب المطبوع في هذه الجهة أو تلك من الحدود لا يدوّن بالطريقة نفسها لهجات اللغة الواحدة التي يتفاهم أهلها شفاهاً، ولأن على الناس الذين يتعلمون قراءة الأبجدية الرسمية لبلدهم أن يتعلموا أبجديةً أخرى إن أرادوا قراءة نصوص لغتهم المكتوبة في البلد المجاور.

علينا دون الدخول في نقاش تفصيلي، أن نتساءل عن سبب رفض أبجديةٍ موحّدة، ولا سيما الأبجدية المقترحة عام 1966 التي تبدو أكثر انسجاماً من تلك الأبجديات المعتمدة. لقد تذرّعت البلدان المختلفة بذرائع تقنية بالطبع: أن تكون أقرب ما يمكن إلى النُّطق المحلي، أو أن يكون للغات المختلفة في البلد الواحد أبجدية واحدة (كما هو الحال في مالي التي اعتمدت فيها أبجدية «أفريقيا» للغات الأخرى غير البامبارا). غير أننا إن نظرنا إلى المسألة بإمعان أدركنا سريعاً سبب التمسك بالخصوصيات. ولقد كان الخبراء المجتمعون في باماكو عام 1966 من الغربيين (من فرنسا وأمريكا والاتحاد السوفياتي) والأفارقة، ومن الممكن أن تكون بعض الدول قد رأت في الأبجدية التي اقترحوها فكرةً غربية، وتدخلاً في الثقافات المحلية، فأرادت تعديلها.

أن يسعى أصحاب القرار إلى تعديل ما يقترحه الخبراء وتكييفه أمر طبيعي، غير أن الاجتماع إنما كان يهدف إلى **توحيد** تدوين اللغات في مختلف البلدان، فإذا به يأتي بنتيجة مغايرة. وهذا يشبه ما كنا رأيناه في مثال النروج من إرادة تأكيد الخصوصية الوطنية عبر شكل التدوين. ولهذا السبب دُوِّنت البامبارا في باماكو والمالينكيه في كيتا بمالي بأبجدية واحدة، ودُوِّنت المالينكيه في كنكان بغينيا بأبجديةٍ

أخرى رغم شبهِهما الشديد، حتّى لكأن المالينكيه تنتمي إلى مالي أو إلى غينيا قبل أن تنتمي إلى نفسها.

لو استخدمنا أبجديات مختلفةً لتدوين الفرنسية في فرنسا وفي بلجيكا وفي كبك بكندا بذريعة اختلاف اللهجات الحقيقي فيما بينها، واستخدمنا أبجدية واحدة لتدوين الفرنسية في باريس ومرسيليا لكنا في وضع شبيه بالوضع الذي نصفه في مالي وغينيا، وهو وضع يجري التركيز فيه على الدولة معياراً لاختيار الأبجدية، فيكون للدولة الفرنسية أبجدية، وللدولة البلجيكية أبجدية أخرى، بالرغم من أنه يمكن اعتبار لهجة باريس الفرنسية أقرب إلى لهجة بروكسيل في بلجيكا منها إلى اللهجة الفرنسية في مرسيليا.

لكن مهما بدت مثيرةً للسخرية هذه السياسات اللغوية المحلية التي تعتمد على تدوين اللغة للتأكيد على خصوصيتها الوطنية، فليست الكتابة فيها رهاناً لموازين القوى كما هو الحال في الأمثلة التي نقدمها فيما يلي.

مثال السوفيات

كانت اللغة الروسية قبل الثورة اللغة الرسمية للإمبراطورية (باستثناء دول البلطيق، وبولندا، وفنلندا) التي لا تكاد تتسامح مع الأقليات؛ فالدولة «قيصرٌ، ودينٌ، ولغة». أما السياسة السوفياتية بعد الثورة فسوف تعتمد على رؤيةٍ على المدى البعيد تتصوَّر عمليةً متدرِّجة تقود إلى مجتمع تذوب فيه الحدود بين الطبقات والأديان والأوطان، وتولد فيه ثقافة واحدة تنبثق من جميع الثقافات الموجودة فيه. وكان يفترض أن تمرَّ هذه العملية بمراحل ثلاث: مرحلة ازدهار الثقافات المختلفة (**راستفيت** Rastvet)، ثم مرحلة التقارب بين الثقافات (**سبليزنِيه** Sblizheniye)، وأخيراً مرحلة ظهور وحدة

متجانسة (**سلِيانِييه** Sliyaniye). أما في ما يتعلق باللغات، فكان من المفترض أن تجري عملية موازيةٌ تقود إلى لغة عالمية:

1 ـ تطوير اللغات الوطنية بعد انتصار الاشتراكية.

2 ـ اختيار الشعب لواحدةٍ من بين هذه اللغات التي تتمتع بالحقوق نفسها.

3 ـ تحويل هذه اللغة الوسيطة بشكل تدريجي إلى الأداة الأساسية للتواصل.

4 ـ تحويل لغة إقليمية وسيطة إلى لغةٍ عالمية مشترَكة(6).

إن القرار بمكافحة الأمية التي كانت متفشيةً في تلك الحقبة، وبالاعتماد في ذلك على اللغات الأمهات إنما كان في إطار هذا التصوُّر. وقد اعتمدت أبجديةٌ لاتينية للغات التي لم تكن مكتوبة، وغيِّرت أبجدية اللغات المكتوبة بالحرف العربي لتكتب بالحروف اللاتينية، على الرغم من معارضة أوساط المسلمين. وقد سيطرت الأبجدية اللاتينية سيطرةً نهائية في بداية الثلاثينيات.

	نسبة محو الأمية		
	1897	1926	1939
الاتحاد السوفياتي	28,4 في المئة	56,6 في المئة	87,4 في المئة
أوكرانيا	27,9 في المئة	63,6 في المئة	88,2 في المئة
جورجيا	23,6 في المئة	53 في المئة	89,2 في المئة
أرمينيا	9,2 في المئة	38,7 في المئة	83,9 في المئة
تركمانستان	7,8 في المئة	14 في المئة	77,7 في المئة
. . .إلخ			

(6) Rory Alladirce, *Language Equilibrium in the Soviet Union,*
رسالة تكميلية لإعداد شهادة الماجستير في الفنون، جامعة يوزك، 1984، ص 7 - 9.

بين عامي 1935 و1940 تغيَّرت السياسة بهدف اعتماد الأبجدية السيريلية التي تستخدمها اللغة الروسية - وهي أبجديةٌ سلافية قديمة - في جميع اللغات باستثناء بعض اللغات التي لها أبجدية موغلة في القدم، كالأرمنية والجورجية. وهكذا عرفت بعض اللغات، كلغة الطاجيك، ثلاثَ أبجديات في فترة عشرين عاماً، هي العربية واللاتينية والسيريلية. وفي أثناء هذه الفترة خطا محو الأمية خطوات عملاقةً يظهرها الجدول السابق.

غير أن هذا التقدم الرائع لا يلغي السؤال الذي كنا نود أن نطرحه: لمَ هذا التغيير في الأبجديات؟ ولمَ أُلغيت الأبجدية العربية؟ ولمَ اعتمدت الأبجدية اللاتينية للوصول إلى الأبجدية السيريلية؟ يقدم لنا اللساني يان كنابرت (Jan Knappert) مفتاحاً أولياً لفهم ذلك:

«لم تكن اللهجات التركية في سيبيريا الجنوبية، مثل التركمانية والأزبكية والكاراكلبكية والقرغيزية مستخدمةً في الكتابة الأدبية، إذ كانوا يستخدمون في القسم الأعظم من تركستان لغةً أدبية هي الجغادية (jgadaï) التي كانت تكتب بالحروف العربية. وقد اعتمد لكل واحدة من هذه اللهجات بعد الثورة الروسية بقليل، أبجدية تستند إلى الحروف اللاتينية. وبعد ما يقرب من عشر سنين، أي في أواسط الثلاثينيات، غيِّر الحرف اللاتيني ليحل محله خط جديد يستند إلى الحرف السيريلي. هذا الانتقال، فضلاً عن كثرة الاقتراض من اللغة الروسية يخلف انطباعاً بأنه ليس لهذه اللغات من وظيفة سوى أن تكون مرحلةً تمهيدية أمام الطلبة الذين يقدمون جميع امتحانات الشهادات العليا باللغة الروسية. وبهذه الطريقة يرتبط المتكلمون باللهجات التركية باللغة الروسية التي هي اللغة المركزية في البلاد، ويشعرون بأنهم أقل ارتباطاً بجيرانهم؛ فهم لا يستطيعون التفاهم معهم حين يتناول النقاش قضايا تتطلب ثقافة عالية، إذ

ينبغي عليهم حينئذ اللجوء إلى اللغة الروسية»[7].

كما أشار ج. لويس من جهته، إلى أن سبعين إلى ثمانين بالمئة من المقترضات آتية من الروسية في إطار عملية تحديث اللغات[8]. وبموازاة تغيير الحروف أصبح تعليم اللغة الروسية إلزامياً في جميع المدارس بناءً على نظرية «التيّارَيْن» (Dva potoka)، التي ترجع في نهاية المطاف إلى توزيع لوظائف اللغات: وظيفة التواصل المنحصر للغات المحلية، ووظيفة التواصل المنتشر والرسمي والعلمي وغير ذلك للغة الروسية. ومنذ وقت قريب، في عام 1975، اقترح في أثناء ندوةٍ عقدت في طشقند، تعليم الروسية في كل المراحل ابتداءً من رياض الأطفال، ثم اقترح في عام 1979 في أثناء ندوة ثانية عقدت في طشقند تحت عنوان: «اللغة الروسية لغة الصداقة والتعاون بين شعوب الاتحاد السوفياتي» إجبار الطلبة على كتابة الرسائل والأطاريح باللغة الروسية. وقد تلا ذلك مظاهرات في تبيليسي (Tbillisi) بجورجيا، وفي تالان (Tallin) بإستونيا، واضطرابات في جمهوريات البلطيق الأخرى، وعرائض وقعها المثقفون الجورجيون ... إلخ؛ فقد شعر عدد من أبناء اللغات الأخرى بأن لغاتهم تذوب شيئاً فشيئاً في اللغة الروسية.

كانت اللغة الروسية إذاً تستوعب لغات الاتحاد السوفياتي، ولم يكن لذلك صلة بالمادية التاريخية، وإنما هو مرتبط بموازين القوى، وبالسياسة اللغوية. ويمكن مقاربة العلاقة بين الروسية واللغات

---

(7) Jan Knappert, «The Function of Language in a Political Situation,» *Linguistics*, no. 39 (May 1968), pp. 59-67.

(8) E. Glyn Lewis, *Multilingualism in the Soviet Union: Aspects of Language Policy and its Implementation*, Contributions to the Sociology of Language; 3 (The Hague; Paris: Mouton, 1972).

الأخرى عبر هذين الرقمين: 3,1 في المئة من الروس ثنائيو اللغة، أي إنهم يتكلمون لغةً أخرى من لغات الاتحاد السوفياتي في مقابل 42,6 في المئة من غير الروس الذين يتكلمون لغةً ثانية، يعني اللغة الروسية[9]. وقد كان لتغيير حروف الأبجدية الذي وصفناه دور مهم في عملية الاستيعاب هذه. كان في اختيار حروف الأبجدية اللاتينية في أول الأمر مزية للسلطة، لأنه كان يبدو اختياراً محايداً من وجهة نظر سيميائية، إذ لم يكن يراد أن تظهر البلشفية وكأنها إمبراطورية روسية. أما حذف حروف الأبجدية العربية فكان يهدف بالطبع إلى محاولة قطع الجذور الدينية في المناطق التي كان الإسلام راسخاً فيها. حتى إذا استقرت السلطة السوفياتية جاء الانتقال إلى الحروف السيريلية والاقتراض الكثيف من اللغة الروسية ليحد من الاختلاف بين اللغات، ويقلص دورها لمصلحة الروسية. هذا النوع من الإمبريالية اللغوية يسلك بالطبع مسالك متعددة مستفيداً من السياسة المدرسية والجامعية، ومن التخطيط اللغوي، ووسائل الإعلام. ولكن مسألة الكتابة التي تبدو في ظاهرها مسألةً بسيطة تقوم كما رأينا، بدور مهم في عملية الاستيعاب هذه. والفارق السيميائي الذي تمثله حروف أبجديتين مختلفتين يحمي اللغات لأنه يفصل فيما بينها؛ فالقرغيزية أو الطاجيكية مثلاً يكونان أقلَّ عرضةً للتأثر باللغة الروسية إن كتبتا بالحروف العربية لا بالحروف السيريلية.

من المفارقة إننا سوف نجد الوضع المعاكس في الصين حيث تحمي وحدة الكتابة تعدد اللغات.

---

(9) Bernard Comrie, *The Languages of the Soviet Union*, Cambridge Language Surveys (London; New York; Melbourne [etc.]: Cambridge University Press, 1981).

مثال الصين

تحدثنا في ما سبق في الفصل الحادي عشر عن التخطيط اللغوي في الصين. ولن نتحدث هنا إلا عن مسألة الخط التي يجب أن نميز فيها نقطتين: تبسيط الخط، وخط بن يِن (pin yin).

إصلاح الخط:

نعرف أن اللغة الصينية تتفرد بأنها ليست في الحقيقة مرتبطةً من الناحية الصوتية بلغةٍ محددة؛ فلا يستطيع مَن لا يتكلم إلا لهجة بكين أن يتواصل شفاهاً مع من لا يتكلم إلا بلهجة كانتون، ولكن هذين الشخصين يستطيعان أن يقرآ الجريدة نفسها، وأن يتواصلا بواسطة الكتابة؛ فالحروف الصينية تمثل الأفكار قبل أن تمثل الأصوات. ويمكن قراءة هذه الحروف دون أن نحسن النطق بكلمة صينية واحدة، كما تقرأ الرسوم الكرتونية الخرساء.

كم عدد هذه الحروف؟

إنّها بحسب زو يوغوانغ (Zhou Youguang):

- 6763 حرفاً أساسياً مصنفاً، منها 3755 يكثر استعمالها، و3008 أقل منها في الاستعمال.

- 16000 حرف آخر تسمح مع الحروف السابقة بطباعة جميع الكتب قديمها وحديثها، مما يجعل العدد قريباً من 23000 حرف.

- 34000 حرف نادر الاستعمال[10].

---

(10) Zhou Youguang, «Modernization of the Chinese Language,» *International Journal of Sociology of Language*, no. 59 (1986), pp. 13- 14.

يجب إذاً معرفة ما يقرب من 4000 حرف لقراءة المنشورات الحديثة. ويمكن للمثقف الجيد أن يعرف أكثر من 30 ألفاً منها. هذا يعني أن تعلم اللغة الصينية المكتوبة يستدعي جهداً استثنائياً للذاكرة، وأن موضوع تبسيط الكتابة كان موضوعاً حاضراً على الدوام. يمكننا، دون الرجوع إلى حقبة كوين (Quin)، أن نذكر حركة الرابع من أيار/مايو 1919 التي رأت في تبسيط الكتابة عملاً معادياً للإقطاع، ثم حكومة نانكين التي قامت في عام 1935 بمحاولةٍ فاشلة لتبسيط الحروف بجعلها 324 حرفاً، فكانت بذلك رائدةً للحكومة الاشتراكية التي نشرت في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1955 قائمةً بـ 515 حرفاً و54 أداةً مبسطة. ينبغي أن نفهم أن الحرف الصيني مكوَّن من عدد من الخطوط التي يجب أن ترسم في نظام معيَّن، وأن إصلاح عام 1955 ينتقل من معدلِ 16 خطاً إلى معدل 8 خطوط للحرف الواحد، مما يمكن أن يعدَّ تقدماً، فالحرف التقليدي للحصان مثلاً يتضمَّن عشرة خطوط (馬). أما الرسم المبسط فليس فيه إلا ثلاثة. لا ريب في أن في هذا الإصلاح بعض المعايب، (马)، ولا سيما عيب إخفاء ما يمكن أن يؤدي إلى فهم بعض الحروف التي يقرأ معناها من خلال التركيب؛ فالكلمة التي لفظها «جي» (ji) في لغة المانداران (Mandarin) والتي تعني «حسب، خطَّط» تكتب على الشكل الآتي (計)، وهو حرف مركب يمكن أن نرى فيه على اليسار جذر الكلام أو القول، وعلى اليمين عدد 10، فيعني هذا الحرف إذاً: «يحسن أن يقول الأعداد حتى عشرة». أما الحروف المبسطة فيخفى تأثيلها وأصل اشتقاقِ التسمية فيها. وكذلك الحال في حرف (计) الذي يعني 車 «عربة، سيارة»، فإنه يظهر سيارةً مع محورها، وعجلاتها، وحجرتها، ينظر إليها من علٍ. ولكن هذه العناصر تضيع في الشكل المبسط (车).

جرت الأمور بشكل جيد في هذه الدفعة الأولى من عملية التبسيط وإن كانت قد أثارت، وما زالت تثير، عدداً من المشاكل في التواصل مع تايوان، وهونغ كونغ، ومع الصينيين الذين هم وراء البحار لأنهم لا يزالون يستعملون الحروف التقليدية. ولا ريب في أن حملة التبسيط قد انطلقت بدعم من جميع وسائل الدعاية في الدولة، وأنه قد ظهرت في عام 1974 على سبيل المثال، شعارات غريبة تضع النضال في سبيل تبسيط الحروف على قدم المساواة مع النضال ضد كونفوشيوس ولين بياو:

«صعِّدوا نقدكم لـ (لين بياو) ولـ (كونغ)، وادعموا إصلاح الخط» (shenru pi lin pi kong tuidong hanzi gaige).

«كونفوشيوس زعيم المعارضين الأكبرُ لإصلاح الخط»[11] kong (laoer shi fandui hanzi biange de zushiye).

يعرف الصيني الشاب في أيامنا أن «الغيم» (يون) يكتب هكذا (云)، وقد لا يعرف هذا المدلول مكتوباً بالحرف التقليدي (雲)، فيضيع بالنتيجة تأثيل الكلمة، أي أصل الاشتقاق الذي أدى إلى كتابة الحرف التقليدي على الشكل الذي كان عليه. وهو من جهة، يضيع أحد مكونات هذا الحرف: «يو» (雨) الذي يعني «المطر»، وهو من جهة أخرى يضيع تاريخ الحرف نفسه، وهو تاريخ يمتد إلى ثلاثة آلاف عام يمكن أن نقرأه على العظام، والأختام، والبرونز، وغير ذلك. نحن هنا أمام مثال يظهر بجلاء الفارق بين التطور التاريخي للخط وتدخل الإنسان فيه: ثلاثة آلاف عام من التاريخ في جهة، وعشرون سنة من الإصلاح في الجهة الأخرى. كان ممكناً أن يقرأ

(11) Chin Chuan Cheng, «Contradictions in Chinese Language Reform,» *International Journal of the Sociology of Language*, vol. 59 (1986), p. 88.

جميع الناس تأثيل حرف «دونغ» (東) الذي يعني «الشرق»، وأن يرى في أصل اشتقاقه صورة الشمس (日) ترتفع خلف شجرة (木). ولكن تركيب الحرف هذا يضيع بالطبع في الشكلِ المبسَّط للحرف (东).

دخلت المرحلة الأولى من التبسيط في عادات الناس عن طريق المدرسة بالدرجة الأولى. غير أن القائمة الثانية من الحروف المبسَّطة التي أطلقت عام 1977 ما لبثت أن سحبت من التداول بسببِ اعتراضات كثيرة بعضها من شخصيات شهيرة؛ فقد نشر الكاتب با كين (Pa Kin) خصوصاً مقالةً يعترض فيها على هذا الإصلاح الجديد. وكانت حجج المعترضين على الإصلاح حججاً ثقافيةً بالدرجة الأولى: سينتهي بنا الأمر إلى عدم معرفة كتابة الصينية الحقيقية، وفن الخط **فننا** الوطني، وهو فن يستخدم الحروف التقليدية . . . إلخ.

ويبدو أن الوضع قد استقر في أيامنا على ما هو عليه في هذه المسألة، فقد أعيد تعليم الصينية التقليدية في المدارس، بل إننا نشهد هنا وهناك شيئاً من العودة إلى الحروف التقليدية في الكتابات العامة وفي الصحافة، دون أن يثير هذا الأمر مشكلة؛ فقد كتب المقطع الأول من اسم مدينة كانتون، على سبيل المثال، بالحرف التقليدي في رأس الصفحة على أوراقِ معهد اللغات الأجنبية الذي قمنا بالتدريس فيه. ولكن يجب الاعتراف بأن النص مكتوب بخط ماو تسي تونغ.

يبدو في قراءة أولية سريعة أنه لم تترتب على هذا التدخل في إصلاح الخط الصيني نتائج سياسية مشابهة لتلك التي رأيناها في تعديل حروف الأبجدية في المثال السوفياتي. بيد أن علينا أن نشير إلى أن وجهاً من وجوه توحيد رسم الحروف وتنميطها يعيدنا إلى المسألة نفسها.

يشير يانغ جيان، في تذكيره بأن الحرف الصيني يجمع بين الرسم والوظيفة الدلالية النحوية، إلى أن الحكومة الصينية كانت ترمي من وراء توحيد الخط وتنميطه إلى «اختيار الحروف الأكثر فائدةً للغة الصينية المعاصرة، وإلى تبسيط خطوطها ما أمكنَ، وإلى تحديد معانيها (ونطقها)، وبالنتيجة إلى حظر عدد من الحروف التي ابتدعت لبعض العبارات اللهجية، وبعض العبارات التي اقترِضت فيها الحروف خلافاً للأصول علاماتٍ صوتية»[12]. يطرح هذا القول عدداً من الأسئلة:

- ما هو الحرف المفيد؟ ومَن الذي يقرر فائدته؟
- ما هي الصينية المعاصرة؟ ومَن يحدد معنى المعاصَرة؟ . . . إلخ.

كما أن هذا القول يثير في الوقت نفسه عدداً من مشكلات كتابة اللهجات إن كانت بعض الحروف الخاصة قد حظرت كما يقول يانغ جيان. غير أن هذه المشاكل التي أثارها تبسيط كتابة الحروف لا تشبه في شيء من وجهة النظر هذه ما يثيره نظام الكتابة: بِن يِن.

إصلاح بِن يِن

فكرة روْمَنةِ الكتابة الصينية، أي كتابة اللغة الصينية بحروف اللغات الرومانية، فكرة ليست بالجديدة، فقد استخدم المبشر ماتيو ريتشي (Mateo Ricci) قديماً الحروف اللاتينية لكتابة اللغة الصينية.

---

(12) Yan Jian, «Problèmes de chinois contemporians,» dans: *La Crise des langues*, collection l'ordre des mots; ISSN 0220-6013, textes colligés et présentés par Jacques Maurais ([Montréal]: Conseil de la langue française; Paris: Le Robert, 1985), p. 426.

وجرت محاولاتٌ عديدة في العصر الحديث بالموازاة مع محاولات الرَّوْمَنة التي قام بها المختصون باللغة الصينية، ومن أشهرها كتابة «واد» (Wade). نذكر من ذلك القائمة التي اقترحها في عام 1892 لو كانشانغ والتي تضم 55 حرفاً خليطاً، فلا هي صينية محضة ولا هي غربية خالصة[13]. كما نذكر من هذه المحاولات: **زهوين زيمو** (Zhuyin Zimu) في عام 1918، **وغويو رومازي** (Guoyu romazi): «رَوْمَنة اللغة الوطنية» في عام 1928، **وبيفانغهوا لاتينهوا كزينونزي** (Beifanghua latinhua xinwenzi): «كتابةُ لهجة الشمال بالحروف اللاتينية» في عام 1933، وأخيراً **بِن يِن** في عام 1958، أي بعد ثلاث سنوات من قرار الحكومة تعميم تعليم اللغة المشتركة: **بو تونغ هوا** (pu tong hua). وسوف نرى أن هناك علاقةً تربط ما بين هذين القرارين.

الحجج الرسمية لتبرير استعمال الكتابة بنظام بن يِن كثيرة:

- المساعدة على تعليم رسم الحروف.
- مساعدة الأجانب على تعلم اللغة الصينية.
- حل مشكلة أسماء الأماكن والأشخاص.
- المساعدة على تعميم لغة بو تونغ هوا.
- كتابة البرقيات ... إلخ.

تبدو رَوْمَنة اللغة إذاً عملية كتابةٍ إضافية مساعدة ليس من شأنها أن تحل محلَّ نظام الحروف، ولكن أن تساعد، على العكس من

(13) John de Francis, «Language and Script Reforme in China,» in: Joshua A. Fishman, ed., *Advances in the Creation and Revision of Writing Systems* (The Hague: Mouton, [1977]).

ذلك، على تعلمه. هذا على الأقل من الوجهة النظرية، لأنهم كانوا يذكرون غالباً في بداية حملة «بن ين» جملةً لماو تسي تونغ يقول فيها: «يجب أن تصلح لغتنا المكتوبة، ويجب أن تتوجَّهَ نحو كتابة صوتية مشتركة بين جميع لغات العالم»[14]. وكان تدخل بعض الزعماء بِشكلٍ دوري يوحي بأن الهدف النهائي من المشروع هو فرض بن ين نظاماً وحيداً للكتابة الصينية.

في أثناء استقصاءاتنا في كانتون طرحنا سؤالين مرتبطين بهذه القضية في استبيان موجَّه للطلبة:

أتكتبون بسهولة اعتماداً على نظام بن ين؟ أتوافقون على أن يحل نظام الكتابة بن ين محل الحروف التقليدية؟ هاكم توزُّع الإجابات:

أتكتبون بسهولة اعتماداً على نظام بن ين؟			
	الصِّبيان	البنات	المجموع
نعم	81	77	158
لا	37	5	42
ليس تماماً	19	5	24

أتوافقون على أن تحلَّ حروف بن ين محل الحروف التقليدية؟			
	الصِّبيان	البنات	المجموع
نعم	40	33	73
لا	94	53	147
لا أعرف	3	1	4

في رأس الحجج التي تقدّمها الأقليَّة الموافقة على إصلاح الخط: سهولة بن ين، ثم السرعة، فالإمكانات الكبيرة لاستخدام الآلة الكاتبة، فالاتصال بالخارج.

(14) Winfred Philipp Lehmann, *Language & Linguistics in the People's Republic of China* (Austin; London: University of Texas Press, 1975), p. 51.

أما المعارضون للإصلاح فيحتجون بـ: جمال فن الخط التقليدي، وبأن الحروف التقليدية تشكل جزءاً من الثقافة الصينية، وبالاتصال بالصينيين الذين هم في ما وراء البحار، وبمشكلة الكلمات التي تتشابه أصواتها.

إن هناك في الحقيقة، كلمات كثيرة تشترك في اللفظ، فتكتب إذاً بصورة واحدة في بن يِن ولا يميِّز بينها إلا الكتابة بالحرف التقليدي. ونظام كتابة بن يِن لا يميِّز، على سبيل المثال، بين «لي Li» التي تعني «قاس، جاهل» (俚)، و«لي Li» التي تعني شجرة الخوخ (李)، و«لي Li» التى تعني «بطانة الثوب» (裏)، و«لي Li» التي تعني «المسكن» (里)، و«لي Li» التي تعني «الرُّسُغ أو سمك الشبُّوط» (鯉) ... إلخ.

ولا يميز هذا النظام أيضاً بين «يوان دان Yuan dan» التي تعني «بداية العام» وتعني «البيضة» أيضاً.

وفي هذه الأمثلة حجّة لغوية قوية تقف في وجه كتابة بِن يِن.

غير أن شخصاً واحداً من بين الأشخاص الذين استقصينا آراءهم، والبالغ عددهم 224 شخصاً، أشار إلى أن فرض نظام بِن يِن يمكن أن يترتب عليه موت اللغات الأخرى غيرِ لغة بو تونغ هوا؛ ذلك أن الفارق الجوهري بين نظام الحروف التقليدي وأي نظام أبجدي آخر هو أن النظام الأبجدي يفرض كتابة لغة بعينها [وليسً الأمر على ذلك في الحروف الصينية التقليدية] إذ يمكن لشخصٍ من شعوب «هان» الصينية أن يقرأَ صحيفةً بلغة «بو تونغ هوا» دون أن يحسن الكلام بهذه اللغة. وبما أن كتابة بن يِن هي كتابة رومانية للغة بو تونغ هوا، فإن فرض هذه الكتابة محل الحروف التقليدية يؤدي بِكل بساطة إلى أن تتدنى كل اللغات غير المكتوبة إلى مرتبة «اللهجات». وشيئاً فشيئاً تفقد لغات «هان» باستثناء بو تونغ هوا وظائفها الأدبية والثقافية، ولا يعود لها إلا وظيفة اتصال حاصرة، أي

وظيفة اللغة القطيعية، التي ليس لها من مجالٍ إلا في التعبير الشفوي.

إن اعتماد حروف اللغات الرومانية، الذي يمكن أن يبدو في أول الأمر حلاًّ تقنياً لمشكلة خاصة هي صعوبة تعلم الحروف التقليدية بسبب كثرة عددها، يتحول في حقيقة الأمر إلى أداةٍ في خدمة فرض لغةٍ، هي اللغة الرسمية، على مختلف جماعات الـ «هان» التي تتكلم لغاتٍ صينية أخرى.

مناقشة

ليست هذه المرة الأولى التي نتعرض فيها لمشكلة الكتابة في هذا المؤلف؛ فقد رأينا أن استخدام حروف الأبجدية اللاتينية محل الحروف العربية كان واحداً من وجوه «الثورة اللغوية» التركية، وأن المواجهة السياسية الدينية بين المسلمين والهندوس يمكن أن ترجع بشكلٍ رمزي إلى خيارات كتابية مختلفة، فتختار الأوردية الحرف العربي، وتختار الديفاناغارية الحروف الهندية.

تُظهر الأمثلة التي درسناها في هذا الفصل بشكلٍ أكثر وضوحاً أن الكتابة يمكن أن تكون محلاً للصراع؛ ففي حال الماندينغ كما في حال النروج التي عرضناها في الفصل الثاني عشر، يشكل اختيار نوعِ الكتابة ما سميناه بـ «السياسة اللغوية المحلية»، أي السياسة التي تريد التفرد والأصالة الوطنية. وهي سياسة يمكن أن تؤدي رغبتها في التميز في آخر المطاف إلى إلغاء التواصل الذي هو الوظيفة الأساسية للغة.

تقدم أندونيسيا وماليزيا أيضاً مثالاً مهماً من وجهة النظر هذه؛ ففي بداية هذا القرن كان للغة الماليزية الواحدة نظامان من أنظمة الكتابة يتعايشان جنباً إلى جنب: أولهما النظام الذي وضعه ش. فان أوفيسن (Ch. Van Ophuysen) عام 1901، والذي يستخدم في الجزر

الهندية الهولندية، أي ما يعرف اليوم بأندونيسيا، والنظام الذي وضعه ويلكينسون (Wilkinson) عام 1904، والذي يستخدم في ماليزيا. وفي كل واحد من هذين النظامين خصائص تميزه عن الآخر، موروثة عن نظم الكتابة في اللغات الاستعمارية، وهي الهولندية من جهة، والإنجليزية من جهة ثانية. في عام 1947 اعتمدت أندونيسيا التي كانت قد حصلت على استقلالها حديثاً، نظاماً جديداً في الكتابة يمحو بشكلٍ خاص آثار الكتابة الهولندية (من مثل استخدام oe لكتابة الصائت / u/). ثم حاول البلدان، أندونيسيا وماليزيا، في عام 1961 اعتماد نظام موحَّد للكتابة هو نظام « مالیندو » (الذي يجمع اسمه بين ماليزيا وأندونيسيا). غير أن الخلافات بين البلدين لم تسمح بتطبيقه. ولم يعتمد نظامٌ موحد لكتابة اللغة الواحدة إلا فيما بعد، وهو نظام «الكتابة المحسنة» (EYD: Ejaan Yand Disempurnakan) الذي اعتمدته ماليزيا رسمياً عام 1969، وأندونيسيا عام 1979، وسنغافورة عام 1976.

يظهر تسلسل الأحداث التوجهات الخاصة بالمسائل التي أثرناها في هذا الفصل، والتي ظهر بعضها في الأمثلة المذكورة أعلاه: إرادة التميز عن الكتابة الاستعمارية، كما هو الحال في مثال النروج، وإرادة اعتماد نظام وطني للكتابة، كما هو الحال في مختلف البلدان التي تتكلم بالماندية، وأخيراً إرادة تجاوز الخلافات لتوحيد الخط[15].

(15) Pierre Labrousse, «Réformes et discours sur la réforme, le cas indonésien,» dans: *Language Reform: History and Future = La Réforme des langues: Histoire et avenir*, 6 vols., With a Preface by Joshua A. Fishman; Edited by István Fodor, Claude Hagège (Hamburg: Buske, 1983-1994), vol. 2, pp. 340-342.

لكن مثال سياسة الاتحاد السوفياتي المتعلقة بالأقليات أكثر تعبيراً وأوضح دلالة؛ فالانتقال من الخط العربي إلى الخط اللاتيني ثم إلى السيريلي يمكن أن يعتبر نوعاً من عدم الاتساق في التخطيط، ومن التغيير المفاجئ، إلا إننا رأينا فيه، خلافاً لهذا الرأي، إرادة تقريب لغات الأقليات من اللغة الروسية ما أمكن التقريب لتعزيز هيمنة هذه اللغة.

أما المثال الصيني فلا يكاد يطرح سوى مشكلة ثقافية في إصلاح الحروف التقليدية، وهو خطر فقدان الذاكرة التي تحملها علامات الكتابة التقليدية، ولكنه يمكن أن يطرح مشكلةً أكثر خطورةً إن حلَّت كتابة بن يِن الرومانية محل الحروف التقليدية، لأن رَومنة الكتابة لن تكون حينئذٍ نظاماً لكتابة **لغات** الـ «هان»، بل نظاماً لكتابة **لغة واحدة** من هذه اللغات، هي اللغة الرسمية.

هكذا تبدو الكتابة متصلة بالسلطة بطرق مختلفة، فهي في تمثيلها الرمزي للجماعة (كما هو الحال في الهندية في مقابل الأوردية) أو للبلد، يمكن أن تكون محل تمسك عاطفي، أو رد فعل متشدد في تمسكه بالوطن أو بالجماعة الصغيرة التي ينتمي إليها. كما يمكن أن تكون، على العكس من ذلك، معارضةً ورفضاً. بهذا المعنى، تشبه الكتابة عدداً من الأنظمة السيميائية التي تعمل على مستويين اثنين: الأول هو مستوى الدلالة الذاتية (فنظام الكتابة نظام للكتابة. وتكرار العبارة هنا حشو يمكن أن يلخِّص وظيفة الكتابة [ودلالتها الذاتية في أنها تحصيل حاصلٍ لأنها مجرد تصويرٍ للَّفظ]، والثاني مستوى الدلالة الإيحائية (فهذا الخط أو ذاك النظام يوحي بالماضي الذي نرفضه أو الذي نعتز بانتمائنا إليه). في هذه الوظيفة الرمزية للخط مجالٌ للصراع، ولـ «حرب الكتابة»، وهو العنوان الذي اخترناه لهذا الفصل. لكن الكتابة يمكن أن تكون أيضاً محل تدخل

مباشر، ومحل هجوم سواء أتعلق الأمر بفرض خط اللغة الغالبة على اللغات المغلوبة كما هو الحال في المثال السوفياتي، إذ لا يكون الخط حينئذ سوى خطوة أولى في هجوم أوسع، أم بقطع اللغات عن جذور الكتابة فيها كما هو الحال في كتابة بن يِن. وتظهر الكتابة في الحالين وسيلةً من وسائل القهر، قهرٍ رمزي بلا ريب. ولكنه ليس رمزياً إلا في المرحلة الأولى، ذلك أنه يمهد السبيل إلى موازين قوى مادية ملموسة أكثرَ من الرمز بكثير.

الفصل السادس عشر
حرب الكلمات

قلنا سابقاً إن السياسة اللغوية حين تتدخل في اللغة، لا في اللغات، أي حين تتدخل في شكل اللغات لا في العلاقات فيما بينها، فإنه يمكن لها أن تؤثر في مستويات مختلفة ثلاثة: في الخط، وفي المعجم، وفي الأشكال اللهجية. وسوف نتناول في هذا الفصل التدخل في مجال المعجم.

المقاربة الأولى

ثمة نمطان من أنماط التعليل للتدخل في مجال المعجم:

ـ يشكل التدخل في المعجم في بعض الحالات، رداً على تهديد قوةٍ غازية؛ إذ يعتبر أن مفردات غريبةً تغزو اللغة، وأنه ينبغي أن يطرد هذا الغازي الغريب خارج المعجم لتحل محله مفردات أصيلة. إن الدفاع عن «نقاء» المعجم اللغوي أمرٌ شائع. وسوف تتاح لنا الفرصة للتوسع في تحليله في الفصل اللاحق اعتماداً على المثال الفرنسي.

ـ في حالات أخرى يكون التدخل في المعجم استجابةً للرغبة في إغناء اللغة؛ إذ يعتبر أن من الواجب تزويد اللغة بمفرداتٍ جديدة

بهدف المواءمة بينها وبين حاجات العصر، والسماح لها بالتعبير عن معانٍ لم تكن قد عبَّرت عنها بعد (في مجالات التعليم، والسياسة، والعلوم، وغير ذلك).

يتراوح التدخل في مجال التوليد المعجمي عموماً بين قطبين اثنين: **الاقتراض** من جهة، أي استعمال لفظةٍ موجودة في لغة ثانية، **والتوليد الداخلي** من جهة أخرى، أي خلق كلمةٍ جديدة اعتماداً على الجذور الخاصة باللغة نفسها.

إن استعمال مصطلح «الاقتراض»، وهو استعمال أصبح تقليداً في اللسانيات للدلالة على ما نسميه بـ «الكلمات المهاجرة»، أي تلك الكلمات التي تنتقل بين لغة وأخرى، استعمالٌ فيه نظر: فالاقتراض يعني في أصل وضعه «تسليف المال»، ويفترض أن «يعاد» ما «استُلِف». على أن اللغات لا تعيد الكلمات التي اقترضتها. وقد ولدت هذه الصورة لتدل على السرقة في مجال الأدب، والسارقون لا يدفعون [ثمن ما يسرقون].

ومهما يكن من أمر، فإن هذين القطبين، أي الاقتراض والتوليد، ليسا خاصتين موقوفتين على السياسة اللغوية وحدها، أي على التدخل البيروقراطي في اللغة، بل إن أبناء اللغة أيضاً ينزعون نزوعاً تلقائياً نحو هذين القطبين؛ ذلك أن علينا أن نميز بين نوعين من أنواع التوليد المعجمي: الأول ما نسميه **توليداً عفوياً**، وهو النوع الذي يمارسه أبناء اللغة في كل يوم، والذي يحدِّد طريقة اللغة في سد حاجاتها المعجمية، والثاني هو ما نسميه **توليداً مبرمجاً**، وهو النوع الذي تؤديه السياسات اللغوية، أي القرار بتوليد الكلمات.

عندنا إذاً توليد عفوي نسميه بالإبداع المعجمي، وتوليد مبرمج نسميه بالتوليد المعجمي. ويؤدي تقاطع هذين الزوجين، أي

الاقتراض والتوليد من جهة، والتوليد العفوي والمبرمج من جهة ثانية، إلى أربعة احتمالات يمثلها الجدول الآتي:

توليد المفردات	عفوي	مبرمج
بـ		
التوليد الداخلي	1	3
الاقتراض	2	4

1 ـ اللفظ المولد العفوي هو الذي يبتدعه أبناء اللغة استجابةً لحاجات التواصل اعتماداً على البنى اللغوية بالاشتقاق أو بالتركيب. مثال هذا في الفرنسية «**السكة الحديدية**» (Chemin de fer).

2 ـ الاقتراض العفوي هو الذي يظهر في مثل شروط الحال السابقة، حين يجد أبناء اللغة أنفسَهم في مواجهة واقعٍ أو ممارسة ليس لها اسم في لغتهم، فيستخدمون لذلك كلمةً من لغة أخرى، كما هو الحال في مثل الكلمات الإنجليزية التي اقترضتها الفرنسية Camping «المخيَّم»، وParking «المرآب»، بعد إجراء التكييف الصوتي الذي تفرضه اللغة بالطبع. وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى ظهور أصوات جديدة في اللغة المقترضة.

3 ـ اللفظ المولد المبرمج، أي الذي تصوغه اعتماداً على البنى اللغوية جماعة من اللسانيين، أو لجنة مصطلحية لتسمية ما لم يكن له اسم، أو ما كان له اسم مقترض من لغة أخرى. مثال هذا (Remue-méninges) التي ولدت في الفرنسية لتحل محل اللفظة الإنجليزية (Brain-Storming) لتسمية «البحث عن الأفكار المبتكرة»(*).

(*) تعني العبارة الإنجليزية حرفياً «أثارَ عاصفةً في المُخّ»، وتستعمل للدلالة على تقنيةِ البحثِ عن أفكارٍ مبتكَرة ولا سيما في مجال الدعاية والإعلان، وتقوم هذه التقنيةُ على أن يتبادلَ الحاضرون مباشرةً ما يخطرُ ببالهم من ردود أفعالٍ على بعضهم البعض عن طريق ذكرِ =

4 ـ الاقتراض المبرمج أخيراً، وهو ما تقترضه اللجنة نفسها في المناسبة نفسها من لغة أخرى، كما هو حال كلمة «**زرَّة**» في لغة مالي التي اقترضتها اللجنة من الكلمة العربية «**ذرة**».

هذا التصنيف الذي يضع على خشبة المسرح ممثلين للتوليد المعجمي هما أبناء اللغة والمخططون، يفترض احتمال الصراعات والتناقضات فيما بينهما، وهو ما يظهره المثال الآتي:

مثال البامبارا

كان نمطان من أنماط التوليد المعجمي العفوي يتنافسان في لغة البامبارا في مالي في أثناء الحقبة الاستعمارية: أولهما يقترض من الفرنسية مباشرة، والثاني يخترع كلمات جديدة تعتمد على بنى اللغة البامبارية. هاكم أمثلةً على ذلك:

اقتراض من الفرنسية:

ألّيماتي من (Allumette) أي «عود الثقاب»، أسياتي من (Assiette) أي «الطبق»، بالانسي من (Balance) أي «الميزان»، ديوين من Vin أي «النبيذ»، فوتو من (Photo) أي «الصورة»، كاميون من (Camion) أي «الشاحنة»، موبيلي من (Voiture)(*) أي «السيارة»، سوفير من (Chauffeur) أي «السائق»، تابالي من (Table) أي «الطاولة»، وير من (Verre) أي «الكأس» . . . إلخ.

= تداعيات اللفظ المسموع وما يُثيره في الذهن مباشرةً من مرادف، أو مقابلٍ أو مشابه أو مصاحب أو غير ذلك.

(*) في النصّ الأصلي (Voiture)، التي تعني السيارة، وهو خطأ ظاهر، وإنما موبيلي اقتراض من أوتوموبيل الذي يعني: ذاتِيّ الحركة، والذي يستعمل في الفرنسية مرادفاً لكلمة Voiture.

توليد داخلي:

باغانفاغايويو (المكان الذي تذبح فيه الحيوانات) أي «المسلخ»، فاريكولونيِناجيكين (الجسم ـ الترويح عن النفس ـ المكان) أي «المدرَّج»، نيغيسو (حصان حديد) أي «الدرَّاجة»، بانكورو (جذع يطير) أي «طائرة» . . . إلخ.

من الصعب أن نعرف السبب الذي من أجله يختار الاقتراض مرةً، والتوليد الداخلي مرةً أخرى في حالات التوليد العفوي، فالتوزُّع بين هذين النمطين لا يبدو ذا دلالة حقيقية. ولذلك فقد نجد في مقابل مرجعين متكاملين كلمتين، إحداهما مقترضة والأخرى مولدة، كما هو الحال في مثل كلمة: /ترين/ المقترضة لتسمية «القطار»، و/نيغيسيرا/ المولدة لتسمية «خط سكة الحديد». بل قد نجد أحياناً لفظتين مترادفتين تقريباً إحداهما مقترضة والأخرى مولَّدة، مثل: /ساري/ و/ميسيدابا/ (مجرفة البقرة) للمحراث، و/غلاسي/ و/جيكورو/ (حجر الماء) لتسمية «مكعَّب الثلج» [الذي يستخرج بتجليد الماء في الثلاجة] . . . إلخ. بيد أن من الواضح أنه مهما اختلفت طريقة التوليد، فإن المقصود في الحالين تسمية أشياء أتت بها القوة المستعمرة من ثقافة أخرى.

والتوليد العفوي إذاً، سواءٌ أكان بالاقتراض أم بالتوليد الداخلي، إنما هو حل لمشكلة معنوية ملموسة.

ثم جاء الاستقلال، وجاء معه اللسانيون وحملات محو الأمّية، والتخطيط اللغوي، فبدأ التوجه رسمياً نحو صوغ المولدات بلغة البامبارا. وهكذا ولِّدَ لِـ"الرئيس» الذي كان يقال له منذ بداية الاستعمار (برزِيدان) باقتراض شفّاف من الفرنسية (Président) لفظٌ جديد هو /جاماناكونتيجي/، الذي يعني حرفياً: «سيِّد رأس البلد»،

وولِّد لـ «السياسة» التي كان لها اسم مقترض هو بوليتيكي (Politique) لفظ (نيِيتاسارا) الذي يستحق أن نتوقف أمامه قليلاً. يعني هذا اللفظ الذي اخترعه لسانيو (القسم الوطني للمحو الوظيفي للأمية وللسانيات التطبيقية DNAFLA): «طريق التقدُّم». وتظهر الرؤية الأيديولوجية بوضوح من خلال تركيب هذه الكلمة التي تترجم لفظ «السياسة»: كان المولدون لهذا اللفظ يفكرون بسياسة بلدهم بلا ريب، أو بسياسة البلدان التقدمية. لكن أيمكن اعتبار سياسة يعتمدها رجل مثل هتلر أو مثل بينوشيه «طريقاً نحو التقدم»؟

اقترحنا بعد نقاش حول هذه المسألة في أثناء دورة تدريب للسانيين قمنا بها في باماكو في شهر نيسان/ أبريل من عام 1984 أن نقوم باستقصاء سريع لنعرف كيف يتقبل المتكلمون بلغة البامبارا هذه المولَّدات، وكيف يفكُّون رموزها. وقد اخترنا لفظتين جديدتين من ألفاظ السياسة مما ابتدعه «القسم الوطني للمحو الوظيفي للأمية وللسانيات التطبيقية»، وهما لفظ (نيِيتاسيرا) لتسمية «السياسة»، ولفظ (باراكيلاوكاسيري) التي تعني حرفياً (زمرة ـ جماعة العمال) لتسمية «البروليتاريا»، وطلبنا من عدد من المارَّة في الشارع أن يقولوا لنا ما تعنيه هاتان الكلمتان بالنسبة إليهم، فلم يعطنا واحدٌ منهم المعنى الذي اقترحته لجنة المصطلحات. وتراوحت إجاباتهم بين السمات المعنوية الآتية:

ـ **نييتاسيرا:** طريق التقدُّم، تقدَّم، تقدُّم، مستقبل، وهاتان السمتان الأخيرتان من أكثر السِّمات وروداً في الأجوبة التي تلقيناها.

ـ **باراكيلاوكاسيرا:** نقابة، جماعة من العمال، فئة من العمال. وقد أجاب عددٌ من الأشخاص بأنهم لا يفهمون هذه الكلمة، أو بأنها ليست موجودة في لغة البامبارا.

يمكننا بلا ريب أن نتصور أن الاستعمال يبني المعنى، وأن هذه الكلمات إن استعملت في الخطاب الرسمي، وفي وسائل الإعلام فسوف ينتهي بها الأمر أخيراً إلى أن تصبح جزءاً من مفردات اللغة حين يكثر استعمالها. وتطالعنا في جميع اللغات أمثلة على هذا الأمر في كل يوم. منها مثال جيِّد هو المصطلح الفرنسي «لوجيسيِيل» (Logiciel) الذي ابتُدع ليحل محل المصطلح الإنجليزي «سوفتوِير» (Software) في الدلالة على برامج الحواسيب. ليست المشكلة هنا إذاً، إنما هي في التعايش اللافت للنظر بين مقاربتين في توليد المفردات: مقاربة كمِّية تبحث عن الأشكال اللغوية الموجودة، أو الأشكال التي يمكن أن يفهمها بسهولةٍ أكبر عدد ممكن من الناس، ومقاربة نوعية تبحث عن الأشكال الأكثر صفاءً، والأقرب إلى بنية اللغة[1]. ولا تعتمد في مثال البامبارا إلا هذه المقاربة النوعية على حساب المقاربة الكمية. ويكتسب اختيار المقاربة النوعيةِ هذه بعدين يرتبطان بالسلطة وبالأيديولوجيا في الوقت نفسه:

ـ **بُعد مرتبط بالسلطة** أولاً، لأن اللغة هنا، عن طريق توليد مفرداتها، لا تعود إلى الذين يتكلمون بها، بل إلى لجان اللسانيين الذين يعطون أنفسهم حق تقرير ما هو «صاف» وما هو «غير صاف» في اللغة. ونحن لا نصف هنا ظاهرة خاصةً بدولة مالي، بل ظاهرةً عامة؛ فكل لجان المصطلحات التي تجتمع في باريس أو في مونتريال أو في بكين أو في غيرها، تقوم بالشيء نفسه: قد تختلف

---

(1) أخذنا هذا الزَّوج: الكمِّية/ النوعية من أندره تابوريه ـ كيلير (Andrée Tabouret-Keller) التي استخدمته في تقديمها لموضوع «التنميط في اللغات» في أثناء الندوة الدولية الثالثة عشرة للسانيات الوظيفية في كوزفو من 24 إلى 29 آب/ أغسطس 1986. وقد قدّمْنا في هذه الندوة بحْثاً عنوانه: «رِهانُ التوليد وعلاقاته بالأيديولوجيا»، وهو بحثٌ يشكِّلُ هذا الفصلُ كتابةً معدَّلةً له.

الأوضاع اختلافاً شديداً من مكان إلى آخر، ولكن المغزى يظل واحداً فيها.

مثال هذا: ما جاء في أطروحةٍ لحسن بن جلُّون(2) عن تعليم الصُّم في تطوان بالمغرب؛ إذ يصف تكوين شفرةٍ، أي تكوين لغة معتمدةٍ على العلامات يتدخل فيها مباشرة مدربات مغربيات ومتعاونات أمريكيات: بهذا تكون العلامات التي يستخدمها الصُّم في معظمها علامات وضعها الذين يسمعون.

– بعدٌ مرتبط بالأيديولوجيا بعد ذلك؛ فاختيار الكلمة «الصافية» بدل اختيار اللفظ المقترض يعبِّر عن إرادة التمايز عن اللغات الاستعمارية، والمؤثرات الغربية. وإن أردنا أن نكون أكثر تعميماً قلنا إنه يعبِّر عن إرادة التمايز عن اللغات الغالبة. وهذه الظاهرة موجودة أيضاً في أوضاعٍ أخرى؛ فالجهود الفرنسية الرسمية لإزالة الطابع الإنجليزي عن بعض مفردات الفرنسية تنتمي إلى نزعة العصبية للوطن نفسها. يبدو التدخُّل في أسماء الأمكنة أكثر دلالةً في هذه المسألة؛ فكثير من البلدان غيَّر اسمه بعد الاستقلال فصار الكونغو البلجيكي يدعى زائير، وداهومي صارت بنين، وفولتا العليا صارت بوركينا فاسو، وغويانا الهولندية صارت سيرينام . . . إلخ.

– وكثيرة أيضاً هي المدن التي غيَّرت أسماءها: ففي زائير ليوبولدفيل صارت كينشاسا، وإليزابيثفيل صارت لوبومباشي.

---

(2) Hassan Benjelloun, *Pédagogie des jeunes sourds au Maroc: Cas de Tétouan, problèmes linguistiques*, thèse 3e cycle: Linguist.: Paris 5: 1986 (Lille 3: ANRT, 1987),

رسالة دكتوراه من الحلقة الثالثة، بإشراف ف. فرانسوا، جامعة رينيه ديكارت، باريس، 1986.

- وفي المغرب مازاغان صارت الجديدة، وبُور ليوتي صارت القنيطرة . . . إلخ.

نرى في هذه الحالات جميعاً، سواء أتعلّق الأمر بأسماء الأماكن أم بمفردات اللغة العامة، كيف تطل الأيديولوجيا برأسها من خلف سلطة من يعطي لنفسه حق التسمية:

وهناك سلطة المستعمر أولاً، يسمّي على هواه دون أن يسأل إن كان ثمّة اسمٌ لهذا البلد أو لتلك المدينة، وتتراءى أيديولوجية المستعمر من خلال التسمية نفسها.

وهناك السلطة الوطنية بعد ذلك، تسمّي من جديد مستوحيةً بعض أسمائها من التراث. وتتراءى في أيديولوجيتها العصبية للوطن، إذ تضع الأسماء المحلية والكلمات المحلية نقيضاً مقابلاً للأسماء وللكلمات التي فرضها الآخر.

التوليد والأيديولوجيا

في مثال (مالي) الذي أشرنا إليه لم يكن ثمة إلا خيارٌ واحد من اثنين: إما الاقتراض من الفرنسية والقبول بكلمة الآخر، وإما ابتداع كلمات جديدة مأخوذة من لغة البامبارا يراد منها أن تطبع مفردات اللغة بالطابع (اللغوي) للاستقلال (السياسي).

أما في أندونيسيا فيقدم لنا س. تقدير علي جهبنا (S. Takdir Alisjahbana) مثالاً أكثر تعقيداً وغنى من مثال مالي:

«كان يعتمد في ابتداع المصطلحات الأندونيسية الحديثة في أثناء الاحتلال الياباني لأندونيسيا على الأولويات الآتية لتحديد المصطلح الأندونيسي الحديث: البحث أولاً عن لفظ أندونيسي، فإن لم يوجد لفظٌ أندونيسي يناسب المفهوم بُحِث في اللغات المحلية المختلفة،

فإن لم يوجد لفظ في هذه اللغات، بُحِث عن لفظ من لغات آسيا، فإن لم يجدوا فيها التجؤوا إلى المصطلح الدولي الشائع في آخر المطاف»[3].

على هذا الأساس اقترحت لجان المصطلح في أندونيسيا لفظ (سوانتانترا) الذي اعتبرته أكثر لصوقاً بالبلد من كلمة (أوتونومي) التي كان يستخدمها كل من يتكلم بالأندونيسية لتسمية «الاستقلال الذاتي». وعلى هذا الأساس فضَّلت لجان المصطلح في مالي استخدام لفظ (الذَّرة) العربي على اللفظ المقترض عن اليونانية عن طريق اللغات الأوروبية الحديثة (Atome)... إلخ.

هذا التداخل في مستويات البحث المعجمي مهم لأنه يبين لنا أن المسألة الجوهرية هنا تكمن في وسم مفردات اللغة بشيء من العصبية للوطن؛ فالبحث في المعجم الأندونيسي أولاً، وفي سائر اللغات المحلية ثانياً، وفي اللغات الأسيوية ثالثاً قبل القبول بلفظٍ أوروبي حين تعيي الحيلة ينقل العصبية الوطنية إلى المجال اللغوي. وهي عصبية تتجلى غالباً في اختيار اللغة، كما جرى في اختيار الماليزية لغةً وطنيةً حلَّت محل لغة المستعمر، وهي الهولندية. وقد أعيدت تسمية الماليزية فصارت (بهازا أندونيسيا) أي «لغة أندونيسيا». وقد رأينا فيما سبق أن هذه العصبية يمكن أن تظهر في اختيار نظام الكتابة كما هو الحال في النموذج التركي. وهي تظهر في النموذج الأندونيسي في البحث عن مفردات أصيلة في اللغة. وتعرَّف «الأصالة» تعريفاً نسبياً بدوائر يحيط بعضها ببعض تمضي من المحلي إلى العالمي مروراً بالمنطقة والوطن والقارة... إلخ.

---

(3) Sutan Takdir Alisjahbana, *Language Planning for Modernization: The Case of Indonesian and Malaysian* (The Hague: Mouton, 1976), p. 28.

يعيدنا ابتداع المفردات الجديدة في المثال الأندونيسي إلى العصبية للوطن، ويعيدنا في أمثلة أخرى إلى النزاع الديني حيث تقترض اللغة الهندية مولَّداتها من السنسكريتية، وتقترض الأوردية من العربية ومن الفارسية. كما يعيدنا إلى الانتماء السياسي حيث تبني الألمانية والتشيكية في أوروبا الشرقية المفردات السياسية المركبة فيها على غرار الألفاظ الروسية المركبة. وتطرح مشكلة المعجم اللغوي، كما طرحت مشكلة الكتابة في الفصل السابق، مسألة العلاقة بين التدخل التقني، أي التدخل اللغوي في المسألة التي تعنينا، والخلفية الأيديولوجية.

يتضمن التدخل المتعلق **بالتوليد المبرمج** عادةً أربع مراحل:

1 ـ أولاً: وصف نظام التوليد في مفردات المعجم، كالاشتقاق والنحت وغير ذلك؛ فإن بيَّن وصف لغةٍ ما كلغة الـ (بُل)، على سبيل المثال، أن اللفظة المفردة فيها تظهر دائماً على الشكل الآتي: (جذر + عنصر متعلق بالموضوع + علامة الانتماء المقولي)[*]، فإننا نستطيع، إن شئنا توليد كلمة جديدة، أن نقترض جذراً، ثم نشتق الكلمة الجديدة متبعين في بنائها الوزن الذي ذكرناه.

(*) كذا في النصّ الأصلي. وقد استشرنا الدكتور أحمد التيجاني جالو، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دكار الذي كان قد أنجز رسالته بإشرافنا في ليون عام 1996، وهو من الناطقين بلغة البُل، فذكَر لنا أنّ الأمرَ كذلك على وجه التقريب، وإن كان الشاذ أكثر من أن يحصى، وذكَرَ لنا المثالَ التالي: نيامْدو niaam-du؛ فالجذر / نيامْ niaam/ يدلّ على موضوع هو الأكل، واللاحقة / دو du/ تدلّ على أنه اسم، فيكون معنى الكلمة إذن «الطعام». فإنْ قلنا: نْيامْدِه niaam-dé/ دلَّ الجذر على الأكل، ودلَّت اللاحقة / دِه dé/ على أنه فعلٌ غيرُ مصرَّف، فدلت الكلمةُ على «تناوُل الطعام». فإن أردْنا تصريف الفعل في الحاضر أضفْنا إلى الجذر اللاحقة / ا a/ فقلنا: / نْياما niaam-a/ أي «يأكلُ»، وإن أردنا الماضي أضفْنا اللاحقة / ي / i فقلنا: / نْيامِي / niaam-i أي «أكَلَ».

تبدو هذه المسألة بدهيةً لا داعي لذكرها. ومع ذلك فإن علينا دائماً أن نذكِّر بأن التخطيط اللغوي، مثله في هذا مثل اللسانيات الاجتماعية كلِّها، لا يمكن أن ينفصل عن الوصف اللغوي؛ فاللسانيات جزء من اللسانيات الاجتماعية التي تتشكل ـ إن استخدمْنا مصطلحات فرديناند دو سوسير ـ من تداخل لسانيات اللغة بلسانيات الخطاب.

2 ـ **ثانياً**: يفترض في كل حقل من الحقول الدلالية أن يحاط بحاجاته، أي بالمفاهيم التي تحتاج إلى إيجاد علاماتٍ لغوية تعبِّر عنها، وأن يرصد النقص في مفرداته أولاً، ثم أن يُرصد المخزون الذي يمكن الاعتماد عليه لسدِّ هذا النقص: (كلمات محلية، مصطلحات مهنية، مقترضات. . . إلخ). يفترض إذاً ـ إنِ استعرنا مصطلحات الاقتصاد ـ أن يحاط بمسائل **العرض** (أي المخزون المتوفر) والطلب (أي الحاجات)؛ فقد يكون في المخزون أحياناً علامات يمكن إعادة استخدامها بالتصرف في مدلولاتها بتوسيع الحقل الدلالي فيها. مثال هذا التوسع في لغة (البُل) اقتراح لجنة المصطلحات لفظ (مبِدو mbedu) الذي يدل على «وعاء مستدير كالغربال تنسف فيه الحبوب لفرزها تبعاً لأحجامها» لتسمية «الدائرة»، أو اقتراح لفظي (نورول Norol) و(جيرول Jurol) اللذيْن يعنيان «ألواح سقف الكوخ» لتسمية خطوط الزوال والخطوط المتوازية. وهكذا تولد مصطلحات علم الهندسة وعلم الجغرافيا بالاقتراض من داخل اللغة.

3 ـ **ثالثاً**: ينبغي ابتداع الألفاظ الناقصة اعتماداً على قواعد اللغة التي ذكرناها في الفقرة الأولى، في كل مرة لا يكون فيها المخزون المتوفر كافياً لسد الحاجات. وحين تسد هذه الحاجات بالتوليد العفوي كما هو الحال في ألفاظ (بوليتيكي) لـ «السياسة»، أو

(برزيدان) لـ «الرئيس» في لغة البامبارا، فلا بد من حجج قوية لرفضه، ولفرض ما يختاره المخططون ليحل محل هذا التوليد العفوي. وهنا يطرح موضوع الاختيار بين الاقتراض والتوليد الداخلي.

4 ـ رابعاً: لا بد أخيراً من إجراء الاختبارات على هذه الألفاظ في الميدان لمعرفة رأيِ المتكلمين في حل رموزها؛ فالهدف المتوخى من وجهة نظر اللساني إنما هو الوصول إلى الحد الأعلى من وضوح اللفظ، وفعاليتها، وهذا لا يفرض بمرسوم، وإنما يجرب على الأرض في حركة دائمة في الاتجاهين بين المخطِّطين (الذين يبتدعون الكلمات) من جهة، ومستعملي اللغة من جهة أخرى. لا يثير هذا التجريب مشاكل كبرى بحد ذاته. غير أن اللساني ليس وحده المعني به؛ إذ تتدخل السياسة والأيديولوجيا في هذا المجال بشكل واسع كما رأينا. على أن الجهات السياسية نادراً ما تعتبِر أن عند الناس، أي مستعملي اللغة، ما هو جدير بأن يؤخذ بالاعتبار في هذا المجال.

تشكل المراحل الأربع التي ألممنا بها صورةً مثاليةً نادراً ما تتحقق؛ فاللساني في وضع حرج هنا؛ إذ عليه أن يقوم بدور الحارس الضامن الذي يحاول فرض احترام حق اللغة، وحق متكلميها في مواجهة السلطة السياسية:

حق اللغة من وجهتي نظر: الالتزام بقواعد التوليد المعجمي فيها ـ وهذا بدهي ـ واحترام ما نسمّيه بِـ «الحقوق المكتسبة» التي نعطي مثالاً عليها من لغة البامبارا؛ إذ يصعب علينا أن نفهم سبب تغيير لفظٍ عالمي صار جزءاً من اللغة يفهمه جميع أهلها، مثل لفظ (بوليتيكي) أي «السياسة» ليحل محله لفظ آخر «أصيل» أو «صافٍ» لا يفهمه أحد باستثناء الذين ابتدعوه.

حق المتكلمين لأنهم يشكِّلون الجماعة التي تبتدع، ومحرك التطور اللغوي، ولا نفهم كيف يمكن لعملية التوليد أن تتطور في مواجهة معهم، ودون مشاركة منهم.

المتكلم، في نهاية المطاف، الغائب الأكبر في التدخل الرسمي في اللغة؛ فكل تخطيط لغوي يفترض أنه صادر عن فكرة عن اللغة شديدة الخصوصية تتصور أنه يمكن التدخل فيها والتأثير عليها، وأنه يمكن تعديل تطورها بمراسيم وقرارات. غير أن تاريخ اللغات يظهر لنا أن هذا التطور ناشئ بصورة أساسية عن فعلِ المتكلمين، ومرور الزمان. إن تطور اللغات وتطور العلاقات فيما بينها حدث تاريخي واجتماعي وثمرة تاريخ طويل. أما السياسة اللغوية فتسريع هائل لهذا التطور من جهة، ومحاولة لإحلال التدخل القانوني محل التاريخ. في تدخل اللساني إذاً مفارقة علمية حين يتدخل في نشاطٍ تتناقض فرضياته مع كل ما يعرفه عن اللغة، وحين ينتقل من وصف اللغة وتحليل روابطها بالمجتمع إلى العمل المباشر على التأثير في هذه الروابط. وفي هذا النشاط سواء أتعلّق الأمر بمفردات اللغة، أم بالخط، أم بتوحيد اللهجات، أم بالروابط بين اللغات خلفية سياسية لا تخفى. والتخطيط اللغوي ينقل ساحة المواجهة بين السلطة واللغة، إذ يجعل عدداً صغيراً من المخططين يفرضون اختيارهم على عدد كبير من «المخطط لهم». ومع أن اللسانيات الاجتماعية قد بينت كيف يكون للخلافات الاجتماعية وموازين القوى مقابل لغوي، فإنها تجد نفسها اليوم منشغلةً بمجموعة من عمليات التخطيط، وهي عمليات تعزز سلطة الدولة على اللغة حتى حين ترفع شعار النضال من أجل التحرر اللغوي للشعوب: حين يحاول التخطيط اللغوي مثلاً أن يحل اللغة المحلية المغلوبة محل اللغة الغالبة الموروثة عن الاستعمار، فإنه يغامر بالتصرف على غرار الأنظمة السياسية التي تزعم أنها تزيل آثار (ستالين) باستخدام طرق (ستالين) نفسه.

نرى إذاً، إن عدنا إلى مسألة المعجم التي تشكل موضوع هذا الفصل، أن إرادة إغناء معجم لغة مغلوبة وإعطائها ما يمكّنها من تسمية ما كانت تستخدم اللغة القديمة الغالبة لتسميته، يشكّل تدخلاً

ذا هدف ديموقراطي يجازف في تحقيقه بوسائل بيروقراطية؛ إذ **يعمل موظفو اللغة على أن تفلت اللغة من أيدي المتحدثين بها.**

ونرى في الوقت نفسه أن حرب الكلمات هذه مخالفة لكل ما نعرفه عن تاريخ اللغات: فلقد كان الاختلاط دائماً زاداً أساسياً للمعجم، واللغات تحيا بالاقتراض المتبادل فيما بينها، وكل محاولات تصفية اللغة وتنقيتها برفض الكلمات الأجنبية، ورفض التوليد العفوي فيها إنما تقيم تناقضاً بين العلم والعصبية للوطن، كما تقيم تناقضاً بين رد فعل لغة القطيع الحاصرة وضرورة اللغة الناشرة. بين المفارقة العلمية والتلوُّث السياسي يجد المخطط نفسه أمام المواجهة الأبدية بين العلم والعالَم، بين الديني والدنيوي؛ فلا تخطيط من دون اللسانيين، وعلى هؤلاء أن يفاوضوا دائماً السلطة السياسية التي نادراً ما تكون علمية الأهداف، بل إن عليهم أن يفاوضوا أنفسهم ليختاروا بين قناعاتهم العلمية ومواقفهم الأيديولوجية. لا شك في أنه يمكن لهذه المسألة التي درسناها في المعجم، وفي حرب الكلمات أن تدرس في أي وجه من وجوه التخطيط اللغوي. وهي تقودنا إلى مسألة لا يمكن تجاوزها: في غياب رقابة ديموقراطية على السياسة اللغوية فإن هناك خطراً في أن تصبح هذه السياسة شكلاً حديثاً من أشكال ما سمَّيناه فيما مضى بـ **افتراس اللغات**(4).

---

(4) Louis-Jean Calvet, *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1974).

[يعني المؤلِّف بافتراس اللغات أنْ تُفرَضَ لغةٌ غالِبةٌ من اللغات فرْضاً دون أنْ يكْبَح جماحَها كابحٌ طالما ظلت الظروف السياسية والاقتصادية التي أدَّت إلى ولادتها مؤاتيةً لها، فتتحول اللغة المغلوبةُ إلى فريسةٍ تبتلعها اللغةُ الغالبة، أي إلى مجرد لهجة، أو إلى لغة من المستوى الأدنى].

الفصل السابع عشر

حرب الخنادِق: النموذج الفرنسي

الحديث في فرنسا قليل عن السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، خلافاً لما هو عليه في بعض البلدان التي تحدثنا عنها، مثل تركيا والنروج والصين على سبيل المثال. ولقد كان النقاش في هذه المسائل يدور في هذه البلدان، أو ما زال يدور فيها بشكل يومي (وسوف نعود إلى هذه القضية في خلاصة هذا الكتاب). وكانت المعلومات المتعلقة بها تنشر، أو ما زالت تنشر، على نطاق واسع حتى وإن كانت مراكز القرار محصورةً في عدد من البيروقراطيين. أما في فرنسا، فلا شيء من هذا القبيل حتى لكأن هذه المسائل ليست مطروحةً على بساط البحث، مع أن إدارة الوضع اللغوي في فرنسا مسألة تمضي بعيداً في الزمان.

توسع الفرنسية

تاريخ توسعِ اللغة الفرنسية وانتشارِها في العالم تاريخ طويل. وإن سلمنا بما جاء في التراث من أنه كان يتحدث بالفرنسية منذ القرن التاسع (وقسم ستراسبورغ أول أثر مكتوب شاهد على ذلك)، فإننا نعرف في الوقت نفسه أن الفرنسية انتشرت في أوروبا وفي

خارج أوروبا انتشاراً مهماً بعد ذلك بثلاثة قرون، أو بأربعة قرون. ولا ريب في أن الحروب الصليبية قامت بدورٍ هام في توسع اللغة الفرنسية نحو البلدان الناطقة باللغات الرومانية، ونحو بلدان الشرق، مثل أرمينيا واليونان، في الوقت نفسه. وقد أدى انتصار غيوم الفاتح (Guillaume le conquérant) في هاستينغس (Hastings) عام 1066 واحتلاله إنجلترا إثر ذلك، إلى استقرار الفرنسية في ما وراء بحر المانش. وقد انتشرت الفرنسية أيضاً بين المثقفين في البلدان المحاذية لفرنسا، مثل إيطاليا وألمانيا وهولندا؛ فأملى ماركو بولو الإيطالي بالفرنسية أخبار رحلاته، واجتذبت جامعة باريس طلَبةً أجانب.

يمكن إذاً أن نقول بإيجاز إن الفرنسية القديمة عرفت، كما عرفت اللاتينية، ازدهاراً علق عليه ف. برونو (F. Brunot) فقال:

«لقد علَت الفرنسية في أذهان الناس في ذلك الزمان إلى مرتبة اللاتينية، أو على الأقل، إلى أقرب مرتبة منها يمكن أن تصل إليها لغة عامية (. . .) فأصبحت الفرنسية لغةً نصف عالمية. بل يبدو أن المسألة لم تكن في بعض المواطن مسألة معرفتها وإنما مسألة استقرارها على حساب اللغات المحلية، ولاسيما في إنجلترا»[1].

استمر هذا التوسع عبر القرون، وكان يتقدم بمقدار تراجع اللاتينية؛ فكان الحديث بالفرنسية في كل البلاطات الأوروبية في منتصف القرن الثامن عشر، وكانت الفرنسية تدرس في بيوت العائلات البرجوازية، كما كانت مستخدمة في الدبلوماسية والمعاهدات. ويمكن أن يلخَّص الوضع اللغوي في الجملة القصيرة الآتية: «تراجع عام للاتينية، بقاء الإيطالية على ما هي عليه، وقدرة

(1) Ferdinand Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900* (Paris: A. Colin, 1905-), tome I, *De L'Epoque latine à la renaissance*, 1905, p. 359.

محدودة جداً للإنجليزية والألمانية والإسبانية على المنافسة، في أوروبا على الأقل»[2]. ومن السهل إذاً أن نفهم الموضوع الذي اختارته أكاديمية برلين في عام 1782 لمبارياتها السنوية وهو «عالمية اللغة الفرنسية»[3]. كانت الفرنسية في تلك الحقبة اللغة الوحيدة التي يمكن لها أن تقوم بدور اللغة الناشرة للثقافة في أوروبا، واللغة التي يمكن لها أن تحل محل اللاتينية.

علينا أن نحلل بشكل أدق هذا التوسع الذي لا جدال فيه، ولا بد في سبيل القيام بذلك من التمييز بين:

- التوسع الجغرافي والتوسع الوظيفي.

- التوسع في أوروبا والتوسع في ما وراء البحار.

ذلك أنه ينبغي ألا نخلط بين استخدام لغة من اللغات على مساحة واسعة من الأرض واستخدامها في وظائف متعددة. إن توسع لغة من اللغات بزيادة عدد الناطقين بها مسألة يسهل فهمها، غير أن اللغة قد تتوسع بزيادة عدد وظائفها دون أن يزيد عدد الناطقين بها، ودون أن تتسع رقعة انتشارها (وزيادة عدد الناطقين واتساع رقعة الانتشار وجهان لعملة واحدة). مثال هذا التوسع لغة مغلوبة وظيفتها الأساسية وظيفة حاصرة، أي وظيفة لغة القطيع، ثم تتحول هذه اللغة إلى لغة وطنية فتنشر الخطاب السياسي، وتصبح لغة التعليم . . . إلخ. وقد عرفت الفرنسية في تاريخها هذين النمطين من أنماط التوسع:

---

(2) Franck Louis Schoell, *La Langue francaise dans le monde*, préface d'Albert Dauzat (Paris: Bibliothèque du «français moderne», 1936), p. 17.

(3) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

التوسع الجغرافي بزيادة عدد الناطقين بها في مرحلتين:

ـ زاد عدد الناطقين بها على الأراضي الأوروبية أولاً (في داخل فرنسا نفسها، وفي بعض أجزاء البلدان المحاذية لها في بلجيكا، ولوكسمبورغ، وسويسرا، وإيطاليا). ولكن هذا التوسع الجغرافي سرعان ما استقر عند حد معين. ويمكن أن نتابع فرانك شول (Franck Schoell) إذ يقول:

«وبالجملة، فإن الفرنسية، بما هي لغة أم، لم تشهد في أوروبا تغيراً يذكر، ولم تستطع سوى المحافظة على مواقعها الأساسية منذ سبعة قرون أو ثمانية قرون، ولم يكن التقدم المهم الذي أحرزته إلا داخل الحدود السياسية للدولة على حساب لغات الفلمنك، والألزاس، ونيس، وكورسيكا، وكتالونيا، والباسك، وبريطانيا»[4].

نجد في هذا المثال ما يمكن أن نسميه **فرنكوفونية متصلة**، أي رقعةً من الأرض لا انقطاع فيها يتحدث الناس فيها بالفرنسية (وإن خضعت هذه الرقعة لدولٍ مختلفة فنحن نعلم أن الحدود اللغوية والحدود السياسية لا تتطابق إلا في ما ندر).

ـ وزاد عدد الناطقين بها على أراضٍ أخرى عبر العالم؛ فقد صدِّرت اللغة الفرنسية إلى العالم حين هاجر ناطقون بها نحو لويزيانا وكندا على سبيل المثال، وصدِّرت في أثناء الحقبة الاستعمارية حين استخدمها عدد كبير من الناس لغةً ثانيةً مُشكِّلةً ما نسميه **فرنكوفونية متقطعة**. والفرنكوفونية في الوقت نفسه، فرنكوفونية متنوعة من الناحية الوظيفية. وهذا ما يقودنا إلى النمط الثاني من أنماط التوسع، وهو التوسع الوظيفي.

لئن كانت الفرنسية في فرنسا وفي الأجزاء الفرنكوفونية من

(4) المصدر نفسه، ص 14.

بلجيكا أو من سويسرا، في الرقعة الفرنكوفونية المتصلة، لغةً مستخدمةً في عدد كبير من الوظائف ـ بدءاً بأدناها في التواصل المنحصر بين أفراد «القطيع»، وصولاً إلى أعلاها في التواصل الرسمي ـ، فليس الوضع كذلك في الفرنكوفونية المتقطعة، إذ لا يمكن الخلط بين مواقعها المختلفة؛ فهي في منطقة (المارتينيك) تتعايش مع لغة مغلوبةٍ هي لغة مزيج، وفي (كيبيك) مع لغة غالبة هي الإنجليزية، وهي (الفرنكوفونية) تغلب في أفريقيا السوداء لغات محليةً كثيرةً ولكن لا يتحدث بها إلا أقلية من السكان في أوضاع أقلية أيضاً. عرفت الفرنسية في جميع هذه الحالات توسعاً وظيفياً متنوعاً ينبغي أن يضاف إليه دورها الدولي والدبلوماسي الذي تحدثنا عنه أعلاه.

أسباب توسع الفرنسية ثم انحسارها

ليس من السهل علينا أن نشرح أسباب حظوة اللغة الفرنسية، رغم انقضاء زمان يسمح بمراقبتها. وكل ما يمكننا فعله هو أن نرد ذلك إلى عدد من العوامل أسهم كل واحد منها بدورٍ ما في هذه الحظوة:

ـ العامل الديمغرافي أولاً، لأن اللغة الفرنسية كانت اللغة الأكثر انتشاراً في أوروبا لغةً أولى. ويذكر ف. شول أرقاماً ذات مغزى من هذه الناحية. لقد كان في فرنسا في عام 1801، وهو تاريخ أول إحصاء، 27,5 مليون نسمة في مقابل 9 ملايين في إنجلترا وبلاد الغال. وبلغ عدد السكان في فرنسا 35 مليوناً في مقابل 26 مليون بريطاني و29 مليون ألماني(5). ويفسر هذا التفوق العددي أشياء كثيرة.

---

(5) المصدر نفسه، ص 21 و354-355.

كما أن وجود أكثر من 60 مليوناً بقليل ممن يتكلمون الفرنسية لغةً أولى في أيامنا في مقابل أكثر من 200 مليون يتكلمون الإنجليزية، يقدم تفسيراً جزئياً للوضع الحالي.

ـ كان للعامل الوطني دور سلبي مهم بعد ذلك؛ فلقد كانت أوروبا حتى القرن التاسع عشر مقسمةً ممالك صغيرةً (لم تقم الوحدة الإيطالية على سبيل المثال إلا في النصف الثاني من القرن الماضي)، قليلة الحظِّ من الديموقراطية. وكانت النخبة فيها تتحدث بالفرنسية. أما الشعب فلا يكاد يكون له حق في الكلام. ولم تبدأ اللغات الوطنية بالقيام بدورٍ إلا مع قيام ديموقراطية نسبية في هذه الدول، وانتشار التعليم في أوساط شرائح واسعةٍ من السكان حيث بدأ الوعي الوطني بالتشكل البطيء. وفي واقع الأمر، فإن الناس الذين بدؤوا شيئاً فشيئاً بامتلاك زمام السلطة الاقتصادية والثقافية والسياسية في أوروبا لم يكونوا منتمين إلى طبقة النبلاء الذين يلذ لهم أن يتحدثوا بالفرنسية، والذين يألفون الأدب الفرنسي، وإنما هم برجوازيون لا يتكلمون في الغالب إلا لغةً واحدة. ولم يكن عندهم ما يدفعهم إلى الانبهار بالثقافة الفرنسية على وجه الخصوص. وسوف تعمل اللغات الوطنية التي ظلت طويلاً ضحيةً لتوسع الفرنسية، على منافسة الفرنسية لغةً للثقافة، وعلى الحلول محلها بعد ذلك.

ـ يضاف إلى هذين العاملين عوامل أخرى يذكرها الباحثون بصورة منتظمة: القوة الاقتصادية لفرنسا، وعظمة ملوكها وأدبها بشكل عام. غير أنه ينبغي الإلحاح على أن هذه العوامل التي يجري التركيز عليها عادةً لا تنفصل من العوامل السابقة. فلأن فرنسا كانت دولةً مكونةً منذ زمان قديم، وكانت كثيرة السكّان استطاعت أن تستفيد من الضّعف النسبي لجيرانها في جميع الميادين بما فيها الميدان اللغوي.

هذه العوامل التي تقدِّم تفسيراً جزئياً لتوسُّع اللغة الفرنسية في أوروبا، تفسر في الوقت نفسه سبب توقف هذا التوسع في نهاية القرن التاسع عشر. وبمقدار ما كانت الدول الحديثة تتشكل، كانت تتلاشى وظيفة نشر الثقافة التي كانت تقوم بها اللاتينية، ثم الفرنسية. وقد أخفى العهد الاستعماري، الذي ناب عن اللغة في القيام بالمهمة، هذا التحولَ العميق بشكلٍ جزئي. غير أن شيئاً جوهرياً قد تغيَّر في آخر القرن الماضي، وهو تغير يدل عليه حدثان لم يُعِرْهما الباحثون كبيرَ اهتمامٍ في ذلك الوقت: **أولهما** فيما نظن إنشاء مؤسسة «التحالف الفَرنسي لنشر اللغة الفرنسية في المستعمرات وفي البلدان الأجنبية» في عام 1883. واقع الأمر أن انتشار الفرنسية في القرون السابقة، وهو انتشار ألممنا به أعلاه، لم يكن بحاجة إلى الاعتماد على المؤسسات. ويظهر الشعور بالحاجة إلى «نشرِ» الفرنسية بأن هناك وعياً بوجود نوع من الأزمة؛ فاللغة التي تتوسع لا تحتاج إلى من يدافع عنها. **أما الحدث الثاني** الذي نفصله في الفصل التالي، والذي يختلف تماماً عن سابقه، فهو الاهتمام المتعاظم باللغات الاصطناعية التي أُريد لها أن تقوم بوظيفة عالمية بين الدول، فقد أنشئت الفولابوك (Volapük) عام 1879، والإسبرنتو (Espéranto) عام 1887، والإيدو (Ido) عام 1907. ويبين تعدد هذه المشاريع للغات المصطنعة أن هناك موقعاً شاغراً، وأن هناك وظيفةً لم يعد لها من يقوم بها. وكان المسوِّقون لهذه اللغات جميعاً يظنون أنهم يستطيعون أن يُحِلُّوها محل الفرنسية. ولم يكن بمقدورهم أن يعرفوا أنهم، في حقيقة الأمر، كانوا يعيشون المرحلة الفاصلة بين عهدين، وأنه إن غابت الظروف التي تسمح بتوسعِ الفرنسية فسوف يحدث تحول في الوضع الدولي يؤدي إلى ولادة توسع آخر، هو توسع الإنجليزية.

حرب المناوشات في كيبيك

بدأت بوادر هذا التحول، أول ما بدأت، على الضفة الأخرى من الأطلسي. حين تخلت فرنسا في معاهدة باريس لعام 1763 عن كندا، امتد القانون المدني الإنجليزي (Common Law) ليشمل هذا البلد، ثم أعيد العمل بالقانون المدني الفرنسي في عام 1774 بعد احتجاجات السكان الناطقين بالفرنسية. وفي عام 1791 قسم الدستور كندا إلى مقاطعتين: كندا العليا، وكندا السفلى (التي ينطق 90 بالمئة من سكانها بالفرنسية). وكانت الانتخابات التشريعية التي جرت عام 1792 مثالاً معبراً عن النزاع اللغوي الذي تطور بين الإنجليزية والفرنسية، إذ بعد هذه الانتخابات طرح موضوع رئاسة الجمعية الوطنية، فقدَّم جان أنطوان بانيه (Jean-Antoine Panet)، أحد الناطقين بالفرنسية، ترشيحَه، وقُدِّم في مقابله مرشح ناطق بالإنجليزية. ولا يخلو النقاش الذي نقلته **مجلة كيبيك** (*Gazette de Québec*) في العشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر لعام 1792 من الفائدة. يشرح ماك غيل (Mc Gill)، الذي قدَّم ترشيح و. غرانت (W. Grant) في مقابل ترشيح (بانيه)، وجهة نظره فيقول:

«إن ميزة أساسية من ميزات رئيس الجمعية الخطيب أن يُتقن الفرنسية والإنجليزية، فإن استدعى التواصل بين رئيس الجمعية الخطيب وممثلِ الملك وجود مترجمٍ أصبح المترجمُ، وليس الخطيبُ، ممثلَ الجمعية العمومية».

وقد رد عليه (بانيه) رداً لا يخلو من الدعابة، فقال إن «ملك إنجلترا يتحدَّث بجميع اللغات، ويعقد المعاهدات مع جميع الأمم بلغاتها وبالإنجليزية أيضاً، وبأن جرسي (Jersey) وغيرنسي (Gurnsey) كانا فرنسيين، وبأن الاعتراض المبني على لغة عضوٍ من

أعضاء المجلس لا يمنعه من تولي منصب الخطيب رئيس الجمعية الوطنية»[6].

إنه نقاش فَكِهٌ يدعو إلى الابتسام، وهو نقاش يتكرر في أكثر من مكان، وبأكثر من صيغة: ما الذي ستكون عليه لغة القضاء، والجيش، والنقاشات في الجمعية الوطنية . . . إلخ؟ يصف أليكسي دو توكفيل (Alexis de Tocqueville) في كتابه **رحلة إلى صقلية والولايات المتحدة** (*Voyage en Sicile et aux Etats-Unis*) مشهداً في المحكمة المدنية في كيبيك يشبه هذا المشهد:

«حين وصلنا إلى تلك القاعة كانت هناك مرافعة في قضية قدح وذم. وكان يراد الحكم بتغريم رجلٍ اتهم رجلاً آخر بأنه وغدَ (Pendard) وقذر. وكان المحامي يرافع بالإنجليزية، فنطق بكلمة (Pendard) الفرنسية التي تعني «الوغد» بنبرةٍ بريطانية، فبدت كأنها تعني أنه «رجل قد شنق» (Pendu).

«لا! لم يشنق»، قالها القاضي مصوِّباً بصوت رزين، ولكن [قل]: يستحق أن يشنق، فوقف محامي المتهم مستنكراً تصويب القاضي، وأخذ يرافع بالفرنسية، وخصمه يجيبه بالإنجليزية. واحتدم النقاش بين الجانبين باللغتين، ربما دون أن يفهم واحدهما الآخر تمام الفهم. وكان الإنجليزي يحاول من حينٍ لآخر أن يعبِّر عن

---

(6) *Gazette de Québec* (20 décembre 1792), cité par Guy Bouthillier et Jean Meynaud, dans: *Le Choc des langues au Québec: 1760-1970*, [textes choisis et présentés par] Guy Bouthillier et Jean Meynaud (Montréal: Les Presses de l'université du Québec, 1972. p. 117.

[المقصود عام 1792 وهو تاريخ المجلة. أما عام 1972 فهو تاريخ المرجع الذي أخذ المؤلِّفُ عنه].

أفكاره بالفرنسية متابعةً لآراء خصمه، وكان الفرنسي يفعل ذلك أحياناً، والقاضي يحاول بالفرنسية حيناً وبالإنجليزية حيناً آخر أن يفرض النظام في القاعة، وكان محضِّر الجلسات يصيح: سكوت! تارةً بلهجة فرنسية، وطوراً بلهجة إنجليزية. وحين عاد الهدوء جاء دور الشهود. بعضهم قبَّل المسيح الفضِّي الموجود على غلاف الكتاب المقدَّس وأقسم بالفرنسية أن يقول الحقيقة، وأقسم آخرون بالإنجليزية القسم نفسه، وقبَّلوا الغلاف الآخر العاري للكتاب المقدَّس لأنهم من البروتستانت. ثم ذكرت بعد ذلك العادة في منطقة النورماندي، واعتمد على دنيزار (Denisart)، واستشهد بقرارات برلمان باريس، وبتشريعات حكم جورج الثالث. بعد ذلك أصدر القاضي حكمه: نظراً لأن كلمة «قذر» تحمل معنى رجلٍ دون خُلق، ودون مسلكٍ حميد، ودون شرف، يحكم على الدفاع بغرامة قدرها 18 قطعة نقدية من فئة «لويس»(*) أو عشر ليرات إسترلينية.

بعد هذا الوصف الساخر إلى حدٍّ ما يتناول توكفيل لغة المحامين:

«المحاميان اللذان رأيتهما هنا واللذان يقال عنهما إنهما من أفضل محامي كيبيك، لم يظهرا براعةً، لا في مضمون القضية ولا في طريقة القول: نقص فاضح في رهافة الحس، ونطق فرنسي على غرار نطق الطبقات الوسطى في النورماندي. أما أسلوبهما فمبتذلٌ تختلط فيه الكلمات الغريبة والعبارات الإنجليزية. يقولان مثلاً إن الرجل «مكلَّف» بعشر قطع «لويس» بدل أن يقولا إنه «طُلب منه» عشر قطع، ويناديان الشاهد فيقولان له «ادخل في العلبة» حين

(*) لويس: عملةٌ ذهبيةٌ فرنسيةٌ كانت قبل اليورو، وقبل الفرنك الفرنسي، وهي على اسم الملك لويس الثالث عشر.

يطلبان منه أن يقف خلف المنصة للإدلاء بشهادته».

لا تعوزنا الأمثلة من هذا القبيل، ففي عام 1806 سجَّل رحَّالة إنجليزي هو جون لامبير (John Lambert) «أن للفرنسيين أغلبيةً كبيرة في الجمعية الوطنية، فلهم 36 في مقابل 14 إنجليزياً، وأن أكثر الخطابات في الجمعية يجري بالفرنسية، فنواب الجمعية الناطقون بالإنجليزية يفهمون الفرنسية ويتحدثون بها، على أن قلَّةً قليلةً من النواب الفرنسيين تعرف شيئاً عن الإنجليزية»(7).

كندا لم تعد إذاً فرنسيةً، ولكن الإنجليز فيها ثنائيو اللغة. وهذا الوضع الذي يميِّز موازين القوى يشير إلى أن الفرنسية كانت حينذاك اللغة الغالبة. غير أن الإنجليزية بدأت تؤثر في الفرنسية، وهنا يبدو الاختراق الذي أشرت إليه.

أشار توكفيل، كما رأينا، إلى هذا الأثر في لغة المحامين. أما لامبير فقد أشار إليها في لغة الشارع:

«خليطٌ غريب يرطُن به الناس في الساحات العامة من الفرنسيين الذين لا يفهمون الإنجليزية، إلى الإنجليز الذين لا يفهمون الفرنسية. ويحاول كل منهم أن يتواصل مع الآخر بلغته في منتصف الطريق مما يؤدي إلى تفاهمهم بجمل مقطعة. وقد أدت العلاقة هذه بين الفرنسية والإنجليزية أولاً إلى إدخال عدد من الألفاظ الإنجليزية في الفرنسية، وهي ألفاظ تحيِّر أي قادم من إنجلترا ولا يتكلم إلا الفرنسية التي تعلَّمها في المدارس. وقد اشتُهر الكنديون بميزة الكلام بالفرنسية الصافية. غير أن السؤال: أما زالوا يستحقون أن يوصفوا بهذه الصفة؟»(8).

---

(7) المصدر نفسه، ص 124.

(8) المصدر نفسه، ص 123.

وفي عام 1855 أبدى جان جاك أمبير (Jean-Jacques Ampère)، أستاذ الأدب الفرنسي في المعهد العالي الفرنسي بباريس (Collège de France) وابن الفيزيائي المعروف أمبير، انزعاجه مما يسمع:

«ما إن نزلنا من الباخرة حتى قام خصام بين سائقين من سائقي العربات، فطرقت سمعي عباراتٌ ليست في معجم الأكاديمية الفرنسية، ولكنها نوع من الفرنسية أيضاً. واأسفاه على لغتنا! فهي قليلة الوجود على اللافتات؛ فإن ظهرت الفرنسية على هذه اللافتات فهي غالباً فرنسية محرفةٌ فاسدة بحكم الجِوار مع الإنجليزية. إذ ترى على سبيل المثال: Manufacteur de tabac, Sirop de toute description، ويتلاشى الإحساس بالفرق بين المذكر والمؤنث، لأن الإنجليزية لا تميز بينهما، وتسقط علامة الجمع حيث لا وجود لها في اللغة المنافسة.

هي ذي علامة محزنة من علامات التأثير الأجنبي على وطنٍ يقاوم، وغزوٌ بالنَّحو يعقب غزواً بالسلاح»[9].

تظهر لنا هذه النصوص المتنوعة أمرين مختلفين: أثر الإنجليزية على الفرنسية من جهة، وهو أثرٌ ظاهر في وسم كلمات فرنسية بالسِّمة الإنجليزية، أي النَّجلَزَة التي أشار إليها الكتَّاب، وغلبة اللغة الإنجليزية في التجارة من جهة أخرى (وهذا ظاهر في اللافتات وفي السوق). وفي هذا المجال تبدو العوامل التي كانت قد شجعت تقدم الفرنسية غير ذات جدوى.

استمر الكنديون الفرنسيون طوال القرن التاسع عشر في النضال

(9) Jean-Jacques Ampère, *Promenade en Amérique: Etats-Unis, Cuba, Mexique* (Paris: Michel Lévy frères, 1855).

من أجل المحافظة على حقوق لغتهم، وحققوا في ذلك نجاحات لا تنكر. وفي عام 1848 ألغى البرلمان البريطاني من «وثيقة الاتحاد» المادة التي كانت تقضي بالتخلي عن الفرنسية. وفي عام 1867 جعلت المادة 133 من الدستور الكندي الفرنسية لغةً رسميةً في برلمان أوتاوا، وفي برلمان كيبيك، وأمام المحاكم، ونصَّت على وجوب نشر القوانين باللغتين. غير أن كل هذا لا يغيِّر شيئاً كثيراً في الموازين الحقيقية بين اللغات.

تحدَّثنا في عنوان هذه الفقرة عن «حرب المناوشات». ولا يعدو الأمر أن يكون مناوشةً واشتباكاً صغيراً هنا أو هناك لا علاقة له بالمشكلة الحقيقية. في عام 1865 ألقى القس شاردونيه (Chardonnet) عظةً في كاتدرائية كيبيك بمناسبة يوم القديس سان جان بابتيست (Saint-Jean Baptiste)، وهي عظة فيها نبرة المحاربين التي تكفي في تبرير عنوان كتابنا **حرب اللغات**:

«المجد لكم أنتم أيضاً، يا من عرفتم دون أن تتخلوا عن حق لغتنا الوطنية المقدس أن تأخذوا في صراعكم سلاحاً أجنبياً تنتزعونه من أيدي خصومكم، وتجيدون استخدامه بدوركم.. في كل مكان، في ساحاتنا العامة، وفي شوارعنا، وفي مكاتبنا، وفي قاعاتنا تسمعون رنين النبرة الغازية للغة الأجنبية. حسناً ما زال ثمَّة ميدانٌ للمعركة يستمر النضال فيه، ولا يرجى فيه أكثر من أي ميدان آخر أن نحقِّق النصر وحدنا. إنه ميدان عاداتنا، والنضال الحيوي من أجل لغتنا وتقاليدنا».

غير أن هذه الهبَّة لا تكاد تكون أكثر فعاليَةً من النشيد الوطني الفرنسي (La Marseillaise) الذي نعرف أنه حتى حين كان ينشد بحماس كبير فإنه لم يمكِّن قط من كسب حرب من الحروب.

في مواجهة الإنجليزية التي يحملها التوسع الاقتصادي، بدت الفرنسية، خصوصاً لغة الكثلكة، «اللغة الحارسة للإيمان». «كونوا مسيحيين صالحين وناطقين بالفرنسية». هذه الشعارات التي أطلقتها الكنيسة التي وجدت نفسها في وسط المعركة اللغوية، تبيِّن أن اللغتين المتواجهتين تعبران عن وقائع اجتماعية شديدة الاختلاف.

إن «انتصار» عام 1867، والمكتسبات الأخرى التي توالت حتى أيامنا (إذ ستكون المدرسة بالطبعِ ساحة كرٍّ وفرّ، وكذلك ستكون النقود التي صارت تصَكُّ باللغتينَ منذ عام 1936، وسيدوم الصراع طويلاً من 1953 إلى 1962 لانتزاع الحق في كتابة الشيكات بالفرنسية..) لا تكاد تغيِّر شيئاً في الواقع، ولا شيء يُثبِت أن القانون رقم 101، وهو آخر حلقة من حلقات الصراع، سوف يغيِّر هذا الواقع. على أن مثال كيبيك مهم إن أخِذ درساً من دروس الأشياء، ومثالاً مُسبقاً لـ "الدفاع عن الفرنسية» في فرنسا في هذه الأيام.

«الدفاع» عن الفرنسية

كان الهمُّ الأكبر للدولة في المجال اللغوي بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر أن تؤمِّن تفوُّق الفرنسية وسيطرتها على اللغات الأخرى في داخل فرنسا. ينصُّ القرار الصادر في 15 آب/أغسطس من عام 1539 في فيلير - كوتيريه (Villers-Cotterêt)، والذي يتردد ذكره كثيراً، على أن الأحكام القانونية ينبغي اعتباراً من تاريخه أن «تُعلن وتسجَّل وتسلَّم لأصحاب العلاقة باللغة الفرنسية الأم». وهناك أيضاً قرارات أخرى غير هذا القرار: فقد عدَّد كزافييه دينيو (Xavier Deniau) القرارات المشابهة في قائمةٍ هي أبعد ما

تكون عن الحصر، فقال[10]: «جدَّد شارل التاسع هذه التعليمات في المادة 35 من القرار 1563 المعروف بقرار منطقة روسيون (Roussillon)، ووسع بعد ذلك نطاقها لتشمل الأحكام الكهنوتية في عام 1629، وفُرض استخدام الفرنسية في منطقة بيارن (Béarn) في عام 1621، وفي منطقة فلاندر (Flandre) في عام 1684، وفي الألزاس عام 1685، وفي رسيون (Roussillon) في عام 1700، ثم 1753».

في جميع هذه الأمثلة، وحتى القانون الصادر في الثاني من شهر ترميدور (Thermidor) من العام الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية (وهو القانون الذي «ينص على أنه ابتداءً من تاريخ نشره، لا تجوز كتابة أي عقد عام في أي مكان في الجمهورية إلا باللغة الفرنسية»، ويتعرَّض المخالفون للسجن لمدة ستة أشهر، والموظفون المخالفون للإقالة من مناصبهم) نشهد تدخُّل الدولة **في اللغات**. وهو تدخُّل يسترشد بمبدأ واحد: فرض الأحادية اللغوية على فرنسا. ويبدو أن تدخُّل الدولة الفرنسية في أيامنا قد غيَّر اتجاهه، فلم تعد أولوية التدخل في **اللغات** فحسب، بل في **اللغة** الواحدة أيضاً. ولذلك فإننا نجد في فرنسا منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً أصداء مما رأيناه في كيبيك.

منذ «الفرنكلة»، أي الفرنسية ـ الإنجليزية التي لا يكاد ينتقدها إلا إتيامبل (Etiemble)، يقول لنا المختصون في اللغة، المتجمعون حول سرير اللغة الفرنسية، إنها عليلة ليست على ما يرام. وهم يشخِّصون بين حين وآخر نوعين من الأمراض، بعضها داخلي، والبعض الآخر خارجي:

(10) Xavier Deniau, *La Francophonie* (Paris: Presses universitaires de France, 1983), p. 82.

على الصعيد الداخلي، أي على صعيد اللغة، نستمع هنا وهناك إلى الشكوى نفسها: الفرنسية تتقهقر، والفرنسيون يمضون في الحديث بلغتهم (وفي كتابتها) من سيئ إلى أسوأ. يعكس هذا الأمر عنوان كتاب صدر حديثاً **أزمة اللغات**[11] (*La Crise des langues*). في هذا الكتاب، إلى جانب مقالات مخصصة لعدد من لغات العالم المختلفة (كالعبرية، والصينية، والإسبانية، والكورية، وغيرها) أربعة فصول مخصصة للفرنسية في كيبِك وفي فرنسا، وفي بلجيكا وفي سويسرا، يتنوع فيها تشخيص المرض بين بلد وآخر: من أزمة الخط في كيبيك، إلى علاقة اللغة بالمعيار في فرنسا، إلى غير ذلك. ليس هذا بالأمرِ الجديد، فقد سبق لـ غ. لانسون (G. Lançon) أن نشر في عام 1909 كتاباً عنوانه: **أزمة الفرنسية** (*La Crise du français*). غير أن اللبس الكبير في النظر إلى «أزمة اللغة» إنما يكمن في التناقض بين التشخيص والعلاج؛ فالتشخيص على أنه «مرض داخلي»، والعلاج على أنه «مرض خارجي»، ذلك أن لمرض الفرنسية اسماً هو اسم لغة أخرى. مرضها اسمه الإنجليزية. يكفي دليلاً على ذلك تصفح النصوص الرسمية، فقد نشر ج. ب. غودايبه[12] (J. P. Goudailler) قائمةً بالقرارات الصادرة بين 1973 و1980 والمتعلقة باللغة: كل القرارات خاصة بالمعجم، وكلها تحاول أن تحلَّ ألفاظاً فرنسيةً محل ألفاظ إنجليزية في مجالات شديدة التنوع كالوسائل السمعية البصَرية، والأشغال العامة، والنفط، والنقل،

---

(11) *La Crise des langues*, collection l'ordre des mots; ISSN 0220-6013, textes colligés et présentés par Jacques Maurais ([Montréal]: Conseil de la langue française; Paris: Le Robert, 1985).

(12) Jean-Paul Goudailler, «Sprache and Macht: Wie ein Gesetz in Frankreich die Sprache reinigen will,» *Dialect: Internationale Halbjahresschrift für Mundart und Mundartliteratur*, vol. 6, no. 1 (1982), pp. 28-37.

والحوسبة، والطب، والدفاع، وعلم ملاحة الفضاء، وغيرها. ثم صدرت قراراتٌ وزارية أخرى متعلقة بمصطلحات السياحة (17/ 3/ 1982)، والاتصالات السلكية واللاسلكية (27/ 4/ 1982) والدعاية والإشهار (18/ 2/ 1983)، والرَّصد عن بعد في ملاحة الفضاء (20/ 10/ 1984)؛ بل صدر قرار «بالمفردات التي يستخدمها المسنون» (13/ 3/ 1985). وفي موازاة اقتراحات التوليد المصطلحي صدرت قرارات تشريعيةٌ جديدة فيها نصوص جزائية، كالقانون «المتعلق باستخدام اللغة الفرنسية» الصادر في 31 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1975، والذي يقال له: «قانون با (Bas)» والذي يسمح بتغريم المؤسسات التي لا تستخدم الفرنسية في فرنسا (فقد عوقبت مثلاً شركة الطيران الإنجليزية British Airways لأنها أصدرت تذاكر سفر بالإنجليزية)، كما صدر في 14/ 3/ 1977 تعميم يذكر بأن «القانون يفرض استخدام اللغة الفرنسية في النصوص المكتوبة وفي النقوش، ويمنع اللجوء إلى عبارات أجنبية حين تكون لها ألفاظٌ فرنسية مكافئة في المجالات الآتية: العرضُ والطلبُ للسلع والخدمات، الأخبار وعرض البرامج في الإذاعة والتلفزة»[13].

بين عدم الفاعلية والتعصب الشوفيني

اكتشفت السياسة اللغوية الفرنسية علم المصطلح. وهو «علم جديد» على حد قول «المفوض العام للغة الفرنسية»[14] فيليب دو سان روبير (Philippe de Saint-Robert) الذي تتضمن صلاحياته

(13) المصدرنفسه، ص 30.

(14) مقدمة كتاب: *Guide des mots nouveaux*, commissariat général de la langue française, réalisé par Loïc Depecker... et Alain Pagès..; préf. de Philippe de Saint Robert ([Paris]: Nathan, 1985).

بشكل خاص، كما نص عليها المرسوم الصادر في 9 شباط/ فبراير من عام 1984، تنسيق «الأعمال التي جرت في مجال المصطلح».

وقامت السياسة اللغوية الفرنسية، اعتماداً على هذا الاكتشاف، بحملة صليبية في مواجهة المقترضات، ولا سيما المقترضات من الإنجليزية. يطرح فيليب دو سان روبير في المقدمة المشار إليها الموضوع بشيء من العدوانية فيقول: «أينبغي على اللغة أن تدافع عن نفسها؟ بالطبع! مع أن عدداً من أصحاب الأذهان الخاملة الذين يظنون أنهم من المفكرين البارزين، يروجون لفكرة مؤداها أن أي تفكير بالدفاع قد يكون اعترافاً بالضعف، ويجعلون ذلك حقيقة أوليةً ظاهرة. إن القول بأن كل جسمٍ حي يولد معرضاً للأخطار ليس اعترافاً بالضعف بل بقابلية الموت التي هي قدر مشترك بين جميع الأحياء. واللغة كائن حي كغيره يشهد في تاريخه الطويل موت عددٍ من خلاياه وولادة أخرى، وتجدد الروح التي تسري فيه دون توقف». إن استعارة الكائن الحي لوصف اللغة استعارة قديمة، ومن عيوبها هنا وهناك أنها لا تقول من هو المحرك في حياة اللغة: أهم الناطقون بها الذين يصنعون تطورها أم لجان المصطلحات؟ وتطرح هذه المقاربة للموضوع بصورة أكثر عمقاً مسألتين اثنتين هما مسألة الفاعلية ومسألة الأيديولوجية.

مسألة الفاعلية مسألة بدهية، وقد رأيناها طوال الباب الثالث من هذا الكتاب؛ فقد كتبنا في الفصل السابق أن اختلاط الشعوب وتمازجها كان دائماً زاداً عظيماً للمعجم، وأن اللغات كانت تعيش على الاقتراض المتبادل. لم نكن نعرض بهذا القول موقفاً مبدئياً، وإنما كنا بكل بساطة، نستخلص العبرة من تاريخ اللغات، كل اللغات. لم تكن هذه المقترضات قط نتيجة قرار رسمي، وإنما كانت «اقتراحاً» يستعمله بعض الناطقين باللغة، فـ «يقبله» أو «يرفضه»

البعض الآخر من الناطقين بها الذين **يصنعون** اللغة بممارستهم اللغوية المشترَكة. وهم بلا ريب في هذه الممارسة شهود على موازين القوى؛ فلا تقترض اللغة من أي لغة، ولا تقترض في أي مجال. وهكذا يمكن أن نقرأ في طبقات معجم لغة من اللغات عبر ما اقترضته عن غيرها من اللغات في مختلَف مراحل تاريخها أنماط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كان يقيمها الناطقون بهذه اللغة مع الناطقين باللغات الأخرى. وليست المقترَضات هنا مرضاً، إن كان ثمة من مرض، وإنما هي مجرد أعراض له؛ فغزو الألفاظ الإنجليزية للغة الفرنسية، وهو غزو حقيقي، يشهد أولاً على نوع من التفوق التقني للبلدان الناطقة باللغة الإنجليزية. وإن كنا نعتبر هذا الغزو «وباءً» فعلينا إذاً أن ندرس علم الأوبئة الذي يعلمنا أن المرض لا يقاوم بإصدار المراسيم، وأنه لا يزول بقرارات منع الإقامة.

تذكرنا لجان المصطلحات التي تفرخ منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً، وتذكرنا القوَّة التي يمنحها إياها القانون إلى حد ما بالزارع الذي يحاول مداواة الشجرة التي تموت بطلاء أوراقها المصفرة باللون الأخضر بدل تسميد التربة. تبقى فاعلية هذه المقاربة للموضوع إذاً موضع نقاش مفتوح. رأينا في ما سبق في قضية التوليد أنه يمكن تحديث مفردات لغةٍ من اللغات، وإن طرح هذا التحديث بعض المشكلات الأيديولوجية. ونعني بالتحديث هنا توليد كلمات جديدة لتسمية مفاهيم لم يكن لها اسم في هذه اللغة. أما إرادة إحلال مفردات محليَّة أصيلة محل المفردات الموجودة والمقترضة، فإنها تفترض تدخلاً للدولة مفرطاً في فرض توجهاته.

يمكن بالطبع في المثال التركي الذي درسناه (في الفصل الثاني عشر) أن نضع في واجهة الصورة التوجهات التحديثية والعلمانية لمصطفى كمال أتاتور التي كانت محرك «الثورة اللغوية»، ولكننا لا

يمكن أن نتغافل عن طابع سياسته الشديد التسلط والكاره للأجانب. من هذه الزاوية تحديداً، يثير النضال في مواجهة المصطلحات الأجنبية التي تقترضها الفرنسية مشكلةً.

في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1985، في الوقت الذي كان فيه المجلس الدولي الأعلى للفرانكوفونية يجتمع في باريس، نشر بيار بيرسي (Pierre Bercis) (رئيس الحقوق **الاشتراكية**(*) للإنسان) مقالاً غريباً في جريدة **لوموند** يخلط فيه بين من يرفضون الدفاع عن اللغة الفرنسية اليوم ومن كانوا عملاء للمحتل النازي فيما مضى، فيقول: «إن قدر اللغة الفرنسية بالغ الدلالة على هذا الصعيد، كما أن الانتماءَ الفلسفي والسياسي لمن قرروا التحرك لمنع انحدارها له دلالته. إنهم إلى حدٍّ كبير أولئك الذين اختاروا المقاومة بالأمس، أو الذين إن اقتضى الأمر اختاروها: أتباع الديغولية الحقيقيون، والاشتراكيون المخلصون، والشيوعيون. أما الآخرون من أمثال دوريو (Doriot) فيزعمون أننا غير قادرين على شيء، وأن من الأفضل أن «نسلم للبرابرة»، وأن نجني منهم ما نستطيع. وأما عامة الناس، فإنهم يصفقون في الوقت نفسه لـ «بيتان» (Pétain)، ثم لـ «ديغول»[15] (De Gaulle)، مقتنعين بأن كل واحد منهما كان على حق في أيامه». ثم يدعو هذا المدافع عن حقوق الإنسان إلى القمع في موضع لاحق من مقاله: « الإقناع لا يكفي، خلافاً لرأي الحكومة؛ فقد وصل الفساد في البحث عن الربح السهل حداً لا تستطيع الحكومة معه أن تعيد الطابور الخامس إلى صوابه إلا باعتماد عقوباتٍ رادعة قاسية». لا يمكن بالطبع أن نخلط بين هذا النص

(*) كذا في النصّ الأصلي Président des droits socialistes de l'homme.

(15) P. Bercis, «Les Amers-looks,» *Le Monde* (10 décembre 1985).

الهستيري ومواقف جميع المدافعين عن الفرنسية. غير أن للنغمة التي يدافعون بها عن الفرنسية دلالات إيحائيةً مزعجة؛ لأن تدخل الدولة المباشر في اللغة بهدف «تنقيتها» لم يحدث في تركيا وحدها، وإنما في معظم البلدان الفاشيَّة أيضاً. وعلى المدافعين عن الفرنسية أن يعلموا جيداً أن موسوليني ألغى في عام 1925[16] تعليم الفرنسية في منطقة فال داوست (Val d'Aoste) التي كانت ثنائية اللغة حتى ذلك الحين، وأنه أحل أسماءً إيطاليةً محل جميع أسماء الأماكن التي كان نطقها فرنسياً، وكان على بساط البحث أيضاً في عام 1939 أن تغيَّر أسماء العائلات لتحل محلها أسماء إيطالية. ومنذ عام 1923 منع الكلمات الأجنبية في الملصقات وعلى اللافتات تحت طائلة الغرامة[17]. وفي إسبانيا في عهد فرانكو تتالت النصوص التشريعية التي تحظر استخدام كلماتٍ من غير الإسبانية على الملصقات وفي أسماء الشركات... إلخ. وتحظر استخدام اسم للعائلة من غير اللغة الإسبانية في دوائر النفوس. وهي تدابير موجهة بصورة أساسية لمقاومة لغة كتالونيا ولغة الباسك[18]. وفي ألمانيا حلَّت أسماء أكثر «صفاء» محل أسماءِ الأمكنة غير الجِرمانية في مقاطعات بوميرانيا (Poméranie) وسيليزيا (Silésie) وغيرهما.

خلاصة القول إن هذه الإجراءات التي تشبه جميعاً تلك التي اتخذت في تركيا إبّان «الثورة اللغوية» لا تكاد تختلف عن تلك التي

---

(16) مرسوم اشتراعي في 22/ 11/ 1925 رقم 2191: «الأحكام الخاصة بلغة التعليم في المدارس الابتدائية».

(17) مرسوم اشتراعي في 11/ 2/ 1923، رقم 352.

(18) انظر على سبيل المثال: Francesc Ferrer i Gironès, *La Persecució política de la llengua catalana: història de les mesures preses contra el seu ús des de la Nova Planta fins avui*, Culturacatalana contemporània; 17 (Barcelona: Ed. 62, 1986).

رأيناها تتخذ في فرنسا منذ خمسة عشر عاماً.

قارن كلاوس بوشمان (Bochman)، وهو أحد اللسانيين في ألمانيا الشرقية، بين السياسات اللغوية في مختلف الدول الفاشيَّة، فوجد فيها أربع خصائص ثابتة:

- تزمتٌ لصفاء اللغة الوطنية، وكرهٌ للغات الآخرين.
- مركزية معادية للهجات.
- مركزية متعصبة للوطن معادية للأقليات الوطنية.
- نزعة إلى الاستعمار أو إلى التوسع اللغوي خارج الحدود[19].

نجد هذه النزعات الأربع في عدد من السياسات اللغوية، ولا سيما في السياسة اللغوية الفرنسية في مراحل مختلفة من تاريخها. غير أن في الأمر لبساً، فالإجراءات اللغوية التي عدَّدناها أعلاه لا تبدو عرضةً للانتقاد فيما بعد، إلا لأن الأنظمة التي طبقتها كانت أنظمةً فاشيَّة. ولكنها تبدو مقبولةً إن طبقتها أنظمة ديموقراطية. بيد أن الخلافات بين السياسة اللغوية الإيطالية في عهد موسوليني، والسياسة اللغوية الإسبانية في عهد فرانكو، والسياسة اللغوية الألمانية في عهد هتلر، والقانون «المتعلق باستخدام اللغة الفرنسية» والذي صوِّت عليه في عام 1975 ليست خلافات في طبيعة الإجراءات، بل في درجتها.

(19) K. Bochman, «Pour une étude comparée de la glottopolitique des fascismes,» in: A. Winther, ed., *Problèmes de glottopolitique: Symposium international, Mont-Saint-Aignan, 20-23 septembre 1984*, no. spécial des: «Cahiers de linguistique sociale». 7. 1985 ([Mont-Saint-Aignan]: Publications de l'université de Rouen, 1985), pp. 119-129.

أهي إذاً فاشيَّة هذه السياسة اللغوية الفرنسية؟ لا بالطبع! ولكنها شوفينية. هذا أمر بدهي. وهي خصوصاً سياسة غير مجدية لسوء الحظ لأنها لا تستند إلى أي تحليل جدي للموقف. وسوف نرى في ما يتعلق بالموقع الدولي للغة الفرنسية أن وضعها مرتبط بمقاربة خارجية، مقاربة لسانية اجتماعية، لا بعدد من الإجراءات الداخلية التافهة: فلا تغيِّر مقاومة اقتراضِ الألفاظ الإنجليزية شيئاً من قوَّة البلدان الأنجلوسكسونية، ولا سيما الولايات المتحدة منها، كما لا يغيِّر تأنيث أسماء المهنِ شيئاً في موقع المرأة.

الفرنكوفونية

تناولت الصفحات السابقة إذاً حماية **اللغة** الفرنسية ومحاولات التدخل في ألفاظها لتستبعد منها الكلمات الأجنبية المقترضة حديثاً والتي يعتبرها بعضهم خطراً عليها. غير أن ثمة خطاباً آخر، يكمل الخطاب السابق، ويرى أن الفرنسية تخسر مواقعها الدولية، وتتراجع في كل مكان في الخارج. ويعبِّر عن هذا النوع الآخر من الخطاب فرع آخر من فروع السياسة اللغوية يتدخل في وظائف اللغة، لا في ألفاظها.

ولا بد هنا أيضاً من توضيح الأمور؛ فربما لم يسبق للفرنسية في تاريخها أن تحدث بها الناس في العالم كما يتحدثون بها اليوم، وهذا ناشئ عن ازدياد طبيعي في عدد السكان الناطقين بالفرنسية، كما هو ناشئ عن نتائج التوسع الاستعماري: ففي فرنسا وبلجيكا وسويسرا واللوكسمبورغ وكندا أكثر من 70 مليوناً من الذين يتحدثون بالفرنسية لغةً أولى، وهو عدد يجدر أن يضاف إليه المتحدثون بالفرنسية في المغرب وفي أفريقيا السوداء ـ الذين يصعب معرفة عددهم ـ وفي آسيا (أي في ما كان يعرف بالهند الصينية). في

المغرب ما يقرب من 40 مليوناً من السكان، وما يقرب من مئة مليون في أفريقيا التي يقال عنها إنها أفريقيا «الفرنكوفونية»، وفي مدغشقر: فإن سلمنا بفرضية معقولة مؤدّاها أن عشرةً بالمئة منهم يتحدثون بالفرنسية (بعد الاتفاق على ما تعنيه عبارة «يتحدث لغةً») كان عندنا 14 مليون متحدث إضافي بالفرنسية، فإن أضفنا إلى هذا العدد جميع الذين درسوا الفرنسية في المدارس والجامعات، وهم كثيرون (إذ يبلغ عدد المدرسين الفرنسيين في العالم 30 ألفاً، وعدد مدرِّسي الفرنسية 250000، وعدد الذين يدرسون الفرنسية في التعليم الثانوي 25 مليون تلميذ، وفي جمعيات التحالف الفرنسي (Alliance française) 250000 ألف شخص، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية لغةً أولى أو ثانيةً ما يقرب من مئة مليون على أقل تقدير. وهو رقم كان يمكن أن يفاجئ ريفارول (Rivarol) حين كتب تقريره: **خطاب عن عالميَّة اللغة الفرنسية** (Discours sur l'universalité de la langue française). لا ريب في أننا بعيدون عن عددٍ من التقديرات الشديدة التفاؤل كتلك التي قدَّمها دنيو في كتابه عن الفرنكوفونية: 264 مليوناً[20]. ولكن عندنا على الأقل ما يشهد بوجود توسع كبير جداً في عدد الناطقين بالفرنسية.

نضيف إلى هذا أن وضع الفرنسية قد تطور تطوراً إيجابياً أيضاً من الناحية الوظيفية.

في الوقت الذي كان يقال فيه إن جميع الناس يتحدثون بالفرنسية في أوروبا، كانت عبارة «جميع الناس» تعني بطريقة نخبوية، النبلاء والبرجوازية الكبيرة التي كان أفرادها غالباً ما يربَّون في فرنسا، ولكنها لم تكن تعني حقيقةً السكان الأوروبيين؛ فمن

---

(20) Deniau, *La Francophonie*, p. 45.

الواضح أن السكان الأوروبيين كانوا يتكلمون بلغاتهم الخاصة بهم، لا بالفرنسية. من هذه الزاوية أصبحت الفرنسية ديموقراطيةً في أيامنا منتشرةً في الوقت نفسه في قارّات جديدة، ومتجاوزةً تجاوزاً كبيراً حدود أوروبا التي كانت فيها لغةً «عالميةً» على حد تعبير ريفارول. ومن الناحيتين الاجتماعية والجغرافية إذاً تحتل اللغة الفرنسية في أيامنا موقعاً هو في نهاية المطاف أفضل من الموقع الذي كانت عليه منذ قرنٍ من الزمان.

من أين يأتي إذاً هذا الخطاب المتشائم عن تراجع الفرنسية؟ أنه يأتي بالطبع من تحليل آخر لا يأخذ في حسابه تطور الفرنسية في ذاتها بالمقارنة مع ما كانت عليه، بل تراجعها بالمقارنة مع الإنجليزية. لـ «مرض» الفرنسية مرةً أخرى اسم هو اسم لغة أخرى. الحقيقة أن الفرنسية في الغالبية العظمى من المنظمات الدولية (كالأمم المتحدة، واليونسكو ومنظمة الوحدة الأفريقية وغيرها) تتعايش لغةً رسميةً مع لغات أخر قد تكون الإنجليزية والإسبانية والروسية والعربية والصينية. وقد ذكر موظّف دولي بلجيكي أن الحديث بالفرنسية يزداد في الأمم المتحدة منذ الستينيات:

«عشت السنوات العجاف للفرنسية في الأمم المتحدة في ظل أمين عام لا يبالي بها، بل يعارض استخدامها، وجهازٍ من الموظّفين يطلب منهم أن يستمع إليهم بالإنجليزية، وهي اللغة الوحيدة التي لها حق الاستعمال في جميع طبقات مبنى الأمم المتحدة البالغة 38 طبقة. منذ ذلك التاريخ الصعب حدث انقلابٌ سياسي كان له أثر عجيب على الفرنسية وهو استقلال أفريقيا؛ فقد أدى الدخول الكثيف لـ 22 دولةً أفريقيةً جديدةً ناطقةً بالفرنسية إلى الأمم المتحدة إلى أن يصبح ثلث عدد الوفود ناطقاً بلغتنا. منذ ذلك التاريخ تغير كل شيء: الجو، وظروف العمل، والتوازن، والتصويت، والعلاقات العامة،

وأصبح عدد المتدخلين بالفرنسية في مناقشات الهيئة العامة مساوياً لعدد المتدخلين بالإنجليزية»[21].

بيد أنه يبقى جلياً أن الإنجليزية تتجاوز الفرنسية في كل شيء؛ فهي لا تتجاوزها بعدد الناطقين بها لغةً أولى فحسب، إذ تفوقها بأربعة أضعاف، بل تتجاوزها على وجه الخصوص بأهمية التوسُّع الاقتصادي والثقافي والسياسي للبلدان الناطقة بالإنجليزية، ولا سيما الولايات المتحدة.

وها نحن أولاء في صميم المشكلة، لأننا نخطئ حين لا نأخذ في الحسبان إلا المظهر اللغوي من هذه المشكلة بينما جذورها في مكان آخر. في زمان «عالمية اللغة الفرنسية» لم يكن للولايات المتحدة وجود على المستوى الدولي، بينما أصبحت اليوم القوة الاقتصادية الأولى في العالم. والمقترضات الكثيرة من الإنجليزية، وهي المقترضات التي تناولناها في الفقرة السابقة نتيجة لهذا الموقع للولايات المتحدة. ولئن استخدم الفرنسيون المصطلح الإنجليزي Walkman - ونكتفي بهذا المثال - بدل المصطلح الفرنسي Baladeur لتسمية الحاكي النقّال - وليغضب المتزمّتون - فلأن هذا الجهاز بكل بساطة، جاء من الولايات المتحدة، تماماً كما فعل الإنجليز حين تحدثوا منذ البداية عن الزِّي أو «الموضة» (Mode) والفن (Art) والعطر (Parfums) مستخدمين الألفاظ المقترضة من الفرنسية. المشكلة إذاً مشكلة تنتمي إلى اللسانيات الاجتماعية، أو إن شئنا، إلى ما يسميه بعضهم باللسانيات الخارجية: فلا يكمن حل المشكلة إذاً في العمل على مستوى اللغة، وإنما على مستوى الظروف التي

(21) Robert Fenaux, *Discours sur la fonction internationale de la langue française* (Liège: Sciences et lettres, [s. d.]), p. 63.

تتحرك فيها اللغة، وتشهد عليها بشكل جزئي. ويجدر أن تقوَّم السياسة اللغوية لفرنسا وللبلدان الفرنكفونية بالنظر إلى هذا الواقع دون سواه.

هذا ما يقودنا إلى الحديث عن الفرنكفونية. ويقودنا بصورة أعم، إلى الحديث عن المنظمات التي تهتم بنشر الفرنسية والدفاع عنها. ظهرَ مصطلح الفرنكوفونية في القرن الماضي بمعنى شبيه جداً بالمعنى الحالي. ابتدع هذه اللفظة أونيزيم ريكلو (Onésime Reclus) في أثناء تصنيفه لسكان العالم انطلاقاً من اللغة التي يستخدمونها. هذه اللفظة التي ولدها عالِم في الجيولوجيا عادت إلى الظهور في عام 1962 بقلم رجل دولةٍ وشاعر هو ليوبولد سنغور (Léopold Senghor). وستأخذ هذه الفكرة شكلها السياسي شيئاً فشيئاً عبر إنشاء عددٍ من المنظمات الفرنسية أو الدولية التي نقدم في ما يلي قائمة بها في أثناء رئاسة شارل ديغول وجورج بومبيدو للجمهورية الفرنسية:

ـ 1961: إنشاء رابطة الجامعات التي تتعامل بالفرنسية كليا أو جزئياً (AUPELF).

ـ 1966: إنشاء اللجنة العليا لحماية الفرنسية ونشرها التي أصبحت في عام 1973 اللجنة العليا للغة الفرنسية.

ـ 1967: إنشاء الرابطة الدولية للبرلمانيين الناطقين باللغة الفرنسية (AIPLF).

ـ 1967 أيضاً: إنشاء المجلس الدولي للغة الفرنسية (CILF) وعقد أولِ اجتماعٍ من «الاجتماعات الدورية في كل عامين للغة الفرنسية».

ـ 1970: إنشاء لجنة التعاون الثقافي والتقني (ACCT).

ـ 1973 : إنشاء لجنة الفرنكوفونية.

ـ 1974 : إنشاء اللجنة الوزارية المشتركة للشؤون الفرنكوفونية. . . إلخ.

يضاف إلى هذه الهيئات الرسمية في الفترة نفسها اجتماعاتٌ دوريةٌ لمؤتمرات وزراء البلدان الناطقة بالفرنسية (وتشمل وزارات التربية، والثقافة، والشباب، والصحة) وإنشاء جمعيات مهنية فرنكوفونية مختلفة.

تطور المجهد الرسمي لنشر الفرنسية خارج فرنسا عن طريق إنشاء هيئات متعددة، وتخصيص أموال كبيرة للعمليات اللغوية والتربوية (مثل إعداد حلقات تلفزيونية مدرسية معدة للخارج، والمساعدة على نشر الكتب المدرسية، وغير ذلك). وكان هذا الجهد يتطور بمقدار تطور الخطاب الذي يحذر من أخطار اختراقِ اللغة الإنجليزية للفرنسية. (ينظر على وجه الخصوص القرارات المصطلحية التي أشرنا إليها أعلاه في الفترة الممتدة من 1973 إلى 1985).

يعود أمر حماية الفرنسية ونشرها اليوم (1986) في فرنسا إلى عدد من الهيئات المختلفة التي لا تشكل القائمة التالية حصراً كاملاً لها: المفوضية العامة للغة الفرنسية، وزارة الدولة المكلفة بالفرنكفونية، الدائرة العامة للعلاقات العلمية والثقافية والتقنية (وهي هيئة تابعة لوزارة الخارجية)، اللجنة العليا للغة الفرنسية. ولا ينبغي أن ننسى بالطبع، الأكاديمية الفرنسية الخالدة. بيد أننا نخشى ألا يكون تعدد الهيئات، والطاقات، ومصادر التمويل بالضرورة ضمانةً كافيةً، وأن يؤدي هذا النمط من السياسات اللغوية إلى مجانبة المشكلة الرئيسة. وفي فرنسا منذ أن أنشأ ريشيليو (Richelieu) الأكاديمية الفرنسية في عام 1634 اتجاهٌ إلى الاعتقاد بأن مشكلات

اللغة يمكن أن تحل بفرض المعايير وتدخل الدولة. ولا يفتأ اللسانيون يقولون بعكس هذا، ولكن من دون جدوى. ونحن نفضل بدل العودة إلى مناقشة هذا الموضوع، أن نقارن السياسة اللغوية الفرنسية التي رأيناها بما يجري في الولايات المتحدة للنظر في فاعليتها، فلئن كانت اللغة الإنجليزية حاضرةً إلى هذا الحد في العالم فلأن سياستها سياسة فعّالة.

طرِح الموضوع اللغوي في الولايات المتحدة منذ زمان إعلان الاستقلال في عام 1776. كان السكان في أمريكا الشمالية قادمين من بلدان متعددة، وكانوا يتكلمون لغاتٍ مختلفة؛ فوجدت الدولة الحديثة العهد نفسها في مواجهة مشكلة التعدد اللغوي، وهي مشكلة شبيهة بما تعرفه البلدان النامية.

يستخلص من مقالة طويلة لـ شيرلي برايس هيث (Shirley Brice Heath) في هذا الموضوع ما يلي[22]: يستخلص على الصعيد الداخلي أولاً أن «الآباء المؤسّسين» رفضوا أن تكون الإنجليزية لغةً رسمية، لأنهم كانوا يعتقدون ببساطة بأنها سوف تفرض نفسها دون دعم رسمي، فاختاروا إذاً سياسةً لغويةً تقوم على عدم اختيار أي سياسة. وهكذا نشر المؤتمر الوطني في السنوات الأولى من عمر الاتحاد، عدداً من وثائقه باللغتين الفرنسية والألمانية ليضمن انتشارها في عدد من المناطق. وفي مقالة (هيث) فضلاً عن ذلك أن غالبية رجال السياسة الأمريكيين كانوا يرون في إرادة فرض لغةٍ موحّدة ممارسةً شبيهة بممارسة الملكيات الأوروبية. وكانت الأكاديمية

(22) Shirley Brice Heath, «A National Language Academy? Debate in the New Nation,» *International Journal of the Sociology of Language*, no. 11 (1976), pp. 9-43.

الفرنسية والأكاديمية الإسبانية بالنسبة إليهم نموذجاً لما يكرهون انطلاقاً من مشاعرهم المعادية للملكيَّة.

تقدِّم النقاشات اللغوية في بداية تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية مثالاً جيداً على هذا الوضع؛ فقد اقترح شخصٌ يدعى جون أدامز (John Adams) في عام 1780 على الكونغرس إنشاء مؤسسة رسمية تشبه أن تكون أكاديميةً أمريكيةً لم يحسن الإنجليز إنشاءها، وكان يمكن لها أن تكون شرفاً للأمريكيين. وكان هذا الاقتراح لأن جون أدامز كان مقتنعاً بالفكرة الأوروبية التي تظن أن أمةً قويةً لا بد من أن تكون لها لغة قوية، وأن هولندا على سبيل المثال، لم يكن لها النفوذ الدولي الذي تستحقه لأن لغتها لم تكن منتشرةً وراء حدودها. وقد تعددت محاولات أدامز، وتنوعت حججه، ولكن اقتراحاته ظلت مدفونةً في إحدى لجان الكونغرس.

يقول هيث (Heath) إنه «كان ينظر غالباً إلى أدامز نفسه على أنه من مؤيدي الملكية، ويبدو أن عدداً كبيراً من الجمهوريين كان ينظر إلى اقتراحه بإنشاء أكاديمية لغوية مركزية على أنه «دليل» إضافي على ميوله الملكية»[23]. لم يتوقف النقاش مع ذلك، بل تجذَّر حول موقفين اثنين: أولهما يدعو إلى الاستقلال اللغوي للولايات المتحدة، أي إلى حق الأمريكيين في أن يجعلوا من اللغة الإنجليزية لغةً مختلفة عن تلك التي يتكلم الناس بها في بريطانيا، وإلى حقهم في خلق كلمات جديدة. كان هذا مثلاً موقف نوا ويبستر (Noah webster) الذي اقترح تأليف «قاموس أمريكي»، وموقف جون أدامز، الذي اقترح في عام 1812 فرض ضريبة خاصة على جميع القواميس المستوردة من إنجلترا. وفي مقابل هذا الموقف طالب آخرون بحماية

(23) المصدر نفسه، ص 22.

صفاء اللغة من أمثال جون بيكرينغ (John Pickering)، عضو الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم (وهي جمعيةٌ خاصة أنشئت في بوسطن). وقد قدَّم بيكرنغ أمامها في 1815 عرضاً يلح على أن يقام بصورة مستعجلة عملٌ معياري، وهو عملٌ وطني في نظره، لتفادي تلاشي اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة.

في ظل هذا الوضع أنشأت مجموعة من المثقفين في عام 1820 «الأكاديمية الأمريكية للغة والفنون الجميلة» التي جعلت هدفها المعلن تنقية اللغة وتقعيدها آملةً في أن تتحول إلى أكاديميةٍ للغة الوطنية (وقد انتسب جون أدامز إلى هذه الجمعية بالطبع، ولكن انتسب إليها أيضاً لافاييت (Lafayette) وغيره. بيد أن هذه «الأكاديمية الأمريكية للغة والفنون» لم تحصل على أي دعم رسمي، ولا على أي عون مالي من الكونغرس، فمات المشروع موتاً طبيعياً بطيئاً. ولن يكون للولايات المتحدة بعد ذلك أبداً سياسة لغوية رسمية، ولن تتدخل الدولة أبداً تدخلاً مباشراً في هذا المجال.

ومع ذلك أشار جوشوا فيشمان (Joshua Fishman) بحقٍّ إلى أنه بالرغم من غياب أي تحديد دستوري أو شرعي للغة رسمية تحول ملايين المهاجرين والمقيمين عن لغاتهم إلى اللغة الإنجليزية[(24)]. غير أن هناك دوماً ما يقرب من 20 في المئة من السكان لا يتكلمون الإنجليزية لغةً أولى: 22 مليوناً من البيض في عام 1940 (أي 18,6 في المئة من السكان البيض)، و33 مليوناً عام 1970 (أي 16,3 في

(24) J. Fishman, «Language Policy: Past, Present and Future» in: *Language in the USA*, Edited by Charles A. Ferguson, Shirley Brice Heath, with the assistance of David Hwang; foreword by Dell H. Hymes (Cambridge: Cambridge University Press, 1981).

المئة من مجموع السكان)، و28 مليوناً ممَّن تجاوزوا سنَّ الرابعة عشرة في عام 1975 (أي 17,8 في المئة)[25].

ومع ذلك، فإن اللغة الإنجليزية اليوم أوسع اللغات في العالم لغةً ثانية وإن كان ممكناً في وقتٍ قريب، أن تنافسها الإسبانية في الولايات المتحدة نظراً لتنامي الهجرة الهائل إلى هذا البلد من أمريكا الوسطى وكوبا.

قد يبدو في هذا الوضع مفارقة حين يقارن بنتائج السياسة المتَّبعة لنشر الفرنكفونية. صحيح أن في الولايات المتحدة هيئات خاصةً تحل محل الدولة (مثل مؤسسة فورد، أو المعهد اللغوي الصيفي). ويبدو أنه ما كان للولايات المتحدة قط هدف أولي لنشرِ ثقافتها (ربما لأنه ليس لها ثقافة خاصة، ولكن هذا شأن آخر)، أو لنشر لغتها؛ فلقد كانت الإمبريالية الأمريكية إمبرياليةً سياسيةً واقتصاديةً بالدرجة الأولى، ثم جاءت اللغة بعد ذلك.

يقدِّم هذا المثال درساً مهماً، وهو أن اللغة لا تنتشر لأنها لغة أدب فحسب، فهذا العامل قليل الأهمية في مواجهة العوامل الاقتصادية والسياسية. لا ريب في أن هذا العامل الأدبي قد قام بدور مهم في انتشار الفرنسية وتوسعها حتى القرن التاسع عشر. غير أن هذا التوسع كما رأينا، لم يطل إلا النخب، وهم فئة قليلة لا يمكن مقارنتها بما يجري بين الفرنسية والإنجليزية في أيامنا. وقد اهتزت مكانة الفرنسية اهتزازاً كبيراً مع صعود نجم التيارات الوطنية ونشوءِ القوميات التي أدت إلى ازدهار الآداب الوطنية باللغات الوطنية لأهلها. ويبدو أن العمل الرسمي كله في البلدان الفرنكوفونية قد

(25) Dorothy Waggoner, «Statistics on Language Use,»

في: المصدر نفسه، ص 486-515.

أهمل إهمالاً تاماً في تحليلاته أمراً جوهرياً مؤداه أنه لا يمكن منافسة توسع يحركه الاقتصاد اعتماداً على العوامل الثقافية وحدها. وقد بدأ المدافعون عن الفرنسية حرب خنادق في مواجهة الآلة الأمريكية الهائلة: فقد بدأوا حديثاً يدافعون عن الفرنسية لغة دينٍ هو الكثلكة في مواجهة الإنجليزية التي تفرض نفسها لغة تجارة في كندا. وهم يدافعون عن الفرنسية لغة جماعةٍ ثقافية بينما تنتشر الإنجليزية اليوم بصورةٍ أساسية لغة اقتصادٍ مهيمن، ولغة علم وتقنية في تقدم مستمر، وبصورة ثانوية لغة ثقافة هي ثقافة الروك والكوكاكولا. في هذا التعارض بين الموقفين علامة على تحليلين مختلفين للعالم، وعلى أيديولوجيتين مختلفتين، وهو تعارض قد يدلنا أيضاً على ما سيؤول إليه هذا الصراع في نهاية المطاف.

الفصل الثامن عشر
وهم الحل المسالم والإسبرنتو

رأينا أن الإنسان في مواجهة أسطورة بابل، وفي مواجهة التعدد اللغوي، قد قبل التحدي في الميدان. كما رأينا كيف تشهد اللغات الخليط واللغات المنتشرة على أن الممارسة الاجتماعية عرفت في غالب الأحيان كيف تحافظ على وسائل الاتصال رغم تعدد اللغات.

رايات تاريخية

ظهرت في القرن السابع عشر في أوروبا فكرة تعتقد أنه يمكن حل المشاكل التي يفرِضها التعدد اللغوي في المختبر، وذلك باصطناع لغة عالمية. يشهد على ذلك مثلاً كتابات كومينيوس (جان كومينسكي) ككتاب **الباب المفتوح على اللغات** (*La Porte ouverte sur les langues*) في عام 1631، ولا سيما رسالة طويلة لرينيه ديكارت الذي كانت له من أمستردام مراسلات علمية غنية، فقد سأله ماران ميرسان (Marin Mersenne) في إحدى رسائله عن مشروع لغة جديدة لا يكون فيها إلا «طريقة واحدة في تصريف الأفعال، وفي الإعراب، وفي بناء الكلمات»، فخصَّص الفيلسوف الفرنسي للجواب عن هذا السؤال رسالةً يبدي فيها تحفُّظه في أول جملةٍ منها، إذ

يقول: «يبدو اقتراح اللغة الجديدة هذا مثار إعجاب في بدايته أكثر مما يبدو عليه ذلك إن أمعنا النظر فيه». ونهاية الجواب عن الرسالة أيضاً أكثر وضوحاً من بدايته. يقول في نهايته: «وأنا أظن أن هذه اللغة ممكنة» قبل أن يتابع فيقول: «ولكن لا تأمل أبداً في أن ترى هذه اللغة في حيِّز الاستعمال، فاستعمالها يقتضي تغيراً كبيراً في نظام الأشياء، وينبغي معه ألا يكون العالم إلا جنةً على الأرض، وليس هذا مما يحسن اقتراحه إلا في عالم الروايات»[1].

من المهم أن نلاحظ أن فكرة اللغة المصطنعة إنما تظهر في الوقت الذي بدأت فيه وظيفة اللغة اللاتينية لغة نشر بالانحسار، مع أن ديكارت يشير في جوابه إلى أنه قد يكون من الأسهل أن يتعلم اللاتينية جميع الناس. ويشهد على هذه الفكرة أيضاً في نهاية القرن السابع عشر عددٌ من الأخبار، منها ذلك النقاش المستفيض (1670 - 1681) المتعلق باللغة التي ستكتب بها النقوش على قوس النصر المزمع تشييده تمجيداً للويس الرابع عشر. ومنها تلك الفضيحة التي أثارها في عام 1660 كتاب **القدّاس** الذي نشره فوازان (Voisin) بالفرنسية[2]. ويشهد على ذلك خصوصاً أن الفرنسية كانت تزداد انتشاراً في مجالات التعليم في فرنسا، وفي الكتابات الأدبية والعلمية، مما يعني الشكَّ في فاعلية التواصل الذي كان حتى ذلك الحين قائماً باللاتينية بين أبناء اللغات المختلفة. وقد تناول ليبنتز (Leibniz) الفكرة نفسها بعد ذلك بوقت يسير في الميزات العالمية

---

(1) René Descartes, *Oeuvres et lettres*, bibliothèque de la pléiade; no. 40, textes présentés par André Bridoux (Paris: N. R. F., 1937), pp. 698-702.

(2) Ferdinand Brunot, *Histoire de la langue française, des origines à 1900* (Paris: A. Colin, 1905-.), tome V: *Le Français en France et hors de France au XVIIe siècle*, 1917, pp. 10-20, pp. 25 sq.

(characteristica universalis) هادفاً من وراء ذلك إلى تأسيس نظام رمزي يسمح في الميادين العلمية بالتواصل الذي يستغني عن اللغات الطبيعية. والمقصود في الحالين نحو عالمي للغة مكتوبة يستطيع الناس أن يتفاهموا بها في مشرق الأرض ومغربها. ولا ريب في أن القارئ قد فهم أنه يمكن أن نرى في هذا المشروع النموذج الأصلي لكل اللغات الاصطناعية.

في القرن التاسع عشر سيحاول مؤسسو اللغة أو اللوغوتيت (logothètes) على حد اللفظة التي ولدها رولان بارت، تغيير النوع؛ فقد كان التفكير حتى ذلك الحين مبنياً بصورة أساسية على تصنيف الأفكار، إذ كان الفلاسفة يعتبرون اللغات الطبيعية لغات خادعةً وغير خالية من العيوب. ولذلك، فسوف تؤسس بشكل ملموس لغات مصطنعة منذ ذلك التاريخ. ولن نعدم مشاريع لغات في هذا الإطار إذ يقدر بيار جانتون (Pierre Janton) عددها بما يقرب من خمس مئة لغة[3]. ومن السهل دون بحثٍ خاص أن نضع قائمةً بما يقرب من مئة من هذه اللغات. والقائمة التالية[4] أقصر من ذلك، لأننا توقفنا فيها عند عام 1914؛ غير أنها تشهد على نشاط مكثف في اصطناع اللغات ابتداءً من عام 1879، وهو تاريخ ابتداع لغة «فولابوك» (Volapük)، وحتى عام 1914. ونجد في هذه القائمة، وهي قائمة شديدة النقص بالتأكيد ما بين 1900 و1914 على وجه الخصوص، أكثر من لغتين جديدتين في كل عام.

---

(3) Pierre Janton, *L'Espéranto*, que sais-je?; 1511 (Paris: Presses universitaires de France, 1973), p. 13.

(4) أعِدَّت هذه القائمةُ ببساطة اعتماداً على كتاب جانتون المشار إليه أعلاه، وكتاب ياغيلّو: Marina Yaguello, *Les Fous du langage: Des Langues imaginaires et de leurs inventeurs* (Paris: Editions du seuil, 1984).

1858 : كوسموغلوسا (Cosmoglossa)

1868 : إينيفيرسالغلوت (Universalglot)

1879 : فولابوك (Volapük)

1883 : ويلتسبراش (Weltsprache)

1887 : بالتا (Balta)

1887 : إسبرنتو (Esperanto)

1887 : سبوكيل (Spokil)

1888 : سبيلين (Spelin)

1889 : أنكلوفرانكا (Anglo-franca)

1890 : موندولانغ (Mundolingue)

1893 : ديل (Dil)

1896 : فيلتبارل (Veltparl)

1898 : ديلبوك (Dilpok)

1900 : لينغوا كومون (Lingua Komun)

1902 : ريفورملاتين (Reformlatein)

1902 : أونيفرسال لاتين (Universal Latein)

1902 : إيديوم نوترال (Idiom neutral)

1903 : لاتينو سين فليكسيون (Latino sine flexione)

1903 : أنترلنغوا (Interlingua)

1904 : بيريو (Perio)

1905 : لينغوا أنترناسيونال (Lingua internacional)

1906 : موندلينغفو (Mondlingvo)

1906 : أولا (Ulla)

1907 : إيدو (Ido)

1907 : لينغو أنسيرناسيونا (Lingwo incernaciona)

1907 : أبوليما (Apolema)

1907 : لينغوا أوروبيان (Lingua european)

1908 : مز - فويو (Mez-voio)

1908 : رومانيزا (Romanizat)

1908 : ديتالينغ (Dutalingue)

1909 : رومانال (Romanal)

1909 : إيتاليكو (Italico)

1910 : أدجوفيلو (Adjuvilo)

1910 : نوفي إسبرنتو (Nuv-esperanto)

1910 : ريفورم إسبرنتو (Reform-esperanto)

1910 : سيمي لاتين (Semi-Latin)

1910 : برفيكت (Perfect)

1911 : لاتين إسبرنتو (Latin-esperanto)

1911 : لاتين - إيدو (Latin-ido)

1911 : لينغو أديلفينزال (Lingw adelfenzal)

1911 : سيمبلو (Simplo)

1911 : نوفي لاتين (Novi Latine)

1911 : مولوغ (Molog)

1912 : ريفورم نيترال (Reform neutral)

1914 : أوروبيو (Europeo)

تستدعي هذه المعطيات عدداً من الملاحظات التي ربما تساعدنا على الإحاطة بظاهرة اللغات الاصطناعية.

ـ من المهم أن نسجل أولاً أن معرفةً متوسطةً بلغات أوروبا الغربية (ولا سيما اللغات الرومانية منها) تسمح بفهم الجذور التي اشتقت منها أسماء هذه اللغات الاصطناعية. ويشهد هذا الأمر على النزعة الأوروبية المركزية عند صناع هذه «اللغات العالمية».

ـ نشير ثانياً إلى أن فكرة اللغة العالمية قد ظهرت في فترةٍ تاريخية بدأت فيها اللغة اللاتينية التي كانت لغة نشر للنخب الأوروبية بالأفول، وتجسدت في مشاريع متعددة في فترة تاريخية أخذت فيها الفرنسية التي حلت محل اللاتينية بالتراجع في قيامها بهذه الوظيفة. نجد في الحالين محاولةً لحل مشاكل التواصل العالمي في المختبر. ونجد في الحال الثانية ربطاً وثيقاً بين نشوء «ظاهرة الإسبرنتو» ونشوء الدولة ـ الأمَّة، بل إن فكرة اللغة العالمية إنما ظهرت رداً على التجزئة الوطنية (واللغوية) لأوروبا.

ـ الملاحظة الأخيرة هي ازدياد اللغات المصطنعة بمقدار الاقتراب من الحرب العالمية الأولى حتى لكأن مشاريع هذه اللغات كانت تحاول تأجيل الكارثة التي بدأت تلوح في الأفق السياسي.

وتبدو اللغتان المصطنعتان: فولابوك وإسبرنتو، وهما اللغتان

الوحيدتان اللتان حققتا شكلاً من أشكال النجاح، وكأنهما تحملان ما يشبه الرسالة، وهو ما نحاول تحليله في ما يلي، بعد أن ننهي هذا العرض التاريخي السريع.

عرفت لغة الفولابوك، وهي أول لغة اصطناعية تخرج من الدفاتر لتصل إلى مرحلة التداول العملي، نجاحاً كبيراً وقصيراً في الآن نفسه:

«بعد عشر سنوات على ظهور اللغة، كانت تطبع بها خمس وعشرون صحيفة، وأسست 283 جمعية، وطبعت كتب مدرسية في 25 لغة، وظهرت أكاديمية لم تلبث أن ناقشت الإصلاحات. غير أن تشدد المؤلف أدى إلى إفشالها جميعاً، وإلى الانشقاق، ثم إلى التفتت ابتداء من 1889»[5].

وقد استفادت لغة الإسبرنتو من إخفاق «الفولابوك»، فقامت بوظيفة جعلتها الظروف ضروريةً، فحلت في مقعد شاغر؛ ففي عام 1887 نشر ل. ل. زامينهوف (L. L. Zamenhof) المولود في عام 1859، أول منشور متعلق بما سماه «اللغة الدولية». وقد وقع منشوره باسم مستعار هو «إسبرنتو». بعد عشر سنوات ظهرت أول مجلة هي **الإسبرنتيستو** (*La esperantisto*)، وفي عام 1894 نشر زامينهوف قاموساً ثم كتاباً للتمارين، ونشر أخيراً في عام 1905 نصاً اسمه «المبادئ الأساسية للإسبرنتو» (Fundamento de Esperanto) يلخص فيه قواعد هذه اللغة في ست عشرة قاعدةً.

ثم بدأت المؤتمرات الدولية: 1905 في بولوني سور مير (Boulogne-sur-Mer)؛ 1906 في جنيف؛ 1907 في كامبريدج؛ 1908

(5) Janton, Ibid., p. 21.

في دريسد (Dresde)؛ 1909 في برشلونا؛ 1910 في واشنطن؛ 1911 في أنفير (Anvers). وقد حضر المؤتمر الأول 668 شخصاً، بينما سجَّل 3739 شخصاً أسماءَهم لمؤتمر باريس عام 1914 (وهو المؤتمر الذي لن يعقد بسبب الحرب). وقد ازداد عدد الناطقين بهذه اللغة ازدياداً منتظماً، وإن كان من الصعب معرفة عدد الناطقين بها في أرجاء العالم بشكل دقيق. وتضم الجمعية العالمية للإسبرنتو حالياً ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف منتسب. غير أن بعضهم يذهب إلى أن عدد الناطقين بها يبلغ خمسة عشر مليون شخص(6). ومهما يكن من أمر، فإن الإسبرنتو هي اللغة الاصطناعية الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة، وقد أصبح اسمها على أي حال مرادفاً للغة الاصطناعية في ضمائر الناس، وليس بعد هذا من مزيد.

أيديولوجية الإسبرنتو

لا بد في فهم ما يبثُّ الحياة في أعضاء هذه الجماعة المتفرقة (الدياسبورا) في أنحاء العالم من أن نبدأ بشخصية زامينهوف. هذه إحدى رسائله المعبرة في هذا المجال:

«لو لم أكن يهودياً يعيش في مجتمع مغلق (غيتو) لما كانت فكرة توحيد الإنسانية لتمر في خاطري، أو ما كانت لتشغل بالي وتتملكني طوال حياتي؛ فلا أحد يمكن أن يحس بالشقاء الذي يسببه انقسام البشر كما يحس به يهودي في مجتمع مغلق (غيتو). ولا يمكن لشعور قوي بضرورة وجود لغة إنسانية محايدة لا تنتمي إلى وطن أن يتملك أحداً كما يتملك يهودياً يجبر على أن يصلي لربه بلغة ماتت منذ زمان طويل، ويتلقى تربيته بلغة شعب يرفضه، وله

(6) المصدر نفسه، ص 112-114.

أصحاب في شقائه في كل مكان على وجه الأرض، ولكنه لا يستطيع أن يتفاهم معهم. إن يهوديتي هي السبب الرئيس الذي من أجله نذرت نفسي منذ نعومة أظفاري لفكرة ولحلم أساسي: حلم توحيد الإنسانية»[7].

بهذا المعنى، تبدو فكرة اللغة العالمية رداً تصوره زامينهوف على وضع مؤلِم سيؤدي عند غيره إلى ولادة الأيديولوجية الصهيونية (نشر كتاب **الدّولة اليهودية** (*L'Etat juif*) لتيودور هرتزل في عام 1886). وتظهر المؤتمرات التي شارك فيها حتى مماته، كما تظهر كتاباته، تصوراً أشبه ما يكون بالتصور الديني لجماعة الناطقين بالإسبرنتو؛ فهو يشرح في الرسالة المذكورة أعلاه إلى مُكاتِبه:

«ليس الترويج لقضية الإسبرنتو إلا جزءاً من هذه الفكرة». وفي الرسالة حديث عن مشروع «أسميه «الهلالية»[*]»، وهو يقضي بإنشاء جسر خُلقي قادر على وَصل أخوي لكل الشعوب وكل الأديانِ. وتقوم خطتي على خَلق وحدةٍ دينيةٍ تصالِح كل الأديان الموجودة وتضمها في سلام».

لم تلق فكرة «الهلالية» (التي جاء اسمها من حاخام اسمه «هلال» يستوحي منه زامينهوف) نجاحاً كبيراً عند أتباع الإسبرنتو الذين يفضلون الانتساب إلى فكرة الحياد التي أكدوها في مؤتمرهم في جنيف. غير أن زامينهوف قد صرح في هذا المؤتمر نفسه بالقول:

«بلد الإسبرنتو لا تحكمه لغة الإسبرنتو فحسب، بل أيضاً الفكرة الضمنية للإسبرنتية. وشعار المثال الأعلى للإسبرنتية، وهو

---

(7) رسالة موجهة إلى ميشو في 21 شباط/ فبراير 1905، نقلاً عن جانتون.

(*) بالنسبة إلى أحد الحاخامين، واسمُه هِلال. ويحملُ هذا الاسمَ عددٌ من الحاخامين من بينهم هلال بن صموئيل الإيطالي وغيرُه.

شعار لم يصرَّح به بدقَّة حتى اليوم وإن كان الشعور به واضحاً على الدوام، وهو الآتي: نريد أن نرسي أساساً محايداً يمكن لمختلف شعوب الإنسانية أن تتواصل عليه بأخوَّة وسلام».

ستقوم نقاشات أيديولوجية عميقة بين الإسبرنتيين الذين تشدهم المحايدة إليها كما تشدهم العالمية. وتفسّر هذه النقاشات الانشقاق الذي حصل في عام 1907، وتأسيس لغة «الإيدو». كما تظهر هذه النقاشات في الصراعات الدائمة بين أصحاب الخط «النخبوي»، وأصحاب الخط «الشعبوي»[8]. ما هو أكيد، إن تركنا جانباً هذه التفاصيل التي ليست ذات أهمية كبيرة هنا، هو أن فكرة اللغة العالمية نفسها لا تنفصل عن نوع من المسالمة الذي قد يحلّل بشكل مختلف هنا أو هناك اعتماداً على أيديولوجيات اللحظة الراهنة، ويحدّد الطريقة التي ينظر بها إلى الإسبرنتو. وقد انتشرت لغة الإسبرنتو انتشاراً واسعاً في بلدان أوروبا الشرقية في المرحلة التي ازدهرت فيها نظرية مار (Marr) في الاتحاد السوفياتي على سبيل المثال، وهي المرحلة التي كان يسود فيها الاعتقاد بأن لغات العالم سوف تتقارب مع ظهور الاشتراكية الدولية وتتجه نحو لغةٍ وحيدة بروليتارية. وقد انتشرت الإسبرنتو في هذه البلدان لأن في أيديولوجيتها نوعاً من المطابقة مع الأيديولوجية الرسمية. وينظر اليوم إلى هذه اللغة بعين الرضا في الصين لأنها تعتبر كابحاً ممكناً للإمبرياليات اللغوية.. إلخ.

يبقى أن نعرف أيديولوجية الإسبرنتيين أنفسهم، ومسلكهم، هذا

(8) انظر على سبيل المثال: Marti Garcia-Ripoll Duran, «Cent anys d'esperanto. Apunts per a una sociologia d'una llengua internacional minoritsaza,» in: *II Congrès Internacional de la Llengua Catalana* (Barcelona: Generalitat de Catalunya, Escola d'Administración Pública de Catalunya, 1987).

إن كانت صيغة الجمع في حديثنا عن الإسبرنتيين تعبر عن واقع موحد، وإن كان يجوز لنا أن نتحدث «عن» إسبرنتيين. يكفي أن نقول في هذا المقام إن مخالطتنا لهم تدل على أنهم أصحاب قناعة، يدل على ذلك ما ذكرناه سابقاً، وأن قناعتهم تولد ثلاثة أنماط من السلوك:

1 ـ تبشير لغوي لا نجده في أي مكان آخر، فنحن لا نتصور مثلاً أن يحاول أكثر الفرنكوفونيين تحمساً للفرنكفونية محاولة إقناع جيرانه بحسنات الفرنكفونية. غير أنه ينبغي أن نوضح في هذه المسألة أن الإسبرنتيين أقرب إلى أن يكونوا متحفظين، فهم يكتفون بتوزيع المنشورات والنصوص ولا يكادون يتعدون ذلك.

2 ـ مقاربة لنشر الأفكار الإسبرنتية يبدو أنها تجري في السنوات الأخيرة على غرار نشر الأفكار العلمية، إذ ينظم الإسبرنتيون مؤتمراتٍ يدعون إليها لسانيين أو علماء اجتماع من غير الإسبرنتيين. ولهم كذلك علاقات متواصلة مع اليونيسكو. وهم في جميع هذه الحالات يطرحون المسألة من زاوية التواصل الدولي بالرجوع إلى تقرير ماك بريد (Mac Bride) على سبيل المثال. لكن يمكن القول في هذا الإطار إن الإسبرنتيين يميلون، إن استخدمنا مصطلحات سياسية وابتعدنا عن أي رغبة في حرب كلامية، إلى ممارسة التسلل والتقويض الداخلي للآخرين(*).

3 ـ يقودهم هذا الأمر، وهو شيء طبيعي عند جماعة تتميَّز برسوخ قناعاتها وبالمشاركة في فكرة واحدة، إلى روح جماعية قد تتناقض أحياناً مع إرادتهم مقاربة الموضوع المشار إليه أعلاه مقاربةً

(*) تقضي العملية هذه بإدخال عناصر إلى جماعة أو حزب لتشتيته أو لاستلام قيادته.

علميةً، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى نوع من التعصب لطائفتهم.

لن نتناول للتدليل على هذه المسألة إلا مثالاً واحداً، ولكنه مثال معبّر: غالباً ما نجد في منشورات الإسبرنتيين هذا الاستشهاد باللساني الكبير أنطوان مييه (Antoine Meillet): «لا جدوى من أي نقاش نظري، فلقد قامت لغة الإسبرنتو بوظيفتها»[9]. هذه الجملة المأخوذة من كتاب نفدت نسخه منذ زمان بعيد ولم يعد ممكناً العثور عليه، مقطوعة عن سياقها بالطبع. وها هي ذي الجملة التي تليها في النص الأصلي وهي جملة تقدم إضاءةً مختلفة: «ولا ينقص هذه اللغة إلا أن تدخل في الاستخدام العملي»[10]. غير أن الإسبرنتيين لا يستشهدون بالجملة التالية. لم يكن أنطوان مييه في حقيقة الأمر معارضاً لفكرة وجود لغة عالمية مصطنعة، فقد كتب بعد صفحات من هذه الجملة: «إن الفائدة العملية من وجود لغة عالمية واضحة للعيان، وبما أن هذه اللغة ممكنة فينبغي تحقيقها»[11]. غير أن استغلال شاهد مقطوع عن سياقه استغلالاً دعائياً يعطي ضمانةً علمية لم يردها مِييه بالتأكيد لفكرة تروج أن الإسبرنتو أكثر استعمالاً مما هو عليه في حقيقة الأمر.

المقاربة اللسانية الاجتماعية

لن نتناول الموضوع، على أي حال من هذه الزاوية، فلا ريب

---

(9) انظر هذه الجملة مثلاً في ص 123 الذي لا يذكر المصدر الذي أخذ عنه في: Janton, *L'Espéranto,*

أو في: *L'Espéranto, un droit à la communication*، وهو نشرةٌ للاتحاد الفرنسي من أجل الإسبرنتو (Union française pour l'espéranto)، [د. ت.]، ص 13.

(10) Antoine Meillet, *Les Langues dans l'europe nouvelle, avec un appendice de L. Tesnière... sur la statistique des langues de l'europe* (Paris: Payot, 1928).

(11) المصدر نفسه، ص 282.

في أنه من المفيد لفهم «ظاهرة الإسبرنتو» أن نحاول فهم أصولها، وأن نحلل سلوك الإسبرنتيين. من الواضح على هذا الصعيد أن فكرة وجود لغة عالمية يتعلمها جميع الناس لغةً ثانيةً تنطلق من مبادئ عامة يمكن احترامها. كما أن من الواضح أيضاً أن «أنصار» الإسبرنتو لا يدافعون عن مصالح خاصة لهم، خلافاً لما هو عليه الحال في جميع الحركات الفكرية.

غير أن السؤال الحقيقي يبقى في مكان آخر. علينا أن نسأل إن كان يحتمل نجاح الإسبرنتو استناداً إلى ما علمتنا إياه دراسة تاريخ اللغات. بكلمةٍ أخرى، علينا أن نحلل هذا المشروع من وجهة نظر لسانية اجتماعية.

1 ـ رأينا في هذا الكتاب من أوله إلى آخره (انظر على وجه الخصوص الفصل الثامن منه) أن انتشار لغة من اللغات في الزمان وفي المكان إنما هو تعبير عن انتشار من نوع آخر: عسكري أو اقتصادي أو ديني أو ثقافي أو غير ذلك، وأنه يعبِّر بالنتيجة عن حركة اجتماعية أكثر عمقاً.

ولنا أن نسأل إذاً: عن أي حركة اجتماعية عميقة تعبِّر لغة الإسبرنتو (أو أي لغة مصطنعة أخرى)؟

كتبنا في مقدِّمة هذا الكتاب أن تاريخ اللغات يشكِّل الوجه اللساني لتاريخ المجتمعات، وأن لغةً تتقدّم على أرض الواقع إنما هي أَمارة على أن جماعةً إنسانيةً هي الناطقون بهذه اللغة، تتقدم على أرض الواقع. غير أن جماعة الناطقين بالإسبرنتو تطرح بهذه الصفة مشكلةً نظريةً لأنها جماعة مشتتة، لأنها «دياسبورا». وليس أمامنا أي مثال من التاريخ يشهد على أن جماعةً مشتتةً «دياسبورا» نجحت في فرض لغتها. إن المثال الوحيد الذي يمكن أن نفكر فيه

هو إحياء اللغة العبرية. غير أن هذا الأمر اقتضى قيام إسرائيل. ولنا أن نتساءل إن كانت لغة بلا أرض تكون مهداً لها، قابلةً للحياة.

2 ـ يبدو مشروع الإسبرنتو إذاً مشروعاً غير قابل للتحقيق على الصعيد النظري أو على الأقل، مشروعاً ليس له ما يشبهه في التاريخ. ولكن هذا الأمر ليس كافياً لإسقاط مؤهِّلاته. وإنما الأخطر عليه هو نتيجة جميع الدراسات التي أجريت حول طريقة إدارة الجماعات الإنسانية للتعدد اللغوي. وقد قابلنا مرات عديدة بين مقاربتين متناقضتين للموضوع: إحداهما على الأرض، أي في الجسم الحي، والثانية في بيئة مصطنعة، أي في المختبر. ومن الواضح أن لغة الإسبرنتو تنتمي إلى المقاربة الثانية، وأنه في كل مرة يطرح فيها موضوع التواصل فلن تبحث الممارسة الاجتماعية عن الحل من جهة الإسبرنتو. رأينا في الباب الثاني من هذا الكتاب كيف تطورت اللغات الناشرة، وكيف يمكن التواصل في الأسواق رغم التعدد اللغوي، وكيف قد تؤشر ممارسة التبادل التجاري إلى ما قد يكون عليه الوضع اللغوي غداً لأن السوق هو الذي يكشف عن حركات النشر اللغوية الكبرى.

لغة الإسبرنتو غائبة عن هذا كله. وهذا أمر طبيعي لأنها تنتمي إلى منطق مغاير. غير أن التحليل اللساني الاجتماعي الهادئ للوضع لا يمكن أن يقودنا إلا إلى نتيجة واحدة: إن حلاًّ يتبنى المسالمة والمثاليَّة في حرب اللغات قليل الحظ في النجاح. يمكن لنا أن نأسف لذلك، إلا أن مشاعر الأشخاص لا قيمة لها في هذا المجال. وصورة زامينهوف شبيهة بصورة جان جورس (Jean Jaurès) المناضل الذي لا يتعب من أجل السلام على أبواب الحرب العالمية الأولى.

الخاتمة

العالم المتعدد اللغات منذ بداياته ساحة لصراع سيميٍّ محتدم بسبب هذا التعدد اللغوي، وساحة للتوتر الدائم بين ما هو منحصر وما هو منتشر، بين لغة المنزل ولغة الغذاء، بين لغات السلطة ولغات الأقلية. هذا التوتر واحد من محركات التاريخ، وتتغير اللغات كما يتغير العالم، إذ يشهد تطور العلاقات المتبادلة بين اللغات على تطور المجتمعات. لقد التقينا بـ «حرب اللغات» هذه في ساحات المعارك المختلفة من الأسرة، إلى السوق، إلى الدروب التي سلكتها اللغات المنتشرة في تطورها. غير أننا رأينا أن هذه الحرب قد خيضت أيضاً على مستوى آخر، لم يخضها فيه المتكلمون باللغة بل خاضها قوادهم، ولم تخض على الدروب الفاصلة بين حدود الدول، بل داخل الحدود الصارمة للدول؛ فالحرب دائماً شأن من شؤون الدولة.

كتب كلود حجاج (Claude Hagège): «إن نجح رجل الدولة في الإشراف على مسار اللغة في إحدى مراحلها الحاسمة، فإنه يضيف إلى سلطته سلطةً أخرى، سلطةً مجهولةً فاعلةً»[1]. ويتابع

(1) Claude Hagège, *L'Homme de paroles: Contribution linguistique aux sciences humaines* ([Paris]: Fayard, 1985), p. 203.

قائلاً: «كل سياسة لغوية إنما هي في خدمة السلطة، بقصد أو بغير قصد، لأنها تعزز واحداً من أبرز القواعد إخلاصاً لها». ويبدو السؤال الآتي في عنوان مقالة لـ غلين ويليامز (GlynWilliams): «تخطيط للغة أم استلاب للغة؟»[2]، يبدو صدى لما قاله كلود حجاج. يلخص هذان الاستشهادان تلخيصاً جيداً السؤال المطروح علينا في نهاية هذا الكتاب.

يمكن أن يعد التخطيط اللغوي واحدةً من التقنيات التي أعدَّها المختصون في اللسانيات الاجتماعية. وهي تقنية يمكن أن تقسم إلى مجالين كبيرين: **التدخل في اللغة** (أو العمل الداخلي)، **والتدخل في اللغات** (أو العمل الخارجي). ويمكن لكل واحد من هذين المجالين أن ينقسم بدوره إلى أقسام فرعية (التوليد المعجمي، والكتابة، وتوحيد الأشكال اللهجية ... إلخ). ويعَد التخطيط، بما هو تقنية، جزءاً من عمل اللساني، بل هو يشكل الحقل الذي يكون فيه تدخل اللساني أعمق أثراً في مستقبل مجتمعاتنا؛ فقدر اللغات قدر المتكلمين بها. غير أننا رأينا في مختلف هذه المجالات أيضاً أن التدخل في اللغة أو في اللغات قد يكون في بعض الأحيان عملاً قسرياً، لأن كل **تخطيط** يقتضي **سياسة**، أي سياسة سلطة حاكمة. وبذلك يجد اللساني نفسه أمام مسألةٍ خُلقية: فهو إذ يتدخل في اللغة فلن يكون بمنأى عن لعبة السلطة.

تتدخل السلطة، سلطة الدولة، فيما سميناه البحث عن الحل «في المختبر» أو «في بيئة مصطنعة». وتنبع من الممارسة الاجتماعية

---

(2) G. Williams, «Language Planning or Language Expropriation.» وهي مقالة سوف تُنشَرُ في *Journal of Multilingual and Multicultural Development*.

في مواجهة هذا الحل البيروقراطي حلول «في الجسم الحي» أو «في أرض الواقع». لقد ألححنا كثيراً على أن تاريخ اللغات يشكل الجانب اللغوي من تاريخ المجتمعات حتى لم يعد ممكناً اعتبار هذه الحرب مجرَّد حرب بذاتها؛ فالصراعات اللغوية تحكي لنا حكاية الصراعات الاجتماعية، والإمبرياليات اللغوية دائماً علامات لإمبرياليات أخر. وخلف حرب اللغات حرب أخرى قد تكون اقتصادية أو ثقافية (وقد رأينا عدداً من الأمثلة التوضيحية على ذلك في دراستنا للنماذج). وليس العكس صحيحاً بالضرورة، فالاقتصاد الياباني مثلاً يغرِق السوق العالمي بمنتجاته دون أن تتبع اللغة اليابانية هذه الحركة الاقتصادية.

يقوم «المخطط اللغوي»، شاء أم أبى، بدور في هذه الصراعات والإمبرياليات. ويمكن أن نتصور قيام أقطاب معارضة في الجسم الحي، أي على الأرض، في مواجهة السلطة التي تتدخل في المختبر، أي في بيئة مصطنعة: وتقدم لنا الحرب على أرض الواقع أمثلةً على هذا الأمر في كل يوم. غير أن اللساني غالباً ما يكون على المقلب الآخر، في جهة السلطة، حتى حين يعتبر نفسه مجرد تقني أو مجرد مستشار؛ فموظفو اللغة كغيرهم من الموظفين، يمكن أن يصيروا عبيداً للدولة إن لم يتنبهوا. لقد بينّا المفارقة العلمية التي يثيرها هذا الوضع، إذ إن اللساني المتورط في عملية تخطيط لغوي يتدخل في لغة يعرف أن لها حياتها الخاصة واستقلالها الذاتي. ويعرف اللساني أيضاً أن هذه الحياة الخاصة للغة إنما هي نتاج عمل المتكلمين بها، ونتاج ممارستهم الاجتماعية، ويعرف أن التدخل الذي يخطط يميل إلى أن ينتزع اللغة من يد أصحابها، فكل عملية تخطيط إنما يقوم بها حفنة من المخططين المالكين لكل أشكال السلطة على شعب مخطط له.

لا يعني هذا القول بتاتاً أنه ينبغي أن يترَك للسلطة أمر إدارة هذه المسائل، بل العكس هو الصحيح. لئن كانت الحرب متابعةً للسياسة بوسائل أخرى، فإن السياسة اللغوية هي الوجه المدني لحرب اللغات. حين تسقط الأوهام المسالمة لا يبقى أمام اللساني في ممارسته لمهنته إلا أن يكون له تصرف المواطن، وأن يمارس على هذه السياسة رقابةً ديموقراطيةً في كل لحظة.

الثبت التعريفي

تأثيل (Etymologie): علم يبحث في إعادة الكلمات إلى الأصول التي أُخذت منها.

تأثيل شعبي (Etymologie populaire): تأثيل شائع عند العامة يعيد الكلمات إلى أصول ليست أصولَها الحقيقية اعتماداً على شبهٍ ظاهري بينها، ومثاله في العربية إعادة بعضهم اسم «شكسبير» إلى أصل عربي، وقولهم إنه مأخوذ من «شيخ زبير» (انظر: **تأثيل**).

أسّ (Radical): الأصل الذي تبنى عليه الكلمة في اللغات الإلصاقية كاللغة الفرنسية، والجزء المشترك بين جميع الكلمات المبنية على أسٍّ واحد، وهو مكون من متوالية من الصوامت والصوائت قد تضاف إليها السوابق في أولها، واللواحق في آخرها بخلاف **الجذر** في العربية (انظر **جذر**).

استبدال (Remplacement): هو حلول لغة محل لغة أخرى. وهو نوعان: **استبدال بالتناوب** و**استبدال بالامتصاص**.

استبدال بالتناوب (Remplacement alternatif): استبدال لغة بأخرى يمكن أن يكون استبدالاً **بالتناوب** حين تتغير اللغة في جيل من الأجيال، كأن يتحدث ابن لغة البُل أو ابن لغة السيرير بلغة

الوُلُف في السنغال (انظر: **استبدال بالامتصاص**).

استبدال بالامتصاص = استبدال مستمر (Remplacement par absorption/ Remplacement continu): استبدال لغة بأخرى يمكن أن يكون استبدالاً **مستمراً** حين تذوب لغة من اللغات المغلوبة بعد عملية طويلة بطيئة في لغة غالبة. ويُسمى هذا النوع من الاستبدال المستمر استبدالاً **بالامتصاص** (انظر: **استبدال بالتناوب**).

بربرة (Barbarisme): العيب الذي يقع في كلمة من الكلام. وأصحاب البربرة في الأصل هم الذين كان الإغريق يقولون عنهم إنهم برابرة، أي جميع الذين يتحدثون بلغة غير الإغريقية. وقد حاول الإسبان فيما بعد أن يلحقوا لغتهم بالإغريقية واللاتينية، فقالوا إنه يمكن أن نسمي «برابرة» جميع الغرباء عن اللغة الإسبانية باستثناء اللاتين والإغريق.

بلبلة (Babélisation): تفرُّق اللغة الواحدة إلى لغات متعددة في رقعة جغرافية معينة. وهذا المصطلح اللغوي شبيه بمصطلح البلقنة في السياسة، أي تجزئة الدولة إلى دويلات متعددة.

ثنائية لغوية (Bilinguisme): وهي قدرة الفرد على استخدام لغتين. وهي مما يدخل في باب اللسانيات النفسية. وهذه الثنائية ثنائية لغوية فردية، أي هي ثنائية عند الفرد الواحد (انظر: **ازدواجية لغوية**).

جذر (Racine): هو الأصل الذي تبنى عليه الكلمة في اللغات التي تعتمد على الاشتقاق الداخلي كاللغة العربية، والجزء المشترك بين جميع الكلمات المبنية على جذر واحد. وهو يتكون من حروف صوامت (انظر: **أسّ**).

حرب اللغات (Guerre des langues): هي الصراع ما بين اللغات بشقَّيه الداخلي والخارجي أي في الشق المتعلق بالنظام

الداخلي للغة وببنيتها وبتطورها، وفي الشق الخارجي منها في علاقتها بغيرها. وهذه الحرب حرب بالمعنى المجازي حيناً، وحرب بالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان.

[حرب] في الجسم الحي/ في الميدان ([Guerre des langues] in vivo): هي الحرب التي يخوضها المتكلمون، فتنعكس صراعاتهم عبر اللغة (عكسها: **[حرب] في بيئة مصطنعة/ في المختبر**).

[حرب] في بيئة مصطنعة/ في المختبر ([Guerre des langues] in vitro): هي الحرب اللغوية التي يمسك بخيوطها أصحاب التخطيط اللغوي ولجان المصطلحات (عكسها: **[حرب] في الجسم الحي/ في الميدان**).

تخطيط لغوي (Planification linguistique): هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسةٍ لغوية وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ؛ فاتخاذ قرار بفعل كذا وكذا يشكِل خياراً في السياسة اللغوية كقرار تعريب التعليم على سبيل المثال. أما احتمال وضْعِه موضع التنفيذ على ساحة معينة فيشكِّل تخطيطاً لغوياً (انظر: **سياسة لغوية**).

تدخُّلٌ في اللغات (Action sur les langues): هو تدخل يقوم به أصحاب السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي بهدف التأثير في العلاقة ما بين اللغات المختلفة في أوضاع التعدد اللغوي، كما هو الحال في اختيار واحدة من اللغات لتكون اللغة الوطنية، أو في اختيار لغة التعليم، واختيار لغة وسائل الإعلام. . . إلخ. (عكسه: **تدخل في اللغة الواحدة**).

تدخُّلٌ في اللغة الواحدة (Action sur la langue): هو تدخل في لغة واحدة من اللغات يقوم به أصحاب السياسة اللغوية والتخطيط

اللغوي بهدف التأثير في خطها ومعجمها ولهجاتها وفي تقييسها (عكسه: **تدخُّلٌ في اللغات**).

رومنة (Romanisation): استخدام حروف الأبجدية اللاتينية محلَّ الحروف الأخرى، ومثاله محاولة إصلاح الخط في الصين باعتماد الحروف اللاتينية المعدَّلة لتحل محل الحرف الصيني التقليدي.

ازدواجية لغوية (Diglossie): هي العلاقة الثابتة بين ضربين لغويين بديلين ينتميان إلى أصل جيني واحد: أحدهما راقٍ والآخر وضيع، كالعربية الفصحى والعاميات، وكالإغريقية الشعبية الحديثة والإغريقية «المهذَّبة الصافية» (انظر: **ثنائية لغوية؛ ازدواجية متداخلة**).

ازدواجية متداخلة (Diglossie enchâssée): هي ازدواجيات يتداخل بعضها في بعض، وهو مما نراه كثيراً في البلدان التي تخلصت من الاستعمار منذ فترة قريبة، ففي تانزانيا على سبيل المثال، كانت هناك ازدواجية في المرحلة الأولى بين اللغة الموروثة عن الاستعمار، وهي الإنجليزية، واللغة الوطنية، وهي اللغة السواحلية، وهناك في مرحلة ثانية ازدواجية بين هذه اللغة السواحلية التي ليست اللغة الأم إلا لأقلية من السكان، واللغات الأفريقية الأخرى. والوضع نفسه قائم في مالي (حيث تتداخل الفرنسية مع البامبارا ومع اللغات الأفريقية الأخرى)، وفي السنغال (حيث تتداخل الفرنسية مع الوُلُف واللغات الأفريقية الأخرى)... إلخ. (انظر: **ازدواجية لغوية**).

سياسة لغوية (Politique linguistique): هي مجمل الخيارات الواعية المتَّخذَة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن. واتخاذ قرار بتعريب التعليم

في المرحلة الجامعية يشكل خياراً في السياسة اللغوية. أما احتمال وضْعِه موضع التنفيذ في هذا البلد أو في ذاك فيشكِّل تخطيطاً لغوياً (انظر: **تخطيط لغوي**).

سياسة لغوية بالوكالة (Politique linguistique par délégation): هي السياسة التي يقوم بها في داخل الدولة، وباسم الدولة، عنصرٌ من خارجها، وهي تقضي بأن تترك الدولة لهذا العنصر أمر القيام بما قد لا تريد القيام به، أو بما قد لا تجرؤ على القيام به بنفسها، ومثالها ما يقوم به المعهد اللغوي الصيفي الأمريكي في مراكزه المنتشرة في بلدان العالم المختلفة.

تعددية لغوية (Plurilinguisme): هي قدرة الفرد على استخدام أكثر من لغتين. وهي أنواع:

1 ـ تعددية لغوية ذات لغة وحيدة غالبة (Plurilinguisme à langue dominante unique): تتميز بوجود عدد من اللغات المتواجهة في رقعة جغرافية ما، تكون واحدةٌ منها لغةً غالبة إلى حد كبير، وليس عنها من بديل. مثالها الفرنسية في فرنسا؛ إذ لا يوجد على التراب الفرنسي الآن لغةٌ يمكن أن تحلَّ محلَّ الفرنسية مع أنه يمكن أن نحصي على التراب الفرنسي ما يربو على ثلاثين من لغات الأقليات التي تظهر هنا أو هناك على شكل ازدواجية بالمعنى الحقيقي للكلمة (كورسيكا وكاتالونيا والألزاس . . .)، أو على شكل لغة للمهاجرين كالعربية والأرمنية والبولونية. وتواجه هذه اللغات لغةً غالبةً هي لغة الدولة التي يتكلم بها السواد الأعظم من السكان. وليس هذا الصنف من أحادية اللغة في شيء؛ ولكنه ليس قائماً في المقابل، على مواجهةٍ بين لغتين يمكن أن تأخذ إحداهما وظائف الأخرى.

2 ـ تعددية لغوية ذات لغة واحدة أقلية (Plurilinguisme à langue dominante minoritaire): تعددية تكون فيها اللغة الغالبة من وجهة النظر الإحصائية لغةً مغلوبة من وجهة النظر السياسية والثقافية، لأنها ليست ممثَّلةً في بنية الدولة. مثال هذه التعددية الوضع في السنغال، حيث لغة (الوُلُف) لغةٌ غالبة من وجهة النظر الإحصائية، ولكنها لغةٌ مغلوبة من وجهة النظر السياسية الثقافية، لأنها ليست مستخدمة في دوائر الدولة، وكذلك الحال بالنسبة إلى اللغة (البامبارا) في مالي.

3 ـ تعددية لغوية ذات لغات غالبة أقلية (Plurilinguisme à langues dominantes minoritaires): تعددية تكون فيها اللغات الغالبة من وجهة النظر الإحصائية لغاتٍ مغلوبة من وجهة النظر السياسية والثقافية، لأنها ليست ممثَّلةً في بنية الدولة. مثال هذه التعددية الوضعُ في المغرب، حيث العامية المغربية والبربرية غالبتان من وجهة النظر الإحصائية، ومغلوبتان من وجهة النظر السياسية الثقافية، لأنهما ليستا مستخدمتين في دوائر الدولة (هذا التعريف قائم على أن المغربية لغة قائمة بذاتها، وإن كانت متحدرة من العربية؛ فإن بطل هذا الاعتبار صار هذا النموذج شبيها بالنموذج الذي سبق الحديث عنه في السنغال ومالي).

4 ـ تعددية لغوية ذات لغة غالبة بديلة (plurilinguisme à langue dominante alternative): تعددية يمكن فيها للغة الغالبة إحصائياً، المغلوبة ثقافياً وسياسياً، أن تحل محل اللغة الغالبة، وتأخذ وظائفها السياسية لتصبح لغة الدولة. مثال هذا الوضع المقاطعات الفرنسية في ما وراء البحار كـ (المارتينيك) و(الغوادلوب) التي يمكن للُغات المزيج فيها أن تحل محل الفرنسية لغة رسمية.

5 ـ تعددية لغوية ذات لغات غالبة إقليمية (Plurilinguisme à

langues dominantes régionales): تعددية تتعايش فيها لغات رسمية متعددة في داخل الدولة الواحدة، ويكون لكل لغة من هذه اللغات رقعة تكون فيها لغةً غالبة. مثال هذا الوضع سويسرا التي جعلت الفرنسية والألمانية والإيطالية لغات رسمية فيها، وبلجيكا التي تتصارع فيها الفرنسية مع الفلمنكية أو مع الألمانية.

علم إحاثة اللسان (Paléontologie du langage): هو العلم الذي يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثِّلها المتحجِّرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية.

غياب اللغة (Disparition de la langue): هو موت اللغة، ويكون **غياباً بالاستبدال**، أو **غياباً بالتحول**، أو **غياباً بالانقراض**.

غياب بالاستبدال (Disparition par remplacement): هو غياب لغةٍ تستبدَل بها لغةٌ أخرى، ويحدُث في كلِّ مرةٍ تغيب فيها لغة مغلوبة تهيمن عليها لغة غالبة (انظر: **غياب بالتحوُّل**، و**غياب بالانقراض**).

غياب بالتحوُّل (Disparition par transformation): هو غياب لغةٍ بتحوُّلها إلى شكل آخر أو إلى أشكال أخرى، ويحدث هذا النوعُ من الغياب في كل مرة يتطور فيها الشكل اللغوي، ويتمايز جغرافيا في أثناء توسُّع الشعب الذي يتحدث به ليولِّد عائلةً من اللغات، كما هو الحال في اللاتينية المتحولة إلى لغات رومانية، وكما هو حال اللغة الهندية ـ الأوروبية التي غابت بالتحوُّل في فترة زمنية أطول بكثير. ومن هذا النموذج عند المؤلف العربيةُ الفصحى، التي تحولت في فترة قصيرة من الزمان إلى عدد من «اللهجات» الحديثة (انظر: **غياب بالاستبدال** و**غياب بالانقراض**).

غياب بالانقراض (Disparition par extinction): هو غياب لغةٍ

لا تحل محلها لغة أخرى. ويكون هذا النوع من الغياب حين يموت آخر المتخاطبين بلغةٍ من اللغات دون أن يترك عقِباً يخلفه. مثال ذلك لغة «التِتْ» (tete) التي لم يكن يتكلم بها في بداية الثمانينيات في أمازونيا المدارية، في مقاطعة نابّو (Napo)، سوى شيخ هرِم مع زوجه العجوز. ولم يكن ممكناً إلا أن تنقرض هذه اللغة بموتهما. هذا الغياب بالانقراض الذي ينتُج عن غياب جماعة من المتخاطبين، لا يحدث لمصلحة لغةٍ أخرى بالتحول أو بالاستبدال (انظر: **غياب بالاستبدال** و**غياب بالتحوُّل**).

اقتراض عفوي (Emprunt spontané): هو اللفظ الذي يقترضه أبناء اللغة من لغة أخرى، حين يجدون أنفسهم في مواجهة واقع أو ممارسةٍ ليس لها اسمٌ في لغتهم، كما هو الحال في مثل مصطلحات (فونيم) و(فونولوجيا) وغيرها التي اقترضتها العربية في مجال علم اللسان، بعدَ إجراء التكييف الصوتي الذي تفرضُه اللغة. وقد يؤدي ذلك أحياناً إلى ظهور أصوات جديدة في اللغة المقترِضة (عكسه: **اقتراض مبرمج**).

اقتراض مبرمج (Emprunt programmé): هو اللفظ الذي تقترضه من لغة أخرى جماعةٌ من اللسانيين أو لجنة مصطلحية، كما هو حال كلمة **زَرَّة** في لغة مالي، التي اقترضتْها اللجنة من الكلمة العربية **ذَرَّة**. (عكسه: **اقتراض عفوي**).

لسانيات اجتماعية (Socio-linguistique): هي فرع من فروع اللسانيات يهتم بالعلاقة ما بين اللغة والمجتمع، وبالأسباب والظروف الاجتماعية التي تحيط بالحدث اللغوي (انظر: **لسانيات رخوة**، **لسانيات الشَّرْطة**).

لسانيات القول/ الكلام (Linguistique de la parole): هي فرع

من فروع اللسانيات يهتم بالخطاب المنجَز، أي بكلام الفرد وأقواله، وبتحقُّق اللغة في الخطاب.

لسانيات اللغة (Linguistique de la langue): هي اللسانيات التي تهتم باللغة بما هي نظام وقواعد عامة تلتزم بها الجماعة اللغوية (= **لسانيات صلبة**).

لسانيات رخوة **(Linguistique molle)**: هي فروع اللسانيات التي لا تهتم بدراسة اللغة بما هي نظام من الأنظمة، بل بالخطاب الذي ينجزه المتكلمون باللغة. ومن فروعها اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية... إلخ. (= **لسانيات الشَّرْطة**. عكسها: **لسانيات صلبة**).

لسانيات الشَّرْطة (Linguistique des traits d'union): هي اللسانيات الرخوة، ويقال لها لسانيات الشَّرطة، لأن شَرْطةً تفصل في الخط بين الكلمتين اللتين يتشكل منهما المصطلح كـ (اللسانيات الاجتماعية) و(اللسانيات النفسية) وغيرها؛ إذ تفصل شَرطةٌ في الخط بين كلمة (لسانيات) وكلمة (اجتماعية)، فيُكتب في الفرنسية مثلاً: Socio-Linguistique.

لسانيات صلبة (Linguistique dure): هي اللسانيات التي تهتم بدراسة أنظمة اللغة المختلفة كالنحو والصرف والأصوات. وبعضهم يعتبر أنها هي اللسانيات (عكسها: **اللسانيات الرخوة**).

لغةُ حصر= لغةٌ حاصرة = لغة القطيع (Langue grégaire): هي اللغة المحصورة بين عدد محدود من الناس، وهي تستعمل لحاجات التواصل المحدود (عكسها **لغة ناشرة/ لغة نشر**).

لغةُ خليط (Pidgin): هي لغة تأخذ نحوها من لغةٍ ومفرداتها من لغةٍ أخرى، وهي ثمرة من ثمرات الاحتكاك بين المتخاطبين من أبناء اللغات المختلفة، حين يكونون في وضعٍ تُطرح فيه مشكلة

التواصل. هكذا نشأت اللغة **الإنجليزية الخليط** التي أعطت اسمها لهذا النوع، من لقاء الإنجليزية والصينية في وضع التبادل التجاري على وجه الخصوص: قاعدةٌ نحوية صينية، ومفرداتٌ إنجليزية يُنطَق بها على الطريقة الصينية. وكلمة (بِيدْجين (Pidgin)) نفسُها التي تعني «اللغة الخليط»، تحريف لكلمة (بِزنِس) الإنجليزية مما يدل على الوظيفة الأصلية للُّغةِ الخليط (انظر: **لغة مزيج**).

لغة دُنيا (Langue inférieure): هي لغة يُنظَر إليها على أنها أدنى منزلة من غيرها من الناحية الثقافية والاجتماعية والسياسية (= **لغة وضيعة**؛ عكسها: **لغة عليا/ لغة راقية**).

لغة دولية (Langue internationale): لغة نشْر تتجاوز الحدود القائمة بين الدول. ويرى المؤلِّف في التمييز بين **لغةِ نشرٍ ولغة دولية** أثراً إضافياً من آثار التعصُّب العرقي في اللسانيات، إذ يقال إن الأمم الأوروبية تتواصل فيما بينها بلغات دولية، بينما تتواصل بلدان العالم الثالث بلغات ناشرة.

لغة رسمية (Langue officielle): هي لغة إدارة الدولة، ولغة المدرسة، ولغة وسائل الإعلام. مثالها العربية التي هي اللغة الرسمية في بلدان العالم العربي.

لغة مصطنعة/ اصطناعية (Langue artificielle): لغة لا تنشأ عن التخاطب العادي بين الناس، بل يضع شخص أو جماعة بصورة قصدية واعية نحوَها وصرفَها ومفردات معجمها. وقد ابتُدِع أكثر من مئة لغة مصطنعة في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، من أشهرها لغة الأسبِرَنْتو (عكسها: **لغة طبيعية**).

لغة عالَمية (Langue universelle): لغة نشر يُفترض أن تكون عامة بين بني البشر، وتسعى اللغات الاصطناعية كالإسبرنتو إلى أن تكون لغات عالَمية.

لغة عُليا (Langue supérieure): هي لغةٌ يُنظر إليها على أنها أعلى منزلة من غيرها (= **لغة راقية**؛ عكسها: **لغة دنيا/ لغة وضيعة**).

لغة غالبة (Langue dominante): هي لغة تتفوق على غيرها في رقعة من الأرض، إما من وجهة النظر الإحصائية حين يكون عدد المتكلمين بها أكثر من عدد المتكلمين باللغات الأخرى، وإما من وجهة النظر الثقافية والسياسية، حين تكون لغة الثقافة والإدارة والسلطة السياسية، وإما من وجهتي النظر معاً. مثال اللغة الغالبة إحصائياً لغة (الوُلُف) في السنغال، ومثال اللغة الغالبة ثقافياً وسياسياً اللغةُ الفرنسية في السنغال، فهي لغة الإدارة والسياسة مع أنها ليست أوسع انتشاراً من الوُلُف. ومثال اللغة الغالبة من وجهتي النظر معاً الفرنسيةُ في فرنسا، فهي **لغة غالبة** من وجهتي نظر مختلفتين: من وجهة نظرٍ إحصائيةٍ أوَّلاً (لأن الفرنسية أعلى من اللغات الأخرى عدد متكلمين بها)، ومن وجهة نظر سياسية اجتماعية ثانياً (لأن الفرنسية لغة السلطة السياسية والثقافية) (عكسها: **لغة مغلوبة**).

لغة مغلوبة (Langue dominée): هي لغة تتفوق عليها لغةٌ أخرى في رقعة من الأرض، إما من وجهة النظر الإحصائية كما هو حال الفرنسية في السنغال، وإما من وجهة النظر الثقافية والسياسية كما هو حال (الوُلُف) في السنغال لأنها ليست لغة السياسة، وإما من وجهتي النظر هاتين كما هو حال البربرية في تونس (عكسها: **لغة غالبة**).

لغة مزيج (Créole): لغة مختلطة نتجت عن اتصال إحدى اللغات: الفرنسية أو الإسبانية أو البرتغالية أو الإنجليزية أو الهولندية بلغة محلية، فأصبحت لغة أُمّاً لجماعة من الناس. مثالها اللغة المزيج في هايتي وفي المقاطعات الفرنسية الواقعة في ما وراء البحار، مثل المارتينيك والغوادلوب (انظر: **لغة خليط**).

لغة نشر= لغة ناشرة (Langue véhiculaire): هي اللغة المستخدمة في التواصل بين الجماعات المختلفة التي تلجأ إلى لغة مشتركة تتجاوز اللغة الحاصرة لكل واحدة منها (عكسها: **لغة حصْر/ لغة القطيع**). وقد تكون اللغة الواحدة لغةَ نشر باعتبار، ولغةَ حصْر باعتبار آخر؛ فالفرنسية مثلاً لغة نشر في فرنسا في مقابل لغات حَصْر كثيرة، ولكنها قد تكون لغةَ حصر للفرنسيين المقيمين في بلد عربي، أو للفرنسيين المهاجرين إلى بلد آخر ليست الفرنسية لغتَه. وفي قاموس **روبير** أن لغة النشر «لغةٌ تستخدم للتواصل بين شعوبٍ لكلٍّ واحدٍ منها لغةٌ أمٌّ مختلفةٌ عن لغة الآخر».

لغة وطنية (Langue nationale): هي لغةٌ تعترف بها الدولة لغةً لمواطنيها، ولكنها ليست بالضرورة اللغة الرسمية للدولة، فالفرنسية هي اللغة الرسمية في غينيا التي فيها ثماني لغات وطنية، والبربرية لغة وطنية ولكنها ليست لغة رسمية في الجزائر. أما العربية، فلغة وطنية ولغة رسمية.

اللفظُ المولَّدُ العفوي (Néologisme spontané): هو اللفظ الذي يبتدعه أبناء اللغة استجابةً لحاجات التواصل اعتماداً على البنى اللغوية بالاشتقاق أو بالتركيب. مثال هذا في الفرنسية «**السكة الحديدية**» (chemin de fer) (عكسه: **لفظ مولد مبرمج**).

لفظُ مولَّد مبرمَج (Néologisme programmé): هو اللفظ الذي يبتدعه اعتماداً على البنى اللغوية جماعةٌ من اللسانيين، أو لجنة مصطلحية لتسمية ما لم يكن له اسم، أو ما كان له اسم مقترض من لغة أخرى. مثال هذا (remue-méninges) التي وُلِّدت في الفرنسية لتحل محل اللفظة الإنجليزية (Brain-Storming) لتسمية مفهوم: «البحث عن الأفكار المبتكرة» (عكسه: **لفظ مولد عفوي**).

ثبت المصطلحات

أبجدية	أبجدية	Alphabet
ء ث ل	تأثيل	Etymologie
	تأثيلي	Etymologique
	تأثيل شعبي	Etymologie populaire
ء د و	أدوات	Mots grammaticaux
ء ر خ	تاريخ لغوي	Histoire linguistique
ء س ر	أسرة لغات	Famille de langues
ء س س	أُسّ	Radical
ء ص ل	أصل اللغة	Origine de la langue
ء م ر	أمارة	Indice
ء م م	لغةٌ أم	Langue maternelle
	لغةٌ أم	Langue mère
	أمّيّة	Analphabétisme
	محو الأميّة	Alphabétisation
	محو الأميّة الوظيفي	Alphabétisation fonctionnelle
ب د ع	إبداع معجمي	Néologie lexicale/ Créativité lexicale

Variante	بديل	ب د ل
Variante phonétique	بديل صوتي	
Variante normative	بديل معياري	
Variété dialectale	بديل لهجي	
Variété	ضربٌ بديل	
Remplacement continu	استبدال مستمر	
Remplacement par absorption	استبدال بالامتصاص	
Remplacement alternatif	استبدال بالتناوب	
Barbarisme	برْبَرة	ب ر ب ر
Emprunt programmé	اقتراض مبرمَج	ب ر م ج
Néologisme programmé	توليد مبرمج	
Babélisation	بلبلة	ب ل ب ل
Langue fille	لغة بنت	ب ن ت
Structure	بِنية	ب ن ي
Structuralisme	بنيوية	
Bourse aux langues	بورصة لغات	بورصة
Mimique	تمتمة	ت م ت م
Bilinguisme	ثنائية لغوية	ث ن ي
Révolution culturelle	ثورة ثقافية	ث و ر
Nomenclature	جداول تسميات	جدول
Racine	جذر	ج ذ ر
Groupe linguistique	جماعة لغوية	ج م ع
Société	مجتمع	
Phrase	جملة	ج م ل

	جملة صغرى	Proposition
ح ب س	حُبسة	Aphasie
ح د ث	حدَث اجتماعي	Fait social
	حدث إحصائي	Fait statistique
	حدث لساني	Fait linguistique
ح د د	حدود لغوية	Frontières linguistiques
ح ر ب	حرب اللغات	Guerre des langues
	[حرب] في الجسم الحي (= (في) الميدان)	in vivo
	[حرب] في بيئة مصطنَعة (= في المختبر)	in vitro
ح ر ف	حرفٌ مبسَّط	Caractère simplifié
	حرف مركَّب	Caractère composé
	حرفٌ صافِر	Sifflante
	حرفُ تَفَشٍّ	Chuintante
ح ص ر	حصْر / حاصر/ منحصر	Grégaire
	لغة حاصرة/ لغة حصر	Langue grégaire
ح ق ل	حقل التشتُّت	Champs de dispersion
ح و ر	محاوَرات	Interactions
ح ي ث	علم إحاثة اللسان	Paléontologie du langage
خ ب ر	(في) المختبر/ (= (في) بيئة مصطنَعة)	in vitro
خ ط ب	مخاطَب	Interlocuteur
خ ط ط	خط	Graphie
	فن الخط	Calligraphie
	تخطيط لغوي	Planification linguistique

خ ل ط	لغة خليط (= لغة مختلطة)	Pidgin
خ ل ف	إدارة الخلاف اللغوي	Gestion de la différence linguistique
د ر س	مدرسة وظيفية	Ecole fonctionnelle
	مدرسة توليدية	Ecole générative
د ل ل	دلالة	Signification
	دلالة ذاتية	Dénotation
	دلالة إيحائية (= معنى مصاحِب)	Connotation
	علم الدلالة	Sémantique
	علم الدلالة التوليدي	Sémantique générative
	دلالي	Sémantique
	حقل دلالي	Champs sémantique
	مدلول	Signifié
د و ر	إدارة التعدد اللغوي	Gestion du plurilinguisme
ر ب ط	ارتباط متبادَل	Corrélation
ر ج ع	مرجِع	Référence
ر س ل	رسالة	Message
	مسترسَل	Continium
ر ط ن	رطانة	Argot
ر ك ب	تراكيب	Combinaisons
ر م ز	رمز	Symbole
رومنة	رومنة	Romanisation
ز و ج	ازدواجية لغوية	Diglossie
	ازدواجية متداخلة	Diglossie enchâssée

Préfixe	سابقة	س ب ق
Style	أسلوب	س ل ب
Entrisme	تسلُّل	س ل ل
Nom commun	اسم جنس مشترَك	س م و
Onomatopées	أسماء الأصوات	
Nomination	تسمية	
Nomenclature	جداول تسميات	
Politique linguistique	سياسة لغوية	س و س
Politique linguistique par délégation	سياسة لغوية بالوكالة	
Sémiologie	سيمياء	س و م
Sémiologique	سيمي	
Registres	مستويات	س و ي
Champs de dispersion	حقل تشتت	ش ت ت
Langue commune	لغة مشترَكة	ش ر ك
Langue arabe commune	لغة عربية مشتركة	
Forme	شكل	ش ك ل
Forme linguistique	شكل لغوي	
Formalisation	شكلنة	
Code	شِفرة	ش ف ر
Dérivation	اشتقاق	ش ق ق
Dérivation interne	اشتقاق داخلي	
Déictiques	إشاريات	ش و ر
Conjugaison	تصريف	ص ر ف

Réforme linguistique	إصلاح لغوي	ص ل ح
Convention	اصطلاح	
Terme	مصطلح	
Vocabulaire de métiers	مصطلحات مهنية	
Terminologie	علم المصطلح	
Commission terminologique	لجنة مصطلحات	
Surdité verbale	صمم كلامي	ص م م
Langue artificielle	لغة مصطَنَعة/ اصطناعية	ص ن ع
Onomatopée	صوت محكي/ صوت يحاكي	ص و ت
Ouvert	صوت منفتح	
Accentué	صوت منبور	
Diphtongue	صوت انتقالي مزدوج مركب	
Variante phonétique	بديل صوتي	
Loi phonétique	قانون صوتي	
Phonème	وحدة صوتية (= صوتم = فونيم)	
Voyelle	صائت	
Phonème	صوْتَم (= وحدة صوتية = فونيم)	
Phonologie	صواتة (= علم وظائف الأصوات)	
Onomatopées	أسماء الأصوات	
Variété	ضرب بديل	ض ر ب
Variété haute	ضرب راق	
Variété basse	ضرب وضيع	
Agraphie	اضطراب الكتابة	
Contenu	مضمون	ض م ن

Expression orale/ Oralité	تعبير شفوي	ع ب ر
Arbitraire du signe	اعتباطية العلامة	ع ب ط
I'jaz al-Qur'an	إعجاز القرآن	ع ج ز
Lexique	معجم	ع ج م
Lexical	معجمي	
Créativité lexicale/ Néologie lexicale	توليد معجمي	
Plurilinguisme	تعددية لغوية	ع د د
Plurilinguisme éclatée	تعددية لغوية منفلِشة	
Plurilinguisme à langue dominante unique	تعددية لغوية ذات لغة وحيدة غالبة	
Plurilinguisme à langue dominante minoritaire	تعددية لغوية ذات لغة أقلية غالبة	
Plurilinguisme à langues dominantes minoritaires	تعددية لغوية ذات لغات أقلّيّة غالبة	
Plurilinguisme à langue dominante alternative	تعددية لغوية ذات لغة غالبة بديلة	
Plurilinguisme à langue dominantes régionales	تعددية لغوية ذات لغات إقليمية غالبة	
Arabe officiel	عربية رسمية	ع ر ب
Arabe contemporain	عربية معاصرة	
Arabe classique	عربية فصحى	
Arabe médian	عربية وسطى	
Déclinaison	إعراب	
Déclinaisons	لواحق الإعراب	

ع ف و	اقتراض عفوي	Emprunt spontanée
	توليد عفوي	Création spontanée
ع ل م	علم إحاثة اللسان	Paléontologie du langage
	علم الدلالة	Sémantique
	علم الدلالة التوليدي	Sémantique générative
	علم المصطلح	Terminologie
	علم الأصوات	Phonétique
	علم أعراض اندثار اللغات	Symptomatologie de la disparition des langues
	علم اللسانيات	Linguistique
	علم ما قبل التاريخ	Préhistoire
	علم وظائف الأصوات (= صِواتة)	Phonologie
	علامة إعرابية	Marque casuelle/ Désinence
	علامة لغوية	Signe linguistique
	علامة انتماء مقولي	Marque de classe
ع م م	عامية	Dialecte
ع م ي	عمى القراءة	Alexie
ع ن ي	معنى	Sens
	معنى مصاحِب (= دلالة إيحائية)	Connotation
ع ي ر	معيار	Norme
غ ل ب	لغة غالبة	Langue dominante
	لغة مغلوبة	Langue dominée
غ ن ن	غُنَّة (فيه)	Nasal
	صوت تسبقه غُنَّة	Son prénasalisé

غ ن ي	إغناء	Enrichissement
غ ي ب	غياب بالاستبدال	Disparition par remplacement
	غياب بالتحوُّل	Disparition par transformation
	غياب بالانقراض	Disparition par extinction
غ ي ر	تغيُّر	Variation
ف ر د	مفردات	Vocabulaire
ف ر س	افتراس اللغات	Glottophagie
ف ر ض	فرضية تاريخية	Hypothèse historique
ف ر ق	فروق جغرافية لغوية	Finesses géolinguistiques
فرنكوفونية	فرنكوفونية	Francophonie
	فرنكفونية متقطعة	Francophonie fragmentée
	فرنكفونية متصلة	Francophonie continue
فرنكلة	فرَنْكَلة	Franglais
ف ص ح	فصاحة	Pureté [du langage]
	عربية فصحى	Langue arabe pure / Arabe classique
	كلام فصيح	Langue standard
ف ع ل	فعل	Verbe
	فعل غير مصرَّف	Verbe à l'infinitif
	فاعل	Sujet
	مفعول	Objet
ف هـ م	مفهوم	Notion
ف ل ش	تعددية لغوية منفلِشة	Plurilinguisme éclatée
فونولوجية	مقابَلة فونولوجية	Opposition phonologique
فونيم	فونيم (= وحدة صوتية = صوتم)	Phonème

Dictionnaire	قاموس	**قاموس**
Opposition phonologique	مقابلة فونولوجية	**ق ب ل**
Comparatisme	منهج تقابُلي	
Alexie	عمى القراءة	**ق ر ء**
Approche linguistique	مقاربة لسانية	**ق ر ب**
Approche socio-linguistique	مقارَبة لسانية اجتماعية	
Emprunt	اقتراض	**ق ر ض**
Emprunt programmé	اقتراض مبرمَج	
Emprunt spontané	اقتراض عفوي	
Emprunt	مقترَض	
Enquête	استقصاء	**ق ص و**
Langue grégaire	لغة القطيع (= لغة الحصر)	**ق ط ع**
Syllabe	مقطع	
Noyautage	تقويض داخلي	**ق و ض**
Lois phonétiques	قوانين صوتية	**ق ن ن**
Rectitude/ justesse	استقامة	**ق و م**
Normalisation	تقييس	**ق ي س**
Ecriture	كتابة	**ك ت ب**
Agraphie	اضطراب الكتابة	
Acquisition de la langue	اكتساب اللغة	
Capacité de langage	كفاءة لسانية	**ك ف ء**
Mot	كلمة	**ك ل م**
Mot composé	كلمة مركبة	
Mot voyageur	كلمة مسافرة	

Mot voyageur	كلمة مهاجرة	
Parole	كلام	
Langue standard	كلام فصيح	
Surdité verbale	صمم كلامي	
Locuteur	متكلم	
Formation des maîtres	تكوين المعلمين	ك و ن
Adaptation linguistique	تكيُّف لغوي	ك ي ف
Commission terminologique	لجنة مصطلحات	ل ج ن
Suffixe	لاحقة	ل ح ق
Désinences	لواحق الإعراب	
Langage	لسان	ل س ن
Linguiste	لساني	
Linguistique	لساني	
Socio-linguistique	لساني اجتماعي	
Psycho-linguistique	لساني نفسي	
Linguistique historique	لسانيات تاريخية	
Socio-linguistique	لسانيات اجتماعية	
Linguistique de la parole	لسانيات الخطاب	
Linguistique molle	لسانيات رخوة	
Linguistique des traits d'union	لسانيات الشَّرطة	
Linguistique formelle	لسانيات شكلية	
Linguistique appliquée	لسانيات تطبيقية	
Linguistique de parole	لسانيات القول	
Linguistique de la langue	لسانيات اللغة	

Psycho-linguistique	لسانيات نفسية	
Linguistique descriptive	لسانيات وصفية	
Antilinguistique (voir molle et traits d'union)	ضد اللسانيات	
Sociolinguistique	علم اللسان الاجتماعي	
Paléontologie du langage	علم إحاثة اللسان	
Approche linguistique	مقاربة لسانية	
Capacité de langage	كفاءة لسانية	
Langage	الملَكة اللسانية	
Langue	لغة	ل غ و
Langue maternelle	لغة أم	
Langue mère	لغة أم (عكسها : لغةٌ بنت)	
Première langue	لغة أولى (انظر : لغة ثانية)	
Langue fille	لغة بنت (عكسها : لغةٌ أم)	
Langue seconde	لغة ثانية (انظر : لغة أولى)	
Langue disparue	لغة مندثرة (انظر : لغة ميتة)	
Langue officielle	لغة رسمية	
Langue supérieure	لغة راقية (عكسها : لغة وضيعة)	
Langue grégaire	لغة حضَر (عكسها : لغة نشر)	
Langue locale	لغة محلية	
Langue vivante	لغة حيّة (عكسها : لغة ميتة)	
Pidgin	لغة خليط	
Langue particulière	لغة خاصة (عكسها : لغة عامة)	
Langue inférieure	لغة دنيا (عكسها : لغة عليا)	

Langue internationale	لغة دولية
Langue commune	لغة مشتركة
Langue artificielle	لغة مصطنَعة/ اصطناعية
Langue universelle	لغة عالمية
Langue supérieure	لغة عليا (عكسها : لغة دُنيا)
Langue générale	لغة عامة (عكسها : لغة خاصة)
Langue dominante	لغة غالبة (عكسها : لغة مغلوبة)
Langue dominée	لغة مغلوبة (عكسها : لغة غالبة)
Langue minoritaire	لغة أقلية
Langue régionale	لغة إقليمية
Langue écrite	لغة مكتوبة
Créole	لغة مزيج
Langue morte	لغة ميتة (عكسها : لغة حية)
Langue véhiculaire	لغة نشْر/ (عكسها : لغة حصر)
Langue de communication	لغة تواصُل
Langue inférieure	لغة وضيعة (عكسها : لغة راقية)
Langue nationale	لغة وطنية
Famille de langues	أسرة لغات
Logothètes	مؤسّسو اللغات
Origine de la langue	أصل اللغة
Bilinguisme	ثنائية لغوية (قارن بـ الازدواجية اللغوية)
Groupe linguistique	جماعة لغوية
Frontières linguistiques	حدود لغوية
Guerre des langues	حرب اللغات

Planification linguistique	تخطيط لغوي (قارن بـ السياسة اللغوية)
Différence linguistique	اختلاف لغوي
Action sur la langue	تدخُّل في اللغة
Action sur les langues	تدخُّل في اللغات
Référence linguistique	مرجِع لغوي
Gestion de la différence linguistique	إدارة الاختلاف اللغوي
Gestion du plurilinguisme	إدارة التعدد اللغوي
Diglossie	ازدواجية لغوية (قارن بـ الثنائية اللغوية)
Politique linguistique	سياسة لغوية (قارن بـ التخطيط اللغوي)
Politique linguistique par délégation	سياسة لغوية بالوكالة
Forme linguistique	شكل لغوي
Réforme linguistique	إصلاح لغوي
Plurilinguisme	تعددية لغوية
Plurilinguisme éclatée	تعددية لغوية منفلِشة
Plurilinguisme à langue dominante	تعددية لغوية ذات لغة غالبة وحيدة
Plurilinguisme à langue dominante minoritaire	تعددية ذات لغة غالبة أقلية
Plurilinguisme à langues dominantes minoritaires	تعددية لغوية ذات لغات غالبة أقلية

Plurilingualisme à langue dominante alternative	تعددية لغوية ذات لغة غالبة بديلة	
Plurilinguisme à langues dominantes régionales	تعددية لغوية ذات لغات إقليمية غالبة :	
Signe linguistique	علامة لغوية	
Glottophagie	افتراس اللغات	
Acquisition de la langue	اكتساب لغة	
Adaptation linguistique	تكيُّف لغوي	
Monolingue	أحاديّ اللغة	
Monolinguisme	أحادية لغوية	
Lexème	لفظة مفردة	ل ف ظ
Néologisme spontané	لفظ مولَّد عفوي	
Néologisme programmé	لفظ مولَّد مبرمَج	
Parler	لهجة	ل هـ ج
Patois	لهجة محلية	
Variété dialectale	بديل لهجي	
Dialectalisation	جنوح لَهجي	
Forme dialectale	شكل لهجي	
Alphabétisation	محْو الأميَّة	م ح و
Créole	لغة مزيج	م ز ج
Absorption de la langue	امتصاص اللغة	م ص ص
Langage	ملَكة لسانية	م ل ك
Accent	نبر	ن ب ر
Composition	نحت	ن ح ت

ن ح و	نحو	Grammaire
ن ش ر	نشر / ناشر/ منتشر	Véhiculaire
	لغة نشر	Langue véhiculaire
ن ط ق	نطَق	Prononciation
ن ظ م	نظام	Système
	نظام سيميائي	Système sémiologique
نجلزة	نجلَزة	Anglicisme
هـ	هاء يصحبُها النَّفَس	H aspiré
و ح د	أحادية لغوية	Monolinguisme
	وحدة صوتية (= فونيم = صوتم)	Phonème
و ز ع	توزيع	Distribution
	توزيع وظيفي	Distribution fonctionnelle
و ز ن	وزن	Schéma
و ص ف	صفة	Adjectif
	وصف لغوي	Description linguistique
و ص ل	تواصُل	Communication
	تواصل جنيني	Communication embryonnaire
	لغة تواصُل	Langue de communication
و ط ء	تواطؤ	Convention
و ظ ف	وظيفة	Fonction
	وظيفة رمزية	Fonction symbolique
	وظيفة عملية	Fonction pratique
	علم وظائف الأصوات (= صِواتة)	Phonologie
	المدرسة الوظيفية	Fonctionnalisme

Création programmée	توليد مبرمَج	و ل د
Néologie indigène	توليد داخلي	
Création lexicale néologie lexicale	توليد معجمي	
Création spontanée	توليد عفوي	
Néologisme	مولَّد	
Sémantique générative	علم الدلالة التوليدي	
Ecole générative	مدرسة توليدية	

المراجع

1 ـ العربية

[الجزائري، السيد نعمة الله. **النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين**. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1978].

2 ـ الأجنبية

Books

Agee, Philip. *Journal d'un agent: Dix ans dans la C. I. A. = [Central Intelligence Agency]*. Trad. de l'américain par Alain André, Sylvie Barjanski et Nathalie Savary. Paris: Editions du seuil, 1976. (Collection combats)

Albó, Xavier. *Los mil rostros del quechua: sociolinguïstica de Cochabamba*. Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1974. (Serie Lengua y sociedad; 1)

Alisjahbana, Sutan Takdir. *Language Planning for Modernization: The Case of Indonesian and Malaysian*. The Hague: Mouton, 1976.

Allioni, Miguel [et al.]. *La Vida del pueblo shuar*. Ilustraciones de Tonino Clemente. [Guayaquil?]: Mundo Shuar, [Between 1978 and 1984].

Ampère, Jean-Jacques. *Promenade en Amérique: Etats-Unis, Cuba, Mexique*. Paris: Michel Lévy frères, 1855.

Asgurally, Issa T. *La Situation linguistique de l'île Maurice: Matériaux pour une lamification linguistique dans un contexte post-colonial de multilinguisme et de multiculturalisme*. Paris: [s. n.], 1982. (Thèse 3e cycle: Linguist.: Paris 5: 1982)

Balibar, Renée. *L'Institution du français: Essai sur le colinguisme des Carolingiens à la république*. Paris: Presses universitaires de France, 1985. (Pratiques théoriques; ISSN 0753-6216)

Barthes, Roland. *Mythologies*. Paris: Editions du seuil, 1957.

Baumann, Hermann and Diedrich Westermann. *Les Peuples et les civilisations de l'afrique*. Paris: Payot, 1970.

Benjelloun, Hassan. *Pédagogie des jeunes sourds au Maroc: Cas de Tétouan, problèmes linguistiques*. Lille 3: ANRT, 1987. (Thèse 3e cycle: Linguist.: Paris 5: 1986)

Benveniste, Emile. *Problèmes de linguistique générale*. [Paris]: Gallimard, 1966-1974. 2 vols. (Bibliothèque des sciences humaines)

Bernus, Suzanne. *Particularismes ethniques en milieu urbain, l'exemple de Niamey*. Paris: Musée de l'homme, Institut d'éthnologie, 1969. (Mémoires de l'institut d'ethnologie; 1)

Blachère, Régis. *Introduction au Coran*. 2è édition. Paris: Besson et Chantemerle, 1959.

Brunot, Ferdinand. *Histoire de la langue française, des origines à 1900*. Paris: A. Colin, 1905-.

Tome I: *De L'Epoque latine à la renaissance*, 1905.

Tome II: *Le XVIe siècle*, 1906.

Tome V: *Le Français en France et hors de France au XVIIe siècle*, 1917.

Burney, Pierre. *Les Langues internationales*. 2e édition. Paris: Presses universitaires de France, 1966. (Que sais-je?; 968)

Calvet, Louis-Jean. *Les Langues du marché*. Paris: Université René-Descartes, 1985.

———. *Les Langues véhiculaires*. Paris: Presses universitaires de France, 1981. (Que sais-je?; 1916)

———. *Linguistique et colonialisme: Petit traité de glottophagie*. Paris: Payot, 1974. (Bibliothèque scientifique)

——— [et al.]. *Rapport de mission à Ziguinchor*. Paris: Centre d'études et de planification linguistique, 1985.

———. *La Tradition orale*. Paris: Presses universitaires de France, 1984. (Que sais-je?; 2122)

Le Choc des langues au Québec: 1760-1970. [Textes choisis et présentés par] Guy Bouthillier et Jean Meynaud. Montréal: Les Presses de l'université du Québec, 1972.

Cieza de León, Pedro de. *El Señorío de los Incas; 2a. parte de la Crónica del Perú*. Introd. de Carlos Aranibar. Lima: Instituto de Estudios Peruanos, 1967. (Colección de fuentes e investigaciones para la historia del Perú. Serie: Textos básicos; no. 1)

Cobarrubias, Juan and Joshua A. Fishman (eds.). *Progress in Language Planning: International Perspectives*. Berlin; New York: Mouton Publishers, 1983. (Contributions to the Sociology of Language; 31)

Cohen-Solal, Annie. *Sartre*. Paris: Le Grand livre du mois, 1985. ([Le Grand livre du mois]; ISSN 0768-1763)

Comrie, Bernard. *The Languages of the Soviet Union*. London; New York; Melbourne [etc.]: Cambridge University Press, 1981. (Cambridge Language Surveys)

Contenté, Jean. *L'Aigle des Caraïbes*. Récit recueilli par Robert Vergnes. Paris: R. Laffont, 1978. (Collection vécu)

Coyaud, Maurice. *Questions de grammaire chinoise*. Saint-Sulpice de Favières: Association Jean-Favard pour le développement de la linguistique quantitative; Paris: Dunod, 1969. (Documents de linguistique quantitative; 3)

La Crise des langues. Textes colligés et présentés par Jacques Maurais. [Montréal]: Conseil de la langue française; Paris: Le Robert, 1985. (Collection l'ordre des mots; ISSN 0220-6013)

Dasgupta, Jyotirindra. *Language Conflict and National Development; Group Politics and National Language Policy in India*. Berkeley: University of California Press, 1970.

Delaforge, Francis Pierre Louis Marie (Capitaine). *Grammaire et méthode Bambara...* Paris: Charles-Lavauzelle, [n. d.].

Delafosse, Maurice. *Haut-Sénégal, Niger*. Paris: E. Larose, 1912.

Deniau, Xavier. *La Francophonie*. Paris: Presses universitaires de France, 1983.

Descartes, René. *Oeuvres et lettres*. Textes présentés par André

Bridoux. Paris: N. R. F., 1937. (Bibliothèque de la pléiade; no. 40)

Dorian, Nancy C. *Language Death: The Life Cycle of a Scottish Gaelic Dialect*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1981.

Dominación ideológica y ciencia social: el I. L. V. en México. declaración José Carlos Mariátegui del Colegio de Etnólogos y Antropólogos Sociales, A. C. México: Nueva Lectura, 1979.

Dubly, Alain. *Evaluacion de las Escuelas Radiofonicas de Riobamba, Sucua, y Tabacundo. Informe de Síntesis*. Quito: Instituto Ecuatoriano para el Desarrollo Social, 1973.

Dubois, Jean [et al.]. *Dictionnaire de linguistique*. Paris: Larousse, 1972.

[Duboz, P. *Etude démographique de la ville de Brazzaville, 1974-1977*. Bangui: ORSTOM, 1979].

Escobar, Alberto. *El reto del multilingüismo en el Perú*. [Lima]: Instituto de Estudios Peruanos, 1972.

Estudios acerca de las lenguas huarani (auca), shimigae y zápara. Quito: Tall. Gráf. de Educación, 1959. ([Ecuador] Publicaciones cientiíficas del Ministerio de Educación)

Fasold, Ralph. *The Sociolinguistics of Society*. Oxford; England; New York, NY, USA: B. Blackwell, 1984. (Language in Society; 5)

Federación de Centros Shuar. *Solución original a un problema actual*. recopilación a cargo del Directorio de la Federación Shuar. Sucúa, Ecuador: La Federación, 1976.

Fenaux, Robert. *Discours sur la fonction internationale de la langue française*. Liège: Sciences et lettres, [s. d.].

The Fergusonian Impact: in Honor of Charles A. Ferguson on the Occasion of his 65th Birthday. Edited by Joshua A. Fishman... [et al.]. Berlin; New York: Mouton de Gruyter, 1986. 2 vols. (Contributions to the Sociology of Language; 42)

Vol. 2: *Sociolinguistics and the Sociology of Language*.

Ferrer i Gironès, Francesc. *La Persecució política de la llengua catalana: historia les mesures preses contra el seu ús des de la Nova Planta fins avui. Barcelona: Ed. 62, 1986. (Culturacatalana contemporània; 17)*

Fishman, Joshua A. (ed.). *Advances in the Creation and Revision of Writing Systems.* The Hague: Mouton, [1977].

———. *Sociolinguistics: A Brief Introduction.* Rowley, Mass.: Newbury House, [1970]. (Newbury House Language Series)

Fodor, István and Claude Hagège. *Language Reform: History and Future.* With an Introduction by Joshua A. Fishman. Hamburg: H. Buske, 1983-1990. 5 vols.

Galtier, Gérard. *Problèmes dialectologiques et phonographématiques des parlers mandingues.* [s. l.]: [s. n.], 1980. (Thèse 3e cycle: Paris 7: 1980)

Grandguillaume, Gilbert. *Arabisation et politique linguistique au Maghreb.* Paris: G.-P. Maisonneuve et Larose, 1983. (Islam d'hier et d'aujourd'hui; ISSN 0244-4011; 19)

Guide des mots nouveaux. Commissariat général de la langue française. Réalisé par Loïc Depecker... et Alain Pagès..; préf. de Philippe de Saint Robert. [Paris]: Nathan, 1985.

Guitel, Geneviève. *Histoire comparée des numérations écrites.* Préface de Charles Morazé. Paris: Flammarion, 1975.

Hagège, Claude. *L'Homme de paroles: Contribution linguistique aux sciences humaines.* [Paris]: Fayard, 1985.

Haugen, Einar Ingvald. *Language Conflict and Language Planning; the Case of Modern Norwegian.* Cambridge: Harvard University Press, 1966.

Hvalkof, Søren and Peter Aaby (eds.). *Is God an American?: An Anthropological Perspective on the Missionary Work of the Summer Institute of Linguistics.* Copenhagen: International Work Group for Indigenous Affairs (IWGIA); London: Survival International, 1981. (Document / IWGIA/ Survival International, 0105-4503; 43)

Janton, Pierre. *L'Espéranto.* Paris: Presses universitaires de France, 1973. (Que sais-je?; 1511)

J'cause français, non?. APREF [Association pour la recherche et l'expérimentation sur le fonctionnement du français]; sous la direction de Frédéric François. Paris: Maspero, 1983. (Cahiers libres; 380)

Jespersen, Otto. Nature, *évolution et origines du langage = Language, its Nature, Development and Origin.* Traduit de l'anglais par L. Dahan et A. Hamm; préface d'André

Martinet. Paris: Payot, 1976. (Bibliothèque scientifique)

Koelle, Sigismund Wilhelm. *Outlines of a Grammar of the Vei Language, Together with a Vei-English Vocabulary*. London: Church Missionary House, 1854.

Le Koran. [Traduction précédée d'un abrégé de la vie de Mahomet et accompagnée de notes par Savary]. Paris: Garnier frères, 1958. (Chefs-d'oeuvre étrangers. Classiques garnier)

Language in the USA. Edited by Charles A. Ferguson, Shirley Brice Heath, with the assistance of David Hwang; foreword by Dell H. Hymes. Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

Language Reform: History and Future = La Réforme des langues: Histoire et avenir. With a Preface by Joshua A. Fishman; Edited by István Fodor, Claude Hagège. Hamburg: Buske, 1983-1994. 6 vols.

Lehmann, Winfred Philipp. *Language & Linguistics in the People's Republic of China*. Austin; London: University of Texas Press, 1975.

Leroi-Gourhan, André. *Le Geste et la parole*. Paris: A. Michel, 1964-1965. 2 vols.

Vol. 1: *Techniques et langage*.

Vol. 2: *La Mémoire et les rythmes*.

Lévy-Bruhl, Lucien. *Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures*. 9e édition. [Index par Madeleine Rivet]. Paris: Presses universitaires de France, 1951. (Bibliothèque de philosophie contemporaine)

Lewis, E. Glyn. *Multilingualism in the Soviet Union: Aspects of Language Policy and its Implementation*. The Hague; Paris: Mouton, 1972. (Contributions to the Sociology of Language; 3)

Martinet, André. *Des Steppes aux océans: L'Indo-européen et les «indo-européens»*. Paris: Payot, 1986. (Langages et sociétés)

Marxisme et linguistique: Marx, Engels, Lafargue, Staline. [Textes choisis et présentés] par Louis-Jean Calvet. Paris: Payot, 1977. (Langages et sociétés)

Mashinkiash, Rafael. *La educación entre los Shuar*. Sucúa: Mundo Shuar, [1976].

Meillet, Antoine. *Les Langues dans l'europe nouvelle, avec un*

appendice de L. Tesnière... sur la statistique des langues de l'europe. Paris: Payot, 1928.

Milner, Jean-Claude. *L'Amour de la langue*. Paris: Editions du seuil, 1978. (Connexions du champ freudien; ISSN 0337-1352)

Mistral, Frederic. *Lou trésor dfelibrige: Dictionnaire provençal-français*. Préface de Jean-Claude Bouvier. Aix-en-Provence: Edisud, 1979. 2 vols.

———. *Lou trésor dóu félibrige, ou dictionnaire provencal-français embrassant les divers dialectes de la langue d'oc moderne*...Avec un supplément établi d'après les notes de Jules Ronjat, etc. Troisième édition. [Aix-en-Provence]: Is Edicioun Ramoun Berenguié, 1968. 2 tomes.

Muysken, P. *Pidginization in the Quechua of the Lowlands of Eastern Ecuador*. Amsterdam: Instituto interandino de desarrollo, Universidad de Amsterdam, 1975.

O'Barr, William M. and Jean F. O'Barr (eds.). *Language and Politics*. The Hague; Paris: Mouton, 1976. (Contributions to the Sociology of Language; 10)

Plurilinguisme: Normes, situations, stratégies: Etudes sociolinguistiques. Réunies et présentées par Gabriel Manessy et Paul Wald; [publié par] l'institut d'études et de recherches interethniques et interculturelles... Centre d'étude des plurilinguismes, université de Nice. Paris: L'Harmattan, 1979.

Rojas Rojas, Ibico. *La expansión del quechua: sus primeros contactos con el castellano*. Lima: Ediciones Signo, 1978.

Rubin, Joan [et al.] (ed.). *Language Planning Processes*. The Hague: Mouton, 1977. (Contributions to the Sociology of Language; 21)

Rygaloff, Alexis. *Grammaire élémentaire du chinois*. [Paris]: Presses universitaires de France, 1973. (Collection Sup. Le Linguiste; 14)

Schläpfer, Robert [et al.]. *La Suisse aux quatre langues = Die Viersprachige Schweiz*. Publ. sous la dir. de Robert Schläpfer; adaptation et trad. de l'allemand sous la dir. de Pierre Knecht et Christian Rubattel; préf. de Claude Torracinta. Genève: Editions Zoé, 1985.

Schoell, Franck Louis. *La Langue française dans le monde*. Préface

d'Albert Dauzat. Paris: Bibliothèque du «français moderne», 1936.

Sebeok, Thomas Albert (ed.). *How Animals Communicate.* Bloomington; London: Indiana University Press, 1977.

Swadesh, Maurice. *Le Langage et la vie humaine = El Lenguaje y la vida humana.* Trad. de l'espagnol par Christine de Heredia. Paris: Payot, 1986. (Langages et sociétés; ISSN 0399-8665)

Torero, Alfredo. *El quechua y la historia social andina.* Lima: Universidad Ricardo Palma, Dirección Universitaria de Investigación, 1974.

Winther, A. (ed.). *Problèmes de glottopolitique: Symposium international, Mont-Saint-Aignan, 20-23 septembre 1984.* [Mont-Saint-Aignan]: Publications de l'université de Rouen, 1985. (No. spécial des: «Cahiers de linguistique sociale». 7. 1985)

Yaguello, Marina. *Les Fous du langage: Des Langues imaginaires et de leurs inventeurs.* Paris: Editions du seuil, 1984.

Periodicals

Benveniste, Emile. «Communication animale et langage humain.» *Diogène*: vol. 1, 1966.

Bercis, P. «Les Amers-looks.» *Le Monde*: 10 décembre 1985.

Calvet, Louis-Jean. «Ecoles radiophoniques chez les Shuars,» *Le Monde diplomatique*: no. 336, mars 1982.

———. «Les Jivaros et les megahertz.» *Les Nouvelles littéraire*: 4 septembre 1980.

———. «Le Plurilinguisme à l'école primaire, note sur une enquête à Gaillon (Eure).» *Migrants formation*: no. 63, 1985.

———. «La Route sel/ or et l'expansion du manding.» *Traces*: no. 4, 1980.

———. «Sur une conception fantaisiste de la langue: La Newspeak de Georges Orwell.» *La Linguistique*: no. 1, 1961.

Cheng, Chin Chuan. «Contradictions in Chinese Language Reform.» *International Journal of the Sociology of Language*: vol. 59, 1986.

Dalby, David. «The Indigenous Scripts of West Africa and Surinam: Their Inspiration and Design.» *African Language Studies*: no. 8, 1967.

———. ———. ———: no. 9, 1968.

———. ———. ———: no. 10, 1969.

Ferguson, Charles. «Diglossia.» *Word*: vol. 15, 1959.

Fishman, Joshua A. «Bilingualism with and without Diglossia: Diglossia with and without Bilingualism.» *Journal of Social Issues*: vol. 23, no. 32, 1967.

Frisch, Karl. «Decoding the Language of the Bee.» *Science*: no. 185, 1974.

Gilliam, Angela M. «Language and «Development» in Papua New Guinea.» *Dialectical Anthropology*: vol. 8, no. 4, April 1984.

Goudailler, Jean-Paul. «Sprache and Macht: Wie ein Gesetz in Frankreich die Sprache reinigen will.» *Dialect: Internationale Halbjahresschrift für Mundart und Mundartliteratur*: vol. 6, no. 1, 1982.

Hagège, Claude. «Babel: Du Temps mythique au temps du langage.» *Revue philosophique*: no. 4, octobre-décembre 1978.

Haugen, Einar. «Planning for a Standard Language in Modern Norway.» *Anthropological Linguistics*: vol. 1, no. 3, 1959.

Heath, Shirley Brice. «A National Language Academy? Debate in the New Nation.» *International Journal of the Sociology of Language*: no. 11, 1976.

Knappert, Jan. «The Function of Language in a Political Situation.» *Linguistics*: no. 39, May 1968.

Meillet, Antoine. «Comment les mots changent de sens.» *L'Année sociologique*: 1905-1906.

Schlieben-Lange, Brigitte. «The Language Situation in Southern France.» *Linguistics*: vol. 191, 1977.

Williams, G. «Language Planning or Language Expropriation?.» *Journal of Multilingual and Multicultural Development*: vol. 7, 1986.

Wioland, François et Maurice Calvet. «L'Expansion du wolof au Sénégal.» *Bulletin de L'IFAN* (*Institut fondamental de l'afrique noire*): nos. 3-4, 1967.

Youguang, Zhou. «Modernization of the Chinese Language.» *International Journal of Sociology of Language*: no. 59, 1986.

Conferences

II Congrès Internacional de la Llengua Catalana. Barcelona:

Generalitat de Catalunya, Escola d'Administración Pública de Catalunya, 1987.

Actes du 13ème colloque international de linguistique fonctionnelle. 24-29 août 1986.

Cooper, Robert L. (ed.). *Language Spread: Studies in Diffusion and Social Change*. Bloomington: Indiana University Press; Washington, D. C.: Center for Applied Linguistics, 1982.

Papers from the 8th Regional Meeting. Chicago: Chicago Linguistic Society, 1972.

Thesis

Fernandez-Garay, A. «La Mort des langues, bibliographie critique.» (Memoire de DEA, Paris, universite René Descartes, 1986).

Le Palec, Annie. «Brazzaville: Note sur la situation linguistique de deux quartiers.» (Communication à la V^{e} table ronde de l'AUPELF, Yaoundé, 1981).

Michenot, Elisabeth. «Parler-pouvoir: Etudes des caractéristiques du quechua et des conséquences de la situation de contact avec la langue officielle: Cochabamba, Bolivie.» (Thèse de 3è cycle sous la direction de D. François. Paris: Université René Descartes, 1983.

Sidikou, A. H. «Niamey: Etude de géographie socio-urbaine.» (Thèse pour le doctorat, université de Rouen haute-Normandie, 1980).

الفهرس

ـ ب ـ

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

ـ ط ـ

ـ ع ـ

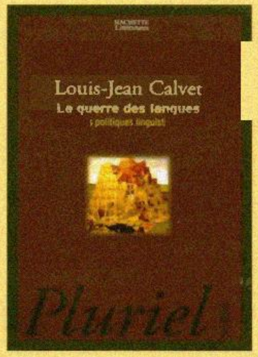
ـ غ ـ

- م -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

حـــرب اللــغـــات والسياسات اللغوية



- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

المنظمة العربية للترجمة

صورة التعدّد اللساني تعود، في اللاوعي، إلى أسطورة بابل، ذلك أن التعددية اللسانية البعيدة عن الفهم، باعتبارها ثراء، هي معيشةٌ على أنها التباس أو خلط بين اللغات، وعلى أنها عقاب إلهي يوقف بناء البرج، وذلك بوضع عراقيل للتواصل بين الشعوب. هذا هو خيال اللسانيين الذين يحاولون إيجاد استعمالٍ للغةٍ وحيدة داخل حدود الدول أو ابتداع لغات كونية اصطناعية.

اعتماداً على تحقيقات ميدانية، وعلى دراسة حالات أفريقية ولاتينو ـ أمريكية وأوروبية وآسيوية، يحلّل المؤلف رهانات السياسات اللسانية ويدعو إلى احترام التنوّع اللساني.

«إذا نجح رجل الدولة...في مراقبة سير اللغة في مرحلة حاسمة، فإنه يضيف إلى سلطته سلطةً أخرى، خفيّة وفاعلة» (كلود حجاج، **إنسان الكلام**).

- **لويس جان كالفي**: أستاذ اللسانيات الاجتماعية في Aix-en-Provence. من مؤلفاته:

La Sociolinguistique (1993), *Les Politiques linguistiques* (1995) et *Pour une écologie des langues du monde* (1999).

- **د. حسن حمزة**: أستاذ في قسم الدراسات العربية في جامعة ليون الثانية. مدير مركز البحث في اللسانيات العربية. تتركّز أبحاثه على اللسانيات العربية، والتراث النحوي العربي، وعلوم المصطلح والترجمة.

الثمن: 14 دولاراً
أو ما يعادلها